بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده :

قال شيخ الإسلام أحمد بن تيمية - قدس الله روحه -

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما .

قاعدة أولية[١] :

إن أصل العلم الإلهي ، ومبدأه ، ودليله الأول ، عند الذين آمنوا : هو الإيمان بالله ورسوله ، وعند الرسول صلى الله عليه وسلم : هو وحي الله إليه ، كما قال

---

(١) بهامشه بخط المؤلف : « تمام هذا : ما كتبته – في مسألة القدر – من مبادئ علوم المتكلمين ، والفلاسفة ، في إثبات الصانع ، وتقرير شريعة الأنبياء ، وأتباعهم ، وما كتبته في مواضع أخر من أول الواجبات : أنها الإيمان ، لا النظر ، ولا مطلق العلم به ، وكذلك بُنيت عقيدة أهل السنة على ذلك ، وذكرت أيضاً قاعدة في الشهادتين : عظيمة القدر » اهـ .

خاتم الأنبياء : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله . فإذا فعلوا ذلك : عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها » .

وقال الله تعالى له : (قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي) وقال : (وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ) وقال : (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ) .

= وقال المؤلف أيضاً : ـ فى حاشية له أخرى على هذه القاعدة ـ « وقال أبو محمد عبد الله بن أحمد الخليدى : فى كتابه « شرح اعتقاد أهل السنة » لأبى على الحسين ابن أحمد الطبرى ، وهذا لعله ممن أدرك أحمد وغيره ، قال الخليدى فى معرفة الله : وهى أول الفرض الذى لايسع المسلم جهله ، ولا تنفعه الطاعة ـ وإن أتى بجميع طاعة أهل الدنيا ـ مالم تكن معه معرفة وتقوى . فالمسلم إذا نظر فى مخلوقات الله تعالى وما خلق من عجائبه ، مثل دوران الليل والنهار ، والشمس والقمر ، وتفكر فى نفسه ، وفى مبدئه ومنتهاه فتزيد معرفته بذلك . قال الله تعالى : (وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « من عرف نفسه عرف ربه » ولسنا نقول : إن الله يعرف بالمخلوقات ، بل المخلوقات كلها تعرف بالله ؛ لكن معرفته تزيد بالنظر فى مخلوقات الله . وسئل عبد الرحمن بن أبى حاتم عن رجل يقول : عرفت الله بالعقل والإلهام ، فقال : من قال عرفت الله بالعقل والإلهام فهو مبتدع ، عرفنا كل شىء بالله .

وسئل ذو النون المصرى : بماذا عرفت ربك ؟ فقال : عرفت ربى بربى ولولا ربى ماعرفت ربى ! . وقال عبد الله بن رواحة :

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

إلى آخره . وكان هذا بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم فلم ينكره عليه ، فدل على صحة قول علمائنا إن الله يعرف بالله ، والأشياء كلها تعرف بالله . هذا آخر كلامه .

وهو متعلق بما قد كتبته هنا ، وبما كتبته فى الجزء الذى بعد هذا فى تحرير أصل =

فأخبر أنه كان قبله من الغافلين . وقال : (وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا) .

وفى صحيح البخارى فى خطبة عمر لما توفى النبى صلى الله عليه وسلم — كلام معناه — أن الله هدى نبيكم بهذا القرآن فاستمسكوا به فإنكم [1] .

وتقرير الحجة فى القرآن بالرسل كثير . كقوله : (لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ) وقوله : (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا) . وقوله : (وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ) إلى قوله : (وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا) الآية . وقوله : (كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ) وقوله : (وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا

= العلم والإيمان ، والفرق بين المنهاج النبوى ، والفلسفى ، وما كتبته فى (شرح قصيدة القدر) من أن أصل المعرفة فطرى ، وذكر الطريقة الكلامية والفلسفية . وقال شيخ الإسلام الأنصارى : فى أول (اعتقاد أهل السنة ، وما وقع عليه إجماع أهل الحق من الأمة) أول مايجب على العبد معرفة الله ، لحديث معاذ لما قال له النبى صلى الله عليه وسلم : إنك تقدم على قوم أهل كتاب ، فليكن أول ماتدعوهم إليه عبادة الله ، فإذا عرفوا الله ـ سبحانه ـ فأخبرهم أن الله افترض عليهم » الحديث رواه مسلم هكذا . ورواه البخارى . قال : فاعلم أن معرفة الله وعبادته والإيمان به إنما يجب ، ويسمع ، ويلزم بالبلاغ ، ويحصل بالتعريف .

قلت : قد روى عن ابن عباس أنه قيل له : بماذا عرفت ربك ؟ فقال : من طلب دينه بالقياس ، لم يزل دهره فى التباس ، ظاعناً فى الاعوجاج ، زائغاً عن المنهاج ، أعرفه بما عرف به نفسه ، وأصفه بما وصف به نفسه . اهـ

(١) بياض بالأصل .

فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ) الآية . وقوله : (يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ) الآية .

ولهذا كان طائفة من أئمة المصنفين للسنن على الأبواب ، إذا جمعوا فيها أصناف العلم : ابتدءوها بأصل العلم والإيمان . كما ابتدأ (البخارى صحيحه) بدء الوحى ونزوله ، فأخبر عن صفة نزول العلم والإيمان على الرسول أولا ، ثم أتبعه بكتاب الإيمان الذى هو الإقرار بما جاء به ، ثم بكتاب العلم الذى هو معرفة ما جاء به ، فرتبه الترتيب الحقيق . وكذلك الإمام أبو محمد الدارمى صاحب (المسند) : ابتدأ كتابه بدلائل النبوة ، وذكر فى ذلك طرفاً صالحاً . وهذان الرجلان : أفضل بكثير من مسلم ، والترمذى ونحوهما ، ولهذا كان أحمد بن حنبل : يعظم هذين ونحوهما ، لأنهم فقهاء فى الحديث أصولا وفروعاً ،

ولما كان أصل العلم والهدى : هو الإيمان بالرسالة المتضمنة للكتاب والحكمة : كان ذكره طريق الهداية بالرسالة — التى هى القرآن ، وما جاءت به الرسل — كثيراً جداً . كقوله : (ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ) وقوله : (هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ) . وقوله : (إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ) وقوله : (وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ * مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ) وقوله : (كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ) وقوله : (فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ) وقوله :

(وَإِنَّكَ لَتَهْدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَٰطِ ٱللَّهِ) وقال تعالى : (وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ) ؟ .

فيعلم أن آيات الله والرسول تمنع [الكفر] ، وهذا كثير .

وكذلك ذكره حصول الهداية ، والفلاح للمؤمنين دون غيرهم ملء القرآن كقوله : (هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ) الآية . ثم ذم الذين كفروا ، والذين نافقوا ، وقوله : (وَٱلْعَصْرِ * إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ) وقوله : (ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ) .

فحكم على النوع كله ، والأمة الإنسانية جميعها ، بالخسارة ، والسفول إلى الغاية ، إلا المؤمنين الصالحين .

وكذلك جعل أهل الجنة هم أهل الإيمان ، وأهل النار هم أهل الكفر ، فيما شاء الله من الآيات ، حتى صار ذلك معلوما علما شائعا ، متواترا ، اضطراريا من دين الرسول عند كل من بلغته رسالته .

وربط السعادة مع إصلاح العمل به فى مثل قوله : (مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً) وقوله : (وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا) .

وأحبط الأعمال الصالحة بزواله ، فى مثل قوله : (وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ) وقوله : (مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ) وقوله :

(مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ) الآية وقوله : (وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا) ونحو ذلك كثير .

وذكر حال جميع الأمم المهتدية أنهم كذلك ، فى قوله : (إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا) الآية .

ولهذا أمر أهل العقل بتدبره ، وأهل السمع بسمعه ، فدعا فيه إلى التدبر ، والتفكير ، والتذكر ، والعقل ، والفهم ، وإلى الاستماع ، والإبصار ، والإصغاء ، والتأثر بالوجل والبكاء وغير ذلك ، وهذا باب واسع .

ولما كان الإقرار بالصانع فطريا — كما قال صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة » الحديث ـ فإن الفطرة تتضمن الإقرار بالله ، والإنابة إليه ، وهو معنى لا إله إلا الله ؛ فإن الإله هو الذى يعرف ويعبد ، وقد بسطت هذا المعنى فى غير هذا الموضع .

وكان المقصود بالدعوة : وصول العباد إلى ما خلقوا له من عبادة ربهم ، وحده لا شريك له ، والعبادة أصلها عبادة القلب ، المستتبع للجوارح ، فإن القلب هو الملك ، والأعضاء جنوده . وهو المضغة التى إذا صلحت صلح لها سائر الجسد ، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد . وإنما ذلك بعلمه ، وحاله كان هذا الأصل الذى هو عبادة الله : بمعرفته ، ومحبته : هو أصل الدعوة فى القرآن . فقال تعالى : (وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) .

وقال فى صدر البقرة — بعد أن صنف الخلق ثلاثة أصناف : مؤمن ، وكافر ، ومنافق — فقال بعد ذلك : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ) وذكر آلاءه التى تتضمن نعمته ، وقدرته ، ثم أتبع ذلك بتقريره النبوة بقوله : (وَإِن كُنتُمۡ فِى رَيۡبٍ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا) .

والمتكلم يستحسن مثل هذا التأليف ، ويستعظمه حيث قررت الربوبية ، ثم الرسالة ، ويظن أن هذا موافق لطريقته الكلامية فى نظره فى القضايا العقليات أولا : من تقرير الربوبية ، ثم تقرير النبوة ، ثم تلقى السمعيات من النبوة كما هى الطريقة المشهورة الكلامية للمعتزلة ، والكرامية ، والكلابية ، والأشعرية . ومن سلك هذه الطريق فى إثبات الصانع أولا ، بناء على حدوث العالم ، ثم إثبات صفاته نفيا وإثباتا بالقياس العقلى — على ما بينهم فيه من اتفاق واختلاف: إما فى المسائل ، وإما فى الدلائل — ثم بعد ذلك يتكلمون فى السمعيات ، من المعاد ، والثواب ، والعقاب ، والخلافة ، والتفضيل ، والإيمان بطريق مجمل .

وإنما عمدة الكلام عندهم ، ومعظمه : هو تلك القضايا التى يسمونها العقليات ، وهى أصول دينهم . وقد بنوها على مقاييس تستلزم رد كثير مما جاءت به السنة ؛ فلحقهم الذم من جهة ضعف المقاييس التى بنوا عليها ، ومن جهة ردهم لما جاءت به السنة .

وهم قسمان : -

قسم بنوا على هذه العقليات القياسية : الأصول العلمية ، دون العملية . كالأشعرية .

وقسم بنوا عليها الأصول العلمية ، والعملية ، كالمعتزلة ، حتى أن هؤلاء يأخذون القدر المشترك فى الأفعال بين الله وبين عباده ، فما حسن من الله حسن من العبد ، وما قبح من العبد قبح من الله ، ولهذا سماهم الناس مشبهة الأفعال .

ولا شك أن هؤلاء هم المتكلمة المذمومون عند السلف لكثرة بنائهم الدين على القياس الفاسد الكلامى ، وردهم لما جاء به الكتاب ، والسنة .

والآخرون لما شاركوهم فى بعض ذلك لحقهم من الذم ، والعيب ، بقدر ما وافقوهم فيه ، وهو موافقتهم فى كثير من دلائلهم ، التى يزعمون أنهم يقررون بها أصول الدين ، والإيمان ، وفى طائفة من مسائلهم التى يخالفون بها السنن والآثار ، وما عليه أهل العقل والدين .

وليس الغرض هنا تفصيل أحوالهم ، فإنا قد كتبنا فيه أشياء فى غير هذا الموضع .

وإنما الغرض هنا أن طريقة القرآن جاءت فى أصول الدين ، وفروعه — فى الدلائل والمسائل — بأكمل المناهج .

والمتكلم يظن أنه بطريقته — التى انفرد بها — قد وافق طريقة القرآن : تارة فى إثبات الربوبية ، وتارة فى إثبات الوحدانية ، وتارة فى إثبات النبوة ، وتارة فى إثبات المعاد ، وهو مخطىء فى كثير من ذلك ، أو أكثره مثل هذا الموضع .

فإنه قد أخطأ المتكلم فى ظنه أن طريقة القرآن توافق طريقته من وجوه .

منها : أن إثبات الصانع فى القرآن بنفس آياته ، التى يستلزم العلم بها العلم به ، كاستلزام العلم بالشعاع العلم بالشمس ، من غير احتياج إلى قياس كلى يقال فيه : وكل محدَث فلابد له من محدِث ؛ أو كل ممكن فلابد له من مرجح ؛ أو كل حركة فلابد لها من علة غائية ، أو فاعلية ؛ ومن غير احتياج إلى أن يقال : سبب الافتقار إلى الصانع هل هو الحدوث فقط — كما تقوله المعتزلة ؟ أو الإمكان — كما يقوله الجمهور ؟ حتى يرتبون عليه أن الثانى حال باقية مفتقرة إلى الصانع ، على القول الثانى الصحيح دون الأول ، فإنى قد بسطت هذا الموضع فى غير هذا المكان ، وبينت ما هو الحق ؛ من أن نفس الذوات المخلوقة مفتقرة إلى الصانع ، وأن فقرها وحاجتها إليه وصف ذاتى لهذه الموجودات المخلوقة ، كما أن الغنى وصف ذاتى للرب الخالق ، وأنه لا علة لهذا الافتقار غير نفس الماهية ، وعين الإنية ، كما أنه لا علة لغناه غير نفس ذاته .

فلك أن تقول: لا علة لفقرها ، وغناه ؛ إذ ليس لكل أمر علة ؛ فكما لا علة لوجوده ، وغناه : لا علة لعدمها إذا لم يشأ كونها ، ولا لفقرها إليه إذا شاء كونها ، وإن شئت أن تقول : علة هذا الفقر ، وهذا الغنى : نفس الذات ، وعين الحقيقة .

ويدل على ذلك أن الإنسان يعلم فقر نفسه ، وحاجتها إلى خالقه ، من غير أن يخطر بباله أنها ممكنة ، والممكن الذى يقبل الوجود ، والعدم ، أو أنها محدثة والمحدث المسبوق بالعدم ؛ بل قد يشك فى قدمها ، أو يعتقده . وهو يعلم فقرها ، وحاجتها إلى بارئها ، فلو لم يكن للفقر إلى الصانع علة إلا الإمكان أو

الحدوث ، لما جاز العلم بالفقر إليه ؛ حتى تعلم هذه العلة ؛ إذ لا دليل عندهم على الحاجة إلى المؤثر إلا هذا .

وحينئذ : فالعلم بنفس الذوات المفتقرة ، والإنيات المضطرة توجب العلم بحاجتها إلى بارئها ، وفقرها إليه ، ولهذا سماها الله آيات . فهذان مقامان :

أحدهما : أنها مفتقرة إلى المؤثر الموجب أو المحدث : لهاتين العلتين .

الثانى : أن كل مفتقر إلى المؤثر : الموجب، أو المُحدِث ، فلابد له منه . وهو كلام صحيح فى نفسه ؛ لكن ليس الطريق مفتقرا إليه ، وفيه طول وعقبات ، تبعد المقصود .

أما المقام الأول : فالعلم بفقرها غير مفتقر إلى دليل على ذلك من إمكان أو حدوث .

وأما الثانى : فإن كونها مفتقرة إليه غير مفتقر إلى أن يستدل عليه بقياس كلى : من أن كل ممكن فلابد له من موجب ، وكل محدَث فلابد له من محدِث لأنها آية له يمتنع أن تكون دونه أو أن تكون غير آية له .

والقلب بفطرته يعلم ذلك ، وإن لم يخطر بقلبه وصف الإمكان والحدوث .

والنكتة : أن وصف الإمكان ، والحدوث ، لا يجب أن يعتبره القلب لا فى فقر ذواتها ، ولا فى أنها آية لباريها ، وإن كانا وصفين ثابتين . وهما أيضا دليل صحيح ، لكن أعيان الممكنات آية لعين خالقها الذى ليس كمثله شىء ؛ بحيث لا يمكن أن يقع شركة فيه .

وأما قولنا كل ممكن فله مرجح ، وكل محدَث فله محدِث : فإنما يدل على محدِث ومرجح ، وهو وصف كلي يقبل الشركة ؛ ولهذا القياس العقلي لا يدل على تعيين وإنما يدل على الكلي المطلق فلابد إذا من التعيين . فالقياس دليل على وصفية مطلقة كلية .

وأيضا فإذا استدل على الصانع بوصف إمكانها ، أو حدوثها أوهما جميعا لم يفتقر ذلك إلى قياس كلي ؛ بأن يقال : وكل محدَث فلابد له من محدِث ، أو كل ممكن فلابد له من مرجح فضلا عن تقرير هاتين المقدمتين ، بل علم القلب بافتقار هذا الممكن ، وهذا المحدَث كعلمه بافتقار هذا الممكن ، وهذا المحدث . فليس العلم بحكم المعينات مستفادا من العلم الكلي الشامل لها ؛ بل قد يكون العلم بحكم المعين في العقل قبل العلم بالحكم الكلي العام . كما أن العلم بأن العشرة ضعف الخمسة : ليس موقوفا على العلم بأن كل عدد له نصفية ، فهو ضعف نصفيه .

وعلى هذا جاء قوله : (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ) ؟ قال جبير ابن مطعم : لما سمعتها أحسست بفؤادي قد تصدع . وهو استفهام إنكار ، يقول أوُجدوا من غير مبدع؟ فهم يعلمون أنهم لم يكونوا من غير مكوِّن ، ويعلمون أنهم لم يكونوا نفوسهم ، وعلمهم بحكم أنفسهم معلوم بالفطرة بنفسه ، لا يحتاج أن يستدل عليه : بأن كل كائن محدث ، أو كل ممكن لا يوجد بنفسه ، ولا يوجد من غير موجِد ، وإن كانت هذه القضية العامة ، النوعية ، صادقة ؛ لكن العلم بتلك المعينة الخاصة ، إن لم يكن سابقا لها فليس متأخرا عنها ؛ ولا دونها في الجلاء .

وقد بسطت هذا المعنى فى غير هذا الموضع ؛ وذكرت دعوة الأنبياء ؛ عليهم السلام ، أنه جاء بالطريق الفطرية كقولهم : (أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ) ؟ وقول موسى : (رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ) وقوله فى القرآن : (ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا) بين أن نفس هذه الذوات آية لله ؛ كما أشرنا إليه أولا من غير حاجة إلى ذينك المقامين ، ولماوبخهم بين حاجتهم إلى الخالق بنفوسهم ؛ من غير أن تحتاج إلى مقدمة كلية : هم فيها وسائر أفرادها سواء ؛ بل هم أوضح .وهذا المعنى قررته مبسوطا فى غير هذا .

الوجه الثانى : فى مفارقة الطريقة القرآنية الكلامية ، ان الله أمر بعبادته التى هى كمال النفوس ، وصلاحها ، وغايتها ، ونهايتها ، لم يقتصر على مجرد الإقرار به ، كما هو غاية الطريقة الكلامية ، فلا وافقوا لا فى الوسائل ، ولا فى المقاصد ، فإن الوسيلة القرآنية قد أشرنا إلى أنها فطرية قريبة ، موصلة إلى عين المقصود ، وتلك قياسية بعيدة ، ولا توصل إلا إلى نوع المقصود ، لا إلى عينه .

وأما المقاصد ، فالقرآن أخبر بالعلم به والعمل له ، فجمع بين قوتى الإنسان العلمية، والعملية : الحسية، والحركية، الإرادية الإدراكية ،والاعتمادية : القولية ، والعملية ، حيث قال : (ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ) فالعبادة لا بد فيها من معرفته ، والإنابة إليه ، والتذلل له ، والافتقار إليه ، وهذا هو المقصود ؛ والطريقة الكلامية ؛ إنما تفيد مجرد الإقرار ، والاعتراف بوجوده .

وهذا إذا حصل من غير عبادة وإنابة : كان وبالا على صاحبه ، وشقاء له ، كما جاء فى الحديث : « أشد الناس عذابا يوم القيامة : عالم لم ينفعه الله بعلمه » كإبليس اللعين ، فإنه معترف بربه ، مقر بوجوده ، لكن لما لم يعبده كان رأس الأشقياء ، وكل من شقى فباتباعه له . كما قال : (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ) .

فلا بد أن يملأ جهنم منه ومن أتباعه ، مع أنه معترف بالرب ، مقر بوجوده وإنما أبى واستكبر عن الطاعة ، والعبادة ، والقوة العلمية مع العملية بمنزلة الفاعل ، والغاية، ولهذا قيل العلم بلا عمل كالشجر بلا ثمر ، والمراد بالعمل هنا عمل القلب الذى هو إنابته إلى الله ، وخشيته له ، حتى يكون عابدا له .

فالرسل والكتب المنزلة : أمرت بهذا وأوجبته ، بل هو رأس الدعوة . ومقصودها ، وأصلها ، والطريقة السماعية ، العملية الصوتية المنحرفة ، توافق على المقصود العملى ، لكن لا بعلم ، بل بصوت مجرد أوبشعر مهيج ، أوبوصف حب مجمل . فكما أن الطريقة الكلامية فيها علم ناقص بلا عمل . فهذه الطريقة فيها عمل ناقص بلا علم . والطريقة النبوية ، القرآنية السنية الجماعية فيها العلم ، والعمل كاملين .

ففاتحة دعوة الرسل : الأمر بالعبادة . قال تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ) وقال صلى الله عليه وسلم : « أمرت أن

أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله » وذلك يتضمن الإقرار به ، وعبادته وحده ، فإن الإله هو المعبود ، ولم يقل حتى يشهدوا أن لا رب إلا الله ، فإن اسم الله أدل على مقصود العبادة له ، التى لها خلق الخلق ، وبها أمروا .

وكذلك قوله لمعاذ : « إنك تأتى قوما من أهل الكتاب ، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله » وقال نوح عليه السلام : (أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ) وكذلك الرسل فى سورة الأعراف وغيرها .

وقال : (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) وقال للرسل جميعاً : (يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ) وقال تعالى : (لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ) وقال : (إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ) وقال : (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ) وقال فى الفاتحة : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) وقال : (فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ) وقال : (فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا) وقال : (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ) .

وقال شيخ الإسلام أحمد بن تيمية قدس الله روحه

فصـــــل (١)

في تمهيد الأوائل، وتقرير الدلائل

وذلك ببيان، وتحرير أصل العلم والإيمان — كما قد كتبته أولا فى بيان أصل العلم الإلهى، والذى أكتبه هنا: — بيـــان الفرق بين المنهاج النبوى، الإيمانى، العلمى، الصلاحى، والمنهاج الصابئ الفلسفى، وما تشعب عنه من المنهاج الكلامى والعبادى، المخالف لسبيل الأنبياء وسنتهم.

وذلك أن الأنبياء عليهم السلام: دعوا الناس إلى عبادة الله أولا بالقلب واللسان، وعبادته متضمنة لمعرفته، وذكره.

فأصل علمهم وعملهم: هو العلم بالله، والعمل لله؛ وذلك فطرى كما قد قررته فى غير هذا الموضع، فى موضعين أو ثلاثة، وبينت أن أصل العلم الإلهى فطرى ضرورى، وأنه أشد رسوخاً فى النفوس من مبدإ العلم الرياضى كقولنا: إن الواحد نصف الاثنين، ومبدأ العلم الطبيعى. كقولنا: إن الجسم

(١) كتب المؤلف رحمه الله قبل كلمة «فصل» ما يأتي: «هذا عظيم القدر جداً».

لا يكون فى مكانين ، لأن هذه المعارف أسماء قد تعرض عنها أكثر الفطر ، وأما العلم الإلهى : فما يتصور أن تعرض عنه فطرة وبسط هذا له موضع غير هذا .

وإنما الغرض هنا : أن الله — سبحانه — لما كان هو الأول الذى خلق الكائنات والآخر الذى إليه تصير الحادثات ؛ فهو الأصل الجامع ؛ فالعلم به أصل كل علم وجامعه ، وذكره أصل كل كلام وجامعه ، والعمل له أصل كل عمل وجامعه . وليس للخلق صلاح إلا فى معرفة ربهم وعبادته . وإذا حصل لهم ذلك : فما سواه إما فضل نافع وإما فضول غير نافعة ؛ وإما أمر مضر .

ثم من العلم به : تتشعب أنواع العلوم ، ومن عبادته وقصده : تتشعب وجوه المقاصد الصالحة ، والقلب بعبادته والاستعانة به : معتصم مستمسك ، قد لجأ إلى ركن وثيق ، واعتصم بالدليل الهادى ، والبرهان الوثيق ؛ فلا يزال إما فى زيادة العلم والإيمان ، وإما فى السلامة عن الجهل والكفر .

وبهذا جاءت النصوص الإلهية ، فى أنه بالإيمان يخرج الناس من الظلمات إلى النور ؛ وضرب مثل المؤمن — وهو المقر بربه علماً ، وعملا — بالحى ، والبصير ، والسميع ، والنور ، والظل .

وضرب مثل الكافر بالميت ، والأعمى ، والأصم ، والظلمة ، والحرور . وقالوا فى الوسواس الخناس : هو الذى إذا ذكر الله خنس ، وإذا غفل عن ذكر الله وسوس .

فتبين بذلك : أن ذكر الله أصل لدفع الوسواس الذى هو مبدأ كل كفر وجهل، وفسق وظلم . وقال الله تعالى : (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ) وقال : (إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) وقال : (وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) ونحو ذلك من النصوص .

وفى الدعاء الذى علمه الامام أحمد لبعض أصحابه : يادليل الحيارى ! دلنى على طريق الصادقين واجعلنى من عبادك الصالحين . ولهذا : كان عامة أهل السنة من أصحابنا وغيرهم على أن الله يسمى دليلا ، ومنع ابن عقيل ، وكثير من أصحاب الأشعرى أن يسمى دليلا ؛ لاعتقادهم أن الدليل هو مايستدل به ، وأن الله هو الدال ، وهذا الذى قالوه بحسب ماغلب فى عرف استعمالهم من الفرق بين الدال ، والدليل . وجوابه من وجهين : —

أحدهما : أن الدليل معدول عن الدال ، وهو ما يؤكد فيه صفة الدلالة ، فكل دليل دال، وليس كل دال دليلا ، وليس هو من أسماء الآلات التى يفعل بها ، فإن فعيل ليس من أبنية الآلات كمفعل ، ومفعال .

وإنما سمى ما يستدل به من الأقوال والأفعال والأجسام أدلة : باعتبار أنها تدل من يستدل بها ، كما يخبر عنها بأنها تهدى ، وترشد ، وتعرف ، وتعلم ، وتقول ، وتجيب ، وتحكم ، وتفتى ، وتقص ، وتشهد ، وإن لم يكن لها فى ذلك قصد وإرادة ، ولا حس وإدراك كما هو مشهور فى الكلام العربى وغيره . فما ذكروه من الفرق والتخصيص : لا أصل له فى كلام العرب .

الثانى : أنه لو كان الدليل من أسماء الآلات التى يفعل بها ، فقد قال الله تعالى فيما روى عنه نبيه فى عبده المحبوب : « فبى يسمع وبى يبصر ، وبى يعقل ، وبى ينطق ، وبى يبطش ، وبى يسعى » والمسلم يقول : استعنت بالله واعتصمت به .

وإذا كان ماسوى الله من الموجودات : الأعيان ، والصفات ، يستدل بها ، سواء كانت حية أو لم تكن ؛ بل ويستدل بالمعدوم ؛ فلأن يستدل بالحى القيوم أولى وأحرى ، على أن الذى فى الدعاء المأثور : « يادليل الحيارى دلنى على طريق الصادقين ، واجعلنى من عبادك الصالحين » : يقتضى أن تسميته دليلا باعتبار أنه دال لعباده ، لا بمجرد أنه يستدل به ، كما قد يستدل بما لا يقصد الدلالة والهداية ، من الأعيان ، والأقوال ، والأفعال .

ومن أسمائه الهادى ، وقد جاء أيضاً البرهان ؛ ولهذا يذكر عن بعضهم أنه قال : عرفت الأشياء بربى ، ولم أعرف ربى بالأشياء . وقال بعضهم هو الدليل لى على كل شىء ؛ وإن كان كل شىء — لئلا يعذبنى — عليه دليلا . وقيل لابن عباس : بماذا عرفت ربك ؟ فقال : من طلب دينه بالقياس : لم يزل دهره فى التباس ، خارجاً عن المنهاج ، ظاعنا فى الاعوجاج : عرفته بما عرف به نفسه ، ووصفته بما وصف به نفسه ؛ فأخبر أن معرفة القلب حصلت بتعريف الله ، وهو نور الإيمان ، وأن وصف اللسان حصل بكلام الله ، وهو نور القرآن .

وقال آخر للشيخ :

قالوا ائتنا ببراهين فقلت لهم أنى يقوم على البرهان برهان؟

وقال الشيخ العارف للمتكلم : اليقين عندنا واردات ترد على النفوس تعجز النفوس عن ردها ، فأجابه : بأنه ضرورى .

وقال الشيخ إسماعيل الكورانى للشيخ المتكلم : أنتم تقولون : إن الله يعرف بالدليل . ونحن نقول: إنه تعرف إلينا فعرفناه : يعنى أنه تعرف بنفسه ، وبفضله. مع أن كلام هذين الشيخين فيه إشارة إلى الطريقة العبادية ، وقد تكلمت عليها فى غير هذا الموضع .

فإذا كان الحق . الحى . القيوم ، الذى هو رب كل شىء ، ومليكه ومؤصل كل أصل ، ومسبب كل سبب وعلة : هو الدليل والبرهان والأول والأصل ، الذى يستدل به العبد ، ويفزع إليه ، ويرد جميع الأواخر إليه فى العلم : كان ذلك سبيل الهدى وطريقه ، كما أن الأعمال والحركات لما كان الله مصدرها ، وإليه مرجعها : كان المتوكل عليه فى عمله ، القائل أنه لا حول ولا قوة إلا بالله مؤيدا منصورا .

فجماع الأمر : أن الله هو الهادى وهو النصير ، ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ . وكل علم فلا بد له من هداية ، وكل عمل فلا بد له من قوة . فالواجب

أن يكون هو أصل كل هداية وعلم ، وأصل كل نصرة وقوة ، ولا يستهدى العبد إلا إياه ، ولا يستنصر إلا إياه .

والعبد لما كان مخلوقا مربوبا ، مفطوراً ، مصنوعا : عاد فى علمه وعمله إلى خالقه ، وفاطره ، وربه ، وصانعه ، فصار ذلك ترتيباً مطابقاً للحق ، وتأليفاً موافقاً للحقيقة ؛ إذ بناء الفرع على الأصل ، وتقديم الأصل على الفرع : هو الحق ، فهذه الطريقة الصحيحة ، الموافقة لفطرة الله وخلقته ولكتابه وسنته .

وقد ثبت فى صحيح مسلم عن عامر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : كان إذا قام إلى صلاة الليل يقول : « اللهم رب جبرائيل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ؛ أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون : اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم » .

وأما الطريقة الفلسفية الكلامية : فإنهم ابتدءوا بنفوسهم ، فجعلوها هى الأصل الذى يفرعون عليه ، والأساس الذى يبنون عليه ، فتكلموا فى إدراكهم للعلم : أنه تارة يكون بالحس ، وتارة بالعقل ، وتارة بهما .

وجعلوا العلوم الحسية ، والبديهية ونحوها : هى الأصل الذى لا يحصل علم إلا بها . ثم زعموا أنهم إنما يدركون بذلك الأمور القريبة منهم ، من الأمور الطبيعية ، والحسابية ، والأخلاق ، فجعلوا هذه الثلاثة هى الأصول

التى يبنون عليها سائر العلوم ؛ ولهذا يمثلون ذلك فى أصول العلم والكلام ، بأن الواحد نصف الاثنين ، وأن الجسم لا يكون فى مكانين ، وأن الضدين ـ كالسواد والبياض ـ لا يجتمعان .

فهذان الفنان متفق عليهما .

وأما الأخلاق مثل : استحسان العلم ، والعدل ، والعفة ، والشجاعة . فجمهور الفلاسفة، والمتكلمين ، يجعلونها من الأصول ؛ لكنها من الأصول العامة ، ومنهم من لا يجعلها من الأصول ؛ بل يجعلها من الفروع . التى تفتقر إلى دليل . وهو قول غالب المتكلمة ، المنتصرين للسنة فى تأويل القدر ، فكان الذى أصلوه ، واتفقوا عليه من المعارف : أمرًا قليل الفائدة . نزر الجدوى ، وهو الأمور السفلية .

ثم إذا صعدوا من هذه المقدمات ، والدلائل إلى الأمور العلوية فلهم طريقان :

أما المتكلمة المتبعون للنبوات : فغرضهم فى الغالب إنما هو إثبات صانع العالم ، والصفات التى بها تثبت النبوة على طريقهم ، ثم إذا أثبتوا النبوة : تلقوا منها السمعيات وهى الكتاب ، والسنة ، والإجماع ، وفروع ذلك .

وأما المتفلسفة : فهم فى الغالب يتوسعون فى الأمور الطبيعية ولوازمها ؛ ثم يصعدون إلى الأفلاك وأحوالها . ثم المتألهون منهم يصعدون إلى واجب

الوجود ، وإلى العقول والنفوس . ومنهم من يثبت واجب الوجود ابتداء من جهة أن الوجود لا بد فيه من واجب .

وهذه الطرق فيها فساد كثير من جهة الوسائل ، والمقاصد : أما المقاصد فإن حاصلها بعد التعب — الكثير ، والسلامة — خير قليل ، فهى لحم جمل غث ، على رأس جبل وعر ، لا سهل فيرتقى ، ولا سمين فينتقل . ثم إنه يفوت بها من المقاصد الواجبة ، والمحمودة ما لا ينضبط هنا .

وأما الوسائل : فإن هذه الطرق كثيرة المقدمات ، ينقطع السالكون فيها كثيرا قبل الوصول ، ومقدماتها فى الغالب إما مشتبهة يقع النزاع فيها ، وإما خفية لا يدركها إلا الأذكياء .

ولهذا لا يتفق منهم اثنان رئيسان على جميع مقدمات دليل إلا نادراً . فكل رئيس من رؤساء الفلاسفة ، والمتكلمين : له طريقة فى الاستدلال ، تخالف طريقة الرئيس الآخر ، بحيث يقدح كل من أتباع أحدهما فى طريقة الآخر ، ويعتقد كل منهما أن الله لا يعرف إلا بطريقته ؛ وإن كان جمهور أهل الملة ، بل عامة السلف يخالفونه فيها .

مثال ذلك : أن غالب المتكلمين يعتقدون أن الله لا يعرف إلا بإثبات حدوث العالم ، ثم الاستدلال بذلك على محدثه ؛ ثم لهم فى إثبات حدوثه طرق : فأكثرهم يستدلون بحدوث الأعراض ؛ وهى صفات الأجسام . ثم القدرية من المعتزلة وغيرهم يعتقدون أن إثبات الصانع ، والنبوة : لا يمكن إلا بعد اعتقاد

أن العبد هو المحدث لأفعاله ، وإلا انتقض الدليل ، ونحو ذلك من الأصول التى يخالفهم فيها جمهور المسلمين .

وجمهور هؤلاء المتكلمين المستدلين على حدوث الأجسام بحدوث الحركات: يجعلون هذا هو الدليل على نفى ما دل عليه ظاهر السمعيات ، من أن الله يجىء ؛ وينزل ونحو ذلك .

والمعتزلة وغيرهم يجعلون هذا هو الدليل على أن الله ليس له صفة ؛ لا علم ولا قدرة ، ولا عزة ، ولا رحمة ، ولا غير ذلك ؛ لأن ذلك بزعمهم أعراض تدل على حدوث الموصوف .

وأكثر المصنفين فى الفلسفة — كابن سينا — يبتدئ بالمنطق ، ثم الطبيعى والرياضى ، أو لا يذكره . ثم ينتقل إلى ما عنده من الإلهى . وتجد المصنفين فى الكلام يبتدئون بمقدماته فى الكلام : فى النظر والعلم . والدليل — وهو من جنس المنطق — ثم ينتقلون إلى حدوث العالم . وإثبات محدثه .

ومنهم من ينتقل إلى تقسيم المعلومات إلى الموجود ، والمعدوم ، وينظر فى الوجود وأقسامه ، كما قد يفعله الفيلسوف فى أول العلم الإلهى .

فأما الأنبياء فأول دعوتهم : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله .

وقد اعترف الغزالى بأن طريق الصوفية هو الغاية ؛ لأنهم يطهرون قلوبهم مما سوى الله ، ويملأونها بذكر الله . وهذا مبدأ دعوة الرسول ؛ لكن الصوفى الذى ليس معه الأثارة النبوية مفصلة ، يستفيد بها إيمانا مجملا ؛ بخلاف صاحب الأثارة النبوية ، فإن المعرفة عنده مفصلة . فتدبر طرق العلم والعمل ؛ ليتميز لك طريق أهل السنة والإيمان من طريق أهل البدعة والنفاق ، وطريق العلم والعرفان ، من طريق الجهل والنكران .

وقال شيخ الإسلام أحمد بن تيمية قدس الله روحه

فصــــل

قد تكلم طائفة من المتكلمة ، والمتفلسفة ، والمتصوفة : فى قيام الممكنات والمحدثات، بالواجب القديم ؛ وهذا المعنى حق ؛ فإن الله رب كل شىء ، ومليكه ؛ لكن يستشهدون على ذلك بقوله : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ ويقولون إن معنى الآية : أن كل ممكن هو باعتبار ذاته هالك ، أو هو عدم محض ، ونفى صرف ، وإنما له الوجود من جهة ربه ، فهو هالك باعتبار ذاته ، موجود بوجه ربه ؛ أى من جهته هو موجود .

ثم منهم من قد يخرج منها إلى مذهب الجهمية ، الاتحادية ، والحلولية ؛ فيقول : إن ذلك الوجه هو وجود الكائنات ، ووجه الله هو وجوده ، فيكون وجوده وجود الكائنات ، لا يميز بين الوجود الواجب ، والوجود الممكن — كما هو قول ابن عربى ، وابن سبعين ونحوهما — وهو لازم لمن جعل وجوده وجودا مطلقا ، لا يتميز بحقيقة تخصه سواء جعله وجودا مطلقا بشرط الإطلاق — كما يزعم ابن سينا ونحوه من المتفلسفة — أو جعله وجودا مطلقا لا بشرط — كما يقوله الاتحادية .

وهم يسلمون من القواعد العقلية ـ مما هو يعلم بضرورة العقل ما يوجب أن يكون الموجود — بشرط الإطلاق — إنما وجوده فى الأذهان لا فى الأعيان كالحيوان المطلق بشرط الإطلاق والإنسان المطلق بشرط الإطلاق ونحو ذلك . وأن المطلق لا بشرط ، ليس له حقيقة ، غير الوجود العينى ، والذهنى ، ليس فى الأعيان الموجودة وجود مطلق ، سوى أعيانها كما ليس فى هذا الإنسان وهذا الإنسان إنسان مطلق وراء هذا الإنسان ؛ فيكون وجود الرب على الأول ذهنى وعلى الثانى نفس وجود المخلوقات .

وقول الجهمية من المتقدمين ، والمتأخرين ، لا يخرج عن هذين القولين ؛ وهو حقيقة التعطيل ؛ لكن هم يثبتونه أيضا . فيجمعون بين النفى والإثبات . فيبقون فى الحيرة ، ولهذا يجعلون الحيرة منتهى المعرفة ، ويروون عن النبي صلى الله عليه وسلم : حديثا مكذوبا عليه « أعلمكم بالله أشدكم حيرة » وأنه قال : « اللهم زدنى فيك تحيرا » ويجمعون بين النقيضين ملتزمين لذلك .

وهذا قول القرامطة الباطنية ، والاتحادية ، وهو لازم لقول الفلاسفة والمعتزلة ، وإن لم يصرح هؤلاء بالتزامه ؛ بخلاف الباطنية ، والاتحادية من المتصوفة . فإنهم يصرحون بالتزامه ، ويذكرون ذلك عن الحلاج .

والمقصود هنا أن يقال : أما كون وجود الخالق هو وجود المخلوق ؛ فهذا كفر صريح باتفاق أهل الإيمان ؛ وهو من أبطل الباطل فى بديهة عقل كل إنسان ؛ وإن كان منتحلوه يزعمون أنه غاية التحقيق والعرفان ، وهذا مبسوط فى غير هذا الموضع .

وأما كون المخلوق لا وجود له ، إلا من الخالق — سبحانه — فهذا حق ثم جميع الكائنات ، هو خالقها ، وربها ، ومليكها ، لا يكون شيء إلا بقدرته ، ومشيئته وخلقه ، هو خالق كل شيء سبحانه وتعالى .

لكن الكلام هنا فى تفسير الآية بهذا ، فإن المعانى : تنقسم إلى حق وباطل .

فالباطل : لا يجوز أن يفسر به كلام الله .

والحق : إن كان هو الذى دل عليه القرآن فسر به ، وإلا فليس كل معنى صحيح يفسر به اللفظ لمجرد مناسبة ، كالمناسبة التى [بين] الرؤيا والتعبير ؛ وإن كانت خارجة عن وجوه دلالة اللفظ ، كما تفعله القرامطة والباطنية ، إذ دلالة اللفظ على المعنى سمعية . فلا بد أن يكون اللفظ مستعملا فى ذلك المعنى بحيث قد دل على المعنى به ، لا يكتفى فى ذلك ، بمجرد أن يصلح وضع اللفظ لذلك المعنى . إذ الألفاظ التى يصلح وضعها للمعانى ولم توضع لها : لا يحصى عددها إلا الله . وهذا عند من يعتبر المناسبة بين اللفظ والمعنى كقول طائفة من أهل الكلام والبيان ، وأما عند من لا يعتبر المناسبة : فكل لفظ يصلح وضعه لكل معنى ؛ لا سيما إذا علم أن اللفظ موضوع لمعنى هو مستعمل فيه ؛ فحمله على غير ذلك لمجرد المناسبة كذب على الله .

ثم إن كان مخالفا لما علم من الشريعة ، فهو دأب القرامطة ؛ وإن لم يكن مخالفا فهو حال كثير من جهال الوعاظ ، والمتصوفة الذين يقولون بإشارات لا يدل اللفظ

عليها نصا ولا قياسا ، وأما أرباب الإشارات الذين يثبتون ما دل اللفظ عليه ، ويجعلون المعنى المشار إليه ، مفهوما من جهة القياس والاعتبار فحالهم كحال الفقهاء العالمين بالقياس ؛ والاعتبار ، وهذا حق إذا كان قياسا صحيحا ، لافاسدا ، واعتبارا مستقيما ، لا منحرفا .

وإذا كان المقصود هنا الكلام فى تفسير الآية فنقول : تفسير الآية بما هو مأثور ومنقول عن من قاله من السلف ، والمفسرين، من أن المعنى كل شىء هالك إلا ما أريد به وجهه . هو أحسن من ذلك التفسير المحدث ؛ بل لا يجوز تفسير الآية بذلك التفسير المحدث ، وهذا يبين بوجوه بعضها يشير إلى الرجحان ، وبعضها يشير إلى البطلان .

الأول : أنه لم يقل كل شىء هالك إلا من جهته ، إلا من وجهه ، ولكن قال إلا وجهه . وهذا يقتضى أن ثم أشياء تهلك إلا وجهه . فإن أريد بوجهه وجوده : اقتضى أن كل ما سوى وجوده هالك ، فيقتضى أن تكون المخلوقات هالكة . وليس الأمر كذلك . وهو أيضا على قول الاتحادية ؛ فإنه عندهم ما ثم إلا وجود واحد فلا يصح أن يقال كل ما سوى وجوده هالك ، إذ ما ثم شىء يخبر عنه بأنه سوى وجوده ، إذ أصل مذهبهم نفى السوى ، والغير فى نفس الأمر .

وهذا يتم بالوجه الثانى : وهو أنه إذا قيل المراد بالهالك الممكن الذى لا وجود له من جهته . فيكون المعنى كل شىء ليس وجوده من نفسه إلا هو .

قيل استعمال لفظ الهالك فى الشىء الموجود المخلوق لأجل أن وجوده من ربه لا من نفسه :لا يعرف فى اللغة لا حقيقة ولا مجازا .

والقرآن قد فرق فى اسم الهلاك بين شيء وشيء . فقال تعالى : (إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ) وقال تعالى : (وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ) وقال تعالى : (وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ) وقال تعالى : (وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ) وقال تعالى : (وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَـٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ) وقال تعالى : (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ) وقال (وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ) وقال : (وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ * قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ) وقال : (وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ) وقالت الملائكة : (إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ) وقال : (أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ * ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْـَٔاخِرِينَ) .

فهذه الآيات : تقتضى أن الهلاك استحالة ، وفساد فى الشيء الموجود ، كما سنبينه ، لا أنه يعنى أنه ليس وجوده من نفسه ، إذ جميع المخلوقات تشترك فى هذا[1] .

الوجه الثالث : أن يقال على هذا التقدير يكون المعنى أن كل ما سواه ممكن قابل للعدم ، ليس وجوده من نفسه ، وهذا المعنى ليس هو الذى يقصدونه ، وإنما مقصودهم أن كل ما سواه فوجوده منه ، وبين المعنيين فرق واضح ، فإن الخبر عن الشيء بأنه ممكن قابل العدم ، ليس وجوده من نفسه غير الخبر عنه ، بأنه موجود وإن وجوده من الله .

---

(١) وبهامشه بخطه : أنهلك ويبقى الصالحون.

الوجه الرابع: أن يقال إذا كان المراد أن كل ما سواه ممكن، والضمير عائد إلى واجب الوجود — إلى الله الذى خلق الكائنات — كان هذا من باب إيضاح الواضح ، فإنه من المعلوم أن كل ما سوى واجب الوجود: فهو ممكن ، وأن كل ما هو مخلوق له فهو ممكن.

الوجه الخامس: أن يقال: اسم الوجه فى الكتاب والسنة ، إنما يذكر فى سياق العبادة له والعمل له ، والتوجه إليه ، فهو مذكور فى تقرير ألوهيته، وعبادته وطاعته لا فى تقرير وحدانية كونه خالقاً ورباً ، وذلك المعنى هو العلة الغائية ، وهذا هو العلة الفاعلية ، والعلة الغائية ، هى المقصودة التى هى أعلى وأشرف بل هى علة فاعلية للعلة الفاعلية ، ولهذا: قدمت فى مثل قوله: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) وفى مثل قوله: (فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ) .وقال تعالى: (وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ * إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ * وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ).

وقال تعالى: (وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا) وقال تعالى: (وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ).

وإذا كان كذلك كان حمل اسم الوجه فى هذه الآية: على مايدل عليه فى سائر الآيات أولى من حمله على ما يدل عليه لفظ الوجه فى شىء من الكتاب والسنة ، بل هذا هو الواجب دون ذاك؛ لأن هذا استعمال للفظ فيما لم يرد به الكتاب ، والكتاب قد ورد بغيره حيث ذكر.

الوجه السادس: أن اسم الهلاك يراد به الفساد ، وخروجه عما يقصد به

ويراد ، وهذا مناسب لما لا يكون لله ، فإنه فاسد لا ينتفع به فى الحقيقة بل هو خارج عما يجب قصده وإرادته . قال تعالى : (وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ) أخبر أنهم يهلكون أنفسهم بنهيهم عن الرسول ، ونأيهم عنه . ومعلوم أن من نأى عن اتباع الرسول ، ونهى غيره عنه — وهو الكافر — فإن هلاكه بكفره هو حصول العذاب المكروه له ، دون النعيم المقصود . وقال تعالى : (إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ) . وقال[1] :

---

(١) بياض بالأصل .

وقال قدس الله روحه :-

فصـــــل

ثم يقال هذا أيضاً يقتضى أن كلا منهما : ليس واجباً بنفسه غنياً قيوما ؛ بل مفتقراً إلى غيره فى ذاته وصفاته ، كما كان مفتقراً إليه فى مفعولاته ، وذلك أنه إذا كان كل منهما مفتقراً إلى الآخر فى مفعولاته ، عاجزاً عن الانفراد بها ، إذ الاشتراك مستلزم لذلك . كما تقدم ؛ فإما أن يكون قابلا للقدرة على الاستقلال بحيث يمكن ذلك فيه ، أو لا يمكن .

والثانى : ممتنع ، لأنه لو امتنع أن يكون الشيء مقدوراً ممكناً لواحد : لامتنع أن يكون مقدوراً ممكناً لاثنين ، فإنَّ حال الشيء فى كونه مقدوراً ممكناً . لا يختلف بتعدد القادر عليه وتوحده فإذا امتنع أن يكون مفعولا مقدوراً لواحد : امتنع أن يكون مفعولا مقدوراً لاثنين ، وإذا جاز أن يكون مفعولا مقدوراً عليه لاثنين وهو ممكن : جاز أن يكون أيضاً لواحد ، وهذا بين إذا كان الإمكان ، والامتناع ، لمعنى فى الممكن ـ المفعول المقدور عليه ـ إذ صفات ذاته ، لا تختلف فى الحال .

وكذلك إذا كان لمعنى فى القادر ، فإن القدرة القائمة باثنين ، لا تمتنع

أن تقوم بواحد ، بل إمكان ذلك : معلوم بديهة العقل ؛ بل من المعلوم بديهة العقل أن الصفات بأسرها من القدرة وغيرها ، كلما كان محلها متحداً مجتمعاً كان أكمل لها من أن يكون متعدداً متفرقاً .

ولهذا كان الاجتماع ، والاشتراك فى الخلق بأن يوجب لها من القوة والقدرة مالا يحصل لها إذا تفرقت وانفردت ، وإن كانت إحداها باقية ، بل الأشخاص والأعضاء وغيرها من الأجسام المتفرقة قد قام بكل منها قدرة ؛ فإذا قدر اتحادها واجتماعها : كانت تلك القدرة أقوى وأكمل ، لأنه حصل لها من الاتحاد والاجتماع : بحسب الإمكان ما لم يكن حين الافتراق والتعداد .

وهذا يبين أن القدرة القائمة باثنين — إذا قدر أن ذينك الاثنين كانا شيئاً واحداً — تكون القدرة أكمل ، فكيف لا تكون مساوية للقدرة القائمة بمحلين؟ وإذا كان من المعلوم أن المحلين المتباينين الذين قام بهما قدرتان ، إذا قدر أنهما محل واحد ، وأن القدرتين قامتا به لم تنقص القدرة بذلك بل تزيد : علم أن المفعول الممكن المقدور عليه لقادرين منفصلين - إذا قدر أنهما بعينهما - قادر واحد قد قام به ما قام بهما : لم ينقص بذلك بل يزيد ، فعلم أنه يمكن أن يكون كل منهما : قابلا للقدرة على الاستقلال ، وأن ذلك ممكن فيه .

فتبين أنه من الممكن فى المشتركين على المفعول الواحد أن يكون كل منهما قادراً عليه ، بل من الممكن أن يكونا شيئاً واحداً قادراً عليه ، فتبين أن كلا منهما يمكن أن يكون أكمل مما هو عليه ، وأن يكون بصفة أخرى .

إذا كان يمكن فى كل منهما أن تتغير ذاته ، وصفاته .

ومعلوم أنه هو لا يمكن أن يكمل نفسه وحده ، ويغيرها إذ التقدير أنه عاجز عن الانفراد بمفعول منفصل عنه ، فأن يكون عاجزاً عن تكميل نفسه وتغييرها أولى ؟ .

وإذا كان هذا يمكن أن يتغير ويكمل ، وهو لا يمكنه ذلك بنفسه لم يكن واجب الوجود بنفسه ، بل يكون فيه إمكان وافتقار إلى غيره ، والتقدير أنه واجب الوجود بنفسه [غير واجب الوجود بنفسه] فيكون واجباً ممكناً .

وهذا تناقض إذ ما كان واجب الوجود بنفسه تكون نفسه كافية فى حقيقة ذاته وصفاته ، لايكون فى شىء من ذاته وصفاته مفتقراً إلى غيره ؛ إذ ذلك كله داخل فى مسمى ذاته ، بل ويجب أن لا يكون مفتقراً إلى غيره فى شىء من أفعاله ومفعولاته .

فإن أفعاله القائمة به داخلة فى مسمى نفسه ، وافتقاره إلى غيره فى بعض المفعولات : يوجب افتقاره فى فعله ، وصفته القائمة به ؛ إذ مفعوله صدر عن ذلك ، فلو كانت ذاته كاملة غنية : لم تفتقر إلى غيره فى فعلها ؛ فافتقاره إلى غيره بوجه من الوجوه : دليل عدم غناه ، وعلى حاجته إلى الغير ، وذلك هو الإمكان المناقض لكونه واجب الوجود بنفسه .

ولهذا لما كان وجوب الوجود : من خصائص رب العالمين ، والغنى عن الغير من خصائص رب العالمين : كان الاستقلال بالفعل من خصائص

رب العالمين ، وكان التنزه عن شريك فى الفعل والمفعول من خصائص رب العالمين، فليس فى المخلوقات ماهو مستقل بشيء من المفعولات وليس فيها ماهو وحده علة قائمة ، وليس فيها ما هو مستغنياً عن الشريك فى شيء من المفعولات ، بل لا يكون فى العالم شيء موجود عن بعض الأسباب ، إلا بمشاركة سبب آخر له .

فيكون ـ وإن سمى علة ـ علة مقتضية سببية ؛ لا علة تامة ، ويكون كل منهما شرطا للآخر ؛ كما أنه ليس فى العالم سبب إلا وله مانع يمنعه من الفعل ، فكل ما فى المخلوق ـ مما يسمى علة أو سببا ، أو قادراً ، أو فاعلا ، أو مدبرا ـ فله شريك هو له كالشرط، وله معارض هو له مانع وضد، وقد قال سبحانه: (وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ) والزوج يراد به النظير المماثل ، والضد المخالف ، وهو الند .

فما من مخلوق إلا له شريك ، وند .

والرب سبحانه وحده هو الذى لا شريك له ، ولا ند ، بل ما شاء كان وما لم يشاء لم يكن .

ولهذا لا يستحق غيره أن يسمى خالقا ، ولا ربا مطلقا ، ونحو ذلك ؛ لأن ذلك يقتضى الاستقلال ، والانفراد بالمفعول المصنوع ، وليس ذلك إلا لله وحده ؛ ولهذا ـ وإن نازع بعض الناس : فى كون العلة تكون ذات أوصاف ، وادعى أن العلة لا تكون إلا ذات وصف واحد ـ فإن أكثر الناس خالفوا فى ذلك ، وقالوا : يجوز أن تكون ذات أوصاف ، بل قيل لا تكون فى المخلوق

علة ذات وصف واحد أو ليس فى المخلوق ما يكون وحده علة ، ولا يكون فى المخلوق علة ، إلا ما كان مركبا من أمرين فصاعدا .

فليس فى المخلوق واحد يصدر عنه شيء ، فضلا عن أن يقال : الواحد لا يصدر عنه إلا واحد ؛ بل لا يصدر من المخلوق شيء : إلا عن اثنين فصاعدا ، وأما الواحد الذى يفعل وحده فليس إلا الله .

فكما أن الوحدانية واجبة له لازمة له : فالمشاركة واجبة للمخلوق لازمة له والوحدانية مستلزمة للكمال ، والكمال مستلزم لها ، والاشتراك مستلزم للنقصان ، والنقصان مستلزم له .

وكذلك الوحدانية مستلزمة للغنى عن الغير : والقيام بنفسه ، ووجوبه بنفسه ، وهذه الأمور ـ من الغنى ، والوجوب بالنفس والقيام بالنفس ـ مستلزمة للوحدانية ؛ والمشاركة مستلزمة للفقر إلى الغير ، والإمكان بالنفس ، وعدم القيام بالنفس .

وكذلك الفقر والإمكان وعدم القيام بالنفس مستلزم للاشتراك ، وهذه وأمثالها من دلائل توحيد الربوبية وأعلامها ، وهى من دلائل إمكان المخلوقات المشهودات ، وفقرها وأنها من بدئه ، فهى من أدلة إثبات الصانع ؛ لأن ما فيها من الافتراق والتعداد ، والاشتراك : يوجب افتقارها وإمكانها ؛ والممكن المفتقر لابد له من واجب غنى بنفسه ، وإلا لم يوجد .

ولو فرض تسلسل الممكنات المفتقرات فهى بمجموعها ممكنة . والممكن قد علم

بالاضطرار أنه يفتقر فى وجوده إلى غيره ، فكل ما يعلم أنه ممكن فقـير فإنه يعلم أنه فقير أيضا فى وجوده إلى غيره ، فلابد [من]غنى بنفسه واجب الوجود بنفسه والإ لم يوجد ما هو فقير ممكن بحال .

وهذه المعانى تدل على توحيد الربوبية ، وعلى توحيد الإلهية وهو التوحيد الواجب الكامل ، الذى جاء به القرآن ؛ لوجوه :

قد ذكرنا منها ما ذكرنا فى غير هذا الموضع ، مثل أن المتحركات لابد لها من حركة إرادية ، ولابد للإرادة من مراد لنفسه ، وذلك هو الإله ، والمخلوق يمتنع أن يكون مرادا لنفسه ، كما يمتنع أن يكون فاعـلا لنفسه ؛ فإذا امتنع أن يكون فاعلان بأنفسهما امتنع أن يكون مرادان بأنفسهما .

وأيضا فالإله الذى هو المـراد لنفسه — إن لم يكن ربا — امتنع أن يكون معبوداً لنفسه، ومن لا يكون ربا خالقا لا يكون مدعوا مطلوبا منه،مراداً لغيره؛ فلأن لا يكون معبودا مرادا لنفسه [من باب الأولى] فإثبات الإلهية يوجب إثبات الربوبية ، ونفى الربوبية يوجب نفى الإلهية ؛ إذ الإلهية هى الغاية ، وهى مستلزمة للبداية كاستلزام العلة الغائية للفاعلية .

وكل واحد من وحدانية الربوبية ، والإلهية — وإن كان معلوما بالفطرة الضرورية البديهية ، وبالشرعية النبوية الإلهية ـ فهو أيضا معلوم بالأمثال الضرورية ، التى هى المقاييس العقلية .

لـكن المتكلمون إنما انتصبوا لإقامة المقاييس العقلية على توحيد الربوبية ،

وهـذاىما لم ينازع فى أصله أحد من بنى آدم ، وإنما نازعوا فى بعض تفاصيله ، كنزاع المجوس والثنوية والطبيعية والقدرية ، وأمثالهم من ضـلال المتفلسفة ، والمعتزلة ، ومن يدخل فيهم ، وأما توحيد الإلهية فهو الشرك العام الغالب ، الذى دخل من أقر أنه لا خالق إلا الله ، ولا رب غيره من أصناف المشركين . كما قال تعالى : (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ) كما قد بسطنا هـذا فى غـير هذا الموضع . ؟ .

وقال شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رحمه الله :

فصـــــل

قاعـــدة :

قد كتبت ما يتعلق بها فى الكراس الذى قبل هذا .

أصل الإثبات والنفى ، والحب والبغض : هو شعور النفس بالوجود والعدم والملاءمة والمنافرة . فإذا شعرت بثبوت ذات شىء ، أو صفاته : اعتقدت ثبوته ، وصدقت بذلك . ثم إن كانت صفات كمال اعتقدت إجلاله وإكرامه صدقت ومدحته ، وأثنت عليه .

وإذا شعرت بانتفائه ، أو انتفاء صفات الكمال عنه : اعتقدت انتفاء ذلك .

وإن لم تشعر لا بثبوت ، ولا انتفاء : لم تعتقد واحدا منهما ، ولم تصدق ولم تكذب ، وربما اعتقدت الانتفاء إذا لم تشعر بالثبوت ، وإن لم تشعر أيضاً بالعدم .

وبين الشعور بالعدم ، وعدم الشعور بالوجود فرقان بين ، وهى منزلة الجهل الذى يؤتى منها أكثر الناس الذين يكذبون بما لم يحيطوا بعلمه ، والذى من جهل شيئاً عاداه .

ثم إذا اعتقدت الانتفاء كذبت بالثبوت ، وذمته ، وطعنت فيه ؛ هذا إذا كان ما استشعرت وجوده أو عدمه محموداً ، وأما إن كان مذموما : كان الأمر بالعكس . وكذلك إذا شعرت بما يلائمها أحبته وأرادته ، وإن شعرت بما ينافيها أبغضته وكرهته ، وإن لم تشعر بواحد منهما ، أو شعرت بما ليس بملائم ولا مناف : فلا محبة ولا بغضة ؛ وربما أبغضت . مالم يكن منافياً إذ لم يكن ملائماً .

وبين الشعور بالمنافى ، وعدم الشعور بالملائم : فرق بين ؛ لكن هذا محمود فإن ما لم يلائم الإنسان : فلا فائدة له فيه ، ولا منفعة فيكون الميل إليه من باب العبث ، والمضرة .

فينبغى الإعراض عنه . لأنه لا فائدة فيه ، وما لا فائدة [فيه] فالميل إليه مضرة ، ثم يتبع الحب للشخص ؛ أو العمل : الصلاة عليه ، والثناء عليه . كما يتبع البغض : اللعنة له ، والطعن عليه . وما لم يكن محبوباً . ولا مبغضاً . لا يتبعه ثناء ولا دعاء ، ولا طعن [ولا لعن] .

ولما كان فى نفس الأمر وجود محبوب مألوه : كان أصل السعادة ، الإيمان بذلك ، وأصل الإيمان : قول القلب الذى هو التصديق ، وعمل القلب الذى هو المحبة على سبيل الخضوع ، إذ لا ملاءمة لأرواح العباد: أتم من ملاءمة إلهها الذى هو الله الذى لا إله إلا هو .

ولما كان الإيمان جامعاً لهذين المعنيين ، وكان تعبير من عبر عنه بمجرد

التصديق ناقصاً ، قاصراً : انقسم الأمة إلى ثلاث فرق : —

فالجامعون حققوا كلا معنيه ، من القول التصديق ، والعمل الإرادى . وفريقان فقدوا أحد المعنيين :

فالكلاميون : غالب نظرهم . وقولهم فى الثبوت ، والانتفاء والوجود والعدم والقضايا التصديقية ، فغايتهم مجرد التصديق والعلم والخبر .

والصوفيون : غالب طلبهم وعملهم فى المحبة ، والبغضة ، والإرادة ، والكراهة ، والحركات العملية ، فغايتهم المحبة والانقياد والعمل والإرادة .

وأما أهل العلم والإيمان : فجامعون بين الأمرين ، بين التصديق العلمى ، والعمل الحُبى . ثم إن تصديقهم عن علم ، وعملهم وحبهم عن علم ، فسلموا من آفتى منحرفة المتكلمة ، والمتصوفة ، وحصلوا ما فات كل واحدة منهما من النقص ، فإن كلا من المنحرفين له مفسدتان :

إحداهما : القول بلا علم — إن كان متكلما — والعمل بلا علم — إن كان متصوفاً — وهو ما وقع من البدع الكلامية ، والعملية ، المخالفة للكتاب ، والسنة .

والثانى : فوَّت المتكلم العمل . وفوَّتَ المتصوف القول والكلام .

وأهل السنة الباطنة والظاهرة : كان كلامهم وعملهم باطناً وظاهراً بعلم ، وكان كل واحد من قولهم وعملهم مقرونا بالآخر . وهؤلاء هم المسلمون حقاً ،

الباقون على الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين .

فإن منحرفة أهل الكلام فيهم شبه اليهود ، ومنحرفة أهل التصوف فيهم شبه النصارى ، ولهذا غلب على الأولين جانب الحروف وما يدل عليه من العلم ، والاعتقاد . وعلى الآخرين جانب الأصوات ، وما يثيره من الوجد ، والحركة .

ومن تمام ذلك أن الله أمر نبيه ، أن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة ، والموعظة الحسنة ، ويجادلهم بالتى هى أحسن .

وهذه الطرق الثلاثة : هى النافعة فى العلم ، والعمل وتشبه ما يذكره أهل المنطق من البرهان والخطابة ، والجدل . بقى الشعر والسفسطة — التى هى الكذب المموه — فنفى الله ذلك بقوله : (هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ * وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ) إلى آخر السورة ، فذكر الأفاكين ، وهم المسفسطون ، وذكر الشعراء .

وكذلك أبو بكر الصديق قال لعمر بن الخطاب لما قال له : يا خليفة رسول الله ، تألف الناس ، فأخذ بلحيته وقال : يا ابن الخطاب أجباراً فى الجاهلية خواراً فى الإسلام ، علام أتألفهم ؟ أعلى حديث مفترى ، أم على شعر مفتعل ؟ فذكر الحديث المفترى ، والشعر المفتعل ، كما ذكر الله الأفاكين ، والشعراء ، وكان الإفك فى القوة الخبرية . والشعر فى القوة العملية الطلبية ، فتلك ضلال وهذه غواية .

ولهذا : يقترن أحدهما بالآخر كثيراً فى مثل المليين من الرهبان ، وفاسدى الفقراء وغيرهم ، ثم لما كان الشعر مستفادا من الشعور — فهو يفيد إشعار النفس بما يحركها ، وإن لم يكن صدقا ؛ بل يورث محبة ، أو نفرة أو رغبةأو رهبة؛ لما فيه من التخييل ، وهذا خاصة الشعر — فلذلك وصفهم بأنهم يتبعهم الغاوون .

والغى اتباع الشهوات ؛ لأنه يحرك الناس حركة الشهوة ، والنفرة والفرح ، والحزن بلا علم ، وهذا هو الغى ؛ بخلاف الإفك ، فإن فيه إضلالا فى العلم بحيث يوجب اعتقاد الشىء ، على خلاف ما هو به . وإذا كانت النفس تتحرك تارة عن تصديق وإيمان ، وتارة عن شعر . والثانى مذموم إلا ما استثنى منه قال تعالى : (وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ) فالذكر خلاف الشعر ، فإنه حق وعلم ، يذكره القلب ، وذاك شعر يحرك النفس فقط .

ولهذا غلب على منحرفة المتصوفة ، الاعتياض بسماع القصائد والأشعار ، عن سماع القرآن والذكر ، فإنه يعطيهم مجرد حركة حب أو غيره ، من غير أن يكون ذلك تابعاً لعلم وتصديق ؛ ولهذا يؤثره من يؤثره على سماع القرآن ، ويعتل بأن القرآن حق نزل من حق ، والنفوس تحب الباطل ؛ وذلك لأن القول الصدق والحق : يعطى علماً واعتقاداً بجملة القلب ، والنفوس المبطلة لا تحب الحق .

ولهذا أثره باطل ، يتفشى من النفس ، فإنه فرع لا أصل له ؛ ولكن له تأثير فى النفس من جهة التحريك ، والإزعاج والتأثير . لا من جهة التصديق والعلم ،

والمعرفة ، ولهذا يسمون القول حادياً لأنه يحدوا النفوس ، أى يبعثها ، ويسوقها كما يحدو حادى العيس .

وأما الحكمة والموعظة الحسنة ، والجدل الأحسن ، فإنه يعطى التصديق والعمل ، فهو نافع منفعة عظيمة .

وإنما قلت : إن هذه الثلاثة تشبه من بعض الوجوه الأقيسة الثلاثة ، التى هى : البرهانية ، والخطابية ، والجدلية ، وليست هى ، بل أكمل من وجوه كثيرة لوجوه : —

أحدها : أن التى فى القرآن تجمع نوعى : العلم ، والعمل ، الخبر والطلب على أكمل الوجوه ، بخلاف الأقيسة المنطقية .

وذلك أن القياس العقلى ، المنطقى : إنما فائدته مجرد التصديق فى القضايا الخبرية ، سواء تبع ذلك عمل أو لم يتبعه ، فإن كانت مواد القياس يقينية : كان برهاناً ، سواء كانت مشهورة ، أو مسلمة ، أو لم تكن ، وهو يفيد اليقين وإن كانت مشهورة ، أو مقبولة سمى خطابة ، سواء كانت يقينية أو لم تكن ، وذلك يفيـــد الاعتقاد والتصديق الذى هو بين اليقين والظن ، ليس أنه يفيد الظن دون اليقين ، إذ ليس فى كونها مشهورة ما يمنـع أن تكون يقينية مفيدة لليقين .

وفرق بين مالا يجب أن يفيـد اليقين ، وما يمنع إفادة اليقين . فالمشهورة من حيث هى مشهورة : تفيد التصديق ، والإقناع ، والاعتقاد. ثم إن عرف أنها

يقينية أفادت اليقين أيضاً . وإن عرف أنها غير يقينية لم تفد إلا الظن ؛ وإن لم تشعر النفس بواحد منهما : بقى اعتقاداً مجرداً ، لا يثبت له اليقين ، ولا ينفى عنه .

وأما الحكمة فى القرآن : فهى معرفة الحق وقوله والعمل به ، كما كتبت تفسيرها فى غير هذا الموضع .

والموعظة الحسنة : تجمع التصديق بالخبر والطاعة للأمر ؛ ولهذا يجىء الوعظ فى القرآن مراداً به الأمر والنهى بترغيب وترهيب . كقوله : (وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ) وقوله : (يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ) وقوله : (فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً) أى يتعظون بها ، فينتبهون ، وينزجرون .

وكذلك الجدل الأحسن : يجمع الجدل للتصديق ، وللطاعة .

الوجه الثانى : — ويمكن أن يقسم هذا إلى وجه آخر — بأن يقال : — الناس ثلاثة أقسام : إما أن يعترف بالحق ويتبعه ، فهذا صاحب الحكمة ؛ وإما أن يعترف به ؛ لكن لا يعمل به ، فهذا يوعظ حتى يعمل ؛ وإما أن لا يعترف به ، فهذا يجادل بالتى هى أحسن لأن الجدال فى مظنة الإغضاب ، فإذا كان بالتى هى أحسن : حصلت منفعته بغاية الإمكان ، كدفع الصائل .

الوجه الثالث : أن كلام الله لا يشتمل إلا على حق يقين ؛ لا يشتمل على ما تمتاز به الخطابة والجدل عن البرهان : بكون المقدمة مشهورة ، أو مسلمة غير

يقينية ، بل إذا ضرب الله مثلا مشتملا على مقدمة مشهورة ، أو مسلمة ، فلابد وأن تكون يقينية. فأما الاكتفاء بمجرد تسليم المنازع من غير أن تكون المقدمة صادقة، أو بمجرد كونها مشهورة ، وإن لم تكن صادقة فمثل هذه المقدمة لا يشتمل عليها كلام الله ، الذى كله حق وصدق ، وهو أصدق الكلام ،وأحسن الحديث .

فصاحب الحكمة : يدعى بالمقدمات الصادقة ، سواء كانت مشهورة أو مسلمة أو لم تكن ، لما فيه من إدراك الدق ، واتباع الحق .

وصاحب الموعظة : يدعى من المقدمات الصادقة بالمشهورة ، لأنه قد لا يفهم الخفية من الحق ، ولا ينازع فى المشهورة .

وصاحب الجدل : يدعى بما يسلمه من المقدمات الصادقة ، مشهورة كانت أو لم تكن ، إذ قد لا ينقاد إلى ما لا يسلمه ، سواء كان جلياً أو خفياً ، وينقاد لما يسلمه ، سواء كان جلياً أو خفياً ، فهذا هذا .

وليس الأمر كما يتوهمه الجهال ، الضلال ، من الكفار المتفلسفة ، وبعض المتكلمة ، من كون القرآن جاء بالطريقة الخطابية ، وعرى عن البرهانية ، أو اشتمل على قليل منها بل جميع ما اشتمل عليه القرآن هو الطريقة البرهانية ، وتكون تارة خطابية ، وتارة جدلية مع كونها برهانية .

والأقيسة العقلية — التى اشتمل عليها القرآن — هى الغاية فى دعوة الخلق إلى الله ، كما قال : (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ) فى أول سبحان وآخرها ، وسورة الكهف ، والمثل هو القياس ؛ ولهذا اشتمل القرآن

على خلاصة الطرق الصحيحة ، التى توجد فى كلام جميع العقلاء ، من المتكلمة ، والمتفلسفة ، وغيرهم . ونزه الله عما يوجد فى كلامهم ؛ من الطرق الفاسدة ويوجد فيه من الطرق الصحيحة ما لا يوجد فى كلام البشر بحال .

الوجه الرابع : أن هنا نكتة ينبغى التفطن لها ، فإنها نافعة ، وذلك أن المقدمة المذكورة فى القياس الذى هو مثل لها وصف ذاتى ، ووصف إضافى :

فالوصف الذاتى لها : أن تكون مطابقة . فتكون صدقا ، أو لا تكون مطابقة فتكون كذبا ، وجميع المقدمات المذكورة فى أمثال القرآن هى صدق ، والحمد لله رب العالمين .

وأما الوصف الإضافى : فكونها معلومة عند زيد ، أو مظنونة ، أومسلمة أو غير مسلمة : فهذا أمر لا ينضبط . فرب مقدمة هى يقينية عند شخص قد علمها وهى مجهولة ، فضلا عن أن تكون مظنونة عند من لم يعلمها ، فكون المقدمة يقينية ، أو غير يقينية ، أو مشهورة ، أو غير مشهورة ، أو مسلمة أو غير مسلمة أمور نسبية وإضافية لها ، تعرض بحسب شعور الإنسان بها .

ولهذا تنقلب المظنونة ؛ بل المجهولة فى حقه يقينية معلومة ، والممنوعة مسلمة ؛ بل والمسلمة ممنوعة . والقرآن كلام الله الذى أنذر به جميع الخلق ، لم يخاطب به واحدا بعينه حتى يخاطب بما هو عنده يقينى من المقدمات ، أو مشهور ، أو مسلم .

فمقدمات الأمثال فيه : اعتبر فيها الصفة الذاتية وهى كونها صدقا ، وحقا

يجب قبوله ، وأما جهة التصديق : فتتعدد وتتنوع إذ قد يكون لهذا من طرق التصديق بتلك المقدمة ما ليس لعمرو، مثل أن يكون هذا يعلمها بالإحساس والروية، وهذا يعلمها بالسماع والتواتر كآيات الرسول وقصة أهل الفيل، وغير ذلك .

فما كان جهة تصديقه عاما للناس : أمكن ذكره جهة التصديق به ، كآيات الربوبية المعلومة بالإحساس دائماً . وما كان جهة تصديقه متنوعا : أحيل كل قوم على الطريق التى يصدقون بها .

وقد يقال فى مثل هذا : (ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ) . فإن مخاطبة المعين : قد يعلم بها ما هو عنده يقينى أو مشهور من اليقين : أو مسلم منه .

وبهذا يتبين لك أن تقسيم المنطقيين لمقدمات القياس : إلى المستيقن والمشهور والمسلم : ليس ذلك وصفا لازما للقضية ، بل هو بحسب ما اتفق للمصدق بها ، وربما انقلب الأمر عنده ، ويظهر لك من هذا أنما يشهدون عليه أنه ليس بيقينى ، أو ليس مشهوراً ، وليس بمسلم ، ليست الشهادة صحيحة . إذ سلب ذلك إنما يصح فى حق قوم معينين ، لا فى حق جميع البشر .

وكذلك الشهادة عليه بأنه يقينى ، أو مشهور ، أو مسلم ، إنما هو فى حق من ثبت له هذا الوصف .

وأيضاً القياس حق ثابت لا يتبدل ، وما يقوله هؤلاء يتغير ، ويتبدل ،

ولا يستمر ، اللهم إلا فى الأمور التى قضت سنة الله باشتراك الناس فيها ، من الحسابيات ، والطبيعيات .

وهذان الفنان ليسا مقصود الدعوة النبوية . ولا معرفتهما شرطا فى السعادة ، ولا محصلالها ، وإنما المقصود الفن الإلهى . ومقدمات القياس فيه : هى من القسم الأول ، الذى تختلف فيه أحكام المقدمات ، بالنسب ، والإضافة . فتدبر هذا فإنه خالص نافع عظيم القدر .

يوضح هذا الفصل أن القرآن — وإن كان كلام الله — فإن الله أضافه إلى الرسول ، المبلغ له من الملك ، والبشر ، فأضافه إلى الملك فى قوله : (فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ * ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ) إلى قوله : (إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ * ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ * مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ) فهذا جبرائيل . فإن هذه صفاته ، لا صفات محمد صلى الله عليه وسلم .

ثم قال : (وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ) أضافه إلينا ، امتنانا علينا بأنه صاحبنا ، كما قال : (وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ) . (وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ * وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ) فهو محمد . أى بمتهم ، وعلى القراءة الأخرى : ببخيل .

وزعم بعض المتفلسفة أنه جبرائيل أيضا . وهو العقل الفاعل الفائض ، وهو من تحريف الكلم عن مواضعه ، فإن صفات جبرائيل تقدمت ، وإنما هذا وصف محمد . ثم قال : (وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ) لما أثبت أنه قول

الملك : نفى أن يكون قول الشيطان . كما قال فى الشعراء : (نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ) إلى قوله : (وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ * وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ) إلى قوله : (هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ) .

وأضافه إلى الرسول البشرى فى قوله : (فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ * إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ) فنفى عنه أن يكون قول شاعر ، أو كاهن ، وهما من البشر . كما ذكر فى آخر الشعراء : أن الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم . كالكهنة ، الذين يلقون إليهم السمع ، وأن الشعراء يتبعهم الغاوون .

فهذان الصنفان اللذان قد يشتبهان بالرسول من البشر لما نفاهما : علم أن الرسول الكريم : هو المصطفى من البشر ، فإن الله يصطفى من الملائكة رسلا ، ومن الناس ، كما أنه فى سورة التكوير : لما كان الشيطان قد يشبه بالملك ـ فنفى أن يكون قول شيطان رجيم ـ علم أن الرسول المذكور هو المصطفى من الملائكة .

وفى إضافته إلى هذا الرسول تارة ، وإلى هذا تارة : دليل على أنه إضافة بلاغ وأداء ، لا إضافة إحداث لشىء منه أو إنشاء ، كما يقوله بعض المبتدعة الأشعرية ، من أن حروفه ابتداء جبرائيل ، أو محمد ، مضاهاة منهم فى نصف قولهم لمن قال : إنه قول البشر ، من مشركى العرب ، ممن يزعم أنه أنشأه

بفضله ، وقوة نفسه ، ومن المتفلسفة الذين يزعمون أن المعانى ، والحروف تأليفه ؛ لكنها فاضت عليه ، كما يفيض العلم على غيره من العلماء .

فالكاهن مستمد من الشياطين . (وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ) وكلاهما فى لفظه وزن . هذا سجع وهذا نظم ، وكلاهما له معان من وحى الشياطين . كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أعوذ بالله السميع العليم ، من الشيطان الرجيم . من همزه ، ونفثه ، ونفخه » وقال : « همزه المؤتة ، ونفثه الشعر ، ونفخه الكبر » وقوله تعالى : (وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ) : ينفى الأمرين ، كما أنه فى السورة الأخرى قال : (وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ) (وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ) وكذلك قال فى الشعراء : (وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ) مطلقا .

ثم ذكر علامة من تنزل عليه الشياطين : بأنه أفاك أثيم ، وأن الشعراء يتبعهم الغاوون . فظاهر القرآن : ليس فيه أن الشعراء تتنزل عليهم الشياطين ، إلا إذا كان أحدهم كذابا أثيما ، فالكذاب : فى قوله ، وخبره . والأثيم : فى فعله وأمره .

وذاك والله أعلم : لأن الشعر يكون من الشيطان تارة ، ويكون من النفس أخرى . كما أنه إذا كان حقاً يكون من روح القدس ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم ، لما دعا لحسان بن ثابت : « اللهم أيده بروح القدس » وقال : « اهجهم وهاجهم ، وجبرائيل معك » فلما نفى قِسمَ الشيطانِ نفى قسم النفس ؛ ولهذا قال : (يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ) والغى اتباع الشهوات ، التى هى هوى النفوس .

ولهذا قال أبو [حيان] ما كان من نفسك ، فأحبته نفسك لنفسك فهو من نفسك فانهها عنه ، وما كان من نفسك فكرهته نفسك لنفسك : فهو من الشيطان ، فاستعذ بالله منه ، فهذا والله أعلم سبب ذلك . وأما التقسيم إلى الكاهن ، والشاعر ، من جهة المعنى، فهو ـ والله أعلم ـ لأن الكلام نوعان : خبر ، وإنشاء .

والكاهن يخبر بالغيوب ، مخلطاً فيه الصدق بالكذب ، لا يأتون بالحق محضاً ، وإذا ألقى الشيطان فى أمنية أحدهم شيئاً فى القلب : لم ينسخ منه بل أكثرهم كاذبون . كما قال تعالى ، وكما بينه النبي صلى الله عليه وسلم فى حديث الكهان لما قال : « إنهم يزيدون فى الكلمة مائة كذبة » بخلاف الرسول ، والنبي ، والمحدَّث كما فى قراءة ابن عباس وغيره : (فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ) .

والقراءة العامة ليس فيها المحدَّث ، إذ يجوز أن يقر على بعض الخطإ ، ويدخل الشيطان فى أمنيته بعض ما يلقيه فلا ينسخ ، بخلاف الرسول ، والنبي فإنه لا بد من نسخ ما يلقى الشيطان ، وأن يحكم الله آياته لأنه [حق] والمحدَّث مأمور بأن يعرض ما يحدِّثه على ما جاء به الرسول .

ولهذا ألقى الشيطان لعمر وهو محدَّث ، فى قصة الحديبية . وقصة موت النبي صلى الله عليه وسلم ، وقصة اختلافه وحكيم بن حزام فى سورة الفرقان ، فأزاله عنه نور النبوة .

وأما الشاعر فشأنه التحريك للنفوس ، فهو من باب الأمر الخاص المرغب ؛ فلهذا قيل فيهم : (يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ) فضررهم فى الأعمال ، لا فى الاعتقادات ، وأولئك ضررهم فى الاعتقادات ويتبعها الأعمال ؛ ولهذا قال : (أَفَّاكٍ أَثِيمٍ) .

ومعنى الكهانة ، والشعر : موجود فى كثير من المتفلسفة ، والمتصوفة ، والمتكلمة ، والمتفقهة ، والعامة ، والمتفقرة ، الخارجين عن الشريعة الذين يتكلمون بالغيوب عن كهانة ، ويحركون النفوس بالشعر ونحوه وهم من أتباع المتنبئين الكذابين لهم مادة من الشياطين . كما قد رأيناه كثيراً فى أنواع من هذه الطوائف وغيرها ، لمن نور الله صدره وقذف فى قلبه من نوره .

وقال شيخ الإسلام قدس الله روحه :-

فصـــــل

ثم إن المنحرفين المشابهين للصابئة : إما مجردة ؛ وإما منحرفة إلى يهودية أو نصرانية ، من أهل المنطق والقياس ، الطالبين للعلم والـكلام ، ومن أهل العمل والوجد ، الطالبين للمعرفة . والحال : أهل الحروف . وأهل الأصوات سلـكوا فى أصل العلم الإلهى طريقين : كل منهم سلك طريقاً . وقد يسلك بعضهم هذا فى وقت ، وهذا فى وقت ، وربمـا جمع بعضهم بين الطريقين .

وأكثرهم لا يعلمون أن الله إليه طريق إلا أحد هذين ، كما يذكره جماعات : مثل ابن الخطيب ، ومن نحا نحوه ، بل مثل أبى حامد ، لمـا حصر الطرق فى الـكلام ، والفلسفة ؛ الذى هو النظر ؛ والقياس ؛ أو فى التصوف والعبادة ؛ الذى هو العمل والوجد ، ولم يذكر غير هؤلاء الأصناف الثلاثة . بل أبو حامد لمـا ذكر فى المنقذ من الضلال ، والمفصح بالأحوال ، أحواله فى طرق العلم ، وأحوال العالم ، وذكر أن أول ما عرض له ما يعترض طريقهم — وهو السفسطة بشبهها المعروفة ـ وذكر أنه أعضل به هذا الداء قريباً من شهرين ؛ هو فيهما على مذهب السفسطة ، بحكم الحال لا بحكم المنطق والمقال ، حتى شفى

الله عنه ذلك المرض ، وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال ، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقا بها ، على أمن وتبين ، ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام ؛ بل بنور قذفه الله فى الصدر ، وذلك النور هو مفتاح أكبر المعارف قال : فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المجردة ، فقد ضيق رحمة الله الواسعة . ثم قال : انحصرت طرق الطالبين عندى فى أربع فرق : —

المتكلمون : وهم يدعون أنهم أهل الرأى والنظر .

والباطنية : وهم يدعون أنهم أصحاب التعلم ، والمخصصون بالاقتباس من الإمام المعصوم .

والفلاسفة : وهم يدعون أنهم أصحاب المنطق . والبرهان .

والصوفية : ويدعون أنهم خواص الحضرة ، وأهل المكاشفة ، والمشاهدة .

فقلت فى نفسى : الحق لا يعدو هذه الأصناف الأربعة ، فهؤلاء هم السالكون سبل طريق الحق ؛ فإن سد الحق عنهم فلا يبقى فى درك الحق مطمع . ثم ذكر أن مقصود الكلام ، وفائدته : الذب عن السنة بالجدل ، لا تحقيق الحقائق وأن ما عليه الباطنية باطل ، وأن الفلسفة بعضها حق ، وبعضها كفر ، والحق منها لا يفى بالمقصود .

ثم ذكر أنه أقبل بهمته على طريق الصوفية ، وعلم أنها لا تحصل إلا بعلم

وعمل ، فابتدأ بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم ، مثل قوت القلوب ، لأبى طالب المكى ، وكتب الحارث المحاسبي والمتفرقات المأثورة عن الجنيد والشبلى وأبى يزيد ؛ حتى طلع على كنه مقاصدهم العلمية .

ثم إنه علم يقينا أنهم أصحاب أحوال ، لا أصحاب أقوال ، وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم : قد حصله ، ولم يبق إلا مالا سبيل إليه بالتعلم والسماع ؛ بل بالذوق والسلوك .

قال : وكان قد حصل معى من العلوم التى مارستها ، والمسالك التى سلكتها فى التفتيش عن صنفى العلوم الشرعية ، والعقلية ، إيمان يقينى بالله ، وبالنبوة وباليوم الآخر .

وهذه الأصول الثلاثة — من الإيمان — كانت قد رسخت فى نفسى بالله لا بدليل معين مجرد ، بل بأسباب ، وقرائن ، وتجارب ، لا تدخل تحت الحصر تفاصيلها ، وكان قد ظهر عندى أنه لا مطمع فى سعادة الآخرة إلا بالتقوى وذكر أنه تخلى عشر سنين . إلى أن قال : انكشف لى فى أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها، والقدر الذى أذكره لينتفع به : أنى علمت يقينا ، أن الصوفية هم السالكون لطريق الله خاصة، وأن سيرتهم أحسن السير ؛ وطريقتهم أصوب الطرق ، وأخلاقهم أزكى الأخلاق ؛ بل لو جمع عقل العقلاء ، وحكمة الحكماء ، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ؛ ليغيروا شيئاً من سيرهم ، وأخلاقهم ، ويبدلوه بما هو خير منه : لم يجدوا إليه سبيلا .

فإن جميع حركاتهم ، وسكناتهم ، فى ظاهرهم ، وباطنهم : مقتبسة من مشكاة نور النبوة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به .

وبالجملة فماذا يقول القائلون فى طريق طهارتها ؟ وهى أول شروطها تطهير القلب بالكلية عما سوى الله ومفتاحها استغراق القلب بذكر الله .

قلت : يستفادمن كلامه أن أساس الطريق : هى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، كما قررته غير مرة . وهذا أول الإسلام ؛ الذى جعله هو النهاية ، وبينت الفرق بين طريق الأنبياء ، وطريق الفلاسفة . والمتكلمين لكن هو لم يعرف طريقة أهل السنة ، والحديث ، من العارفين ؛ فلهذا لم يذكرها ، وهى الطريقة المحمدية المحضة ، الشاهدة على جميع الطرق .

والسهروردى الحلبى ، المقتول ، سلك النظر والتأله جميعاً ؛ لكن هذا صابئ محض، فيلسوف لا يأخذ من النبوة إلا ماوافق فلسفته ، بخلاف ذينك وأمثالها .

ثم منهم من لا يعرف إلا طريقة النظر والقياس ابتداء ، كجمهور المتكلمين من الجهمية والمعتزلة ، والأشعرية ، وبعض الحنبلية .

ومنهم من لا يعرف ابتداء : إلا طريقة الرياضة ، والتجرد والتصوف ، ككثير من الصوفية والفقراء الذين وقعوا فى الاتحاد ، والتأله المطلق . مثل : عبد الله الفارسى ، والعفيف التلمسانى ونحوهما . ومنهم من قد يجمع كالصدر القوْنَوِىْ ونحوه .

والغالب عليهم عالم التوهم ، فتارة يتوهمون ماله حقيقة ، وتارة يتوهمون مالا حقيقة له ، كتوهم إلهية البشر ، وتوهم النصارى ، وتوهم المنتظر ، وتوهم الغوث المقيم بمكة : أنه بواسطته يدبر أمر السماء والأرض ؛ ولهـــذا يقول التلمسانى ، ثبت عندنا بطريق الكشف ما يناقض صريح العقل .

ولهذا [أصيب] صاحب الخلوة بثلاث توهمات :

أحدها : أن يعتقد فى نفسه أنه أكمل الناس استعداداً .

والثانى : [أن] يتوهم [فى] شيخه أنه أكمل من على وجه الأرض .

والثالث : أنه يتوهم أنه يصل إلى مطلوبه بدون سبب ، وأكثر [اعتماده] على القوة الوهمية ؛ فقد تعمل الأوهام أعمالا لكنها باطلة ، كالمشيخة الذين لم يسلكوا الطرق الشرعية النبوية ؛ نظراً أو عملا ؛ بل سلكوا الصابئية .

ويشبه هؤلاء من بعض الوجوه : أكثر الأحمدية ، واليونسية ، والحريرية وكثير من العدوية ، وأصحاب الأوحد الكرمانى ، وخلق كثير من المتصوفة والمتفقرة بأرض المشرق ؛ ولهذا تغلب عليهم الإباحة ، فلا يؤمنون بواجبات الشريعة ومحرماتها . وهم إذا تألهوا فى تألهٍ مطلقٍ : لا يعرفون من هو إلههم بالمعرفة القلبية ؛ وإن حققه عارفوهم الزنادقة ، جعلوه الوجود المطلق .

ومنهم من يتأله الصالحين من البشر ، وقبورهم ونحو ذلك .

فتارة يضاهئون المشركين ، وتارة يضاهئون النصارى ، وتارة يضاهئون

الصابئين، وتارة يضاهئون المعطلة الفرعونية، ونحوهم من الدهرية، وهم من الصابئين، لكن كفار فى الأصل.

والخالص منهم: يعبد الله وحده، لكن أكثر ما يعبده: بغير الشريعة القرآنية المحمدية، فهم منحرفون؛ إما عن شهادة أن لا إله إلا الله؛ وإما عن شهادة أن محمداً رسول الله وقد كتبته فى غير هذا.

وكل واحد من طريق النظر والتجرد: طريق فيه منفعة عظيمة، وفائدة جسيمة، بل كل منهما واجب لا بد منه، ولا تتم السعادة إلا به، والقرآن كله يدعو إلى النظر والاعتبار والتفكر، وإلى التزكية والزهد والعبادة.

وقد ذكر القرآن صلاح القوة النظرية العلمية، والقوة الإرادية العملية: فى غير موضع، كقوله (هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ) فالهدى كمال العلم، ودين الحق كمال العمل. كقوله: (أُوْلِى ٱلۡأَيۡدِى وَٱلۡأَبۡصَٰرِ) وقوله: (كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُ). وقوله: (ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ) وقوله: (إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ) وفى خطبة النبى صلى الله عليه وسلم: «إن خير الكلام كلام الله، وخير الهدى هدى محمد»، لكن النظر النافع أن يكون فى دليل، فإن النظر فى غير دليل لا يفيد العلم بالمدلول عليه، والدليل هو الموصل إلى المطلوب، والمرشد إلى المقصود، والدليل التام هو الرسالة، والصنائع.

وكذلك العبادة التامة فعل ما أمر به العبد وما جاءت به الرسل، وقد وقع

الخطأ فى الطريقين ، من حيث : أخذ كل منهما أو مجموعهما ، مجردا فى الابتداء عن الإيمان بالله ، وبرسوله[1] .

بل اقتصر فيهما على مجرد ما يحصله نظر القلب ، وذوقه الموافق لما جاءت به الرسل تارة ، والمخالف لما جاءت به أخرى ، فى مجرد النظر العقلى ، ومجرد العبادات العقلية ، أو الصعود عن ذلك إلى النظر الملى ، والعبادات الملية ، والواجب أنه لا بد فى كل واحد من النظر والعمل ، من [أن] يوجد فيه العقلى ، والملى ، والشرعى ، فلما قصروا : وقع كل من الفريقين ؛ إما فى الضلال ؛ وإما فى الغواية ، وإما فيهما .

وحاصلهم : إما الجهل البسيط ؛ أو الكفر البسيط ، أو الجهل المركب ، أو الكفر المركب ، مع الجهل والظلم .

وذلك أن طريقة أهل النظر والقياس : مدارها على مقدمة لا بد منها فى كل قياس يسلكه الآدميون ، وهى مقدمة كلية جامعة ، تتناول المطلوب ، وتتناول غيره ، بمعنى أنها لا تمنع غيره من الدخول ؛ وإن لم يكن له وجود فى الخارج ، فهى لا تتناول المطلوب لخاصيته ، بل بالقدر المشترك بينه وبين غيره ، والمطلوب بها هو الله تعالى ، فلم يصلوا إليه إلا بجامع ما يشترك فيه هو وغيره ، من القضا [يا] الإيجابية ، والسلبية .

والمشترك بينه وبين غيره لا يعرف بخصوصه أصلا ، فلم يعرفوا الله ،

---

(١) بياض بالأصل بقدر سطر .

بل لما اعتقدوا فيه القدر المشترك صاروا مشركين به ، وحكموا على القدر المشترك بأحكام سلبية ، أو إيجابية ؛ فإنها تصح فى الجملة ؛ لأن ما انتفى عن المعنى العام المشترك انتفى عن الخاص المميز ، وليس ما انتفى عن الخاص المميز انتفى عن العام ؛ فما نفيته عن الحيوان أو عن النبي : انتفى عن الإنسان والرسول . وليس ما نفيته عن الإنسان أو الرسول انتفى عن الحيوان أو النبي .

ولهذا كان قوله : « لا نبي بعدى » ينفى الرسول ؛ وكذلك ما ثبت للمعنى المشترك بصفة العموم ثبت للخاص ، وما ثبت له بصفة الإطلاق لم يجب أن يثبت للخاص ، فإذا ثبت حكم لكل نبي دخل فيه الرسول . وأما إذا ثبت للنبي مطلقا : لم يجب أن يثبت للرسول ، وقد تتألف من مجموع القضايا السلبية ، والإيجابية : أمور لا تصدق إلا عليه ، ولا يصح أن يوصف بها غيره ؛ كما إذا وصف نبي بمجموع صفات ، لا توجد فى غيره .

لكن هذا القدر يعرف انتفاء غيره أن يكون إياه ، وأما عينه فلا يعرف بمجموع تلك القضايا الكلية ، فلا يحصل للعقل من القياس فى الرب إلا العلم بالسلب ، والعدم ؛ إذا كان القياس صحيحا .

ولهذا جاءت الأمثال المضروبة فى القرآن — وهى المقاييس العقلية — دالة على النفى فى مثل قوله : (ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ) الآية ومثل قوله : (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ) الآيات وقوله : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ) الآية ؛ وقوله : (قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ) الآية وقوله : (مَا اتَّخَذَ اللَّهُ

مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ)
وأمثال ذلك من الأمثال — وهى القياسات – التىمضمونها نفى الملزوم لانتفاء لازمه ، أو نحو ذلك .

ولهذا كان الغالب على أهل القياس من أهل الفلسفة ، والكلام ، فى جانب الربوبية : إنما هى المعارف السلبية . ثم لم يقتصروا على مقدار ما يعلمه العقل من القياس ، بل تعدوا ذلك ، فنفوا أشياء مشبهة القياس الفاسد ، مثل نفى الصفات النبوية ، الخبرية . بل ونفى الفلاسفة ، والمعتزلة للصفات التى يثبتها متكلموا أهل الإثبات ، ويسمونها الصفات العقلية ، لإثباتهم إياها بالقياس العقلى .

ومعلوم أن العقل لا ينفى بالقياس إلا القدر المشترك ، الذى هو مدلول القضية الكلية التى لا بد منها فى القياس ، مثل أن ينفى الإرادة أو الرحمة أو العلم المشترك بين مسميات هذا الاسم ، والقدر المشترك فى المخلوقين تلحقه صفات لا تثبت لله تعالى ، فينفون المعنى المشترك المطلق ، على صفات الحق وصفات الخلق — تبعاً لانتفاء مايختص به الخلق — فيعطلون ، كما أن أهل التمثيل يثبتون ما يختص به الخلق — تبعاً للقدر المشترك — وكلاهما قياس خطأ .

فنى هذه الصفات ، بل وفى الذوات ثلاث اعتبارات :

أحدها : ما تختص به ذات الرب وصفاته .

والثانى : مايختص به المخلوق وصفاته .

والثالث : المعنى المطلق الجامع .

فاستعمال القياس الجامع فى نفى الأول خطأ ، وكذلك استعماله فى إثبات الثانى ، وأما استعماله فى إثبات الثالث ، فيحتاج إلى إدراك العقل لثبوت المعنى الجامع الكلى ، وهذا أصل القياس والدليل ، فإن لم يعرف العقل بنفسه — أو بواسطة قياس آخر — ثبوت هذا ، وإلا لم يستقم القياس .

وكذلك فى معارفهم الثبوتية لا يأتون إلا بمعانى مطلقة مجملة . مثل ثبوت الوجود ، ووجوب الوجود ، أو كونه رباً أو صانعاً أو أولا ، أو مبدأ أو قديماً ، ونحو ذلك من المعانى الكلية ، التى لا يعلم بها خصوص الرب تعالى ، إذ القياس لايدل على الخصوص ، فإنه إذا استدل بأن كل ممكن فلا بد له من موجب وبأن كل محدث فلا بد له من محدث : كان مدلول هذا القياس أمراً عاماً ، وقد بسطت هذا فى غير هذا الموضع .

وكذلك أصحاب الرياضة والتجرد : فإن صفوتهم الذين يشتغلون بذكر بسيط مثل لا إله إلا الله إن لم يغلوا فيقتصروا على مجرد الله ، الله ، ويعتقدون أن ذلك أفضل وأكمل . كما فعله كثير منهم ، وربما اقتصر بعضهم على ُهوْ ، ُهوْ . أو على قوله : لا هو إلا هو ، لأن هذا الذكر المبتدع الذى هو لا يفيد بنفسه إلا أنه مطلقاً ، ليس فيه بنفسه ذكر لله إلا بقصد المتكلم .

فقد ينضم إلى ذلك اعتقاد صاحبه أنه [لا] وجود إلا هو ، كما يصرح به بعضهم ويقول : لا هو إلا هو ، أو لا موجود إلا هو ، وهذا عند الاتحادية

أجود من قول لا إله إلا الله ، لأنه مصرح بحقيقة مذهبهم الفرعونى القرمطى ، حتى يقول بعضهم : لا إله إلا الله ذ كر العابدين ، والله ! الله ! ذ كر العارفين ، و (هو) ذ كر المحققين ، ويجعل ذ كره يا من لا هو إلا هو ! وإذا قال الله ! الله ! إنما يفيد مجرد ثبوته ، فقد ينضم إلى ذلك نفى غيره لا نفى إلهية غيره ، فيقع صاحبه فى [وحدة الوجود] وربما انتفى شهود القلب للسوى إذا كان فى مقام الفناء فهذا قريب ،أما اعتقاد أن وجود الكائنات هى هو فهذا هو الضلال .

ويضمون إلى ذلك نوعا من التصفية ، مثل ترك الشهوات البدنية من الطعام والشراب والرياسة والخلوة ، وغير ذلك من أنواع الزهادة المطلقة ، والعبادة المطلقة فيصلون أيضاً إلى تأله مطلق ، ومعرفة مطلقة بثبوت الرب ووجوده ونحو ذلك ، من نحو ما يصل إليه أرباب القياس .

ثم قد تتوارى هذه المعرفة والعلم بملابسة الأمور الطبيعية ، من الطعام ، والاجتماع بالناس ، فإن سببها إنما هو ذلك التجرد فإذا زال زال ، ولهذا قيل كل حال أعطاكه الجوع فإنه يذهب بالشبع ، كما قد تتوارى معرفة الأولى المطلقة بغفلة القلب عن تلك المقاييس النظرية ، ولا ريب أن القياس يفضى إلى معرفة بحسب مقتضاه ، وأن الرياضة والتأله يفضى إلى معرفة بحسب مقتضاه ، لكن معرفة مطلقة بسبب قد يثبت وقد يزول ، وكثيراً ما يفضى إلى الاتحاد والحلول والإباحة ، وذلك لأنهم يجردون التأله عما لا بد منه من صالح البشر ، فإذا احتاجوا إليها أعرضوا عن التأله .

فهم إما آلهة عند نفوسهم ، وإما زنادقة أو فساق ، ولهذا حدثنى الشيخ

الصالح يوسف من أصحابنا أنه رآنى فى المنـام وأنا أخاطبهم[1] .

والمعرفة الحاصلة بذلك : هى المعرفة التى تصلح حال العبـد وتجب عليه ؛ لـكن قد يحصل مع صدق الطلب — بواسطة القياس ، أو بواسطة الوجد — وصول إلى الرسالة فيتلقى حينئذ من الرسالة ما يصلح حاله ، ويعرفه المعرفة التامة والعلم النـــافع الواجب عليه — وهى الطريق الشرعية النبوية التى ذكرناها أولا — وقد لا يحصل ذلك فيقع كثير منهم فى الاستغناء عن النبوة ، اعتقاداً أو حالا بالإعراض عما جاءت به ؛ فيفوته من الإيمان والعلم والمعرفة ـ التى جاء بها الرسول ـ ما يضل بفواته فى الدنيا عن الهدى ، ويشقى به الشقاء الأكبر ، كحال الكافرين بالرسول وإن آمنوا بوجود الرب . من اليهود والنصارى والصابئين ، فإن فى المسلمين من ينافق فى الرسول ، كما كفر هؤلاء به ظاهراً ، وهذا النفاق كثير جداً ، قديماً وحديثاً .

وقد تنعقد فى قلبه مقاييس فاسدة ، ومواجيد فاسدة ، يحكم بمقتضاها فى الربوبية أحكاماً فاسـدة مثل : أحكام المنحرفة إلى صابئية ، أو يهودية أو نصرانية ، من الفلاسـفة والمتكلمين والمتصوفة ، الذين انحرفوا إما إلى تعطيل للصفات وتـكذيب بها .

وإما إلى تمثيل لها وتشبيه .

وإما إلى اعتقـاد أن الرب هو الوجود المطلق الذى لا يتميز ، وأن عين

---

(١) سقط من الأصل نحو سطرين .

الوجود : هو عين الخالق ، وأنه ليس وراء السموات والأرض شيء آخر ؛ وإنما هذه الأشياء كلها مراتب للصفات ، وأن الربوبية والإلهية : مراتب ذهنية [شكوكية] . وأما فى الحقيقة : فليس إلا عين ذاته ، فالمحجوبون يرون المراتب والمكاشف ماترى إلا عين الحق .

ويحسبون — ويحسب كثير بسببهم — أن هذا التوحيد : هو توحيد الصديقين ، الذين عرفوا الله ، وقالوا :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل .

كما يحسب المتكلم الزائغ أن توحيده — الذى هو نفى الصفات — هو توحيد الأنبياء ، والصديقين ، الذين عرفوا الله ، ولهذا يقع فى هؤلاء الشرك كثيرا ، حتى يسجد بعضهم لبعض ، كما يقع فى القسم الآخر تحريم الحلال من العقود ، والعبادات المباحة .

فاقتسم الفريقان : ما ذم الله به المشركين ، من الشرك ، وتحريم الحلال [(١)] وهكذا يوجد كثيرا فى هؤلاء المشبهة للنصارى . وظهر فى الآخرين من الآصار ، والأغلال ، وجحود الحق ، وقسوة القلوب : ما يوجد كثيرا فى هؤلاء المشبهة لليهود .

هذا فى غير الغالية منهم ، وأما الغالية من الصنفين : فعندهم أن معرفتهم وحالهم فوق معرفة الأنبياء وحالهم . كما يقول التلمسانى : القرآن يوصل إلى الجنة ، وكلامنا يوصل إلى الله .

---

(١) سقط سطر من الأصل .

وكما يزعم الفارابى : أن الفيلسوف أكمل من النبى ؛ وإنما خاصة النبى جودة التخييل للحقائق ؛ إلى أنواع من الزندقة والكفر ، يلتحقون فيها بالإسماعيلية ؛ والنصيرية ؛ والقرامطة ؛ والباطنية ؛ ويتبعون فرعون ؛ والنمروذ وأمثالهما من الكافرين بالنبوات ، أو النبوة والربوبية .

وهذا كثير جدا فى هؤلاء وهؤلاء ، وسبب ذلك عدم أصل فى قلوبهم ، وهو الإيمان بالله ، والرسول . فإن هذا الأصل إن لم يصحب الناظر ، والمريد ، والطالب ، فى كل مقام . وإلا خسر خسرانا مبينا ! وحاجته إليه كحاجة البدن إلى الغذاء ، أو الحياة إلى الروح .

فالإنسان بدون الحياة والغذاء لا يتقوم أبدا ، ولا يمكنه أن يَعلم ، ولا أن يُعلم.

كذلك الإنسان بدون الإيمان بالله ورسوله لا يمكنه أن ينال معرفة الله ، ولا الهداية إليه ، وبدون اهتدائه إلى ربه : لا يكون إلا شقيا معذباً ، وهو حال الكافرين بالله ورسوله ، ومع الإيمان بالله ورسوله إذا نظر ، واستدل : كان نظره فى دليل وبرهان — وهو ثبوت الربوبية ، والنبوة — وإذا تجرد وتصفى كان معه من الإيمان ما يذوقه بذلك ويجده .

ثم هذا النظر ، وهذا الذوق يجتلب له ما وراء ذلك من أنواع المعالم الربانية ، والمواجيد الإلهية . والعلم والوجد متلازمان .

وذلك : أن الأنبياء والمرسلين : عرفوا الله بالوحى المعرفة التى هى معرفة، وعبدوه العبادة التى هى حق له بحسب ما منحهم الله تعالى .

وهم درجات فى ذلك ؛ لكن عرفوا من خصوص الربوبية مالا يقوم به

مجرد القياس النظرى ، ولا يناله مجرد الذوق الإرادى ، ثم أخبروا عن ذلك .

ولا بد فى الوصف والإخبار من أن يذكر المسمى الموصوف بالأسماء والأوصاف المتواطئة التى فيها اشتراك وتمييز عن المخلوقات بما يقطع الشركة ؛ لأن القصد بالإخبار ، والوصف ، تعريف المخاطبين ؛ والمخاطبون لا يعرفون الخصوصيات ، التى هى خصوص ذات الله ، وصفاته .

فلو أخبروا بذلك وحده مجردا لم يعرفوا شيئا ، بل ربما أنكروا ذلك . فإذا خوطبوا بالمعانى المشتركة ، وأزيل مفسدة الاشتراك بما يقطع التماثل ، كقوله : (لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ) (وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ) ونحو ذلك كانوا أحد رجلين:

إما رجل مؤمن ، آمن بمعانى تلك الصفات على الوجه المطلق الجملى وأثبتها لله على وجه يليق به ، ويختص به ، لا يشركه فيه مخلوق ؛ فهذا غاية الممكن فى حال هؤلاء .

وإما رجل قذف الله فى قلبه من نوره وهدايته الخاصة ما أشهده شيئا من الخصوصيات ، التى هى أعيان تلك الأسماء والصفات ، فيعلم ذلك لا بمجرد القياس ، ولا بمجرد الوجد بل بشهود على مطابق لما أخبرت [به] الرسل ، وتدله على صحة شهوده موافقته لما أنبأت به الرسل ، ويحصل له نصيب من النبوة ، فإن النبوة انقطعت بكمالها ، وأما وجود بعض أجزائها فلم ينقطع . ولا بد أن يكون فى بعض الأمور محجوبا عن أن يشهد ما شهده النبى ، فيصدقه فيه ؛ لشهوده بعض ما أخبر به النبى ، ويبقى ما شهده محققا عنده لثبوت ما لم يشهده ، وهذه حال الصديقين مع الأنبياء .

وذلك نظير من وصف له ملك مدينة ، بأنواع من الصفات ، فقدم حتى رأى بعض شؤونه التى دلته على صدق المخبر فيما لم يشهد . ولست أجعل مجرد هذه الشهادة مصدقة ، فإن المخبر قد يصدق فى بعض ، ويخطىء فى بعض ، وإنما ذلك بواسطة إخبار المخبر — أى رسول الله — وشهوده منه ما يوجب له امتناع الكذب عليه ، كما يذكر فى غير هذا الموضع .

فإن قلت : فمن أين له ابتداء صحة الإيمان بالله ورسوله ، حتى يصير ذلك أصلا يبنى عليه ، وينتقل معه إلى ما بعده ؟ فأهل القياس والوجد : إنما تعبوا التعب الطويل — فى تقرير هذا الأصل — فى نفوسهم ؛ ولهذا يسمى المتكلمون كل ما يقرر الربوبية والنبوة : العقليات والنظريات ، ويسميها أولئك الذوقيات ، والوجديات ، ورأوا أن ما لا يتم معرفة الله ورسوله إلا به فمعرفته متقدمة على ذلك ؛ وإلا لزم الدور . فسموا تلك عقليات ، والعقليات لا تنال إلا بالقياس العقلى ، المنطقى .

قلت : جواب هذا من وجوه :

أحدها : المعارضة بالمثل ؛ فإن سالك سبيل النظر القياسى ، أو الإرادة الذوقية : من أين له ابتداء أن سلوك هذا الطريق يحصل له علما ، ومعرفة ، ليس معه ابتداء إلا مجرد إخبار مخبر بأنه سلك هذا الطريق فوصل ، أو خاطر يقع فى قلبه سلوك هذا الطريق : إما مجوزا للوصول أو متحريا أو غير ذلك ، أو سلوكا ابتداء بلا انتهاء ؛ وليس ذلك مختصا بالعلم الإلهى ؛ بل كل العلوم لا بد للسالك فيها ابتداء من مصادرات يأخذها مسلمة إلى أن تتبرهن فيما بعد .

إذا لو كان كل طالب العلم حين يطلبه قد نال ذلك العلم : لم يكن طالبا له ، والطريق التى يسلكها قد يعلم أنها تفضى به إلى العلم .

لكن الكلام فى أول الأوائل، ودليل الأدلة ، وأصل الأصول . فإنهلو كان حين ينظر فيه يعلم أنه دليل مفض لم يمكن ذلك حتى يعلم ارتباطه بالمدلول فإن الدليل إن لم يستلزم المدلول : لم يكن دليلا .

والعلم بالاستلزام موقوف على العلم بالملزوم واللازم ، فلا يعلم أنه دليل على المدلول المعين ، حتى يعلم ثبوت المدلول المعين ، ويعلم أنه ملزوم له ، وإذا علم ذلك : استغنى عن الاستدلال به ، على ثبوته ؛ وإنما يفيده التذكير به ، لا ابتداء العلم به ، وإنما يقع الاشتباه هنا ؛ لأنه كثيرا ما يعرف الإنسان ثبوت شىء ، ثم يطلب الطريق إلى معرفة صفاته ، ومشاهدة ذاته ؛ إما بالحس ؛ وإما بالقلب ، فيسلك طريقا يعلم أنها موصلة إلى ذلك المطلوب ؛ لأنه قد علم أن تلك الطريق مستلزم لذلك المطلوب ، الذى علم ثبوته قبل ذلك .

كمن طلب أن يحج إلى الكعبة ، التى قد علم وجودها ، فيسلك الطريق التى يعلم أنها تفضى إلى الكعبة ؛ لإخبار الناس له بذلك ، أو يستدل بمن يعلم أنه عارف بتلك الطريق ، فسلوكه للطريق بنفسه بعد علمه أنها طريق ـ المقصود ـ بإخبار الواصلين ، أو سلوكه بدليل خريت ـ يهديه فى كل منزلة ـ لا يكون إلا بعد العلم بثبوت المطلوب ، وثبوت أن هذا طريق ، ودليل .

وهكذا حال الطالبين لمعرفة الله ، والمريدين له ، والسائرين إليه ، قد عرفوا

وجوده أولا ، وهم يطلبون معرفة صفاته ، أو مشاهدة قلوبهم له فى الدنيا . فيسلكون الطريق الموصلة إلى ذلك بالإيمان والقرآن .

فالإيمان : نظير سلوك الرجل الطريق التى وصفها له السالكون ، فإنهم متفقون على ذلك .

والقرآن : تصديق الرسل فيما تخبر به ، وهو نظير اتباع الدليل منزلة منزلة، ولا بد فى طريق الله منهما .

وأما الشيء الذى لم يعلم العقل ثبوته أولا ، إذا سلك طريقا يفضى إلى العلم به ـ فلا يسلكها ابتداء إلا بطريق التقليد والمصادرة ـ كسائر مبادئ العلوم ـ فإذا كان لا بد فى الطريقة القياسية ، والعملية ، من تقليد فى الأول ـ فى سلوكه فيما لم يعلم أنه طريق ، وأنه مفض إلى المطلوب ـ أو أن المطلوب موجود . فالطريقة الإيمانية ـ إذا فرض أنها كذلك ـ لم يقدح ذلك فيها ، بل تكون هى أحق؛ لوجوه كثيرة .

ونذكر بعضها إن شاء الله .

بل لا طريق إلا هى أو ما يفضى إليها ، أو يقترن بها فهى شرط قطعا فى درك المطلوب ، وما سواها ليس بشرط ؛ بل يحصل المطلوب دونه وقد يضر بحصول المطلوب فلا يحصل، أويحصل نقيضه وهو الشقاء الأعظم على التقديرين ، فتلك الطريق مفضية قطعا ولا فساد فيها ، وما سواها يعتريه الفساد كثيراً ، وهو لا يوصل وحده ، بل لا بد من الطريقة الإيمانية .

الوجه الثانى فى الجواب : أن الطريقة القياسية ، والرياضية ، إذا سلكها الرجل وأفضت به إلى المعرفة — إن أفضت — علم حينئذ أنه سلك طريقاً صحيحاً وأن مطلوبه قد حصل ، وأما قبل ذلك فهو لايعرف ، فأدنى أحوال الإيمانية — ولا دناءة فيها — أن تكون كذلك . فإنه إذا أخذ الإيمان بالله ورسله مسلما ، ونظر فى موجبه ، وعمل بمقتضاه : حصل له بأدنى سعى مطلوبه من معرفة الله ، وأن الطريق التى سلكها صحيحة ، فإن نفس تصديق الرسول فيما أخبر به عن ربه وطاعته ، يقرر عنده علماً يقينياً بصحة ذلك أبلغ بكثير مما ذكر أولا .

الوجه الثالث : أن الإقرار بالله قسمان : فطرى ، وإيمانى . فالفطرى : — وهو الاعتراف بوجود الصانع — ثابت فى الفطرة . كما قرره الله فى كتابه فى مواضع وقد بسطت القول فيه فى غير هــــذا الموضع . فلا يحتاج هذا إلى دليل ، بل هو أرسخ المعارف ، وأثبت العلوم ، وأصل الأصول .

وأما الإقرار بالرسول : فبأدنى نظر فيما جاء به ، أو فى حاله ، أو فى آياته ، أو نحو ذلك من شؤونه يحصل العلم بالنبوة : أقوى بكثير مما يحصل المطالب القياسية ، والوجدية ، فى الأمور الإلهية ، ثم إذا قوى النظر فى أحواله : حصل من اليقين الضرورى الذى لا يمكن دفعه ما يكون أصلا راسخا . وبسط هذا مذكور فى غير هذا الموضع . إذ المقصود هنا بيان خطأ من سلك طريق القياس ، أو الرياضة ، دون الإيمان ابتداء . وأما تقرير طريقة الإيمان فشأنه عظيم ، أعظم مما كتبته هنا . ! !

الوجه الرابع : إنا نخاطب المسلمين المتسمين بالإيمان ، الذين غرض أحدهم

معرفة الله الخاصة ، التى يمتاز بها العلماء ، والعارفون : عن العامة ؛ فيسلك بعضهم طريقة أهل القياس المبتدع ، والفلاسفة والمتكلمين ، وبعضهم : طريقة أهل الرياضة والإرادة المبتدعة ، من المتفلسفة ، والمتصوفة ، معرضاً عما جاء به الرسول فى تفاصيل هذه الأمور ؛ فإن هؤلاء إذا كانوا عالمين بصدق الرسول - المبلغ عن ربه ، الهادى إليه ، الداعى إليه ، الذى أكمل له الدين ، وأنزل عليه الكتاب تبيانا لكل شىء - كيف يدعون الاستدلال بما جاء به ، والاقتداء به ، إلى ما ذكر من الطريقين ؟

الوجه الخامس : أن أكثر من سلك الطريقين المنحرفين : لم يعتقد أن هناك طريقاً ثالثاً — كما يذكره رجال من فضلاء العالم الغالطين فى القواعد الكبار — فهم ينتقلون من مادة فلسفية صابئية : إلى مادة إرادية نصرانية ، إلى مادة كلامية يهودية .

وأهل فلسفتهم يوما مع ذوى إرادتهم ، ويوما مع ذ[و]ى كلامهم ، وهم متهوكون فى هذه المجاراة .

والطريقة الإيمانية النبوية المحمدية ، الدينية السنية الأثرية : لا يهتدون إليها ، ولا يعرفونها ولا يظنون أنها طريقة إلى مطلوبهم ، ولا تفضى إلى مقصودهم ؛ وذلك لعدم وجود من يسلكها فى اعتقادهم ، أو كبتوا نفوسهم عنها ظلما ؛ فلضلالهم عنها أو غوايتهم وجهلهم بها ، أو ظلمهم أنفسهم : أعرضوا عنها .

فان قلت : فالقرآن يأمر بالنظر فى الآيات .

قلت : النظر لا ريب فى صحته فى الجملة ، وأنه إذا كان فى دليل أفضى إلى العلم بالمدلول ، وإذا كان فى آيات الله ، أفضى إلى الإيمان به . الذى هو رأس العبادة ، كما أن العبادة ، والإرادة ، لا ريب فى صحتها فى الجملة ، وأنها إذا كانت على منهاج الأنبياء أفضت إلى رضوان الله ؛ لكن عليك أن تفرق بين الآيات . وبين القياس ، كما قد بيناه فى غير هذا الموضع .

فإن الآية : هى العلامة . وهى ما تستلزم بنفسها لما هى آية عليه ، من غير توسط حد أوسط ، ينتظم به قياس مشتمل على مقدمة كلية ؛ كالشعاع فإنه آية الشمس ، وكذلك النبات للمطر فى الأرض القفر ، والدخان للنار ، وإن لم ينعقد فى النفس قياس ؛ بل العقل يعلم تلازمهما بنفسه ، فيعلم من ثبوت الآية ثبوت لازمها ، والعلم بالتلازم قد يكون فطرياً ، وقد لا يكون .

الوجه السادس : أن تينك الطريقين ليستا باطلا محضاً ؛ بل يفضى كل منهما إلى حق ما ؛ لكن ليس هو الحق الواجب ، وكثيراً ما يقترن معه الباطل فلا يحصل بكل منهما بمجرده أداء الواجب ولا اجتناب المحرم ، ولا تحصلان المقصود الذى فيه سعادة العبد من نجاته ونعيمه ، بعد مبعث الرسول .

أما الطريقة النظرية القياسية : فإنه لا بد فيها من الاستدلال بالممكن على الواجب ، أو المحدث على المحدث ، أو بالحركة على المحرِّك ، وذلك يعطى فاعلا عظيما من حيث الجملة .

وكذلك الطريقة الرياضية الذوقية تعطى انقياد القلب وخضوعه إلى الصانع

المطلق ، وكل منهما لا بد فيها من علم اضطرارى يضطر القلب إليه ، إذ القلب لا يحصل له علم إلا من جنس الاضطرارى ابتداء بتوسط الضرورى ؛ فإن النظر يبنى على مقدمات تنتهى إلى ما هو من جنس الضرورى ؛ إما بتوسط الحس أو مجرداً عن الحس .

فالطريق القياسية تفيد العلم بتوسط مقدمات ضرورية ، مثل أن يقال : الوجود المعلوم إما ممكن ، وإما واجب ، والممكن لا يوجد إلا بواجب . فثبت وجود الواجب على التقديرين .

ومثل أن يقال : العالم محدث أو كثير منه محدث . والثانى ضرورى ، والأول يستدل عليه . ثم يقال : وكل محدَثٍ فله محدِث .

أو يقال : لا شك أن [ثم] وجوداً وهو إما قديم ، وإما محدث ، والمحدث لا بد له من قديم فثبت وجود القديم على التقديرين .

كما يقال : لا ريب أن ثم وجوداً وهو إما واجب وإما ممكن ، والممكن لا بد له من واجب ، فثبث وجود الواجب على التقديرين .

وقد يقال : أيضاً لا ريب أن ثم وجودا ، وهو إما مصنوع ، أو غير مصنوع ، أو مخلوق أو غير مخلوق ، أو مفطور أو غير مفطور ، والمصنوع أو المخلوق أو المفطور : لا بد له من صانع وخالق وفاطر . فثبت وجود ما ليس بمصنوع ولا مفطور ، ولا مخلوق على التقديرين .

فهذه الوجوه وما يشبهها تدل على وجود واجب قديم ليس بمصنوع ؛ لكن الشأن فى تعيينه ؛ فإن عامة الدهرية يقولون : هذا هو العالم أو شىء قائم به . ثم إن افتقار الممكن إلى الواجب ، والمحدث إلى القديم ، والمصنوع إلى الصانع ، مقدمة ضرورية ؛ وإن كان طائفة من النظار يستدلون على هذه المقدمة ، وعلى أن الممكن لا يترجح أحد طرفيه على الآخر إلا بمرجح ؛ والجمهور على الاكتفاء بالضرورة فيهما .

والطريق العبادية تفيد العلم بتوسط الرياضة وصفاء النفس ، فإنه حينئذ يحصل للقلب علم ضرورى ؛ كما قال الشيخ إسماعيل الكورانى لعز الدين ابن عبد السلام لما جاء إليه يطلب علم المعرفة - وقد سلك الطريقة الكلامية - فقال : أنتم تقولون إن الله يعرف بالدليل ، ونحن نقول : عرَّفنا نفسه فعرفناه . وكما قال نجم الدين [الكبرى] لابن الخطيب ، ورفيقه المعتزلى وقد سألاه عن علم اليقين ؟ فقال : هو واردات ترد على النفوس ، تعجز النفوس عن ردها فأجابهما : بأن علم اليقين عندنا هو موجود بالضرورة لا بالنظر ، وهو جواب حسن .

فإن العلم الضرورى : هو الذى يلزم نفس العبد لزوماً لا يمكنه الانفكاك عنه . فالقائس إن لم يحصل له العلم الضرورى ابتداء ، وإلا فلا بد أن يبنى نظره وقياسه على مقدمات ضرورية . ثم حينئذ يحصل له العلم .

ولهذا : قال طائفة منهم أبو المعالى الجوينى : أن جميع العلوم ضرورية

باعتباراتها بعد وجود النظر الصحيح فى الدليل تحصل العلم ضرورة ؛ لكن منها ما هو ضرورى عند تصور طرفى القضية ، ومنها ما هو ضرورى بعد تأمل ونظر ، ومنها ما هو ضرورى بعد النظر فى دليل ذى مقدمتين ، أو مقدمات .

فقال الشيخ العارف : نحن نجد العلم وجداً ضرورياً بالطريق التى نسلكها من تزكية النفس ، وإصلاح القلب الذى هو حامل العلم وداعيه فكل منهما يفيض الله العلم على قلبه ، وينزله على فؤاده ؛ ولكن أحدهما بتحصيل العلم المقارن للعلم المطلوب ، الذى هو المقدمات ، والآخر بإصلاح طالب العلم الذى يريد أن يكون عالماً — وهو القلب — بمنزلة من يخطب امرأة ، فتارة تجمل لها وتعرض حتى رأته فرغبت فيه وخطبته ، وتارة بأن أرسل إليها من تأنس إليه وتطيعه ، نخطبها له فأجابت ، فكان سعى الأول وعمله فى إصلاح نفسه وتعرضه لها حتى ترغب، وكان سعى الثانى فى تحصيل الرسول المطاع حتى تجيب . وبمنزلة من يصيد صيداً .

لكن مجرد النظر والعمل مجتمعين ومنفردين : لا يحصلان إلا أمراً مجملا ، كما هو الواقع ، وذلك صحيح . فإن ثبوت الأمر المجمل حق ؛ فإن ضما إلى ذلك ما يعلم بنور الرسالة من الأمر المفصل حصل الإيمان النافع ، وزال ما يخاف من سوء عاقبة ذينك الطريقين .

وهذه حال من تحيز من أهل النظر الكلامى ، والعمل العبادى إلى اتباع الرسول والإيمان به ؛ فقبل منه وأخذ عنه .

وإن لم يضم أحدهما إلى ذلك ما جاء به الرسول ، فإما أن يضم ضده ، أو لا يضم شيئاً ، فإن ضم إلى ذلك ضد ما جاء به الرسول : وقع فى التكذيب ، وهو الكفر المركب ، وإن لم يضم إليه شىء بقى فى الكفر البسيط ، سواء كان فى ريب ، أو فى إعراض وغفلة .

فإن حال الكافر : لا تخلو من أن يتصور الرسالة أولا ، فإن لم يتصورها فهو فى غفلة عنها ، وعدم إيمان بها . كما قال : (وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا) وقال : (فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ) لكن الغفلة المحضة لا تكون إلا لمن لم تبلغه الرسالة ، والكفر المعذب عليه لا يكون إلا بعد بلوغ الرسالة .

فلهذا قرن التكذيب بالغفلة وإن تصور ما جاء به الرسول وانصرف فهو معرض عنه ، كما قال تعالى : (فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا) وكما قال : رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا) وكما قال : (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا) .

وإن كان مع ذلك لا حظ له ، لا مصدق ولا مكذب ، ولا محب ولا مبغض فهو فى ريب منه كما أخبر بذلك عن حال كثير من الكفار ، منافق وغيره ، كما قال : (إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ) وكما قال موسى : (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ

قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ۚ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ * قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) .

فأخبر سبحانه : عن مناظرة الكفار للرسل فى الربوبية أولا ، فإنهم فى شك من الله الذى يدعونهم إليه ، وفى النبوة ثانياً بقولهم : (إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا) وهذا بحث كفار الفلاسفة بعينه ؛ وإن كان مكذباً له فهو التكذيب والتكذيب أخص من الكفر . فكل مكذب لما جاءت به الرسل فهو كافر . وليس كل كافر مكذباً ، بل قد يكون مرتابا ، إن كان ناظراً فيه أو معرضاً عنه بعد أن لم يكن ناظراً فيه ، وقد يكون غافلا عنه لم يتصوره بحال لكن ، عقوبة هذا موقوفة على تبليغ المرسل إليه .

وكل واحد من الأمرين فى أن يضم إلى المعرفة المجملة ، إما تكذيب ، وإما كفر بلا تكذيب ؛ واقع كثيرا فى سالكى الطريقين ، النظر فى القياس المجرد ، والعمل بالعبادة المجردة .

مثال ذلك : أن كثيرا من النظار أثبت واجب الوجود ، أو صانع العالم ، وذهبوا فى تعيينه وصفاته مذاهب يضيق هذا الموضع عن تفصيلها ـ معروفة

فى كتب المقالات من أهل ملتنا ، وغير أهل ملتنا ـ مقالات الإسلاميين المصلين ، ومقالات غيرهم . وكثير من العبـاد المتأخرين أثبت أيضا ذلك إثباتا مجمـلا ، وتوهموا فيه أنواعا من التوهمات الـكفرية ، الذى يصفها عارفوهم .

فمنهم من توهمه الوجود المطلق ، المشترك بين الموجودات ، كالإنسان المطلق مع أعيانه وأفراده ، فإذا تعين الوجود لم يكن إياه ، إذ المطلق ليس هو المعين ، كما يقوله الصدر القونوى .

ومنهم من توهم أن وجود الممكنات هو عين وجوده الفائض عليها ، كما يذكره صاحب الفصوص .

ومنهم من يتوهمه جملة الوجود ، وكل معين فهو جزء منه ، كالبحر مع أمواجه وأعضاء الإنسان مع الإنسان . فليس هو ما يختص بكل معين ؛ لـكنه مجموع الكائنات ؛ كالعفيف التلمسانى ، وعبد الله الفارسى البليانى ، ويقولون : إن كل موجود فهو مرتبة من مراتب الوجود ، أو مظهر من مظـاهره ، بمـنزلة أمواج البحر معه ، وأعضاء الإنسان معه ، وأجزاء الهوى مع الهواء أو بمنزلة هذا الإنسان وهذا الحيوان مع الحيوان المطلق والإنسان المطلق .

ويقول شاعرهم ابن إسرائيل :ـ

وما أنت غير الـكون بل أنت عينه ويفهم هـذا السر من هـو ذائق

وقال :ـ

وتلتذ إن مرت على جسدى يدى لأنى فى التحقيق لست سـوا كم

ولهذا : ليس عندهم للإنسان غاية وراء نفسه ، وإنما غايته أن ينكشف الغطاء عن نفسه ، فيرى أن نفسه هى الحق ، وكان قبل ذلك محجوبا عنها ، فلما شاهد الحقيقة رأى أنه هو كما قال ابن إسرائيل :ـ

ما بال عيسك لا يقر قرارها ؟ إلا فى ضلالك لا تنى منتقلا
فلسوف تعلم أن سيرك لم يكن إلا إليك إذا بلغت المنزلا

وكما يقول بعضهم —

وفى كل شىء له آية تدل على أنه عينه

والله يقول : (إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ) ويقول : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا) ويقول : (وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ) ويقول : (إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ) ونحو ذلك .

وقال التلمسانى — وكان راسخ القدم فى هذه الزندقة التى أسموا بها التوحيد والحقيقة :ـ

توهمت قدما أن ليلى تبرقعت وأن حجابا دونها يمنع اللثما
فلاحت ، فلا والله ما كان حجبها سوى أن طرفى كان عن حبها أعمى

وله شعر كثير فى هذا الفن :

هى الجوهر الصرف القديم وإن بدا
لها خبث أتيت به فهو حادث

حلفت لهم ما كان منها غـــير ذاتها
فقــالوا اتئد فيهـــا فإنك حانث

ولـــه :

وقل لحبيبك مت وجـدا وذب طربا
فيها وقـل لزوال العقـــل لا تزل
واصمت إلى أن تراها فيـــك ناطقة
فإن وجـدت لسانا قائـلا فقـــل

ولهذا : يصلون إلى مقام لا يعتقدون فيه إيجاب الواجبات . وتحريم المحرمات وإنما يرون الإيجاب والتحريم للمحجوبين عندهم ، الذين لم يشهدوا أنه هو حقيقة الكون ، فمن العابد ؟ ومن المعبود ؟ ومن الآمر ؟ ومن المأمور ؟ كما قال صاحب الفتوحات فى أولها :ـ

الرب حق والعبـــد حق ياليت شعرى من المكلف؟
إن قلت عبد فـــذاك ميت أو قلـــت رب أنى يكلف؟

وعندهم أن التكليف هو فى مرتبة من مراتب الأسماء والصفات وهو مرتبة المتمحن .

قال بعضهم :ـ

ما الأمر إلا نسق واحد ما فيه من مـــدح ولا ذم
وإنمـا العـادة قـد خصصت والطبع والشارع بالحـــكم

ومنشأ هذين عن الصابئة — كما يبين ذلك عند التأمل — فإن الصابئة الخارجين عن التوحيد لله وحده لا شريك له — كالمشركين ، والمجوس — مثل فرعون موسى ، ونمرود إبراهيم ؛ وغـــيرهم من البشر : معترفون بالوجود المطلق .

ولهذا : كان أفضل علوم الفلاسفة هو علم ما بعد الطبيعة ، أعنى بهم الفلاسفة المشائين الذين يتبعون « أرسطو » ، فإنه عندهم المعلم الأول الذى صنف فى أنواع التعاليم من أجزاء المنطق ، والعلم الطبيعى كالحيوان ، والمكان والسماء ، والعالم ، والآثار العلوية وصنف فيما بعد الطبيعة — وهو عندهم غاية حكمتهم . ونهاية فلسفتهم — وهو العلم الذى يسميه متأخرو الفلاسفة ـ كابن سينا : ـ (العلم الإلهى) .

وموضوع هذا العلم عند أصحابه : هو الوجود المطلق ولواحقه ، مثل الكلام فى الموجود ، والمعدوم ، ثم فى تقسيم الموجود إلى واجب وممكن . وقديم ، ومحدث ، وعلة ، ومعلول ، وجوهر ، وعرض ونحو ذلك .

ثم الكلام فى أنواع هذه الأقسام وأحكامها . مثل : تقسيم العلل إلى الأنواع الأربعة ، وهى : الفاعل ، والغاية اللذان هما سببان لوجود الشىء . والمادة والصورة اللذان هما سببان لحقيقة المركب ، وتقسيم الأعراض إلى الأجناس المقالية التسعة ، وهى : الكيف ، والكم ، والوضع ، والأين ، ومتى ، والإضافة ، والملك ، وأن يفعل ، وأن ينفعل ؛ أو جعلها خمسة على ما بينهم من الاختلاف .

وفى آخر علم ما بعد الطبيعة حرف اللام ـ كأنه هو العلة الغائية ، الذى إليه الحركة ، كما أثبت المعلم الأول وجوده بطريق الاستدلال بالحركة ـ الذى تكلم فيه المعلم الأول على واجب الوجود لذاته ؛ بكلام مختصر ذكر فيه قدرا يسيراً من أحكامه ـ وهو الذى كان يقول فيه ابن سينا[1] ـ فهذا ما عند المعلم الأول من معرفة الله .

وأما النبوات والرسل : فليس لهؤلاء فيها كلام معروف ؛ لا نفيا ولا إثباتا . وأما المتأخرون فهم ، لما ظهرت الملة الحنيفية ـ الإبراهيمية ، التوحيدية ـ تارة بنبوة عيسى ـ لما ظهرت النصارى على مملكة الصابئين بأرض الشام ، ومصر ، والروم ، وغيرها ـ ثم بنبوة خاتم المرسلين ، وأظهر الله من نور النبوة شمسا طمست ضوء الكواكب ، وعاش السلف فيها برهة طويلة ثم خفى بعض نور النبوة ؛ فعرب بعض كتب الأعاجم الفلاسفة ، من الروم ، والفرس والهند ، فى أثناء الدولة العباسية .

ثم طلبت كتبهم فى دولة المأمون من بلاد الروم ، فعربت ، ودرسها الناس ، وظهر بسبب ذلك من البدع ما ظهر ، وكان أكثر ما ظهر من علومهم الرياضية كالحساب والهيئة ، أو الطبيعة كالطب ، أو المنطقية ، فأما الإلهية : فكلامهم فيها نزر وهو مع نزارته ليس غالبه عندهم يقينا ؛ وعند المسلمين من العلوم الإلهية الموروثة عن خاتم المرسلين ما ملأ العالم نوراً وهدى

---

(١) سقط قول ابن سينا .

بل متكلموهم الذين ينسبون إلى البدع عندهم من العلم الإلهى بمقاييسهم المستخرجة أضعاف أضعاف أضعاف ما عند حذاق المتفلسفة .

ثم بعد ذلك لما صار فيهم من يتحذق على طريقتهم فى علم ما بعد الطبيعة ، كالفارابى ، وابن سينا ونحوهم ، وصنف ابن سينا كتباً زاد فيها بمقتضى الأصول المشتركة : أشياء لم يذكرها المتقدمون ، وسمى ذلك العلم الإلهى ، وتكلم فى النبوات ، والكرامات ، ومقامات العارفين ، بكلام فيه شرف ورفعة ، بالنسبة إلى كلام المتقدمين .

وإن كان عند العلوم الإلهية النبوية : فيه من القصور والتقصير والنفاق والجهل ، والضلال والكفر ، ما لا يخفى على من له أدنى بصيرة بالعلم والإيمان، وإنما راج على من سلك طريق المتفلسفة ؛ لأنه قرب إليهم معرفة الله ، والنبوات ، والمعجزات ، والولاية ، بحسب أصول الصابئة الفلاسفة — لا بحسب الحق فى نفسه — بما أشرق على جهالاتهم من نور الرسالة ، وبرهان النبوة .

كما فعله نسطور النصرانى ، الذى كان فى زمن المأمون ، الذى تنسب إليه النسطورية فى التثليث والاتحاد ؛ لكنه بما أضاء عليه من نور المسلمين أزال كثيراً من فساد عقيدة النصرانى ، وبقى عليه منها بقايا عظيمة . وكذلك يحي بن عدى النصرانى ، لما تفلسف قرب مذهب النصارى فى التثليث إلى أصول الفلاسفة فى العقل ، والعاقل ، والمعقول .

ولهذا الفلاسفة المحضة — الباقون على محض كلام المشائين — يرون أن ابن سينا صانع المليين ، لما رأوا من تقريبه ، وجهلوا فيما قالوا ، وكذبوا ، لم يصانع ، ولكن قال — بموجب الحق وبموافقة أصولهم العقلية — ماقاله من الحق الذى أقربه ، كما أن الفلاسفة الإلهيين المشائين وغيرهم متفقون على الإقرار بواجب الوجود ، وببقاء الروح بعد الموت ، وبأن الأعمال الصالحة تنفع بعد الموت ، ويخالفهم فى ذلك فلاسفة كثيرون من الطبيعيين وغيرهم ، بل وبين الإلهيين من الفلاسفة خلاف فى بعض ذلك حتى الفارابى ، وهو عندهم المعلم الثانى يقال : إنه اختلف كلامه فى ذلك .

فقال تارة ببقاء الأنفس كلها ، وتارة ببقاء النفوس العالمة دون الجاهلة . كما قاله فى آراء المدينة الفاضلة ، وتارة كذب بالأمرين ، وزعم الضال الكافر : أن النبوة خاصتها جودة تخييل الحقائق الروحانية ، وكلامهم المضطرب فى هذا الباب كثير ، ليس الغرض هنا ذكره .

وإنما الغرض أن العلم الأعلى عندهم والفلسفة الأولى علم ما بعد الطبيعة وهو الوجود المطلق ولواحقه ؛ حتى أن من له مادة فلسفية من متكلمة المسلمين — كابن الخطيب وغيره — يتكلمون فى أصول الفقه ، الذى هو علم إسلامى محض ؛ فيبنونه على تلك الاصول الفلسفية .

كقول ابن الخطيب وغيره فى أول أصول الفقه موافقة لابن سينا ومن قبله : العلوم الجزئية لا تقرر مبادئها فيها . لئلا يلزم الدور ، فإن مبدأ العلم أصوله ،

وهو لا يعرف إلا بعدها . فلو عرفت أصوله بمسائله المتوقفة على أصوله : للزم الدور بل توجد أصوله مسلمة ، ويقدر فى علم أعلى منه ، حتى ينتهى إلى العلم الأعلى الناظر فى الوجود ولواحقه ، وهذا قالوه فى مثل الطب والحساب إن الطبيب إنما هو طبيب ينظر فى بدن الحيوان ، وأخلاطه وأعضائه ليحفظه صحته إن كانت موجودة ، ويعيدها إليه إن كانت مفقودة ؛ وبدن الحيوان جزء من المولدات فى الأرض ، وكذلك أخلاطه .

فأعم منه : النظر فى المولدات من الأركان الأربعة . الماء ، والهواء ، والنار ، والأرض .

وأعم من ذلك : النظر فى الجسم المستحيل ، ثم فى الجسم المطلق ، فما من علم يتعلق بموضوع ببعض الموجودات العينية ، أو العلمية إلا وأعم منه : ما يشترك هو وغيره فيه . فأما إدخال العلم بالله الذى هو أعلى العلوم ، وأشرفها فى هذا ، وجعله جزءاً من أجزاء العلم الأعلى — عندهم — الناظر فى الوجود ولواحقه وكذلك ما يتبع ذلك من العلم بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فهذا منشأ الضلال القياسى .

ويتبين ذلك من وجوه :

أحدها : أن الله سبحانه هو الأعلى وهو الأكبر ، ولهذا : كان شعار أكمل الملل هو : الله أكبر ! فى صلواتهم وأذانهم وأعيادهم ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم لعدى بن حاتم : « ياعدى : ما يفرك ! أيفرك أن يقال لا إله إلا الله !

يا عدى ! فهل تعلم من إله إلا الله ؟ ! يا عدى ! ما يفرك ! أيفرك أن يقال : الله أكبر ! فهل تعلم شيئاً أكبر من الله » ؟ ! وبهذا : تبين صواب من قال من الفقهاء أنه لا يجوز إبدال هذه الكلمة بقولنا : الله الكبير ، مع أن كشف هذا له موضع آخر .

وقال : (سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى) فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « اجعلوها فى سجودكم ، فالله هو الأعلى ، وهو الأكبر ! . والعلم مطابق للمعلوم فيجب أن تكون معرفته وعلمه : أكبر العلوم وأعلاها .

الثانى : أن الله — سبحانه — هو الحق الموجود بنفسه ! ، وسائر ما سواه خلق من خلقه مربوب مقهور تحت قدرته ، وهو خالق الأشياء ، مسبب أسبابها ، فالعلم به أصل للعلم بما سواه وسبب ، كما أن ذاته كذلك ، و العلم بالسبب يفيد العلم بالمسبب .

الثالث : معرفة أن الوجود المطلق هو المعرفة بالقدر المشترك بينه وبين ما سواه ، وهو علم بالحد الأوسط فى قياسه على خليقته ، ومعلوم أن ذلك ليس فيه علم بحقيقته ، ولا بحقيقة ما سواه ، وإنما هو علم بوصف مشترك بينهما ، فكيف يكون العلم بوصف مشترك ، أعلى من العلم بحقيقة كل منهما ، وسائر ما يختص به عن غيره من الأنواع ، والأعيان؟.

وكذلك معرفة الذات المطلقة ، وما هو كل من الأمور المشتركة : هو من هذا الباب .

الرابع : أن الوجود المطلق ، والذات المطلقة ونحو ذلك : إما : أن يراد به الإطلاق الخاص ، وهو الذى لا يدخل فيه المقيد . كما يقال : الماء المطلق، فهذا لا وجود له فى الخارج عن العقل والذهن ، كما أن الوجود الكلى العام ، والذات الكلية العامة ؛ لا وجود لها فى الخارج ؛ وإنما يعرض للحقائق هذا العموم ، وهذا الإطلاق من حيث هى معقولة فى الأذهان ، لا من حيث هى ثابتة فى الأعيان .

فكيف يكون أعلى العلوم وأشرفها معلومه هو المثل الذهنية لا الحقائق الوجودية والمثل إنما هى تابعة لتلك ، وإلا لكانت جهلا لا علماً ؛ وإما أن يراد به الإطلاق العام ، وهو ما لا يمنع شيئاً من الدخول فيه وهو المطلق من كل قيد ، حتى عن الإطلاق . فالمطلق بهذا الاعتبار له وجود فى الخارج على القول الصحيح .

لكن لا يوجد مطلقاً لا يوجد إلا معينا ، فإما موجود مطلق بشرط الإطلاق فلا وجود له ، وهو المطلق الخاص ، فالمطلق العام لما كان يدخل فيه المقيدصح أن يوجد فى الخارج ، فإذا كان الوجود المطلق ولواحقه ليس بموجود فى الخارج مطلقاً ولا يوجد فى الخارج إلا معين امتنع أن يكون أعلى العلوم . إنما وجود معلومه فى الأذهان لا فى الأعيان .

ولو جاز ترجيح العلم بالمثل الذهنية على الحقائق الخارجية : لجاز ترجيح المثل على الحقائق ، ولكان العلم بالرب والملائكة والنبيين : أفضل من ذات الرب ، والملائكة والنبيين ، وهذا لا يقوله عاقل .

الخامس : أن القوم إنما أتوا من جهة أنهم بنوا أمرهم فى علومهم جميعاً على القياس ، ولا بد فى القياس من قضية كلية ، وحدٌّ أوسط يكون أعم من الموصوف المحكوم عليه المبتدأ الموضوع .

وما من حد وقضية إلا وثم ما هو أعم منه : مثل أن يقول الإنسان ، فأعم منه الحيوان ، فأعم منه الجسم النامى ، فأعم منه الجسم السفلى ، فأعم منه الجسم ، فأعم منه الجوهر ، فأعم منه الموجود ، سواء كان جنساً ذاتياً كما يقوله بعضهم أو وصفاً عرضياً كما يقوله الحذاق .

فلو قيل أعلى العلوم القياسية : العلوم بالموجود ولواحقه ؛ لكون معلومه أعم الموضوعات : لكان له مساغ ، ولعل هذا مرادهم .

لكن العلم القياسى لايفيد بنفسه معرفة حقيقة شىء من الأشياء الموجودة ، إلا إذا كان له نظير مماثل فيعرف أحد المثلين بنفسه ، والآخر بقياسه على نظيره وهذا القدر منتف فى العلم بالله ، لا [يوجد] مثله ونظيره ، ثم قد عارضهم المتكلمون بما هو أعلى من الوجود وهو المعلوم والمذكور فقالوا : أعلى المعلوم وأعم الأسماء والحدود : المعلوم والمذكور ، لأنه يدخل فيه الموجود والمعدوم ، بنوعى الوجود : واجبه وممكنه ، ونوعى المعدوم ممكنه وممتنعه ؛ فكان يجب أن يقال العلم الأعلى الناظر فى المعلوم ولواحقه ، وهذا أعم وأوسع

وكون الشىء معلوماً أمر يعرض له ، لاصفة ذاتية ؛ وكذلك كونه موجوداً ، إذ هو فى الحقيقة : كونه بحيث يجده الواجد ، هذا مقتضى الاسم :

وإن عنى به بعضهم كونه حقاً فى نفسه ، فهذا ليس هو حقيقته التى هى هو ، كما قد قرر هذا فى غير هذا الموضع .

وإن من قال من المتفلسفة أو المتكلمة ، إن حقيقة الرب هى وجوده أو وجوب وجوده ، أو أنهم علموا حقيقته فقد أخطأ فى ذلك خطأ قبيحاً ، وأن هذا بمنزلة من قال حقيقة سائر الكائنات كونها ممكنة ، وهؤلاء بعداء عن الله محجوبون عن معرفته ، لم يعرفوا منه إلا صفة كلية من صفاته فظنوا أنهم عرفوا حقيقته .

وبهذا يتبين لك أن من قال العلم الأعلى هو علم ما بعد الطبيعة ، وهو الناظر فى الوجود ولواحقه ؛ فإنما حقيقة ذلك أنه أعلى فى ذهن الطالب لمعرفة الله بالقياس على خلقه ؛ لا أنه أعلى فى نفسه ؛ ولا أن معلومه أعلى ، ولا أعلى عند من عرف حقائق الموجودات ، ولا أعلى عند من عرف الله بالفطرة ؛ فضلا عمن عرفه بالشرعة ؛ فضلا عمن عرفه بالولاية ؛ فضلا عمن عرفه بالوحى والنبوة ؛ فضلا عمن عرفه بالرسالة ، فضلا عمن عرفه بالكلام ؛ فضلا عمن عرفه بالرؤية .

فلما كان منتهى الفلاسفة الصابئية ، وأعلى علمهم : هو الوجود المطلق ، وكان أصل التجهم ، وتعطيل صفات الرب إنما هو مأخوذ عن الصابئة ، وكان هؤلاء الاتحادية فى الأصل جهمية ، وأنه بما فيهم من النصرانية — المشاركة للصابئة صار بينهم وبين الصابئة نسب — صار معبودهم وإلههم هو

الوجود المطلق ، وزعموا أن ذلك هو الله ، مضاهاة لما عليه خلق من قدماء الفلاسفة ، من تعطيل الصانع وإثبات الوجود المطلق ، حتى يصح قول فرعون : (وَمَارَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ) .

وإن كان الفلاسفة المسلمون لا يوافقون على ذلك ، بل يقرون بالرب الذى صدر عنه العالم ؛ لكنهم بتعظيمهم للوجود المطلق صاروا متفقين ، متقاربين ومن تأمل كلام النصير الطوسى الصابئى الفيلسوف ، وكلام الصدر القونوى النصرانى الاتحادى الفيلسوف ، وكلام الإسماعيلية فى البلاغ الأكبر ، والناموس الأعظم — الذى يقول فيه : أقرب الناس إلينا الفلاسفة ، ليس بيننا وبينهم خلاف إلا فى واجب الوجود ، فإنهم يقرون به ، ونحن ننكره — عرف ما بين هؤلاء من المناسبة .

وكذلك المراسلة التى بين الصدر والنصير ، فى إثبات النصير لواجب الوجود ، على طريقة الصابئة الفلاسفة ، وجعل الصدر ذلك هو الوجود المطلق ، لا المعين ، وأنه هو الله ، علم حقيقة ما قلته ، وعلم وجه اتفاقهم على الضلال والكفر ، وأن النصير أقرب من حيث اعترافه بالرب الصانع المتميز عن الخلق ؛ لكنه أكفر من جهة بعده عن النبوة ، والشرائع ، والعبادات . وأن الصدر أقرب من جهة تعظيمه للعبادات ، والنبوات ، والتأله ، على طريقة النصارى ؛ لكنه أكفر من حيث أن معبوده لا حقيقة له ، وإنما يعبد الوجود المطلق الذى لا حقيقة له فى الخارج .

ولهذا كان الصـدر أكفر قولا ، وأقل كفراً فى عمله ، والنصير أكفر عملا ، وأقل كفراً فى قوله ، وكلاهما كافر فى قوله وعمله ؛ ولهذا : يظهر للعقلاء من عموم المسلمين من كلام الصدر أنه إفك وزور وغرور ، مخالف لمـا جاء به الرسول ؛ كما يظهر لهم من أفعال النصير أنه مروق وإعراض عمـا جاء به الرسول ؛ ولهذا : كان النصير أقرب إلى العلماء لأن فى كلامه ما هو حق ، كما أن الصدر أقرب إلى العباد ؛ لأن فى فعاله ما هو عبادة .

وقال :-

فصـــل

وقد تفرق الناس فى هذا المقام — الذى هو غاية مطالب العباد — فطائفة من الفلاسفة ونحوهم : يظنون أن كمال النفس فى مجرد العلم ، ويجعلون العلم — الذى به تكمل ما يعرفونه هم من — علم ما بعد الطبيعة ، ويجعلون العبادات رياضة لأخلاق النفس ، حتى تستعد للعلم . فتصير النفس عالما ، معتزلا ، موازيا للعالم الموجود .

وهؤلاء ضالون ، بل كافرون من وجوه :-

منها : أنهم اعتقدوا الكمال من مجرد العلم ، كما اعتقد جهم ، والصالحى ، والأشعرى — فى المشهور من قوليه — وأكثر أتباعه : أن الإيمان بمجرد العلم ؛ لكن المتفلسفة أسوأ حالا من الجهمية ، فإن الجهمية يجعلون الإيمان هو العلم بالله ، وأولئك يجعلون كمال النفس : فى أن تعلم الوجود المطلق ، من حيث هو وجود ، والمطلق بشرط الإطلاق ، إنما يكون فى الأذهان لا فى الأعيان ، والمطلق لا بشرط لا يوجد أيضا فى الخارج إلا معينا .

وإن علموا الوجود الكلى ، المنقسم إلى واجب وممكن ، فليس لمعلوم علمهم

وجود فى الخارج ، وهكذا من تصوف وتأله على طريقتهم ، كابن عربى ، وابن سبعين ونحوهما .

وأيضا : فإن الجهمية يقرون بالرسل ، وبما جاءوا به ، [فهم فى] الجملة يقرون بأن الله خلق السموات ، والأرض ، وغير ذلك مما جاءت به الرسل ؛ بخلاف المتفلسفة .

وبالجملة : فكمال النفس ليس فى مجرد العلم ؛ بل لا بد مع العلم بالله من محبته ، وعبادته ، والإنابة إليه ، فهذا عمل النفس وإرادتها ، وذاك علمها ومعرفتها.

الوجه الثانى : أنهم ظنوا أن العلم الذى تكمل به النفس هو علمهم ، وكثير منه جهل لا علم .

الثالث : أنهم لم يعرفوا العلم الإلهى ، الذى جاءت به الرسل ، وهو العلم الأعلى ؛ الذى تكمل به النفس ، مع العمل بموجبه .

الرابع : أنهم يرون أنه إذا حصل لهم ذاك العلم : سقطت عنهم واجبات الشرع ، وأبيحت لهم محرماته ، وهذه طريقة الباطنية ، من الإسماعيلية وغيرهم ؛ مثل أبى يعقوب السجستانى ، صاحب الأقاليد الملكوتية ، وأتباعه . وطريقة من وافقهم من ملاحدة الصوفية ، الذين يتأولون قوله : (وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ) إنك تعمل حتى يحصل لك العلم ، فإذا حصل العلم سقط عنك العمل ، وقد قيل للجنيد إن قوما يقولون : إنهم يصلون من طريق البر ، إلى أن تسقط عنهم الفرائض ، وتباح لهم المحارم — أو نحو هذا الكلام — فقال : الزنا ، والسرقة ، وشرب الخمر : خير من هذا .

ومن هؤلاء من يكون طلبه للمكاشفة ونحوها ، من العلم : أعظم من طلبه لما فرض الله عليه ، ويقـــول فى دعائه : اللهم أسألك العصمة فى الحركات ، والسكنات ، والخطوات ، والإرادات ، والكلمات ؛ من الشكوك ؛ والظنون ؛ والإرادة ؛ والأوهام الساترة للقلوب ، عن مطالعة الغيوب ، وأصـل المسألة : أن [المـكنة] التى هى الـكمال عندهم من [المـكنة] [1]

وطائفة أخرى : عندهم أن الكمال فى القدرة والسلطان ، والتصرف فى الوجود : نفاذ الأمر ، والنهى ؛ إما بالملك والولاية الظاهرة ، وإما بالباطن . وتـكون عبادتهم ، ومجاهدتهم ـ لذلك ، وكثير من هؤلاء يدخل فى الشرك ، والسحر ، فيعبد الـكواكب . والأصنام ؛ لتعينه الشياطين على مقاصده ، وهؤلاء أضل وأجهل من الذين قبلهم ، وغاية من يعبد الله : يطلب خوارق العادات ، يكون له نصيب من هذا ؛ ولهذا كان منهم من يرى طائرا ومنهم من يرى ما شيا ومنهم [2] . وفيهم جهال ضلال .

وطائفة تجعل الكمال فى مجموع الأمرين ، فيدخلون فى أقوال ، وأعمال من الشرك ، والسحر ، ليستعينوا بالشياطين على ما يطلبونه ، من الأخبـار بالأمور الغائبة ، وعلى ما ينفذ به تصرفهم فى العالم .

والحق المبين : أن كمال الإنسان أن يعبد الله علما ، وعملا ، كما أمره ربه ،

---

(١) في حاشية الاصل نحو ثلاثة أسطر وكأنها تشير إلى اشتقاق هذه الكلمة وتفضيل ابن عربى للولي على النبي .

(٢) بالاصل كلمتان لم تتضحا للناسخ .

وهؤلاء هم عباد الله ، وهم المؤمنون والمسلمون ، وهم أولياء الله المتقون ، وحزب الله المفلحون ، وجند الله الغالبون ، وهم أهل العلم النافع ، والعمل الصالح ، وهم الذين زكوا نفوسهم وكملوها ، كملوا القوة النظرية ، العلمية ، والقوة الإرادية ، العملية ، كما قال تعالى : (وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ) وقال تعالى : (وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ) وقال تعالى : (ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ)وقال تعالى: (فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ) وقال تعالى : (أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ) وقال تعالى : (إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ) وقال تعالى : (إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ) .

وقال أيضا :ـ

فصل

حقيقة مذهب الاتحادية — كصاحب الفصوص ونحوه — الذى يؤول إليه كلامهم ويصرحون به فى مواضع — أن الحقائق تتبع العقائد ، وهذا أحد أقوال السوفسطائية ، فكل من قال شيئا ، أو اعتقده ؛ فهو حق فى نفس هـذا القائل المعتقد ، ولذا يجعلون الكذب حقا ، ويقولون العارف لا يكذب أحدا فإن الكذب هو أيضا أمر موجود وهو حق فى نفس الكاذب ؛ فإن اعتقده كان حقا فى اعتقاده ، وكلامه . ولو قال ما لم يعتقده [كان] حقا فى كلامه فقط .

ولهذا يأمر المحقق أن تعتقد كل ما يعتقده الخلائق ، كما قال :

عقد الخلائق فى الإله عقائدا   وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوه

ومعلوم أن الاعتقادات المتناقضة لا تكون معتقداتها فى الخارج ؛ لكن فى نفس المعتقد ، ولهذا يأمرون بالتصديق بين النقيضين والضدين ويجعلون هذا من أصول طريقهم ، وتحقيقهم ، ومعلوم أن النقيضين : لا يجتمعان فى الخارج ؛ لكن يمكن اعتقاد اجتماعهما فيكون ذلك حقا فى نفس المعتقد ، وهم يدعون أن ذلك يحصل كشفا فكشفهم متناقض ، فخاطبت بذلك بعضهم ، فقال : كلاهما

حق ، كالذى كشف له أن الزهرة فوق عطارد ، والذى كشف له أنها تحت عطارد . فقال هى من كشف هذا فوق عطارد ، وفى كشف هذا تحت عطارد ، وأمثال ذلك ، فجعلوا الحقائق الثابتة تتبع الكشف والاعتقاد ، والقول .

ولهذا يقولون سر حيث شئت ، فإن الله ثم ، وقل ما شئت فيه فإن الواسع الله .

ومضمون هذا الأصل أن كل إنسان : يقول ما شاء ويعتقد ما شاء ، من غير تمييز بين حق وباطل وصادق وكاذب ، وأنه لا ينكر فى الوجود شىء ، وهكذا يقولون . هذا من جهة الخبر ، والعلم ، وأما من جهة الأمر والعمل ، فإن محققهم يقول : ما عندنا حرام ؛ ولكن هؤلاء المحجبون قالوا حرام فقلنا حرام عليكم ، فما عندهم أمر ولا نهى ، كما قال القاضى الذى هو تلميذ صاحب الفصوص فيما أنشدنيه الشاهد ابن [عمد المقلب بعرعيه][1] :

ما الأمر إلا نسق واحد ... ما فيه من حمد ولا ذم

وإنما العادة قد خصصت ... والطبع والشارع بالحكم

وحينئذ فما يبقى للأقوال والأفعال إلا مجرد القدرة ؛ ولهذا هم يمشون مع الكون دائما فأى شىء وجد وكان : كان عندهم حقا ، فالحلال ما وجدته وحل بيدك ، والحرام ما حرمته ، والحق ما قلته كائنا ما كان ، والباطل ما لم يقله أحد . وهؤلاء شر من المباحية الملاحدة الذين يجرون مع محض القدر .

فإن أولئك يعطلون الأمر والنهى ، والثواب والعقاب ، وهؤلاء

---

(١) هكذا أحرف الأصل .

عطلوا أيضا الصانع والرسالة والحقائق كلها ، وجعلوا الحقائق بحسب ما يكشف للإنسان ، ولم يجعلوا للحقائق فى أنفسها حقائق تتحقق به ، يكون ثابتا ، وبنقيضه منتفيا ؛ بل هذا عندهم يفيده الإطلاق : ألا تقف مع معتقد ، بل تعتقد جميع ما اعتقده الناس ، فإن كانت أقوالا متناقضة فإن الوجود يسع هذا كله ، ووحدة الوجود تسع هذا كله .

ومعلوم أن الوجود إنما يسع وجود هذه الاعتقادات لا يسع تحقق المعتقدات فى أنفسها ، وهذا مما لا نزاع فيه بين العقلاء ؛ فإن الاعتقاد الباطل . والقول الكاذب : هو موجود داخل فى الوجود ؛ لكن هذا لا يقتضى أن يكون حقا وصدقا ، فإن الحق والصدق إذا أطلق على الأقوال الخبرية لا يراد به مجرد وجودها ؛ فإن هذا أمر معلوم بالحس وعلى هذا التقدير فكلها حق وصدق .

ومن المعلوم أن السائل عن حقها وصدقها : هى عنده منقسمة إلى حق وباطل ، وصدق وكذب ، والمراد بكونها حقا وصدقا : كونها مطابقة للخبر أو غير مطابقة ، ثم قد تكون مطابقة فى اعتقاد القائل دون الخارج ؛ وهذا هو الخطأ . وقد يسمى كذبا ، وقد لا يطلق عليه ذلك .

فالأول : كقول النبى صلى الله عليه وسلم « كذب أبو السنابل » وقوله : « كذب من قالها إن له لأجرين اثنين ، إنه لجاهد » مجاهد وقول عبادة : كذب أبوكم ، وقول ابن عباس : كذب نوف .

والثانى : كقوله صلى الله عليه وسلم : « لم أنس ولم تقصر » فقال له ذو اليدين بلى قد نسيت . وكأن الفرق والله أعلم : ـ أن من أخبر مع تفريطه فى الطريق الذى يعلم به صوابه وخطؤه فأخطأ سمى كاذبا ـ بخلاف من لم يفرط ـ [لأنه][1] تكلم بلا حجة ولا دليل مجازفة فأخطأ ، بخلاف من أخبر غير مفرط . وهذا الفرق يصلح أن يفرق به فيمن حلف على شىء يعتقده ، كما حلف عليه فتبين بخلافه أنه إن حلف مجازفاً بلا أصل يرجع إليه مثل من حلف أن هذا غراب أو ليس بغراب بلا مستند أصلا فبان خطأ ؛ فإن هذا يحنث وذلك يحنث ، مثل هذا و [إن] لم يعلم خطؤه وإن أصاب وهى مسئلة حلفه أنه فى الجنة وهذا كما تقول : المفتى إذا أفتى بغير علم أنه أثم وإن أصاب ، وكذلك المصلى إلى القبلة بغير اجتهاد ، وكذلك المفسر للقرآن برأيه .

ولهذا تجد هؤلاء فى أخبارهم من أكثر الناس كذبا بل الكذب كالصدق عندهم ، فيستعملونه بحسب الحاجة ، ولا يبالون إذا أخبروا عن الشىء الواحد بخبرين متناقضين، وتجدهم فى أعمالهم بحسب أهوائهم ، فيعملون العملين المتناقضين أيضاً ، إذا وافق هذا هو اهم فى وقت ، وهذا هو اهم فى وقت .

وهم دائماً مع المطاع سواء كان مؤمناً ، أو كافراً ، أو براً أو فاجراً ، أو صديقاً أو زنديقاً ، والتتار قبل إسلامهم وإن شركوهم فى هذا : فهم [أحسن منهم] فى الخبريات إذ التتار لا يخبرون عن الأمور الإلهية : بالخبرين المتناقضين بل أحدهم إما أن يعتقد الشىء علماً أو تقليداً ، أو لا يعتقد شيئاً ، فأما أن يجمع

---

(١) بالأصل « كأنه» .

بين النقيضين فلا ، فهؤلاء شر حالا من مثل التتار ، ولهذا ليس لهم عاقبة ، فإنهم ليسوا متقين يميزون بين مأمور ، ومحظور ، وصدق وكذب ، والعاقبة إنما هى للمتقين ، وإنما قيام أحدهم : بقدر ما يكون قادراً .

ومعلوم أن قدرة أحدهم لا تدوم ، بل يعمل بها من الأعمال ما يكون سبب الوبال ، ولا ريب أن هؤلاء مندرجون فى قوله تعالى : (ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ) وفى قوله : (ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ) وقوله : (وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ) وفى قوله : (مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ) وفى قوله : (صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) . وفى قوله : (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ) .

ولا ريب أن الحق نوعان : حق موجود ، وبه يتعلق الخبر الصادق ، وحق مقصود : وبه يتعلق الأمر الحكيم ، والعمل الصالح ، وضد الحق : الباطل ومن الباطل الثانى قول النبي صلى الله عليه وسلم : « كل لهو يلهو الرجل به فهو باطل إلا رميه بقوسه وتأديبه فرسه وملاعبته امرأته فإنهن من الحق » والحق الموجود إذا أخبر عنه بخلافه كان كذبا . وهؤلاء لا يميزون بين الحق والباطل ، بين الحق الموجود ، الذى ينبغى اعتقاده ، والباطل المعدوم الذى ينبغى نفيه فى الخبر

عنهما ، ولا بين الحق المقصود الذى ينبغى اعتماده ، والباطل الذى ينبغى اجتنابه ، بل يقصدون ما هووه وأمكنهم منهما .

وأصدق الحق الموجود : ما أخبر الله بوجوده ، والخبر الحق المقصود ما أمر الله به ؛ وإن شئت قلت أصدق خبر عن الحق الموجود خبر الله ، وخير أمر بالحق المقصود أمر الله . والإيمان يجمع هذين الأصلين : تصديقه فيما أخبر ، وطاعته فيما أمر . وإذا قرن بينهما قيل : (إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ) والعمل خير من القول ، كما قال الحسن البصرى : « ليس الإيمان بالتمنى ولا بالتحلى ، ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل .

سئل الشيخ :

عن جماعة اجتمعوا على أمور متنوعة فى الفساد ، وتعلق كل منهم بسبب .
ومنهم من قال : إن يونس القتات يخلص أتباعه ومريديه من سوء الحساب ، وأليم العقاب .

ومنهم من يزعم أن عليا الحريرى كان قد أعطى من الحال ما إنه إذا خلا بالنساء والمردان ، يصير فرجه فرج امرأة .

ومنهم من يدعى النبوة ، ويدعى أنه لا بد له من الظهور فى وقت ، فيعلو دينه وشريعته ، وإن من شريعته السوداء تحريم النساء ، وتحليل الفاحشة اللوطية ، وتحريم شىء من الأطعمة وغيرها ، كالتين ، واللوز ، والليمون .
وتبعه طائفة : منهم من كان يصلى فترك الصلاة ، ويجتمع به نفر مخصوصون فى كثير من الأيام الخ .

فأجاب : ـ

أما قول القائل إن يونس القتاتى يخلص أتباعه ومريديه من سوء الحساب ، وأليم العذاب يوم القيامة .

فيقال جواباً عاماً : من ادعى أن شيخاً من المشايخ يخلص مريديه يوم القيامة من العذاب : فقد ادعى أن شيخه أفضل من محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ؛ ومن قال هذا فإنه يستتاب فإن تاب وإلا قتل .

فإنه قد ثبت فى الحديث الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يافاطمة بنت محمد لا أغنى عنك من الله شيئاً ، ياصفية عمة رسول الله لا أغنى عنك من الله شيئاً يا عباس عم رسول الله لا أغنى عنك من الله شيئاً ، سلونى ما شئتم من مالى » وثبت عنه فى الصحيح أنه قال : «لا ألفين أحدكم يجىء يوم القيامةوعلى رقبته بعير له رغاء ، فيقول : يا رسول الله أغثنى ! فأقول : لا أغنى عنك من الله شيئاً قد بلغتك » الحديث بتمامه . وذكر مثل ذلك فى غير ذلك من الأقوال .

فإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول مثل هذا لأهل بيته ، وأصحابه الذين آمنوا به ، وعزروه ونصروه ؛ من المهاجرين والأنصار — يقول إنه ليس يغنى عنهم من الله شيئاً — فكيف يقال : فى شيخ غايته أن يكون من التابعين لهم بإحسان ؟ وقد قال تعالى : (وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ * ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ * يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ) وقال : (وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا) وأمثال ذلك من نصوص القرآن والسنة .

وقد علم أنه ليس للأنبياء وغيرهم يوم القيامة إلا الشفاعة . وقد ثبت فى الصحيح أن الناس يأتون آدم ليشفع فيقول : نفسى نفسى ، وكذلك يقول نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى — وهؤلاء هم أولوا العزم من الرسل —

وهم أفضل الخلق ، ويقول لهم عيسى : اذهبوا إلى محمد ، عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فإذا رأيت ربى خررت له ساجداً ، فيقول : أى محمد ! ارفع رأسك وقل يسمع ، واسأل تعط ، واشفع تشفع ، فيحد لى حداً فأدخلهم الجنة وذكر مثل ذلك فى المرة الثانية .

فهذا خير الخلق وأكرمهم على الله ، إذا رأى ربه لا يشفع حتى يسجد له ، ويحمده ، ثم يأذن له فى الشفاعة ، فيحد له حداً يدخلهم الجنة . وهذا تصديق قوله تعالى : (مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ) إلى غير ذلك من الآيات .

وقد جاء فى الحديث الصحيح : أنه تشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون ؛ لكن بإذنه فى أمور محدودة ، ليس الأمر إلى اختيار الشافع . فهذا فيمن علم أنه يشفع ، فلو قال قائل : إن محمداً يخلص كل مريديه من النار : لكان كاذباً ؛ بل فى أمته خلق يدخلون النار ، ثم يشفع فيهم ؛ وأما الشيوخ فليس لهم شفاعة كشفاعته والرجل الصالح قد يشفعه الله فيمن يشاء ، ولا شفاعة إلا فى أهل الإيمان .

وأما المنتسبون إلى الشيخ يونس : فكثير منهم كافر بالله ورسوله ، لا يقرون بوجوب الصلاة الخمس ، وصيام شهر رمضان ، وحج البيت العتيق ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ؛ بل لهم من الكلام فى سب الله ورسوله ، والقرآن والإسلام : ما يعرفه من عرفهم .

وأما من كان فيهم من عامتهم — لا يعرف أسرارهم وحقائقهم — فهذا يكون معه إسلام عامة المسلمين ، الذى استفاده من سائر المسلمين لا منهم ؛ فإن خواصهم مثل الشيخ سلول ، وجهلان ، والصهبانى وغيرهم : فهؤلاء لم يكونوا يوجبون الصلاة ؛ بل ولا يشهدون للنبي صلى الله عليه وسلم بالرسالة .

وفى أشعارهم — كشعر الكوجلى وغيره — من سب النبي صلى الله عليه وسلم ، وسب القرآن والإسلام : مالا يرضى به لا اليهود ، ولا النصارى . ثم منهم من يقول هذا الشعر ليونس . ومنهم من يقول : هو مكذوب على يونس ، لكن من المعلوم المشاهد أنهم ينشدون الكفر ويتواجدون عليه ، ويبول أحدهم فى الطعام ويقول يشرح كبدى يونس ، أوماء وَرْدِ يونس ، ويستحلون الطعام الذى فيه البول ويرون ذلك بركة .

وأما كفرياتهم : مثل قولهم وأنا حميت الحمى ، وأنا سكنت فيه ، وأنا تركت الخلائق فى مجارى التيه ، موسى على الطور لما خر لى ناجا ، وصاحب أقرب أنا جنبوه حتى جا ، يوم القيامة يرى الخلائق أفواجا ، إلى [نبيه] عيسى يقضى لهم حاجا .

ويقولون : تعالوا نخرب الجامع ونجعل منه خمارة ، ونكسر خشب المنبر ونعمل منه زنارة ، ونحرق ورق ونعمل منه طنبـــارة ، ننتف لحية القاضى ونعمل منه أوتاره . أنا حملت على العرش حتى صج ، وأنا صرخت فى محمد حتى هج ، وأن البحار السبعة من هيبتى ترتج .

وأمور أخر أعظم من هـذا وأعظم من أن تذكر ؛ لمـا فيها من الـكفر الذى هو أعظم من قول الذين قالوا : إن لله ولدا .

وأما قول القائل إن من الشيوخ من كان يتحول فرجه فرج امرأة : فـكذب مختلق ، بل فى طريقه من المنـكرات المخالفة لدين الإسـلام ما يعرفه من يعرف دين الإسلام ، وأصحابه ينقلون عنه كفريات سطروها عنه ، كقوله : لو قتلت سبعين نبياً ما كنت مخطئاً ، ومعلوم أن قتل نبى واحد من أعظم الـكفر، وفى الحديث المرفوع عن النبى صلى الله عليه وسلم « أشد الناس عذاباً يوم القيامة من قتل نبياً أو قتله نبى » .

وإذا قيل : هذا قاله مشاهدة للحقيقة ، القدرية الـكونية . أن الله خالق أفعال العباد كان العذر أقبح من الذنب ؛ فإنه لو كان القدر حجة : لم يكن على إبليس وفرعون وسائر الـكفار ملام ، لافى الدنيا ولا فى الآخرة ، وهذا المحتج بالقدر لو تعدى عليه أحـد لقاتله ، وغضب عليه . فإن كان القدر حجة : فهو حجة يفعـل به ما يريد ، وإن لم يكن حجة لم يؤذ آدمياً ، فـكيف يكون حجة لمن يكـفر بالله ورسوله ؟ .

وآدم عليه السلام إنما حج موسى لأن موسى لامه لمـا أصابه من المصيبة ، لم يلمه لحق الله تعالى فى الذنب ، فإن آدم تاب والتـائب من الذنب كمن لا ذنب له ، بل قال له : بمـاذا أخرجتنا ونفسك من الجنة ؟ قال : تلومنى على أمر قدره الله على قبل أن أخلق بأربعين سنة ؟ ! فحج آدم موسى .

وكذا يؤمر كل من أصابه مصيبة من جهة أبيه وغيره ، أن يسلم لقدر الله ، كما قال تعالى : (وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ) . قال علقمة : هو الرجل تصيبه المصيبة ، فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم . وأما الذنوب : فعلى العبد أن لا يفعلها ، فإن فعلها فعليه أن يتوب منها ، فمن تاب وندم أشبه أباه آدم ، ومن أصر واحتج أشبه عدوه إبليس . قال الله تعالى : (فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ) فالمؤمن مأمور أن يصبر على المصائب ، ويستغفر من الذنوب والمعائب .

فصل

وأما الذى يدعى النبوة ، وأنه يبيح الفاحشة اللوطية ، ويحرم النكاح ، وما ذكر من ذلك : فهذا أمر أظهر من أن يقال عنه ؛ فإنه من الكافرين ، وأخبث المرتدين ، وقتل هذا ومن اتبعه واجب بإجماع المسلمين ، والواحد من هؤلاء إما أن يخاطب بالحجة لعل الله أن يتوب عليه ويهديه ؛ وإما أن يقام عليه الحد فيقتل . فمن كان قادراً على أحد الأمرين لزمه ذلك ، ومن عجز عن هذا وهذا فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها ؛ لكن عليه أن يعرف المعروف ويحبه وينكر المنكر ويبغضه ، ويفعل ما يقدر عليه من الأمرين — من الأمر والنهى — كما قال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه . وليس وراء ذلك من الإيمان مثقال ذرة » . والله سبحانه وتعالى أعلم .

المسئول من إحسان شيخ الإسلام

مفتي الأنام (تقى الدين) ـ أثابه الله الجنة ـ

أن يفتينا فى رجلين تشاجرا فى هذين البيتين المذكورين ؛

وهما قول القائل :—

الرب حق والعبد حق ياليت شعرى من المكلف ؟

إن قلت عبد فذاك ميت أو قلت رب أنى يكلف ؟ !

فقال أحد الرجلين : هذا القول كفر ؛ فإن القائل جعل الرب والعبد حقاً واحداً ليس بينهما فرق ، وأبطل التكليف . فقال له الرجل الثانى : ما فهمت المعنى ، ورميت القائل بما لم يعتقده ويقصده ، فإن القائل قال : الرب حق ، والعبد حق ؛ أى الرب حق فى ربوبيته ، والعبد حق فى عبوديته ، فلا الرب عبداً ، ولا العبد رباً كما زعمت .

ثم قال : —

ياليت شعرى من المكلف ؟ مع علمه أن التكليف حق .

لحار لمن ينسبه فى القيام به ، فقال : إن قلت عبد فذاك ميت . والميت : ليس له من نفسه حركة ؛ بل من غيره يقلبه كما يشاء ، وكذلك العبد — وإن كان

حياً — فإنه مع ربه : كالميت مع الغاسل ليس له من نفسه فعل بغير الله ؛ لأنه سبحانه لو لم يقو العبد على القيام بالتكليف : لما قدر على ذلك . فالفعل لله حقيقة . وللعبد مجازاً ، ودليل ذلك قول لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ؛ أى لا حول عن المعصية ، ولا قوة على الطاعة : إلا بالله .

وقد علم أن الرب ليس عليه تكليف ؛ لأنه لا مكلف له ، والعبد ليس يقوم بما كلف به إلا بالله ، والتكليف حق .

فتعجب القائل عند شهوده لهذه الحال ! وحار فى ذلك مع الإقرار به ، وأنه على العبد حق ، فما ينبغى لعاقل أن يقع فيمن لا يفهم كلامه ، بل التقصير من الفهم القصير ، فمع أيهما الحق ؟

فأجاب شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه

ونور ضريحه — فقال :

الحمد لله . كلام هذا الشانى كلام باطل ، وخوض فيما لم يحط بعلمه ، ولم يعرف حقيقته ، ولا هو عارف بحقيقة قول ابن عربى وأصله ؛ الذى تفرع منه هذا الشعر وغيره ، ولا هو أخذ بمقتضى هذا اللفظ ومدلوله .

فأما أصل ابن عربى فهو أن الوجود واحد . وأن الوجود الواجب هو عين الوجود الممكن ، والقول بأن المعدوم شىء ، وأعيان المعدومات ثابتة فى العدم ، ووجود الحق فاض عليها ، فوجود كل شىء عين وجود الحق عنده ، وهذا مبسوط فى غير هذا الموضع .

ولهذا قال : ولما كان فرعون فى منصب التحكم صاحب الوقت ، وأنه الخليفة بالسيف ، وإن جار فى العرف الناموسى لذلك قال : (أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ) أى وإن كان الكل أرباباً بنسبة ما ، فأنا الأعلى منهم ، بما أعطيته فى الظاهر من الحكم فيكم ، ولما علمت السحرة صدقه فيما قال : لم ينكروه ، وأقروا له بذلك . فقالوا له : اقض ما أنت قاض ، إنما تقضى هذه الحياة الدنيا ، والدولة لك ، فصح قول فرعون : (أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ) وإن كان عين الحق .

قال : ومن أسمائه الحسنى العلى ؛ على من ! وما ثم إلا هو ؛ وعن ما ذا ، وما هو إلا هو . إلى قوله : ومن عرف ما قررناه فى الأعداد ، وأن نفيها عين إثباتها ، علم أن الحق المنزه هو الخلق المشبه ، فالأمر الخالق المخلوق ، والأمر المخلوق هو الخالق ، كل ذلك من عين واحدة ، لا بل هو العين الواحدة .

وقال : ألا ترى أن الحق يظهر بصفات الخلق ؟ فكل صفات الحق حق له ، كما أن صفات المحدثات حق للخالق ونحو ذلك ، مما يكثر فى كلامه ، وهذا الرجل له ترتيب فى سلوكه ، من جنس ترتيب الملاحدة ، القرامطة . فأول ما يظهر اعتقاد معتزلة الكلابية ، الذين ينفون الصفات الخبرية ، ويثبتون الصفات السبعة ، أو الثمانية ، ثم بعد ذلك اعتقاد الفلاسفة ، الذين ينفون الصفات ويثبتون وجوداً واجباً مجرداً ، صدرت عنه الممكنات .

ثم بعد هـذا يجعل هذا الوجود هو وجود كل موجود ، فليس عنده وجودان : أحدهما واجب ، والآخر ممكن . ولا أحدهما خالق ، والآخر مخلوق ، بل عين الوجود الواجب هو عين الوجود الممكن ، مع تعدد المراتب ، والمراتب عنده هى الأعيان الثابتة فى العدم ، على زعم من يقول : إن المعدوم شىء ، ولا ريب أن من جعل المعدوم شيئاً ثابتاً فى الخارج عن الذهن : فقوله باطل .

لـكن أولئك يقولون : إن الخالق جعل لهذه الأعيان وجودا مخلوقاً ، وابن عربى يقول : بل نفس وجوده فاض عليها ، فهى مفتقرة إليه فى وجوده ، وهو مفتقر إلى ثبوتها ، ولهذا قال : فيعبدنى وأعبده ، ويحمدنى وأحمده ، ولهـذا امتنع التكليف عنده ، فإن التكليف يكون من مكلف لمكلف ، أحدهما آمراً والآخر مأموراً ، فامتنع التكليف .

ولهـذا مثل ما يوجد من الكلام ، والسمع : بقول النبى صلى الله عليه وسلم : « إن الله تجاوز لأمتى عما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به ، أو تعمل به » فلما كان المحدث هنا هو المحدث : جعل هذا مثلا لوجود الرب ، فعنده كل كلام فى الوجود كلامه ، وهو المتكلم عنده ، وهو المستمع .

ولهذا يقول :

إن قلت عبد فذاك ميت .

وفى موضع آخر رأيته بخطه .

إن قلت عبد فذاك نفى .

لأن العبد ليس له عنده وجود مخلوق ، بل وجوده هو الوجود الواجب القديم عنده ، وهذا مبسوط فى غير هذا الموضع .

فإن كلام الرجل يفسر بعضه بعضاً ، وهذا الأصل — وهو القول بوحدة الوجود — قوله وقول ابن سبعين ، وصاحبه الششترى ، والتلمسانى ، والصدر القونوى ، وسعيد الفرغانى ، وعبد الله البليانى ، وابن الفارض صاحب نظم السلوك ، وغير هؤلاء من أهل الإلحاد ، القائلين بالوحدة والحلول والاتحاد .

وأما مدلول هذا الشعر : فإن قوله :

ياليت شعرى من المكلف ؟ :

استفهام إنكار للمكلف

ثم قال :

* إن قلت عبد فذاك ميت *

وفى موضع آخر قال فذاك نفى . وكلاهما باطل ؛ فإن العبد موجود وثابت ليس بمعدوم منتف ؛ ولكن الله هو الذى جعله موجودا ثابتاً ، وهذا هو دين المسلمين، أن كل ماسوى الله مخلوق لله موجود، بجعل الله له وجوداً ؛ فليس لشىء من الأشياء وجود إلا بإيجاد الله له ، وهو باعتبار نفسه لا يستحق إلا العدم[1]

موجوداً حياً ناطقاً فاعلا مريداً قادراً ؛ بل هذا كله[2] لا يمنع ثبوت ذواتها ، وصفاتها ، وأفعالها .

(١ ، ٢) بياض بالأصل .

فهو سبحانه هو الذى جعل الحى حياً ، بل هو الذى جعل المسلم مسلماً ، والمصلى مصلياً ، كما قال الخليل : (رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ) وقال : (رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى) .

وهذه مسألة خلق أفعال العبيد ، وهى مذهب أهل السنة والجماعة ، مع اتفاقهم على أن العبد مأمورمنهى ، مثاب معاقب ، موعود متوعد ، وهو سبحانه — الذى جعل الأبيض أبيض ، والأسود أسود ، والطويل طويلا ، والقصير قصيرا ، والمتحرك متحركا ، والساكن ساكناً ، والرطب رطباً ، واليابس يابساً ، والذكر ذكراً ، والأنثى أنثى ، والحلو حلوا ، والمر مراً .

ومع هذا فالأعيان تتصف بهـذه الصفات ، والله تعالى خالق الذوات وصفاتها ، فأى عجب من اتصاف الذات المخلوقة بصفاتها ؟ ومن أين يكون الله خالق ذلك كله بالحق ؟ فإذا قال القائل : الرب حق والعبد حق : فإن أراد به أن هذا الحق هو عين هـذا : فهذا هو الاتحاد والإلحاد ، وهـذا هو الذى ينافى التكليف ؛ وإن أراد أن العبد حق مخلوق ، خلقه الخالق : فهذا مذهب المسلمين ، وذلك لا ينافى أن يكون الخالق ممكناً للمخلوق ، كما أنه خالق له.

وقوله : إن قلت عبد فذاك ميت. كذب ، فإن العبد ليس بميت ، بل هو حى أحياه الله تعالى ، كما قال تعالى : (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ) والله لا يكلف الميت ، وإنما يكلف الحى ؛ وإذا قيل إنه أراد بقوله ميت أنه باعتبار نفسه لا حياة له . قيل : تفسير مراده بهذا فاسد لفظاً ومعنى ، أما اللفظ فلأن كلامه لا يقتضى ذلك ، وأما المعنى فلأنه إذا فسر ذلك لم يناف التكليف .

فإذا كان ميتاً ـ لولا إحياء الله ـ وقد أحياه الله ، فقد صار حياً بإحياء الله له ؛ وحينئذ فالله إنما كلف حياً لم يكلف ميتاً ، وأما أقوال إخوان الملاحدة والمحامين عنهم أنه قال : ليت شعرى من المكلف ؟ مع علمه بأن التكليف حق لخار لمن ينسبه فى القيام به . فقال : إن قلت عبد فذاك ميت . والميت : ليس له من نفسه حركة ؛ بل من غيره يقلبه كما يشاء .

وكذلك العبد — وإن كان حياً — فإنه مع ربه كالميت مع الغاسل ، ليس له من نفسه فعل بغير الله . فيقال لهم : هذا العذر باطل من وجوه :

أحدها : لأنه لا حيرة هنا ؛ بل المكلف هو العبد بلا امتراء ولا حيرة ، فإن الله يمتنع أن يكون هو المكلف بالصيام ، والطواف ، ورمى الجمار ؛ بل هو الآمر بذلك ، والعبد هو المأمور بذلك ، ومن حار هل المأمور بذلك الله أو العبد ؟ فهو إما يكون فاسد العقل مجنوناً ، وإما فاسد الدين ملحداً زنديقا .

وكون الله خالقاً للعبد ولفعله : لا يمنع أن يكون العبد هو المأمور المنهى ؛ فإنه لم يقل أحد قط إن الله هو الذى يركع ، ويسجد ، ويطوف ، ويرمى الجمار ، ويصوم شهر رمضان ؛ بل جميع الأمة متفقون على أن العبد هو الراكع ؛ الساجد ، الصائم ، العابد ، لا نزاع فى ذلك بين أهل السنة والقدرية .

الثانى : أن قوله إن العبد — وإن كان حياً — فإنه مع ربه كالميت مع الغاسل : ليس بصحيح ؛ فإن الميت ليس له إحساس ، ولا إرادة ؛ لما يقوم

به من الحركة ، ولا قدرة على ذلك ، ولا يوصف بأنه يحب الفعل ، أو يبغضه ، أو يريده ، أو يكرهه ، ولاأنه يركع ويسجد ، ويصوم ويحج ، ويجاهد العدو .

وقول من قال بهذا : لا يحمد الميت على فعل الغاسل ، ولا يذم ولا يثاب ولا يعاقب ، وأما العبد فإن الله جعله حياً مريداً ، قادراً فاعلا ، وهو يصوم ويصلى ، ويحج ويقتل ، ويزنى باختياره ومشيئته ، والله خالق ذاته وصفاته وأفعاله ، فله مشيئة والله خالق مشيئته ، كما قال تعالى : (لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ) .

وله قدرة ، والله خالق قدرته ، وهو مصل صائم ، حاج معتمر ، والله خالقه وخالق أفعاله ، فتمثيله بالميت تمثيل باطل .

الثالث أن يقال : إن كان كالميت مع الغاسل ، فيكون الغاسل هو المكلف فيكون الله هو المكلف ، فيلزم أن يكون الرب هو المكلف .

الرابع : أن عقلاء بنى آدم متفقون على ما فطرهم الله عليه ، من أن العبد الحى يؤمر وينهى ، ويحمد ويذم على أفعاله الاختيارية ، متفقون على أن من احتج بالقدر على ظلمه وفواحشه : لم يقبل ذلك منه ، فلو ظلم ظالم لغيره : لم يقبل أحد منه أن يدفع عن نفسه الملام بالقدر . وأما الميت فليس فى العقلاء من يذمه ، ولا يأمره ولا ينهاه ، فكيف يقاس هذا بهذا ؟ .

وأما قول القائل : فإن الله لو لم يقوِّ العبد على التكليف : لما قدر على ذلك

فكلام صحيح ؛ لكن ليس فيه ما ينافى أن يكون مكلفاً ، مأموراً منهياً ، مصليا صائماً ، قاتلا زانياً .

وأما قوله : فالفعل لله حقيقة ، وللعبد مجاز . فهذا كلام باطل ، بل العبد هو المصلى الصائم ، الحاج المعتمر المؤمن ، وهو الكافر الفاجر ، القاتل الزانى ، السارق حقيقة ، والله تعالى لا يوصف بشيء من هذه الصفات ، بل هو منزه عن ذلك ؛ لكنه هو الذى جعل العبد فاعلا لهذه الأفعال ، فهذه مخلوقاته ومفعولاته حقيقة ، وهى فعل العبد أيضا حقيقة .

ولكن طائفة من أهل الكلام — المثبتين للقدر — ظنوا أن الفعل هو المفعول ، والخلق هو المخلوق ؛ فلما اعتقدوا أن أفعال العباد مخلوقة مفعولة لله : قالوا فهى فعله . فقيل لهم مع ذلك : أهى فعل العبد ؟ فاضطربوا ؛ فمنهم من قال : هى كسبه لا فعله ، ولم يفرقوا بين الكسب والفعل بفرق محقق . ومنهم من قال : بل هى فعل بين فاعلين . ومنهم من قال : بل الرب فعل ذات الفعل ، والعبد فعل صفاته .

والتحقيق ما عليه أئمة السنة ، وجمهور الأمة ؛ من الفرق بين الفعل والمفعول ، والخلق والمخلوق ؛ فأفعال العباد هى كغيرها من المحدثات مخلوقة ، مفعولة لله . كما أن نفس العبد وسائر صفاته مخلوقة ، مفعولة لله ، وليس ذلك نفس خلقه وفعله ، بل هى مخلوقة ومفعولة ، وهذه الأفعال هى فعل العبد القائم به ، ليست قائمة بالله ، ولا يتصف بها فإنه لا يتصف بمخلوقاته ومفعولاته ؛

وإنما يتصف بخلقه وفعله ، كما يتصف بسائر ما يقوم بذاته ، والعبد فاعل لهذه الأفعال ، وهو المتصف بها ، وله عليها قدرة ، وهو فاعلها باختياره ومشيئته ، وذلك كله مخلوق لله ، فهي فعل العبد ، وهي مفعولة للرب .

لكن هذه الصفات : لم يخلقها الله بتوسط قدرة العبد ، ومشيئته ؛ بخلاف أفعاله الاختيارية ، فإنه خلقها بتوسط خلقه لمشيئة العبد وقدرته ، كما خلق غير ذلك ؛ من المسببات بواسطة أسباب أخر ، وهذا مبسوط في غير هذا الموضع ؛ ولكن هذا قدر ما وسعته هذه الورقة . والله أعلم .

ما تقول السادة العلماء ـ أئمة الدين

وهداة المسلمين : ـــ

فى كتاب بين أظهر الناس ، زعم مصنفه أنه وضعه وأخرجه للناس بإذن النبي صلى الله عليه وسلم ، فى منام زعم أنه رآه ; وأكثر كتابه ضد لما أنزله الله ، من كتبه المنزلة . وعكس وضد عن أقوال أنبيائه المرسلة ; فمما قال فيه : إن آدم عليه السلام : إنما سمى إنساناً لأنه للحق تعالى بمنزلة إنسان العين من العين ، الذى يكون به النظر .

وقال فى موضع آخر : إن الحق المنزه هو الخلق المشبه . وقال فى قوم نوح عليه السلام : إنهم لو تركوا عبادتهم لود ، وسواع ، ويغوث ، ويعوق ، ونسرا : لجهلوا من الحق بقدر ما تركوا من هؤلاء . ثم قال : فإن للحق فى كل معبود وجهاً ، يعرفه من عرفه ، ويجهله من جهله . فالعالم يعلم من عبد ، وفى أى صورة ظهر حتى [عبد] وإن التفريق والكثرة : كالأعضاء فى الصورة المحسوسة .

ثم قال فى قوم هود عليه السلام: بأنهم حصلوا فى عين القرب ، فزال البعد، فزال مسمى جهنم فى حقهم ففازوا بنعيم القرب ، من جهة الاستحقاق مما أعطاهم هذا المقام الذوقى اللذيذ ، من جهة المنة ، فإنما أخذوه بما استحقته حقائقهم من أعمالهم ، التى كانوا عليها ، وكانوا على صراط الرب المستقيم .

ثم إنه أنكر فيه حكم الوعيد ، فى حق كل من حقت [عليه] كلمة العذاب من سائر العبيد ، فهل يكفر من يصدقه فى ذلك أم لا ؟ أو يرضى به منه أم لا ؟ وهل يأثم سامعه إذا كان عاقلا بالغاً ولم ينكره بلسانه أو بقلبه أم لا ؟ أفتونا بالوضوح والبيان ، كما أخذ الميثاق للتبيان ، فقد أضر الإهمال بالضعفاء والجهال ، وبالله المستعان وعليه الاتكال ، أن يعجل بالملحدين النكال ؛ لصلاح الحال ، وحسم مادة الضلال .

فأجاب : —

الحمد لله — هذه الكلمات المذكورة ، المنكورة : كل كلمة منها هى من الكفر ، الذى لا نزاع فيه بين أهل الملل ؛ من المسلمين ؛ واليهود والنصارى ؛ فضلا عن كونه كفراً فى شريعة الإسلام .

فإن قول القائل : إن آدم للحق تعالى بمنزلة إنسان العين من العين ، الذى يكون به النظر : يقتضى أن آدم جزء من الحق تعالى وتقدس ، وبعض منه ، وأنه أفضل أجزائه وأبعاضه ؛ وهذا هو حقيقة مذهب هؤلاء القوم ، وهو معروف من أقوالهم .

الكلمة الثانية : توافق ذلك ، وهو قوله : إن الحق المنزه ، هو الخالق المشبه .

ولهذا قال فى تمام ذلك : فالأمر الخالق المخلوق ، والأمر المخلوق الخالق ، كل ذلك من عين واحدة ، لا بل هو العين الواحدة ، وهو العيون الكثيرة (فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ) (يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ) والولد عين أبيه ، فما رأى يذبح

سوى نفسه ، ففديناه بذبح عظيم ، فظهر بصورة كبش : من ظهر بصورة إنسان وظهر بصورة ؛ لابحكم ولد من هو عين الوالد ، (وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا) ، فما نكح سوى نفسه .

وقال فى موضع : وهو الباطن عن كل فهم ، إلا عن فهم من قال : إن العالم صورته وهويته .

وقال : ومن أسمائه الحسنى العلى ، على من ! وما ثم إلا هو ، وعن ماذا ! وما هو إلا هو ، فعلوه لنفسه ، وهو من حيث الوجود عين الموجودات .

فالمسمى محدثات هى العلية لذاتها ، وليست إلا هو . إلى أن قال : فهو عين ما ظهر ، وهو عين ما بطن فى حال ظهوره ، وما ثم من يراه غيره ، وما ثم من ينطق عنه سواه ، فهو ظاهر لنفسه باطن عنه — وهو المسمى أبو سعيد الخراز — وغير ذلك من أسماء المحدثات .

إلى أن قال : فالعلى لنفسه : هو الذى يكون له الكمال ، الذى يستغرق به جميع الأمور الوجودية ، والنسب العدمية ، سواء كانت محمودة عرفاً وعقلا وشرعاً ، أو مذمومة عرفاً وعقلا وشرعاً ، وليس ذلك إلا لمسمى الله خاصة . وقال : ألا ترى الحق يظهر بصفات المحدثات؟ وأخبر بذلك عن نفسه ، وبصفات النقص والذم ، ألا ترى المخلوق يظهر بصفات الحق ؟! فهى من أولها إلى آخرها صفات له ، كما هى صفات المحدثات حق للحق ، وأمثال هذا الكلام .

فإن صاحب هذا الكتاب المذكور الذى هو (فصوص الحكم) وأمثاله

مثل صاحبه القونوى ، والتلمسانى ، وابن سبعين ، والششترى ، وابن الفارض وأتباعهم ؛ مذهبهم الذى هم عليه : أن الوجود واحد ؛ ويسمون أهل وحدة الوجود ، ويدعون التحقيق والعرفان ، وهم يجعلون وجود الخالق عين وجود المخلوقات ، فكلما يتصف به المخلوقات من حسن ، وقبيح ، ومدح ، وذم ، إنما المتصف به عندهم : عين الخالق ، وليس للخالق عندهم وجود مباين لوجود المخلوقات منفصل عنها أصلا ؛ بل عندهم ما ثم غير أصلا للخالق ، ولا سواه .

ومن كلماتهم : ليس إلا الله . فعباد الأصنام لم يعبدوا غيره عندهم ، لأنه ما عندهم له غير ؛ ولهذا جعلوا قوله تعالى : (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ) بمعنى قدر ربك أن لا تعبدوا إلا إياه ؛ إذ ليس عندهم غير له تتصور عبادته ، فكل عابد صنم إنما عبد الله .

ولهذا جعل صاحب هذا الكتاب : عباد العجل مصيبين ، وذكر أن موسى أنكر على هارون إنكاره عليهم عبادة العجل . وقال : كان موسى أعلم بالأمر من هارون ؛ لأنه علم ما عبده أصحاب العجل ؛ لعلمه بأن الله قد قضى أن لا يعبدوا إلا إياه ، وما حكم الله بشىء إلا وقع ؛ فكان عتب موسى أخاه هارون ، لما وقع الأمر فى إنكاره ، وعدم اتباعه ، فإن العارف من يرى الحق فى كل شىء ، بل يراه عين كل شىء .

ولهذا يجعلون فرعون من كبار العارفين ، المحققين ، وأنه كان مصيباً فى دعواه الربوبية . كما قال فى هذا الكتاب : ولما كان فرعون فى منصب التحكم صاحب الوقت ، وأنه جار فى العرف الناموسى لذلك . قال : (أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ)

أى وإن كان الكل أرباباً بنسبة ما : فأنا الأعلى منهم ؛ بما أعطيته فى الظاهر من الحكم فيهم .

ولما علمت السحرة صدق فرعون فيما قاله : لم ينكروه. بل أقروا له بذلك وقالوا له : (فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ) فالدولة لك . فصح قول فرعون : (أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ) وأنه كان عين الحق .

ويكفيك معرفة بكفرهم : أن من أخف أقوالهم أن فرعون مات مؤمناً ؛ بريا من الذنوب كما قال : وكان موسى قرة عين لفرعون بالإيمان ، الذى أعطاه الله عند الغرق ، فقبضه طاهراً مطهراً ، ليس فيه شىء من الخبث ، لأنه قبضه عند إيمانه قبل أن يكتسب شيئاً من الآثام، والإسلام يجب ماقبله .

وقد علم بالاضطرار من دين أهل الملل المسلمين ، واليهود ، والنصارى : أن فرعون من أكفر الخلق بالله ؛ بل لم يقص الله فى القرآن قصة كافر باسمه الخاص ، أعظم من قصة فرعون ، ولا ذكر عن أحد من الكفار من كفره ، وطغيانه وعلوه : أعظم مما ذكر عن فرعون .

وأخبر عنه وعن قومه أنهم يدخلون أشد العذاب ، فإن لفظ آل فرعون : كلفظ آل ابراهيم ، وآل لوط ، وآل داود ، وآل أبى أوفى ؛ يدخل فيها المضاف باتفاق الناس ، فإذا جاءوا إلى أعظم عدو لله من الإنس ، أو من هو من أعظم أعدائه : فجعلوه مصيباً ، محقاً فيما كفره به الله : علم أن ما قالوه أعظم من كفر اليهود والنصارى ، فكيف بسائر مقالاتهم ؟ .

وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها : على أن الخالق تعالى بائن من مخلوقاته، ليس فى ذاته شىء من مخلوقاته ، ولا فى مخلوقاته شىء من ذاته .

والسلف والأئمة كفروا الجهمية لما قالوا إنه فى كل مكان ، وكان مما أنكروه عليهم : أنه كيف يكون فى البطون ، والحشوش ، والأخلية ؟ تعالى الله عن ذلك . فكيف بمن يجعله نفس وجود البطون ، والحشوش ، والأخلية ، والنجاسات ، والأقذار ؟ .

واتفق سلف الأمة وأئمتها : أن الله ليس كمثله شىء ، لا فى ذاته ، ولا فى صفاته . ولا فى أفعاله ، وقال : من قال من الأئمة من شبه الله بخلقه فقد كفر ، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر ، وليس ما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيهاً .

وأين المشبهة المجسمة من هؤلاء ؟ فإن هؤلاء غاية كفرهم : أن يجعلوه مثل المخلوقات .

لكن يقولون : هو قديم ، وهى محدثة ، وهؤلاء جعلوه عين المخلوقات ، وجعلوه نفس الأجسام المصنوعات ، ووصفوه بجميع النقائص والآفات ، التى يوصف بهما كل كافر ، وكل فاجر ، وكل شيطان ، وكل سبع ، وكل حية من الحيات ، فتعالى الله عن إفكهم وضلالهم ، وسبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً .

والله تعالى ينتقم لنفسه ، ولدينه ، ولكتابه ولرسوله ، ولعباده المؤمنين منهم .

وهؤلاء يقولون : إن النصارى إنما كفروا لتخصيصهم ؛ حيث قالوا : (إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ) كل ما قالته النصارى فى المسيح : يقولونه فى الله ، وكفر النصارى جزء من كفر هؤلاء .

ولما قرءوا هذا الكتاب المذكور على أفضل متأخريهم ؛ قال له قائل : هذا الكتاب يخالف القرآن . فقال : القرآن كله شرك . وإنما التوحيد فى كلامنا هذا : يعنى أن القرآن يفرق بين الرب والعبد ، وحقيقة التوحيد عندهم أن الرب هو العبد ؛ فقال له القائل : فأى فرق بين زوجتى وبنتى إذاً ؟ قال : لا فرق ، لكن هؤلاء المحجوبون قالوا حرام ؛ فقلنا حرام عليكم .

وهؤلاء إذا قيل فى مقالتهم أنها كفر : لم يفهم هذا اللفظ حالها ، فإن الكفر جنس تحته أنواع متفاوتة ، بل كفر كل كافر جزء من كفرهم ؛ ولهذا قيل لرئيسهم أنت نصيرى . فقال : نصير جزء منى ، وكان عبد الله بن المبارك يقول : إنا لنحكى كلام اليهود والنصارى ، ولا نستطيع أن نحكى كلام الجهمية ، وهؤلاء شر من أولئك الجهمية ، فإن أولئك كان غايتهم القول بأن الله فى كل مكان، وهؤلاء قولهم إنه وجود كل مكان ؛ ما عندهم موجودان ، أحدهما حال والآخر محل .

ولهذا قالوا : إن آدم من الله بمنزلة إنسان العين من العين ، وقد علم المسلمون ، واليهود ، والنصارى ؛ بالاضطرار من دين المرسلين : أن من قال عن أحد من البشر إنه جزء من الله فإنه كافر فى جميع الملل إذ النصارى لم تقل هذا

— وإن كان قولها من أعظم الكفر — لم يقل أحد أن عين المخلوقات هى جزء الخالق ، ولا أن الخالق هو المخلوق ، ولا الحق المنزه هو الخلق المشبه .

وكذلك قوله : إن المشركين لو تركوا عبادة الأصنام لجهلوا من الحق : بقدر ما تركوا منها : هو من الكفر المعلوم بالاضطرار من جميع الملل ، فإن أهل الملل متفقون على أن الرسل جميعهم نهوا عن عبادة الأصنام ، وكفروا من يفعل ذلك ، وأن المؤمن لا يكون مؤمناً حتى يتبرأ من عبادة الأصنام ، وكل معبود سوى الله ، كما قال الله تعالى : (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ) .

وقال الخليل : (أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ) وقال الخليل : (لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ) وقال الخليل — وهو إمام الحنفاء الذى جعل الله فى ذريته النبوة والكتاب واتفق أهل الملل على تعظيمه لقوله — (يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ) .

وهذا أكثر وأظهر ، عند أهل الملل من اليهود ، والنصارى — فضلا عن المسلمين — من أن يحتاج أن يستشهد عليه بنص خاص ، فمن قال : إن عباد الأصنام لو تركوهم لجهلوا من الحق بقدر ما تركوا من هؤلاء ، فهو أكفر من

اليهود والنصارى ، ومن لم يكفرهم فهو أكفر من اليهود والنصارى ، فإن اليهود والنصارى يكفرون عباد الأصنام ، فكيف من يجعل تارك عبادة الأصنام جاهلا من الحق بقدر ما ترك منها ؟ مع قوله : فإن العالم يعلم من عبد ، وفى أى صورة ظهر حتى عبد ، وأن التفريق والكثرة كالأعضاء فى الصورة المحسوسة ، وكالقوى المعنوية فى الصورة الروحانية ، فما عبد غير الله فى كل معبود ، بل هو أعظم من كفر عباد الأصنام ، فإن أولئك اتخذوهم شفعاء ، ووسائط ، كما قالوا : (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ) . وقال الله تعالى : (أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ) .

وكانوا مقرين بأن الله خالق السموات والأرض ، وخالق الأصنام ، كما قال تعالى : (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ) وقال تعالى : (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ) .

قال ابن عباس : تسألهم من خلق السموات والأرض فيقولون الله ، ثم يعبدون غيره ، وكانوا يقولون فى تلبيتهم : لبيك لا شريك لك ، إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك ؛ ولهذا قال تعالى : (ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ) .

وهؤلاء أعظم كفراً ، من جهة أن هؤلاء جعلوا عابد الأصنام عابداً لله لا عابداً لغيره ، وأن الأصنام من الله ؛ بمنزلة أعضاء الإنسان من الإنسان ،

وبمنزلة قوى النفس من النفس ؛ وعباد الأصنام : اعترفوا بأنها غيره ، وأنها مخلوقة ، ومن جهة أن عباد الأصنام من العرب : كانوا مقرين بأن للسموات والأرض رباً غيرهما خلقهما ، وهؤلاء ليس عندهم للسموات ، والأرض ، وسائر المخلوقات رب مغاير للسموات والأرض ، وسائر المخلوقات ، بل المخلوق هو الخالق .

ولهذا جعل قوم عاد ، وغيرهم من الكفار على صراط مستقيم ، وجعلهم فى عين القرب ، وجعل أهل النار يتمتعون فى النار ، كما يتمتع أهل الجنة فى الجنة .

وقد علم بالاضطرار من دين الإسلام : أن قوم عاد وثمود ، وفرعون وقومه ، وسائر من قص الله قصته من الكفار أعداء الله ، وأنهم معذبون فى الآخرة ، وأن الله لعنهم وغضب عليهم ، فمن أثنى عليهم وجعلهم من المقربين ومن أهل النعيم : فهو أكفر من اليهود والنصارى ، من هذا الوجه .

وهذه الفتوى لا تحتمل بسط كلام هؤلاء ، وبيان كفرهم وإلحادهم ، فإنهم من جنس القرامطة الباطنية ، والإسماعيلية ، الذين كانوا أكفر من اليهود والنصارى ، وأن قولهم يتضمن الكفر بجميع الكتب والرسل ، كما قال الشيخ إبراهيم الجعبرى ، لما اجتمع بابن عربى — صاحب هذا الكتاب — فقال : رأيته شيخا نجساً ، يكذب بكل كتاب أنزله الله ، وبكل نبى أرسله الله .

وقال الفقيه أبو محمد بن عبد السلام — لما قدم القاهرة وسألوه عنه — قال : هو شيخ سوء كذاب مقبوح ، يقول بقدم العالم ، ولا يحرم فرجا ، فقوله : يقول بقدم العالم ؛ لأن هذا قوله ، وهذا كفر معروف ، فكفره الفقيه أبو محمد بذلك ، ولم يكن بعد ظهر من قوله : إن العالم هو الله ، وإن العالم صورة الله، وهوية الله، فإنهذا أعظممن كفرالقائلين بقدم العالم، الذين يثبتون واجب الوجود ، ويقولون إنه صدر عنه الوجود الممكن .

وقال عنه من عاينه من الشيوخ : إنه كان كذاباً مفتريا ، وفى كتبه — مثل الفتوحات المكية وأمثالها — من الأكاذيب ما لا يخفى على لبيب — هذا وهو أقرب إلى الإسلام من ابن سبعين ، ومن القونوى ، والتلمسانى ، وأمثاله من أتباعه ، فإذا كان الأقرب بهذا الكفر — الذى هو أعظم من كفر اليهود والنصارى — فكيف بالذين هم أبعد عن الإسلام ؟ ولم أصف عشر ما يذكرونه من الكفر

ولكن هؤلاء التبس أمرهم على من لم يعرف حالهم ، كما التبس أمر القرامطة الباطنية لما ادعوا أنهم فاطميون ، وانتسبوا إلى التشيع ، فصار المتبعون مائلين إليهم ، غير عالمين بباطن كفرهم .

ولهذا كان من مال إليهم أحد رجلين : إما زنديقاً منافقاً ؛ وإما جاهلا ضالا .

وهكذا هؤلاء الاتحادية : فرؤوسهم هم أئمة كفر يجب قتلهم ، ولا تقبل توبة

أحد منهم ، إذا أخـذ قبل التوبة ، فإنه من أعظم الزنادقة ، الذين يظهرون الإسلام ، ويبطنون أعظم الـكفر ، وهم الذين يفهمون قولهم ، ومخالفتهم لدين المسلمين ، ويجب عقوبة كل من انتسب إليهم ، أو ذب عنهم ، أو أثنى عليهم ، أو عظم كتبهم ، أو عرف بمساعدتهم ومعاونتهم ، أو كره الكلام فيهم ، أو أخذ يعتذر لهم بأن هذا الكلام لا يدرى ما هو أو من قال إنه صنف هذا الـكتاب وأمثال هذه المعاذير ، التى لا يقولها إلا جاهل ، أو منافق ؛ بل تجب عقوبة كل من عرف حالهم ، ولم يعاون على القيام عليهم ، فإن القيام على هؤلاء من أعظم الواجبات ؛ لأنهم أفسدوا العقول والأديان ، على خلق من المشايخ والعلماء ، والملوك والأمراء ، وهم يسعون فى الأرض فساداً ، ويصدون عن سبيل الله .

فضررهم فى الدين : أعظم من ضرر من يفسد على المسلمين دنياهم ، ويترك دينهم كقطاع الطريق ، وكالتتار الذين يأخذون منهم الأموال ، ويبقون لهم دينهم ، ولا يستهين بهم من لم يعرفهم ، فضلالهم وإضلالهم : أعظم من أن يوصف ، وهم أشبه الناس بالقرامطة الباطنية .

ولهذا هم يريدون دولة التتار ، ويختارون انتصارهم على المسلمين ، إلا من كان عامياً من شيعهم وأتباعهم ؛ فإنه لا يكون عارفاً بحقيقة أمرهم .

ولهذا يقرون اليهود والنصارى على ما هم عليه ، ويجعلونهم على حق ، كما يجعلون عباد الأصنام على حق ، وكل واحدة من هذه من أعظم الـكفر ، ومن

كان محسناً للظن بهم — وادعى أنه لم يعرف حالهم — عرف حالهم ، فإن لم يباينهم ويظهر لهم الإنكار ، وإلا ألحق بهم وجعل منهم .

وأما من قال لكلامهم تأويل يوافق الشريعة ؛ فإنه من رؤوسهم وأئمتهم ؛ فإنه إن كان ذكياً فإنه يعرف كذب نفسه فيما قاله ، وإن كان معتقداً لهذا باطناً وظاهراً فهو أكفر من النصارى ، فمن لم يكفر هؤلاء ، وجعل لكلامهم تأويلا كان عن تكفير النصارى بالتثليث ، والاتحاد أبعد . والله أعلم .

وقال شيخ الإسلام

أحمد بن تيمية – قدس الله روحه :–


[1]

الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين

وأشهد أن لا إله إلا الله الأحد الحق المبين .

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله خاتم النبيين .

صلى الله عليه وسلم تسليما كثيراً ، وعلى سائر إخوانه المرسلين .

أما بعد : فقد وصل كتابك ، تلتمس فيه بيان مذهب هؤلاء الاتحادية وبيان بطلانه ، وأنك كنت قد سمعت مني بعض البيان لفساد قولهم ، وضاق الوقت بك عن استتمام بقية البيان ، وأعجلك السفر ؛ حتى رأيت عندكم بعض من ينصر قولهم ، ممن ينتسب إلى الطريقة والحقيقة ، وصادف مني كتابك موقعاً ، ووجدت محلا قابلا .

وقد كتبت بما أرجو أن ينفع الله به المؤمنين ويدفع به بأس هؤلاء

---

(١) هذه الرسالة : تسمى « حقيقة مذهب الاتحاديين أو وحدة الوجود » .

الملاحدة المنافقين ، الذين يلحدون فى أسماء الله وآياته المخلوقات والمنزلات فى كتابه المبين ، ويبين الفرق بين ما عليه أهل التحقيق واليقين ، من أهل العلم والمعرفة المهتدين ، وبين ما عليه هؤلاء الزنادقة المتشبهين بالعارفين ، كما تشبه بالأنبياء من تشبه من المتنبئين ، كما شبهوا بكلام الله ما شبهوه به من الشعر المفتعل وأحاديث المفترين ، ليتبين أن هؤلاء من جنس الكفار المنافقين المرتدين ، أتباع فرعون والقرامطة الباطنيين ، وأصحـــاب مسيلمة والعنسى ونحوهما من المفترين ، وأن أهل العلم والإيمان من الصديقين والشهداء والصالحين ، سواء كانوا من المقربين السابقين ، أو من المقتصدين أصحاب اليمين ، هم من أتباع إبراهيم الخليل ، وموسى الكليم ، ومحمد المبعوث إلى الناس أجمعين .

قد فرق الله فى كتابه المبين الذى جعله حاكما بين الناس فيما اختلفوا فيه من الحق ، بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، والمؤمنين والكافرين ، وقال تعالى: (أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ) وقال : (أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ) وقال : (أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) .

وقد بين حال من تشبه بالأنبياء وبأهل العلم والإيمان ، من أهل الكذب والفجور الملبوس عليهم اللابسين ، وأخبر أن لهم تنزلا ووحيا ولكن من الشياطين، فقال : (وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ

إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ) وقال تعالى : (هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ).

وأخبر أن كل من ارتد عن دين الله فلا بد أن يأتى الله بدله بمن يقيم دينه المبين ، فقال : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ) .

وذلك أن مذهب هؤلاء الملاحدة فيما يقولونه من الكلام ، وينظمونه من الشعر بين حديث مفترى ، وشعر مفتعل . وإليهما أشار أبو بكر الصديق رضى الله عنه لما قال له عمر بن الخطاب فى بعض ما يخاطبه به : ياخليفة رسول الله تألف الناس . فأخذ بلحيته وقال : يا ابن الخطاب ، أجباراً فى الجاهلية خواراً فى الإسلام ؟ علام أتألفهم ؟ أعلى حديث مفترى ؟ أم شعر مفتعل ؟ يقول : إنى لست أدعوهم إلى حديث مفترى كقرآن مسيلمة ، ولا شعر مفتعل كشعر طليحة الأسدى .

وهذان النوعان : هما اللذان يعارض بهما القرآن أهل الفجور والإفك المبين ، قال تعالى : (فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ * إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ)

وقال تعالى : (وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ)
إلى قوله (وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ) إلى آخر السورة .

فذكر فى هذه السورة علامة الكهان الكاذبين ، والشعراء الغاوين ، ونزهه عن هذين الصنفين ، كما فى سورة الحاقة . وقال تعالى (إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ) إلى آخر السورة . فالرسول هنا جبريل ، وفى الآية الأولى محمد صلى الله عليه وسلم ؛ ولهذا نزه محمداً هناك عن أن يكون شاعراً أو كاهناً ، ونزه هنا الرسول إليه أن يكون من الشياطين .

فصـــــل

إعلم — هداك الله وأرشدك — أن تصور مذهب هؤلاء كاف في بيان فساده لا يحتاج مع حسن التصور إلى دليل آخر ، وإنما تقع الشبهة لأن أكثر الناس لا يفهمون حقيقة قولهم وقصدهم ، لما فيه من الألفاظ المجملة والمشتركة ، بل وهم أيضاً لا يفهمون حقيقة ما يقصدونه ويقولونه ، ولهذا يتناقضون كثيراً فى قولهم ، وإنما ينتحلون شيئاً ويقولونه أو يتبعونه .

ولهذا قد افترقوا بينهم على فرق ، ولا يهتدون إلى التمييز بين فرقهم ، مع استشعارهم أنهم مفترقون .

ولهذا لما بينت لطوائف من أتباعهم ورؤسائهم حقيقة قولهم ، وسر مذهبهم ، صاروا يعظمون ذلك ، ولولا ما أقْرِنُه بذلك من الذم والرد لجعلونى من أئمتهم ، وبذلوا لى من طاعة نفوسهم وأموالهم ما يجل عن الوصف ، كما تبذله النصارى لرؤسائهم ، والإسماعيلية لكبرائهم ، وكما بذل آل فرعون لفرعون .

وكل من يقبل قول هؤلاء فهو أحد رجلين : إما جاهل بحقيقة أمرهم ، وإما ظالم يريد علواً فى الأرض وفساداً ، أو جامع بين الوصفين . وهذه حال

أتباع فرعون الذين قال الله فيهم (فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ) .

وحال القرامطة مع رؤسائهم .

وحال الكفار والمنافقين فى أئمتهم الذين يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون (إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا) إلى قوله (وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا) وقال تعالى (وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا) إلى قوله : (وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ) .

فصـــــل

حقيقة قول هؤلاء : أن وجود الكائنات هو عين وجود الله تعالى ليس وجودها غيره ولا شيء سواه ألبتة ، ولهذا من سماهم حلولية أو قال هم قائلون بالحلول رأوه محجوبا عن معرفة قولهم ، خارجا عن الدخول إلى باطن أمرهم ، لأن من قال : إن الله يحل فى المخلوقات فقد قال بأن المحل غير الحال ، وهـذا تثنية عندهم وإثبات لوجودين :

أحدهما : وجود الحق الحال .

والثانى : وجود المخلوق المحل وهم لا يقرون بإثبات وجودين ألبتة .

ولا ريب أن هذا القول أقل كفراً من قولهم ، وهو قول كثير من الجهمية الذين كان السلف يردون قولهم ، وهم الذين يزعمون أن الله بذاته فى كل مكان . وقد ذكره جماعات من الأئمة والسلف عن الجهمية وكفروهم به ، بل جعلهم خلق من الأئمة — كابن المبارك ويوسف بن أسباط وطائفة من أهـل العلم والحديث من أصحاب أحمد وغيره — خارجين بذلك عن الثنتين والسبعين فرقـة . وهو قول بعض متكلمة الجهمية وكثير من متعبديهم .

ولا ريب أن إلحـاد هؤلاء المتأخرين وتجهمهم وزندقتهم تفريع وتكميل لإلحاد هذه الجهمية الأولى وتجهمها وزندقتها .

وأما وجه تسميتهم اتحادية ففيه طريقان (أحدهما) لا يرضونه لأن الاتحاد على وزن الاقتران والاقتران، يقتضى شيئين اتحد أحدهما بالآخر وهم لا يقرون بوجودين أبدا (والطريق الثانى) صحة ذلك بناء على أن الكثرة صارت وحدة كما سأبينه من اضطرابهم.

وهذه الطريقة إما على مذهب ابن عربى فإنه يجعل الوجود غير الثبوت ويقول إن وجود الحق قاض على ثبوت الممكنات، فيصح الاتحاد بين الوجود والثبوت، وأما على قول من لا يفرق فيقول إن الكثرة الخيالية صارت وحدة بعد الكشف أو الكثرة العينية صارت وحدة إطلاقية.

فصـــــل

ولما كان أصلهم الذى بنوا عليه : أن وجـود المخلوقات والمصنوعات ، حتى وجود الجن والشياطين ، والكافرين والفاسقين ، والكلاب والخنازير ، والنجاسات والكفر ، والفسوق والعصيان : عين وجود الرب ، لا أنه متميز عنه منفصل عن ذاته ، وإن كان مخلوقا له مربوباً مصنوعا له قائما به .

وهم يشهدون أن فى الكائنات تفرقا وكثرة ظاهرة بالحس والعقل ، فاحتاجوا إلى جمع يزيل الكثرة ، ووحدة ترفع التفرق مع ثبوتها فاضطربوا على ثلاث مقالات .

أنا أبينها لك وإن كانوا هم لا يبين بعضهم مقالة نفسه ومقالة غيره ، لعدم كمال شهود الحق وتصوره .

المقالة الأولى

﴿ مقالة ابن عربي صاحب فصوص الحكم ﴾

وهى مع كونها كفراً فهو أقربهم إلى الإسلام لما يوجد فى كلامه من الكلام الجيد كثيراً ، ولأنه لا يثبت على الاتحاد ثبات غيره ، بل هو كثير الاضطراب فيه ، وإنما هو قائم مع خياله الواسع الذى يتخيل فيه الحق تارة والباطل أخرى . والله أعلم بما مات عليه . فإن مقالته مبنية على أصلين :—

أحدهما : أن المعدوم شىء ثابت فى العدم ، موافقة لمن قال ذلك من المعتزلة والرافضة .

وأول من ابتدع هذه المقالة فى الإسلام : أبو عثمان الشحام شيخ أبى على الجبائى ، وتبعه عليها طوائف من القدرية المبتدعة من المعتزلة والرافضة ، وهؤلاء يقولون إن كل معدوم يمكن وجوده فإن حقيقته وماهيته وعينه ثابتة فى العدم ؛ لأنه لولا ثبوتها ؛ لما تميز عن المعلوم المخبر عنه من غير المعلوم المخبر عنه ، ولما صح قصد ما يراد إيجاده ، لأن القصد يستدعى التمييز ، والتمييز لا يكون إلا فى شىء ثابت .

لكن هؤلاء وإن ابتدعوا هذه المقالة التى هى باطلة فى نفسها ، وقد كفرهم

بها طوائف من متكلمة السنة — فهم يعترفون بأن الله خلق وجودها ، ولا يقولون إن عين وجودها عين وجود الحق .

وأما صاحب الفصوص وأتباعه فيقولون : عين وجودها عين وجود الحق ، فهى متميزة بذواتها الثابتة فى العدم ، متحدة بوجود الحق القائم بها . وعامة كلامه ينبنى على هذا لمن تدبره وفهمه .

وابن عربى إذا جعل الأعيان ثابتة لزمه وجود كل ممكن وليس هذا قول المعتزلة فهذا فرق ثالث .

وهؤلاء القائلون بأن المعدوم شيء ثابت فى العدم - سواء قالوا بأن وجودها خلق لله أو هو الله - يقولون إن الماهيات والأعيان غير مجعولة ولا مخلوقة ، وإن وجود كل شيء قدر زائد على ماهيته ، وقد يقولون الوجود صفة للموجود .

وهذا القول وإن كان فيه شبه بقول القائلين بقدم العالم ، أو القائلين بقدم مادة العالم وهيولاه المتميزة عن صورته فليس هو إياه ، وإن كان بينهما قدر مشترك ؛ فإن هذه الصورة المحدثة من الحيوانات والنبات والمعادن ليست قديمة باتفاق جميع العقلاء ، بل هى كائنة بعد أن لم تكن .

وكذلك الصفات والأعراض القائمة بأجسام السموات ، والاستحالات القائمة بالعناصر ، من حركات الكواكب ، والشمس والقمر والسحاب

والمطر ، والرعد والبرق وغير ذلك ، كل هذا حادث غير قديم ، عند كل ذى حس سليم ؛ فإنه يرى ذلك بعينه .

والذين يقولون بأن عين المعدوم ثابتة فى القدم أو بأن مادته قديمة يقولون بأن أعيان جميع هذه الأشياء ثابتة فى القدم ، ويقولون إن مواد جميع العالم قديمة دون صوره .

واعلم أن المذهب إذا كان باطلا فى نفسه لم يمكن الناقد له أن ينقله على وجه يتصور تصوراً حقيقياً ؛ فإن هذا لا يكون إلا للحق . فأما القول الباطل فإذا بين فبيانه يظهر فساده ، حتى يقال كيف اشتبه هذا على أحد ويتعجب من اعتقادهم إياه ، ولا ينبغى للإنسان أن يعجب ، فما من شىء يتخيل من أنواع الباطل إلا وقد ذهب إليه فريق من الناس ، ولهذا وصف الله أهل الباطل بأنهم أموات وأنهم (صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ) وأنهم (لَا يَفْقَهُونَ) وأنهم (لَا يَعْقِلُونَ) وأنهم (إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ * يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ) وأنهم (فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ) وأنهم (يَعْمَهُونَ) .

وإنما نشأ — والله أعلم — الاشتباه على هؤلاء من حيث رأوا أن الله — سبحانه — يعلم ما لم يكن قبل كونه - أو - (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ) فرأوا أن المعدوم الذى يخلقه يتميز فى علمه وإرادته وقدرته ؛ فظنوا ذلك لتميز ذات له ثابتة وليس الأمر كذلك .

وإنما هو متميز فى علم الله وكتابه ، والواحد منا يعلم الموجود ، والمعدوم

الممكن ، والمعدوم المستحيل ، ويعلم ما كان كآدم والأنبياء ، ويعلم ما يكون كالقيامة والحساب ، ويعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون ، كما يعلم ما أخبر الله به عن أهل النار (وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ) وأنهم (وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ) وأنه (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا) وأنه (لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا) وأنهم (لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا) وأنه (وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا) ونحو ذلك من الجمل الشرطية التى يعلم فيها انتفاء الشرط أو ثبوته .

فهذه الأمور التى نعلمها نحن ونتصورها : إما نافين لها أو مثبتين لها فى الخارج أو مترددين ليس بمجرد تصورنا لها يكون لأعيانها ثبوت فى الخارج عن علمنا وأذهاننا ، كما نتصور جبل ياقوت وبحر زئبق ، وإنساناً من ذهب وفرساً من حجر ؛ فثبوت الشىء فى العلم والتقدير ليس هو ثبوت عينه فى الخارج بل العالم يعلم الشىء ويتكلم به ويكتبه وليس لذاته فى الخارج ثبوت ولا وجود أصلا .

وهذا هو تقدير الله السابق لخلقه ، كما فى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة » .

وفى سنن أبى داود عن عبادة بن الصامت عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أول ما خلق الله القلم فقال : اكتب قال : رب وما أكتب ؟ قال : اكتب

ما هو كائن إلى يوم القيامة » وقال ابن عباس : « إن الله خلق الخلق وعلم ماهم عاملون ، ثم قال لعلمه « كن كتابا » فكان كتابا ؟ ثم أنزل تصديق ذلك فى كتابه فقال : (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ) .

وهذا هو معنى الحديث الذى رواه أحمد فى مسنده عن ميسرة الفجر قال : قلت يا رسول الله متى كنت نبيـاً ، وفى رواية متى كتبت نبياً ؟ — قال . « وآدم بين الروح والجسد » هكذا لفظ الحديث الصحيح .

وأما ما يرويه هؤلاء الجهال : كابن عربى فى الفصوص وغيره من جهـال العامة « كنت نبياً وآدم بين المـاء والطين » « كنت نبياً وآدم لا ماء ولا طين » فهذا لا أصل له ولم يروه أحد من أهل العلم الصادقين ، ولا هو فى شيء من كتب العلم المعتمدة بهذا اللفظ بل هو باطل ، فإن آدم لم يكن بين المـاء والطين قط ، فإن الله خلقه من تراب ، وخلط التراب بالمـاء حتى صار طيناً ، وأيبس الطين حتى صار صلصالا كالفخار ، فلم يكن له حال بين المـاء والطين مركب من المـاء والطين ، ولو قيل بين المـاء والتراب لكان أبعد عن المحال ، مع أن هذه الحال لا اختصاص لها ، وإنما قال ، « بين الروح والجسد » وقال « وإن آدم لمنجدل فى طينته » لأن جسد آدم بقى أربعين سنة قبـــل نفخ الروح فيه كما قال تعالى : (هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ) الآية : وقال تعالى : (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ) الآيتين . وقال تعالى : (ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ) الآيتين وقال تعالى : (إِذْ قَالَ رَبُّكَ

﴿ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴾ الآية . والأحاديث فى خلق آدم ونفخ الروح فيه مشهورة فى كتب الحديث والتفسير وغيرهما .

فأخبر صلى الله عليه وسلم أنه كان نبيا أى كتب نبيا وآدم بين الروح والجسد . وهذا — والله أعلم — لأن هذه الحالة فيها يقدر التقدير الذى يكون بأيدى ملائكة الخلق ، فيقدر لهم ويظهر لهم ، ويكتب ما يكون من المخلوق قبل نفخ الروح فيه ، كما أخرج الشيخان فى الصحيحين وفى سائر الكتب الأمهات : حديث الصادق المصدوق ، وهو من الأحاديث المستفيضة ، التى تلقاها أهل العلم بالقبول وأجمعوا على تصديقها ؛ وهو حديث الأعمش عن زيد بن وهب عن عبد الله بن مسعود قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق : « إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله الملك فيؤمر بأربع كلمات فيقال : اكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح ـ وقال ـ فوالذى نفسى بيده إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة » :

فلما أخبر الصادق المصدوق : أن الملك يكتب رزقه وعمله وأجله وشقى أو سعيد بعد خلق الجسد وقبل نفخ الروح ، وآدم هو أبو البشر كان أيضا من المناسب لهذا أن يكتب بعد خلق جسده ، وقبل نفخ الروح فيه ما يكون

منه ، ومحمد صلى الله عليه وسلم سيد ولد آدم ؛ فهو أعظم الذرية قدراً وأرفعهم ذكرا .

فأخبر صلى الله عليه وسلم أنه كتب نبيا حينئذ ، وكتابة نبوته هو معنى كون نبوته ؛ فإنه كون فى التقدير الكتابى ، ليس كونا فى الوجود العينى ، إذ نبوته لم يكن وجودها حتى نبأه الله تعالى على رأس أربعين سنة من عمره صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى له : (وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا) الآية . وقال : (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ) ؟ الآية . وقال : (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ) الآية .

ولذلك جاء هذا المعنى مفسراً فى حديث العرباض بن سارية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنى عبد الله مكتوب خاتم النبيين وإن آدم لمنجدل فى طينته ، وسأخبركم بأول أمرى : دعوة إبراهيم ، وبشارة عيسى ، ورؤيا أمى التى رأت حين وضعتنى وقد خرج لها نور أضاءت لها منه قصور الشام » هذا لفظ الحديث من رواية ابن وهب .

حدثنا معاوية بن صالح عن سعيد بن سويد عن عبد الأعلى بن هلال السلمى عن العرباض رواه البغوى فى شرح السنة هكذا ، ورواه الليث بن سعد عنه نحوه ، ورواه الإمام أحمد فى المسند عن ابن مهدى : حدثنا معاوية بن صالح بالإسناد عن العرباض قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنى عبد الله خاتم النبيين وإن آدم لمنجدل فى طينته وسأنبئكم بأول ذلك : دعوة أبى إبراهيم ، وبشارة عيسى ، ورؤيا أمى التى رأت ، وكذلك أمهات النبيين يرين » وقوله

« لمنجدل فى طينته » أى ملتف ومطروح على وجـه الأرض صورة من طين لم تجر فيه الروح بعد .

وقد روى أن الله كتب اسمـه على العرش وعلى ما فى الجنة من الأبواب والقباب والأوراق ، وروى فى ذلك عدة آثار توافق هذه الأحاديث الثابتة ، التى تبين التنويه باسمه وإعلاء ذكره حينئذ .

وقد تقدم لفظ الحديث الذى فى المسند عن ميسرة الفجر لمـا قيل له متى كنت نبيا ؟ قال « وآدم بين الروح والجسد » وقـد رواه أبو الحسين بن بشران من طريق الشيخ أبى الفرج بن الجوزى فى (الوفا ، بفضائل المصطفى) صلى الله عليه وسلم : حدثنا أبو جعفر محمد بن عمرو حدثنا أحمد بن إسحاق بن صالح ثنا محمد ابن صالح ثنا محمد بن سنان العوفى ثنا إبراهيم بن طهمان عن يزيد بن ميسرة عن عبد الله بن سفيان عن ميسرة قال قلت : يا رسول الله ، متى كنت نبيا ؟ قال « لما خلق الله الأرض واستوى إلى السماء فسواهن سبع سموات ، وخلق العرش : كتب على ساق العرش محمد رسول الله خاتم الأنبياء ، وخلق الله الجنة التى أسكنها آدم وحواء ، فكتب اسمى على الأبواب والأوراق ، والقباب والخيام وآدم بين الروح والجسد ، فلما أحياه الله تعالى : نظر إلى العرش فرأى اسمى فأخبره الله أنه سيد ولدك ، فلما غرهما الشيطان تابا واستشفعا باسمى إليه » .

وروى أبو نعيم الحافظ فى كتاب دلائل النبوة : ومن طريق الشيخ أبى الفرج حدثنا سليمان بن أحمد ثنا أحمد بن رشدين ثنا أحمد بن سعيد الفهرى

ثنا عبد الله بن إسماعيل المدنى عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر ابن الخطاب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لما أصاب آدم الخطيئة رفع رأسه فقال يارب بحق محمد إلا غفرت لى ، فأوحى إليه وما محمد؟ ومن محمد؟ فقال : يارب إنك لما أتممت خلقى رفعت رأسى إلى عرشك فإذا عليه مكتوب : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فعلمت أنه أكرم خلقك عليك ، إذ قرنت اسمه مع اسمك . فقال : نعم ، قد غفرت لك وهو آخر الأنبياء من ذريتك ولولاه ما خلقتك » فهذا الحديث يؤيد الذى قبله وهما كالتفسير للأحاديث الصحيحة .

وفى الصحيحين عن عائشة قالت : « أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحى الرؤيا الصادقة ، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء ، فكان يأتى غار حراء فيتحنث فيه - وهو التعبد - الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ، ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى فجأه الحق ، وهو بحراء ، فأتاه الملك فقال له : اقرأ . قال : لست بقارئ . قال : فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى ، فقال : اقرأ . فقلت : لست بقارئ قال فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ فقلت . لست بقارئ ، ثم أخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى ، فقال : (ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ) فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ترجف بوادره » الحديث بطوله .

فقد أخبر فى هذا الحديث الصحيح أنه لم يكن قارئاً ، وهذه السورة أول ما أنزل الله عليه وبها صار نبياً ، ثم أنزل عليه سورة المدثر ، وبها صار

رسولا لقوله : (قم فأنذر) ولهذا ذكر سبحانه فى هذه السورة الوجود العينى والوجود العلمى ، وهذا أمر بين يعقله الإنسان بقلبه لا يحتاج فيه إلى سمع ، فإن الشيء لا يكون قبل كونه .

وأما كون الأشياء معلومة لله قبل كونها : فهذا حق لا ريب فيه ، وكذلك كونها مكتوبة عنده أو عند ملائكته ، كما دل على ذلك الكتاب والسنة وجاءت به الآثار .

وهذا العلم والكتاب : هو القدر الذى ينكره غالية القدرية ، ويزعمون أن الله لا يعلم أفعال العباد إلا بعد وجودها وهم كفار ، كفرهم الأئمة كالشافعى وأحمد وغيرهما .

وقد بين الكتاب والسنة هذا القدر وأجاب النبي صلى الله عليه وسلم عن السؤال الوارد عليه ، وهو ترك العمل لأجله ، فأجاب صلى الله عليه وسلم عن ذلك . ففى الصحيحين عن على بن أبى طالب قال : كنا فى جنازة فى بقيع الغرقد فأتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقعد وقعدنا حوله ، ومعه مخصرة فنكس فجعل ينكت بمخصرته ثم قال « مامنكم من أحد ـ أو قال ـ ما من نفس منفوسة إلا قد كتب الله مكانها من الجنة والنار ، وإلا قد كتبت شقية أو سعيدة » قال فقال رجل : يا رسول الله أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل ، فمن كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة ، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة ؟ فقال : « اعملوا فكل ميسر : أما أهل السعادة

فيسرون لعمل أهل السعادة ، وأما أهل الشقاوة فيسرون لعمل أهل الشقاوة — ثم قرأ (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ) إلى آخر الآيات » وفى رواية : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم جالساً وفى يده عود ينكت به الأرض فرفع رأسه فقال : « ما منكم من نفس إلا وقد علم منزلها من الجنة والنار » قالوا يا رسول الله ففيم العمل ؟ أفلا نتكل ؟ قال : « لا : اعملوا فكل ميسر لما خلق له — ثم قرأ (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ) الآية » .

وفى الصحيحين أيضاً عن عمران بن حصين قال : قيل يا رسول الله ، أعُلم أهل الجنة من أهل النار ؟ قال « نعم » قال فقيل : ففيم يعمل العاملون ؟ فقال « كل ميسر لما خلق له » وفى رواية : أن رجلين من مزينة أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالا : يارسول الله ، أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه ، أشيء قضى عليهم ومضى فيهم من قدر قد سبق ، أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم وثبت الحجة عليهم ؟ فقال « لا . بل شيء قضى عليهم ومضى فيهم ، وتصديق ذلك فى كتاب الله : (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) » .

وفى صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله قال : جاء سراقة بن مالك بن جعشم قال : يا رسول الله ، بين لنا ديننا كأنا خلقنا الآن ، فيم العمل اليوم ؟ أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير ؟ أم فيما يستقبل ؟ قال « لا بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير » قال : ففيم العمل ؟ قال « اعملوا فكل ميسر » .

وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « كتب الله مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة — قال : وعرشه على الماء » .

وفى سنن أبى داود عن عبادة بن الصامت أنه قال لابنه : يابنى ، إنك لن تجد طعم حقيقة الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن أول ماخلق الله القلم فقال له : اكتب ، قال : رب ، ما أكتب؟ قال اكتب مقادير كل شىء حتى تقوم الساعة» يا بنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «من مات على غير هذا فليس منى » ورواه الترمذى من وجه آخر عن الوليد بن عبادة أنه قال : دعانى — يعنى أباه — عند الموت فقال : يا بنى اتق الله ، واعلم أنك إن تتق الله تؤمن بالله وتؤمن بالقدر كله ، خيره وشره ، وإن مت على غير هذا دخلت النار ، إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن أول ما خلق الله القلم فقال اكتب ، قال ما أكتب ؟ قال اكتب القدر ، ما كان وما هو كائن إلى الأبد » .

وفى الترمذى أيضاً عن أبى حزامة عن أبيه أن رجلا أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال أرأيت رقى نسترقيها ودواء نتداوى به وتقاة نتقيها ، هل ترد من قدر الله تعالى شيئاً ؟ قال « هى من قدر الله » .

لكن إنما ثبتت فى التقدير المعدوم الممكن الذى سيكون ، فأما المعدوم

الممكن الذى لا يكون فمثل إدخال المؤمنين النار وإقامة القيامة قبل وقتها ، وقلب الجبال يواقيت ونحو ذلك ، فهذا المعدوم ممكن وهو شىء ثابت فى العدم عند من يقول المعدوم شىء ، ومع هذا فليس بمقدر كونه ، والله يعلمه على ما هو عليه ، يعلم أنه ممكن وأنه لا يكون .

وكذلك الممتنعات مثل شريك البارى وولده ، فإن الله يعلم أنه لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، ويعلم أنه ليس له شريك فى الملك ولا ولِىٌّ من الذل ، ويعلم أنه حى قيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ، ويعلم أنه لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض .

وهذه المعدومات الممتنعة : ليست شيئاً باتفاق العقلاء مع ثبوتها فى العلم ، فظهر أنه قد ثبت فى العلم ما لا يوجد وما يمتنع أن يوجد إذ العلم واسع ؛ فإذا توسع المتوسع وقال المعدوم شىء فى العلم أو موجود فى العلم أو ثابت فى العلم فهذا صحيح ، أما أنه فى نفسه شىء فهذا باطل ؛ وبهذا تزول الشبهة الحاصلة فى هذه المسئلة .

والذى عليه أهل السنة والجماعة وعامة عقلاء بنى آدم من جميع الأصناف : أن المعدوم ليس فى نفسه شيئا وأن ثبوته ووجوده وحصوله شىء واحد ، وقد دل على ذلك الكتاب والسنة والإجماع القديم ، قال الله تعالى لزكريا : (وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا) فأخبر أنه لم يك شيئاً ، وقال تعالى : (أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا)وقال تعالى : (أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ)؟ .

فأنكر عليهم اعتقاد أن يكونوا خلقوا من غير شيء خلقهم أم خلقوا هم أنفسهم ، ولهذا قال جبير بن مطعم : لما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه السورة أحسست بفؤادي قد انصدع . ولو كان المعدوم شيئاً لم يتم الإنكار ، إذا جاز أن يقال ما خلقوا إلا من شيء ، لكن هو معدوم فيكون الخالق لهم شيئاً معدوماً . وقال تعالى : (فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا) ولو كان المعدوم شيئاً لكان التقدير : لا يظلمون موجوداً ولا معدوماً ، والمعدوم لا يتصور أن يظلموه فإنه ليس لهم .

وأما قوله (إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ) فهو إخبار عن الزلزلة الواقعة أنها شيء عظيم ليس إخباراً عن الزلزلة في هذه الحال ، ولهذا قال : (يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ)ولو أريد به الساعة لكان المراد به أنها شيء عظيم في العلم والتقدير .

وقوله تعالى : (إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ) قد استدل به من قال المعدوم شيء وهو حجة عليه ؛ لأنه أخبر أنه يريد الشيء وأنه يكونه ، وعندهم أنه ثابت في العدم وإنما يراد وجوده لا عينه ونفسه ، والقرآن قد أخبر أن نفسه تراد وتكون ، وهذا من فروع هذه المسئلة .

فإن الذي عليه أهل السنة والجماعة وعامة العقلاء أن الماهيات مجعولة وأن ماهية كل شيء عين وجوده ، وأنه ليس وجود الشيء قدراً زائداً على ماهيته ، بل ليس في الخارج إلا الشيء الذي هو الشيء وهو عينه ونفسه وماهيته وحقيقته ، وليس وجوده وثبوته في الخارج زائدا على ذلك .

وأولئك يقولون الوجود قدر زائد على الماهية ، ويقولون الماهيات غير مجعولة ، ويقولون وجود كل شيء زائد على ماهيته ' ومن المتفلسفة من يفرق بين الوجود والواجب والممكن فيقول : الوجود الواجب عين الماهية . وأما الوجود الممكن فهو زائد على الماهية . وشبهة هؤلاء ما تقدم من أن الإنسان قد يعلم ما هية الشيء ولا يعلم وجوده ، وأن الوجود مشترك بين الموجودات ، وماهية كل شيء مختصة به .

ومن تدبر تبين له حقيقة الأمر ، فإنا قد بينا الفرق بين الوجود العلمى والعينى ؛ وهذا الفرق ثابت فى الوجود والعين والثبوت والماهية وغير ذلك ، فثبوت هذه الأمور فى العلم والكتاب والكلام : ليس هو ثبوتها فى الخارج عن ذلك ، وهو ثبوت حقيقتها وماهيتها التى هى هى ، فالإنسان إذا تصور ماهية فقد علم وجودها الذهنى ، ولا يلزم من ذلك الوجود الحقيقى الخارجى . فقول القائل : قد تصورت حقيقة الشيء وعينه ، ونفسه وماهيته ، وما علمت وجوده، أو حصل وجوده العلمى ، وما حصل وجوده العينى الحقيقى ، ولم يعلم ماهيته الحقيقية ، ولا عينه الحقيقية ، ولا نفسه الحقيقية الخارجية ، فلا فرق بين لفظ وجوده ولفظ ماهيته ؛ إلا أن أحد اللفظين قد يعبر به عن الذهنى ، والآخر عن الخارجى ، فجاء الفرق من جهة المحل لا من جهة الماهية والوجود .

وأما قولهم : إن الوجود مشترك والحقيقة لا اشتراك فيها ، ـ فالقول فيه كذلك فإن الوجود المعين الموجود فى الخارج لا اشتراك فيه ، كما أن الحقيقة المعينة الموجودة فى الخارج لا اشتراك فيها ؛ وإنما العلم يدرك الموجود المشترك

كما يدرك الماهية المشتركة ، فالمشترك ثبوته فى الذهن لا فى الخارج، ومافى الخارج ليس فيه اشتراك ألبتة ، والذهن إن أدرك الماهية المعينة الموجودة فى الخارج لم يكن فيها اشتراك ، وإنما الاشتراك فيما يدركه من الأمور المطلقة العامة ، وليس فى الخارج شىء مطلق عام بوصف الإطلاق والعموم ، وإنما فيه المطلق لا بشرط الإطلاق وذلك لا يوجد فى الخارج إلا معينا .

فينبغى للعاقل أن يفرق بين ثبوت الشيء ووجوده فى نفسه ، وبين ثبوته ووجوده فى العلم ، فإن ذاك هو الوجود العينى الخارجى الحقيقى ، وأما هذا فيقال له الوجود الذهنى والعلمى ، وما من شىء إلا له هذان الثبوتان فالعلم يعبر عنه باللفظ ويكتب اللفظ بالخط فيصير لكل شىء أربع مراتب : وجود فى الأعيان ، ووجود فى الأذهان ، ووجود فى اللسان ، ووجود فى البنان ، وجود عينى ، وعلمى ، ولفظى ، ورسمى .

ولهذا كان أول ما أنزل الله على نبيه سورة : (ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ) ذكر فيها النوعين فقال : (ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ) فذكر جميع المخلوقات بوجودها العينى عموما ثم خصوصا ، فخص الإنسان بالخلق بعد ماعم غيره ، ثم قال : (ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ * ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ * عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) فخص التعليم للإنسان بعد تعميم التعليم بالقلم ، وذكر القلم لأن التعليم بالقلم هو الخط وهو مستلزم لتعليم اللفظ فإن الخط يطابقه ، وتعليم اللفظ هو البيان وهو مستلزم لتعليم العلم ، لأن العبارة تطابق المعنى .

فصار تعليمه بالقلم مستلزما للمراتب الثلاث : اللفظى ، والعلمى ، والرسمى ؛ بخلاف ما لو أطلق التعليم أوذكر تعليم العلم فقط لم يكن ذلك مستوعبا للمراتب .

فذكر فى هذه السورة الوجود العينى والعلمى وأن الله سبحانه هو معطيهما ؛ فهو خالق الخلق وخالق الإنسان ، وهو المعلم بالقلم ومعلم الإنسان .

فأما إثبات وجود الشىء فى الخارج قبل وجوده فهذا أمر معلوم الفساد بالعقل والسمع وهو مخالف للكتاب والسنة والإجماع .

فصـــــل

فهذا أحد أصلى ابن عربى . وأما الأصل الآخر فقولهم إن وجود الأعيان نفس وجود الحق وعينه ، وهذا انفردوا به عن جميع مثبتة الصانع من المسلمين واليهود والنصارى والمجوس والمشركين ، وإنما هو حقيقة قول فرعون والقرامطة المنكرين لوجود الصانع كما سنبينه إن شاء الله .

فمن فهم هذا فهم جميع كلام ابن عربى نظمه ونثره وما يدعيه من أن الحق يغتذى بالخلق ، لأن وجود الأعيان مغتذ بالأعيان الثابتة فى العدم ، ولهذا يقول بالجمع من حيث الوجود ، وبالفرق من حيث الماهية والأعيان ، ويزعم أن هذا هوسر القدر ، لأن الماهيات لاتقبل إلا ما هو ثابت لها فى العدم فى أنفسها فهى التى أحسنت وأساءت وحمدت وذمت، والحق لم يعطها شيئاً إلا ما كانت عليه فى حال العدم.

فتدبر كلامه كيف انتظم شيئين : إنكار وجود الحق ، وإنكار خلقه لمخلوقاته ، فهو منكر للرب الذى خلق فلا يقر برب ولا بخلق ، ومنكر لرب العالمين ، فلا رب ولا عالمون مربوبون ، إذ ليس إلا أعيان ثابتة ووجود قائم بها ، فلا الأعيان مربوبة ولا الوجود مربوب ، ولا الأعيان مخلوقة ولا الوجود مخلوق .

وهذا يفرق بين المظاهر والظاهر والمجلى والمتجلى ؛ لأن المظاهر عنده هى الأعيان الثابتة فى العدم ، وأما الظاهر فهو وجود الخلق .

فصـــــل

وأما صاحبه الصدر الفخر الرومى فإنه لا يقول إن الوجود زائد على الماهية ، فإنه كان أدخل فى النظر والكلام من شيخه ، لكنه أكفر وأقل علماً وإيماناً ، وأقل معرفة بالإسلام وكلام المشايخ ؛ ولما كان مذهبهم كفراً كان كل من حذق فيه كان أكفر فلما رأى أن التفريق بين وجود الأشياء وأعيانها لا يستقيم ، وعنده أن الله هو الوجود ، ولا بد من فرق بين هذا وهذا فرق بين المطلق والمعين ؛ فعنده أن الله هو الوجود المطلق الذى لا يتعين ولا يتميز ، وأنه إذا تعين وتميز فهو الخلق سواء تعين فى مرتبة الإلهية أو غيرها .

وهذا القول قد صرح فيه بالكفر أكثر من الأول ، وهو حقيقة مذهب فرعون والقرامطة ، وإن كان الأول أفسد من جهة تفرقته بين وجود الأشياء وثبوتها ، وذلك أنه على القول الأول يمكن أن يجعل للحق وجوداً خارجاً عن أعيان الممكنات ، وأنه فاض عليها ، فيكون فيه اعتراف بوجود الرب القائم بنفسه الغنى عن خلقه ، وإن كان فيه كفر من جهة أنه جعل المخلوق هو الخالق ، والمربوب هو الرب ، بل لم يثبت خلقاً أصلا ، ومع هذا فما رأيته صرح بوجود الرب متميزاً عن الوجود القائم بأعيان الممكنات .

وأما هذا فقد صرح بأنه ماثم سوى الوجود المطلق السارى فى الموجودات المعينـــة ، والمطلق ليس له وجود مطلق ، فما فى الخارج جسم مطلق بشرط الإطلاق ، ولا إنسان مطلق ، ولا حيوان مطلق بشرط الإطلاق ، بل لا يوجد إلا فى شىء معين .

والحقائق لها ثلاث اعتبارات : اعتبار العموم ، والخصوص والإطلاق ، فإذا قلنا : حيوان عام أو إنسان عام ، أو جسم عام ، أو وجود عام ، فهذا لا يكون إلا فى العـــلم واللسان ، وأما الخارج عن ذلك فما ثم شىء موجود فى الخارج يعم شيئين ، ولهذا كان العموم من عوارض صفات الحى . فيقال : علم عام ، وإرادة عامة . وغضب عام ، وخبر عام ، وأمر عام .

ويوصف صاحب الصفة بالعموم أيضاً كما فى الحديث الذى فى ســـنن أبى داود أن النبى صلى الله عليه وسلم مر بعلى وهو يدعو فقال : « يا على عُمَّ ، فإن فضل العموم على الخصوص كفضل السماء على الأرض » وفى الحديث أنه لما نزل قوله : (وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) عم وخص . رواه مسلم من حديث موسى بن طلحة عن أبى هريرة .

وتوصف الصفة بالعموم كما فى حديث التشهد : « السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . فإذا قلتم ذلك فقد أصابت كل عبد صالح لله فى السماء والأرض » .

وأما إطلاق من أطلق أن العموم من عوارض الألفاظ فقط ، فليس كذلك إذ معانى الألفاظ القائمة بالقلب أحق بالعموم من الألفاظ ، وسائر

الصفات ، كالإرادة ، والحب ، والبغض ، والغضب ، والرضا يعرض لها من العموم والخصوص ما يعرض للقول ، وإنما المعانى الخارجة عن الذهن هى الموجودة فى الخارج ، كقولهم : مطر عام وخصب عام ، هذه التى تنازع الناس : هل وصفها بالعموم حقيقة أو مجازا ؟ على قولين : —

(أحدهما) مجاز لأن كل جزء من أجزاء المطر والخصب لايقع إلا حيث يقع الآخر فليس هناك عموم ، وقيل بل حقيقة لأن المطر المطلق قد عم .

وأما الخصوص فيعرض لها إذا كانت موجودة فى الخارج ، فإن كل شىء له ذات وعين تختص به ويمتاز بها عن غيره : أعنى الحقيقة العينية الشخصية التى لا اشتراك فيها ، مثل : هذا الرجل وهذه الحبة وهذا الدرهم ، وما عرض لها فى الخارج فإنه يعرض لها فى الذهن . فإن تصور الذهنية أوسع من الحقائق الخارجية فإنها تشمل الموجود والمعدوم والممتنع والمقدرات .

وأما الإطلاق فيعرض لها إذا كانت فى الذهن بلا ريب فإن العقل يتصور إنساناً مطلقاً ووجوداً مطلقاً .

وأما فى الخارج فهل يتصور شىء مطلق ؟ هذا فيه قولان ، قيل : المطلق له وجود فى الخارج فإنه جزء من المعين ، وقيل لا وجود له فى الخارج ، إذ ليس فى الخارج إلا معين مقيد ، والمطلق الذى يشترك فيه العدد لا يكون جزءاً من المعين الذى لا يشركه فيه .

والتحقيق : أن المطلق بلا شرط أصلا يدخل فيه المقيد المعين ، وأما المطلق

بشرط الإطلاق فلا يدخل فيه المعين المقيد ، وهذا كما يقول الفقهاء : الماء المطلق ، فإنه بشرط الإطلاق فلا يدخل فيه المضاف وأما المطلق لا بشرط فيدخل فيه المضاف .

فإذا قلنا : الماء ينقسم إلى ثلاثة أقسام : طهور ، وطاهر ، ونجس ، فالثلاثة أقسام الماء : الطهور هو الماء المطلق الذى لايدخل فيه ما ليس بطهور كالعصارات والمياه النجسة . فالماء المقسوم هو المطلق لابشرط ، والماء الذى هو قسيم للماءين هو المطلق بشرط الإطلاق .

لكن هذا الإطلاق والتقييد الذى قاله الفقهاء فى اسم الماء إنما هو فى الإطلاق والتقييد اللفظى وهو مادخل فى اللفظ المطلق كلفظ ماء ،أو فى اللفظ المقيد كلفظ ماء نجس ، أو ماء ورد .

وأما ما كان كلامنا فيه أولاً فإنه الإطلاق والتقييد فى معانى اللفظ ، ففرق بين النوعين ، فإن الناس يغلطون لعدم التفريق بين هذين غلطاً كثيراً جداً ، وذلك أن كل اسم فإما أن يكون مسماه معيناً لايقبل الشركة كأنا وهذا وزيد ويقال له المعين والجزء ، وإما أن يقبل الشركة فهذا الذى يقبل الشركة هو المعنى الكلى المطلق وله ثلاث اعتبارات كما تقدم .

وأما اللفظ المطلق والمقيد فمثال تحرير رقبة ، ولم تجدوا ماء ، وذلك أن المعنى قد يدخل فى مطلق اللفظ ، ولا يدخل فى اللفظ المطلق ، أى يدخل فى اللفظ لابشرط الإطلاق ، ولا يدخل فى اللفظ بشرط الإطلاق ، كما قلنا

فى لفظ الماء ؛ فإن الماء يطلق على المنى وغيره كما قال : (مِن مَّآءٍ دَافِقٍ) ويقال : ماء الورد ، لكن هذا لا يدخل فى الماء عند الإطلاق لكن عند التقييد ؛ فإذا أخذ القدر المشترك بين لفظ الماء المطلق ولفظ الماء المقيد فهو المطلق بلاشرط الإطلاق ، فيقال : الماء ينقسم إلى مطلق ومضاف ، ومورد التقسيم ليس له اسم مطلق لكن بالقرينة يقتضى الشمول والعموم ، وهو قولنا الماء ثلاثة أقسام . فهنا أيضا ثلاثة أشياء : مورد التقسيم وهو الماء العام وهو المطلق بلا شرط ، لكن ليس له لفظ مفرد إلا لفظ مؤلف ، والقسم المطلق وهو اللفظ بشرط إطلاقه ، والثانى اللفظ المقيد وهو اللفظ بشرط تقييده .

وإنما كان كذلك لأن المتكلم باللفظ إما أن يطلقه أو يقيده ، ليس له حال ثالثة ، فإذا أطلقه كان له مفهوم وإذا قيده كان له مفهوم ، ثم إذا قيده إما أن يقيده بقيد العموم أو بقيد الخصوص ؛ فقيد العموم كقوله : الماء ثلاثة أقسام ، وقيد الخصوص كقوله : ماء الورد .

وإذا عرف الفرق بين تقييد اللفظ وإطلاقه ، وبين تقييد المعنى وإطلاقه عرف أن المعنى له ثلاثة أحوال : إما أن يكون أيضاً مطلقا ، أو مقيداً بقيد العموم ، أو مقيداً بقيد الخصوص ، والمطلق من المعانى نوعان :

مطلق بشرط الإطلاق ، ومطلق لا بشرط .

وكذلك الألفاظ المطلق منها قد يكون مطلقا بشرط الإطلاق، كقولنا الماء المطلق

والرقبة المطلقة ، وقد يكون مطلقا لا بشرط الإطلاق ، كقولنا إنسان .

فالمطلق المقيد بالإطلاق لا يدخل فيه المقيد بما ينافى الإطلاق ، فلا يدخل ماء الورد فى الماء المطلق ، وأما المطلق لا بقيد فيدخل فيه المقيد كما يدخل الإنسان الناقص فى اسم الإنسان .

فقد تبين أن المطلق بشرط الإطلاق من المعانى ليس له وجود فى الخارج ، فليس فى الخارج إنسان مطلق ، بل لا بد أن يتعين بهذا أو ذاك ، وليس فيه حيوان مطلق ، وليس فيه مطر مطلق بشرط الإطلاق .

وأما المطلق بشرط الإطلاق من الألفاظ كالماء المطلق فمسماه موجود فى الخارج لأن شرط الإطلاق هنا فى اللفظ فلا يمنع أن يكون معناه معينا ، وبشرط الإطلاق هناك فى المعنى ، والمسمى المطلق بشرط الإطلاق لا يتصور ، إذ لكل موجود حقيقة يتميز بها ، وما لا حقيقة له يتميز بها ليس بشىء ، وإذا كان له حقيقة يتميز بها فتمييزه يمنع أن يكون مطلقا من كل وجه ، فإن المطلق من كل وجه لا تمييز له ، فليس لنا موجود هو مطلق بشرط الإطلاق ولكن العدم المحض قد يقال : هو مطلق بشرط الإطلاق ، إذ ليس هناك حقيقة تميز ولا ذات تتحقق ، حتى يقال تلك الحقيقة تمنع غيرها بحدها أن تكون إياها .

وأما المطلق من المعانى لا بشرط : فهذا إذا قيل بوجوده فى الخارج فإنما يوجد معينا متميزاً مخصوصاً ، والمعين المخصوص يدخل فى المطلق لا بشرط ولا يدخل فى المطلق بشرط الإطلاق ، إذ المطلق لا بشرط أعم ، ولا يلزم إذا كان المطلق بلا شرط موجوداً فى الخارج : أن يكون المطلق المشروط بالإطلاق موجوداً فى الخارج ، لأن هذا أخص منه .

فإذا قلنا : حيوان ، أو إنسان ، أو جسم ، أو وجود مطلق فإن عنينا به المطلق بشرط الإطلاق فلا وجود له فى الخارج ، وإن عنينا المطلق لا بشرط فلا يوجد إلا معينا مخصوصا ، فليس فى الخارج شىء إلا معين متميز منفصل عما سواه بحده وحقيقته .

فمن قال : إن وجود الحق هو الوجود المطلق دون المعين : فحقيقة قوله أنه ليس للحق وجود أصلا ولا ثبوت إلا نفس الأشياء المعينة المتميزة ، والأشياء المعينة ليست إياه فليس شيئا أصلا .

وتلخيص النكتة : أنه لو عنى به المطلق بشرط الإطلاق فلا وجود له فى الخارج فلا يكون للحق وجود أصلا ، وإن عنى به المطلق بلا شرط ، فإن قيل بعدم وجوده فى الخارج فلا كلام ، وإن قيل بوجوده فلا يوجد إلا معينا ، فلا يكون للحق وجود إلا وجود الأعيان . فيلزم محذوران .

(أحدهما) أنه ليس للحق وجود سوى وجود المخلوقات .

(والثانى) التناقض وهو قوله إنه الوجود المطلق دون المعين .

فتدبر قول هذا ، فإنه يجعل الحق فى الكائنات : بمنزلة الـكلى فى جزئياته ، وبمـنزلة الجنس والنوع والخـاصة ، والفصل فى سائر أعيـانه الموجـودة الثابتة فى العدم .

وصاحب هذا القول : يجعل المظاهر والمراتب فى المتعينات كما جعلهـا الأول فى الأعيان الثابتة فى العدم .

فصـــــل

وأما التلمسانى ونحوه : فلا يفرق بين ماهية ووجود، ولا بين مطلق ومعين بل عنده ماثم سوى . ولا غير بوجه من الوجوه ، وإنما الكائنات أجزاء منه وأبعاض له، بمنزلة أمواج البحر فى البحر، وأجزاء البيت من البيت ، فمن شعرهم: ـ

البحر لا شك عندى فى توحده   وإن تعدد بالأمواج والزبد

فلا يغرنك ماشاهدت من صور   فالواحد الرب سارى العين فى العدد

ومنه : ـــ

فما البحر إلا الموج لا شىء غيره   وإن فرقته كثرة المتعدد

ولا ريب أن هذا القول : هو أحذق فى الكفر والزندقة ، فإن التمييز بين الوجود والماهية ، وجعل المعدوم شيئاً ، أو التمييز فى الخارج بين المطلق والمعين وجعل المطلق شيئاً وراء المعينات فى الذهن قولان ضعيفان باطلان .

وقد عرف من حدد النظر : أن من جعل فى هذه الأمور الموجودة فى الخارج شيئين : ــ

(أحدهما) وجودها .

(والثانى) ذواتها ، أو جعل لها حقيقة مطلقة موجودة زائدة على عينها الموجودة فقد غلط غلطاً قوياً ، واشتبه عليه ما يأخذه من العقل من المعانى المجردة المطلقة عن التعيين ، ومن الماهيات المجردة عن الوجود الخارجى بما هو موجود فى الخارج من ذلك ، ولم يدر أن متصورات العقل ومقدراته أوسع مما هو موجود حاصل بذاته ، كما يتصور المعدومات ، والممتنعات ، والمشروطات ويقدر مالا وجود له ألبتة مما يمكن أو لا يمكن ، ويأخذ من المعينات صفات مطلقة فيه ، ومن الموجودات ذوات متصورة فيه .

لكن هذا القول أشد جهلا وكفراً بالله تعالى ؛ فإن صاحبه لا يفرق بين المظاهر والظاهر ، ولا يجعل الكثرة والتفرقة إلا فى ذهن الإنسان لما كان محجوبا عن شهود الحقيقة، فلما انكشف غطاؤه عاين أنه لم يكن غير، وإن الرائى عين المرئى ، والشاهد عين المشهود .

فصـــــل

واعلم أن هذه المقالات : لا أعرفها لأحد من أمة قبل هؤلاء على هذا الوجه ؛ ولكن رأيت فى بعض كتب الفلسفة المنقولة عن أرسطو أنه حكى عن بعض الفلاسفة قوله : إن الوجود واحد ورد ذلك ، وحسبك بمذهب لا يرضاه متكلمة الصابئين .

وإنما حدثت هذه المقالات بحدوث دولة التتار ، وإنما كان الكفر الحلول العام ، أو الاتحاد ، أو الحلول الخاص ؛ وذلك أن القسمة رباعية لأن من جعل الرب هو العبد حقيقة ؛ فإما أن يقول بحلوله فيه ؛ أو اتحاده به ، وعلى التقديرين فإما أن يجعل ذلك مختصاً ببعض الخلق ، كالمسيح ، أو يجعله عاما لجميع الخلق . فهذه أربعة أقسام : —

(الأول) هو الحلول الخاص ، وهو قول النسطورية من النصارى ونحوهم ممن يقول إن اللاهوت حل فى الناسوت وتدرع به كحلول الماء فى الإناء ، وهؤلاء حققوا كفر النصارى ؛ بسبب مخالطتهم للمسلمين ، وكان أولهم فى زمن المأمون ؛ وهذا قول من وافق هؤلاء النصارى من غالية هذه الأمة ، كغالية الرافضة الذين يقولون : إنه حل بعلى بن أبى طالب وأئمة أهل بيته ، وغالية النساك

الذين يقولون بالحلول فى الأولياء ومن يعتقدون فيه الولاية ، أو فى بعضهم : كالحلاج ويونس والحاكم ونحو هؤلاء .

(والثانى) هو الاتحاد الخاص وهو قول يعقوبية النصارى وهم أخبث قولا ، وهم السودان والقبط ، يقولون : إن اللاهوت والناسوت اختلطا وامتزجا كاختلاط اللبن بالماء ، وهو قول من وافق هؤلاء من غالية المنتسبين إلى الإسلام .

(والثالث) هو الحلول العام ، وهو القول الذى ذكره أئمة أهل السنة والحديث ، عن طائفة من الجهمية المتقدمين ، وهو قول غالب متعبدة الجهمية ؛ الذين يقولون: إن الله بذاته فى كل مكان، ويتمسكون بمتشابه من القرآن كقوله : (وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ) وقوله : (وَهُوَ مَعَكُمْ) والرد على هؤلاء كثير مشهور فى كلام أئمة السنة ، وأهل المعرفة ، وعلماء الحديث .

(الرابع) الاتحاد العام وهو قول هؤلاء الملاحدة ، الذين يزعمون أنه عين وجود الكائنات ، وهؤلاء أكفر من اليهود والنصارى من وجهين :

من جهة أن أولئك قالوا إن الرب يتحد بعبده الذى قربه واصطفاه ، بعد أن لم يكونا متحدين ، وهؤلاء يقولون : مازال الرب هو العبد وغيره من المخلوقات ليس هو غيره .

(والثانى) من جهة أن أولئك خصوا ذلك بمن عظموه كالمسيح ، وهؤلاء

جعلوا ذلك ساريا فى الـكلاب ، والخنازير ، والأقذار ، والأوساخ ، وإذا كان الله تعالى قد قال : (لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ) الآية . فكيف بمن قال : إن الله هو الـكفار ، والمنافقون والصبيان ، والمجانين ، والأنجاس ، والأنتان وكل شيء ؟ !

وإذا كان الله قد رد قول اليهود والنصارى لما قالوا : (نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ) وقال لهم : (قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ) الآية فكيف بمن يزعم أن اليهود والنصارى هم أعيان وجود الرب الخالق ليسوا غيره ولا سواه ؟ ولا يتصور أن يعذب الله إلا نفسه ؟ وأن كل ناطق فى الـكون فهو عين السامع ؟ كما فى قوله صلى الله عليه وسلم : « إن الله تجاوز لأمتى عما حدثت به أنفسها » وأن الناكح عين المنكوح ، حتى قال شاعرهم : —

وتلتذ إن مرت على جسدى يدى لأنى فى التحقيق لست سواكم

واعلم أن هؤلاء لما كان كفرهم — فى قولهم : إن الله هو مخلوقاته كلها — أعظم من كفر النصارى بقولهم : (إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ) وكان النصارى ضلال ، أكثرهم لا يعقلون مذهبهم فى التوحيد ، إذ هو شيء متخيل لا يعلم ولا يعقل ، حيث يجعلون الرب جوهراً واحداً ، ثم يجعلونه ثلاثة جواهر ، ويتأولون ذلك بتعدد الخواص والأشخاص التى هى الأقانيم ، والخواص عندهم ليست جواهر . فيتناقضون مع كفرهم .

كذلك هؤلاء الملاحدة الاتحادية ضلال ، أكثرهم لا يعقلون قول

رؤوسهم ولا يفقهونه، وهم فى ذلك كالنصارى، كلما كان الشيخ أحمق وأجهل، كان بالله أعرف، وعندهم أعظم.

ولهم حظ من عبادة الرب الذى كفروا به، كما للنصارى هذا مادام أحدهم فى الحجاب، فإذا ارتفع الحجاب عن قلبه وعرف أنه هو: فهو بالخيار بين أن يسقط عن نفسه الأمر، والنهى، ويبقى سدى يفعل ما أحب، وبين أن يقوم بمرتبة الأمر، والنهى، لحفظ المراتب؛ وليقتدى به الناس المحجوبون، وهم غالب الخلق، ويزعمون أن الأنبياء كانوا كذلك إذ عدوهم كاملين.

فصل

مذهب هؤلاء الاتحادية ، كابن عربى ، وابن سبعين ، والقونوى ، والتلمسانى : مركب من ثلاثة مواد :

سلب الجهمية وتعطيلهم .

ومجملات الصوفية : وهو ما يوجد فى كلام بعضهم من الكلمات المجملة المتشابهة ، كما ضلت النصارى بمثل ذلك فيما يروونه عن المسيح ، فيتبعون المتشابه ، ويتركون المحكم ، وأيضاً كلمات المغلوبين على عقلهم الذين تكلموا فى حال سكر .

ومن الزندقة الفلسفية التى هى أصل التجهم ، وكلامهم فى الوجود المطلق ، والعقول ، والنفوس والوحى ، والنبوة والوجوب ، والإمكان ، وما فى ذلك من حق وباطل .

فهذه المادة أغلب على ابن سبعين والقونوى ، والثانية أغلب على ابن عربى ولهذا هو أقربهم إلى الإسلام ، والكل مشتركون فى التجهم ، والتلمسانى أعظمهم تحقيقاً لهذه الزندقة والاتحاد التى انفردوا بها ، وأكفرهم بالله ، وكتبه ، ورسله وشرائعه ، واليوم الآخر .

وبيان ذلك أنه قال : هو فيٌّ كان متجل بوحدته الذاتية ، عالماً بنفسه وبما يصدر عنه ، وأن المعلومات بأسرها كانت منكشفة فى حقيقة العلم شاهداً لها .

فيقال له : قد أثبت علمه بما يصدر منه ، وبمعلومات يشهدها غير نفسه ، ثم ذكرت أنه عرض نفسه على هذه الحقائق الكونية المشهودة المعدومة ، فعند ذلك عبر « بأنا » وظهرت حقيقة النبوة ، التى ظهر فيها الحق واضحاً ، وانعكس فيها الوجود المطلق ، وأنه هو المسمى باسم الرحمن ، كما أن الأول هو المسمى باسم الله ،

وسقت الكلام إلى أن قلت : وهو الآن على ما عليه كان ، فهذا الذى علم أنه يصدر عنه وكان مشهوداً له معدوماً فى نفسه هو الحق أو غيره ؟ فإن كان الحق فقد لزم أن يكون الرب كان معدوماً ، وأن يكون صادراً عن نفسه ، ثم إنه تناقض . وإن كان غيره ، فقد جعلت ذلك الغير هو مرآة لانعكاس الوجود المطلق ، وهو الرحمن ، فيكون الخلق هو الرحمن .

فأنت حائر بين أن تجعله قد علم معدوماً صدر عنه ، فيكون له غير وليس هو الرحمن ، وبين أن تجعل هذا الظاهر الواصف هو إياه وهو الرحمن ، فلا يكون معدوماً ولا صادراً عنه ، وإما أن تصف الشىء بخصائص الحق الخالق تارة وبخصائص العبد المخلوق تارة فهذا مع تناقضه كفر من أغلظ الكفر ، وهو نظير قول النصارى : اللاهوت الناسوت ، لكن هذا أكفر من وجوه متعددة .

فصـــــــل

(الوجه الأول) أن هذه الحقائق الـكونية — التى ذكرت أنها كانت معدومة فى نفسها ، مشهودة أعيانها فى علمه فى تجليه المطلق ، الذى كان فيه متحداً بنفسه بوحدته الذاتية — هل خلقها وبرأها وجعلها موجودة بعـــد عدمها ، أم لم تزل معدومة ؟ فإن كانت لم تزل معدومة : فيجب أن لا يكون شىء من الـكونيات موجوداً ، وهذا مكابرة للحس ؛ والعقل ؛ والشرع ، ولا يقوله عاقل ولم يقـله عاقل . وإن كانت صارت موجودة بعد عدمها : امتنع أن تـكون هى إياه ؛ لأن الله لم يكن معدوماً فيوجد .

وهذا يبطل الاتحاد ، ووجب حينئذ أن يكون موجوداً ليس هو الله ، بل هو خلقه ومماليكه وعبيده ؛ وهـذا يبطل قولك ! وهو الآن لا شىء معه على ما عليه كان .

(الثانى) أن قولك تركبت الخلقة الإلهية من كان إلى سر شأنه ، أو قولك : ظهر الحق فيـه ، أو نحو ذلك من الألفاظ التى يطلقها هؤلاء الاتحادية فى هذا الموضع . مثـل قولهم : ظهر الحق وتجلى ، وهذه مظاهر الحق ومجاليه ، وهذا مظهر إلهىٌّ ومجلى إلهىّ ، ونحو ذلك : أتعنى به أن عين ذاته حصلت هنـــاك ؟

أو تعنى به أنه صار ظاهراً متجلياً لها بحيث تعلمه ؟ أو تعنى به أنه ظهر لخلقه بها ، وتجلى بها ، وأنه ما ثم قسم رابع ؟ .

فإن عنيت الأول — وهو قول الاتحادية — فقد صرحت بأن عين المخلوقات — حتى الكلاب ، والخنازير ، والنجاسات ، والشياطين والكفار — هي ذات الله ، أو هي وذات الله متحدتان ، أو ذات الله حالة فيها ، وهذا الكفر أعظم من كفر الذين قالوا : (إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ) و (إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ) وأن الله يلد ويولد وأن له بنين وبنات . وإذا صرحت بهذا عرف المسلمون قولك فألحقوك ببنى جنسك فلا حاجة إلى ألفاظ مجملة يحسبها الظمآن ماء ، ويا ليته إذا جاءها لم يجدها شيئاً ، بل يجدها سما ناقعاً ! .

وإن عنيت أنه صار ظاهراً متجلياً لها ، فهذا حقيقة أنه صار معلوماً لها ، ولا ريب أن الله يصير معروفاً لعبده ؛ لكن كلامك فى هذا باطل من وجهين .

من جهة أنك جعلته معلوماً للمعدومات ، التى لا وجود لها ، لكونه قد علمها ، واعتقدت أنها إذا كانت معلومة يجوز أن تصير عالمة ، وهذا عين الباطل : من جهة أنه إذا علم أن الشيء سيكون ، لم يجز أن يكون هذا قبل وجوده عالماً قادراً فاعلا .

ومن جهة أن هذا ليس حكم جميع الكائنات المعلومة ، بل بعضها هو الذى يصح منه العلم .

وأما إن قلت إن الله يعلم بها — لكونها آيات دالة عليه —: فهذا حق ؛ وهو دين المسلمين وشهود العارفين ، لكنك لم تقل هذا لوجهين :

(أحدهما) أنها لا تصير آيات إلا بعد أن يخلقها ويجعلها موجودة ، لا فى حال كونها معدومة معلومة ، وأنت لم تثبت أنه خلقها ولا جعلها موجودة ، ولا أنه أعطى شيئا خلقه ، بل جعلت نفسه هو المتجلى لها .

(الوجه الثانى) أنك قد صرحت بأنه تجلى لها وظهر لها ، لا أنه دل بها خلقه ، وجعلها آيات تكون تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ، والله قد أخبر فى كتابه أنه يجعل فى هذه المصنوعات آيات والآية مثل العلامة والدلالة كما قال : (وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ) إلى قوله : (لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) وتارة يسميها نفسها آية ، كما قال تعالى : (وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا) وهذا الذى ذكره الله فى كتابه هو الحق .

فإذا قيل فى نظير ذلك : تجلى بها وظهر بها كما يقال علم وعرف بها ، كان المعنى صحيحا ، لكن لفظ التجلى والظهور فى مثل هذا الموضع غير مأثور ، وفيه إيهام وإجمال ، فإن الظهور والتجلى يفهم منه الظهور والتجلى للعين لا سيما لفظ التجلى فإن استعماله فى التجلى للعين هو الغالب ، وهذا مذهب الاتحادية ، صرح به ابن عربى وقال : فلا تقع العين إلا عليه .

وإذا كان عندهم أن المرئى بالعين هو الله فهذا كفر صريح باتفاق المسلمين ، بل قد ثبت فى صحيح مسلم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « واعلموا أن أحداً

منكم لن يرى ربه حتى يموت » ولا سيما إذا قيل : ظهر فيها وتجلى ، فإن اللفظ يصير مشتركا بين أن تكون ذاته فيها ، أو تكون قد صارت بمنزلة المرآة التى يظهر فيها مثال المرئى ، وكلاهما باطل ؛ فإن ذات الله ليست فى المخلوقات ، ولا فى نفس ذاته ترى المخلوقات كما يرى المرئى فى المرآة ، ولكن ظهورها دلالتها عليه وشهادتها له ، وأنها آيات له على نفسه ، وصفاته سبحانه وبحمده ، كما نطق بذلك كتاب الله .

(الوجه الثالث) أن مقارنة الألف والنون المعبر عنها « بأنا » واللفظة التى هى « حقيقة النبوة » و « الروح الإضافى » هذه الأشياء داخلة فى مسمى أسماء الله ؛ بحيث تكون مما يدخل فى مسمى أسمائه الظاهرة والمضمرة ، أم ليست داخلة فى مسمى أسمائه ؟ فإن كان الأول : فتكون جميع المخلوقات داخلة فى مسمى أسماء الله ، وتكون المخلوقات جزءاً من الله وصفة له ، وإن كان الثانى : فهذه الأشياء معدومة ليس لها وجود فى أنفسها ، فكيف يتصور أن تكون موجودة لا موجودة ، ثابتة لا ثابتة ، منتفية لا منتفية؟ وهذا تقسيم بين ، وهو أحد ما يكشف حقيقة هذا التلبيس .

فإن هذه الأمور التى كانت معلومة له معدومة ،عند نزول الخلية ظهرت هذه الأمور التى ذكرها ، فهذه الأمور الظاهرة المعلومة بعد هذا النزول قد صارت « أنا » وحقيقة نبوة ، وروحا إضافيا ، وفعل ذات ، ومفعول ذات ، ومعنى وسائط ، فإن كان جميع ذلك فى الله ، ففيه كفران عظيمان :

كون جميع المخلوقات جزءا من الله ،

وكونه متغيرا هذه التغيرات ، التى هى من نقص إلى كمال ، ومن كمال إلى نقص ، وإن كانت خارجة عن ذاته فهذه الأشياء كانت معدومة ، ولم يخلقها عندهم خارجة عنه ، فكيف يكون الحال ؟ .

(الوجه الرابع) أن عقدة حقيقة النبوة وما معها : إما أن يكون شيئا قائما بنفسه ، أوصفة له أو لغيره ، فإن كان قائما بنفسه فإما أن يكون هو الله أو غيره ، فإن كان ذلك هو الله فيكون الله هو النقطة الظاهرة ، وهو حقيقة النبوة ، وهو الروح الإضافى .

وقد قال بعد هذا : إنه جعل الروح الإضافى فى صورة فعل ذاته ، وأنه أعطى محمداً عقدة نبوته ، فيكون قد جعل نفسه صورة فعله ، وأعطى محمداً ذاته ، وهذا مع أنه من أبين الكفر وأقبحه فهو متناقض ، فمن المعطى ومن المعطى ؟ إذا كان أعطى ذاته لغيره ، وإن كانت هذه الأشياء أعيانا قائمة بنفسها وهى غير الله — فسواء كانت ملائكة أو غيرها ؛ من كل ما سوى الله من الأعيان ، فهو خلق من خلق الله مصنوع مربوب ، والله خالق كل شيء ، فهو قد جعل ظهور الحق واصفا ، وأنه المسمى باسم الرحمن ، فيكون المسمى باسم الرحمن الواصف لنفسه مخلوقا ، وهذا كفر صريح وهو أعظم من إلحاد الذين : (قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ) ومن إلحاد الذين قيل فيهم : (وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ) فإن أولئك كفروا باسمه وصفته مع إقرارهم برب العالمين . وهؤلاء أقروا بالاسم وجعلوا المسمى مخلوقا من مخلوقاته .

وأما إن كان المراد بهذه الحقيقة وما معها صفة : فإما أن تكون صفة لله

أو لغيره ، فإن كانت صفة لله لم يجز أن تـكون هى المسمى باسم الرحمن ، فإن ذلك اسم لنفس الله لا لصفاته ، والسجود لله لا لصفاته ، والدعاء لله لا لصفاته ، وإن كانت صفة لغيره فهذا الإلزام أعظم وأعظم .

وهذا تقسيم لا محيص عنه ، فإن هذا الملحد فى أسماء الله جعل هذه العقدة التى سماها (عقدة حقيقة النبوة) وجعلها صورة علم الحق بنفسه ، وجعلها مرآة لانعكاس الوجود المطلق ، محلا لتميز صفاته القديمة ، وإن الحق ظهر فيه بصورته وصفته واصفا يصف نفسه ويحيط به ، وهو المسمى باسم الرحمن ، ثم ذكر أنه أعطى محمداً هذه العقدة .

ومعلوم أن المسمى باسم الرحمن هو المسمى باسم الله كما قال تعالى : (قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ) فيكون هو سبحانه هذه العقدة التى أعطاها لمحمد ، وإن كانت صفة له أو غيره ، فتكون هى الرحمن ، فهذا الملحد دائر بين أن يكون الرحمن هو خلق من خلق الله أو صفة من صفاته ، وبين أن يكون الرحمن قد وهبه الله لمحمد ، وكل من القسمين من أسمج الـكفر وأبشعه .

(الوجه الخامس) أن قوله لهذه الحقيقة طرفان : طرف إلى الحق المواجه إليها ، الذى ظهر فيه الوجود الأعلى واصفا ، وطرف إلى ظهور العالم منه ، وهو المسمى بالروح الإضافى .

فذكر فى هذا الـكلام ظهور الوجود وظهور العالم ، وقد تقدم أن الحق كان ولم يكن معه شىء وهو متجلى بنفسه بوحدته الذاتية ، وأنه لما نزلت الخلية

الإلهية ، ظهرت عقدة حقيقة النبوة ، فصارت مرآة لانعكاس الوجود ، فظهر الحق فيه بصورة وصفة واصفا .

وقد ذكر فى هذا الكلام الحق المواجه إليها والوجود الأعلى الذى ظهر ، فى هذا الحق والطرف الذى لها إلى الحق ، فقد ذكر هنا ثلاثة أشياء : الحق ، والوجود ، والطرف ، وقد جعل فيما تقدم : الحق هو الوجود المطلق الذى انعكس ، وهو الحق الذى ظهر فيه واصفا ، فتارة يجعل الحق هو الوجود المطلق ، وتارة يجعل الوجود المطلق قد ظهر فى هذا الحق ، وهذا تناقض .

ثم يقال له : هذان عندك عبارة عن الرب تعالى فقد جعلته ظاهراً وجعلته مظهراً ، فإن عنيت بالظهور الوجود فيكون الرب قد وجد مرة بعد مرة ، وهذا كفر شنيع ، فكيف يتصور تكرر وجوده؟ وكيف يتصور أن يكون قد وجد فى نفسه بعد أن لم يكن موجودا فى نفسه ؟ وإن عنيت به الوضوح والتجلى ، فليس هناك مخلوق يظهر له ويتجلى ، إذ العالم بعد لم يخلق ، وأنت قلت ظهر الحق فيه واصفا، وسميته الرحمن، ولم تجعل ظهوره معلوما ولا مشهودا ، فكيف يتصور أن يكون متجليا لنفسه بعد أن لم يكن متجليا ؟ فإن هذا وصف له بأنه لم يكن يعلم نفسه حتى علمها .

وأيضا فقد قلت : إنه كان متجليا لنفسه بوحدته ، فهذا كفر وتناقض .

(الوجه السادس) أن هذا التحير والتناقض مثل تحير النصارى ، وتناقضهم فى الأقانيم .

فإنهم يقولون : الآب والابن وروح القدس ثلاثة آلهة ، وهى إله واحد .

والمتدرع بناسوت المسيح هو الابن ، ويقولون : هى الوجود ، والعلم ، والحياة ، والقدرة .

فيقال لهم : إن كانت هذه صفات فليست آلهة ، ولا يتصور أن يكون المتدرع بالمسيح إلهاً ، إلا أن يكون هو الآب ، وإن كانت جواهر : وجب أن لا تكون إلهاً واحداً ؛ لأن الجواهر الثلاثة لاتكون جوهراً واحداً ، وقد يمثلون ذلك بقولنا زيد العالم القادر الحى ، فهو بكونه عالماً ليس هو بكونه قادراً .

فإذا قيل لهم هذا كله لا يمنع أن يكون ذاتاً واحدة لها صفات متعددة وأنتم لا تقولون ذلك .

وأيضاً : فالمتحد بالمسيح إذا كان إلهاً : امتنع أن يكون صفة ، وإنما يكون هو الموصوف ؛ وأنتم لا تقولون بذاك ، فما هو الحق لا تقولونه ، وما تقولونه ليس بحق ، وقد قال تعالى : (يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ) .

فالنصارى حيارى متناقضون ، إن جعلوا الأقنوم صفة امتنع أن يكون المسيح إلهاً ، وإن جعلوه جوهراً امتنع أن يكون الإله واحداً ، وهم يريدون أن يجعلوا المسيح الله ويجعلوه ابن الله ، ويجعلوا الآب والابن وروح القدس

إلهاً واحداً . ولهذا وصفهم الله فى القرآن بالشرك تارة ، وجعلهم قسما غير المشركين تارة ، لأنهم يقولون الأمرين وإن كانوا متناقضين .

وهكذا حال هؤلاء فإنهم يريدون أن يقولوا بالاتحاد وأنه ماثم غير ، ويريدون أن يثبتوا وجود العالم ، فجعلوا ثبوت العالم فى علمه وهو شاهد له ، وجعلوه متجلياً لذلك المشهود له ، فإذا تجلى فيه كان هو المتجلى لاغيره ، وكانت تلك الأعيان المشهودة هى العالم .

وهذا الرجل وابن عربى : يشتركان فى هذا ولكن يفترقان من وجه آخر .

فإن ابن عربى يقول : وجود الحق ظهر فى الأعيان الثابتة فى نفسها . فإن شئت قلت هو الحق ، وإن شئت قلت هو الخلق ، وإن شئت قلت هو الحق والخلق ، وإن شئت قلت لا حق من كل وجه ، ولا خلق من كل وجه ، وإن شئت قلت بالحيرة فى ذلك .

وأما هذا فإنه يقول : تجلى الأعيان المشهودة له ، فقد قالا فى جميع الخلق ما يشبه قول ملكية النصارى فى المسيح ، حيث قالوا : بأن اللاهوت ، والناسوت صارا جوهراً واحداً له أقنومان .

وأما التلمسانى فإنه لا يثبت تعددا بحال ، فهو مثل يَعاقبةِ النصارى ، وهم أكفرهم ، والنصارى قالوا بذلك فى شخص واحد ، وقالوا : إن اللاهوت يتدرع بالناسوت بعد أن لم يكن متدرعا به .

وهؤلاء قالوا : إنه فى جميع العالم ، وأنه لم يزل ، فقالوا بعموم ذلك ولزومه والنصارى قالوا بخصوصه وحدوثه ، حتى قال قائلهم : النصارى إنما كفروا لأنهم خصصوا .

وهذا المعنى : قد ذكره ابن عربى فى غير موضع من الفصوص ، وذكر أن إنكار الأنبياء على عباد الأصنام إنما كان لأجل التخصيص ، وإلا فالعارف المكمل من عبده فى كل مظهر ، وهو العابد والمعبود ، وأن عباد الأصنام لو تركوا عبادتهم : لتركوا من الحق بقدر ما تركوا منها ، وأن موسى إنما أنكر على هارون : لكون هارون نهاهم عن عبادة العجل ، لضيق هارون ، وعلم موسى بأنهم ما عبدوا إلا الله ، وأن هارون إنما لم يسلط على العجل ليعبدوا الله فى كل صورة ، وإن أعظم مظهر عبد فيه هو الهوى ، فما عبد أعظم من الهوى ؛ لكن ابن عربى يثبت أعياناً ثابتة فى العدم .

وهذا ابن حمويه إنما أثبتها مشهودة فى العلم فقط ، وهذا القول هو الصحيح ، لكن لا يتم معه ما طلبه من الاتحاد ، ولهذا كان هو أبعدهم عن تحقيق الاتحاد وأقرب إلى الإسلام ، وإن كان أكثرهم تناقضاً وهذياناً ، فكثرة الهذيان خير من كثرة الكفر .

ومقتضى كلامه هذا : أنه جعل وجوده مشروطاً بوجود العالم ، وإن كان له وجود ما غير العالم ، كما أن نور العين مشروط بوجود الأجفان وإن كان قائماً بالحدقة ، فعلى هذا يكون الله مفتقراً إلى العالم محتاجاً إليه كاحتياج نور العين

إلى الجفنين . وقد قال الله تعالى : (لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ) إلى آخر الآية .

فإذا كان هذا قوله فيمن وصفه بأنه فقير إلى أموالهم ليعطيها الفقراء ؛ فكيف قوله فيمن جعل ذاته مفتقرة إلى مخلوقاته ، بحيث لولا مخلوقاته لانتشرت ذاته ، وتفرقت وعدمت ، كما ينتشر نور العـــين ويتفرق ، ويعدم إذا عدم الجفن ؟ .

وقد قال فى كتابه : (إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ) الآية . فمن يمسك السموات والأرض؟ وقال فى كتابه : (وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ) الآية . وقال : (رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا) وقال (وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ) لا يؤوده لا يثقله ولا يكرثه .

وقد جاء فى الحديث ، حديث أبى داود : « ما السموات والأرض وما بينهما فى الكرسى إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، والكرسى فى العرش كتلك الحلقة فى الفلاة » وقد قال فى كتابه : (وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ) الآية .

وقد ثبت فى الصحاح من حديث أبى هريرة وابن عمر وابن مسعود : « إن الله يمسك السموات والأرض بيده » فمن يكون فى قبضته السموات والأرض ، وكرسيه قد وسع السموات والأرض ، ولا يؤوده حفظهما ،

وبأمره تقوم السماء والأرض ، وهو الذى يمسكهما أن تزولا ، أيكون محتاجا إليهما مفتقراً إليهما ، إذا زالا تفرق وانتشر ؟ .

وإذا كان المسلمون يكفرون من يقول : إن السموات تقله أو تظله ؛ لما فى ذلك من احتياجه إلى مخلوقاته ، فمن قال : إنه فى استوائه على العرش محتاج إلى العرش كاحتياج المحمول إلى حامله فإنه كافر ؟ لأن الله غنى عن العالمين حى قيوم ، هو الغنى المطلق وما سواه فقير إليه ، مع أن أصل الاستواء على العرش : ثابت بالكتاب والسنة ، واتفاق سلف الأمة وأئمة السنة ، بل هو ثابت فى كل كتاب أنزل على كل نبى أرسل ، فكيف بمن يقول إنه مفتقر إلى السموات والأرض ، وأنه إذا ارتفعت السموات والأرض : تفرق ، وانتشر ، وعدم ؟ فأين حاجته فى الحمل إلى العرش ، من حاجة ذاته إلى ما هو دون العرش؟ .

ثم يقال لهؤلاء : إن كنتم تقولون بقدم السموات والأرض ودوامهما : فهذا كفر . وهو قول بقدم العالم ، وإنكار انفطار السموات والأرض وانشقاقهما ، وإن كنتم تقولون بحدوثهما فكيف كان قبل خلقهما ؟ هل كان منتشراً ، متفرقاً معدوما ، ثم لما خلقهما صار موجوداً مجتمعاً ؟ هل يقول هذا عاقل ؟ .

فأنتم دائرون بين نوعين من الكفر ، مع غاية الجهل والضلال ، فاختاروا أيهما شئتم : إن صور العالم لاتزال تفنى ويحدث فى العالم بدلها مثل الحيوان والنبات والمعادن ، ومثل مايحدثه الله فى الجو من السحاب والرعد والبرق والمطر وغير ذلك ، فكلما عدم شىء من ذلك : ينتقص من نور الحق ، ويتفرق

ويعدم ، بقدر ما عدم من ذلك ، وكلما زاد شيء من ذلك : زاد نوره واجتمع ووجد .

وأما إن عنى أن نور الله باق بعد زوال السموات والأرض ، لكن لا يظهر فيه شيء ، فما الشيء الذى يظهر بعد عدم هذه الأشياء ؟ وأى تأثير للسموات والأرض فى حفظ نور الله ؟ .

وقد ثبت فى الصحيح عن أبى موسى الأشعرى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله لا ينام ، ولا ينبغى له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يُرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجابه النور — أو النار — لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه » وقال عبد الله بن مسعود : « إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار ، نور السموات من نور وجهه » .

فقد أخبر الصادق المصدوق : أن الله لو كشف حجابه لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من السموات ، والأرض ، وغيرهما ، فمن يكون سبحات وجهه تحرق السموات والأرض ! وإنما حجابه هو الذى يمنع هذا الاحراق ، أيكون نوره إنما يحفظ بالسموات والأرض ؟ .

(الوجه السابع) قوله فالعلويات جفنها الفوقانى ، والسفليات جفنها التحتانى ، والتفرقة البشرية فى السفليات ، أهداب الجفن الفوقانى ، والنفس الكلية سوادها ، والروح الأعظم بياضها . يقال له : فإذا كان العالم هو هذه

العين : فالعين الأخرى أى شيء هى ؟ وبقية الأعضاء أين هى ؟ هذا لازم قولك إن عنيت بالعين المتعين ، وإن عنيت الذات والنفس — وهو ما تعين فيه — فقد جعلت نفس السموات ، والأرض ، والحيوان ، والملائكة : أبعاضاً من الله ، وأجزاء منه ، وهذا قول هؤلاء الزنادقة ، الفرعونية الاتحادية ، الذين أتبعهم الله فى الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين .

فيقال له : فعلى هذا لم يخلق الله شيئا ، ولا هو رب العالمين ، لأنه إما أن يخلق نفسه أو غيره ، فخلقه لنفسه محال ، وهذا معلوم بالبديهة أن الشيء لا يخلق نفسه ، ولهذا قال تعالى : (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ) يقول : أخلقوا من غير خالق ، أم هم خلقوا أنفسهم ؟ .

ولهذا قال جبير بن مطعم : لما سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ هذه الآية أحسست بفؤادى قد انصدع . فقد علموا أن الخالق لا يكون هو المخلوق بالبديهة ، وخلقه لغيره ممتنع على أصلهم ؛ لأن هذه الأشياء هى أجزاء منه ليست غيراً له .

(الوجه الثامن) أنه جعل البشر أهداب جفن حقيقة الله ، وهم دائما يزيدون وينقصون ، ويموتون ويحيون ، وفيهم الكافر والمؤمن ، والفاجر والبر ، فتكون أهداب جفن حقيقة الله : لا تزال مفرقة ، كاشرة فاسدة ، ويكون المشركون ، واليهود ، والنصارى : أجفان حقيقته ، وقد لعن من جعلهم أبناءه على سبيل الاصطفاء ، فكيف بمن جعلهم من نفسه ؟ .

(الوجه التاسع) أنه متناقض من حيث جعل الروح بياضها ، والنفس الكلية سوادها ، والسموات الجفن الأعلى ، والأرضون الجفن الأسفل .

ومعلوم أن جفنى عين الإنسان : محيطان بالسواد والبياض ، والروح والنفس عنده هى فوق السموات والأرض ، ليست بين السماء والأرض ، كما أن سواد العين وبياضها بين الجفنين ، فهذا التمثيل مع أنه من أقبح الكفر : ففيه من الجهالة والتناقض ما تراه .

(الوجه العاشر) أن النفس الكلية اسم تلقاه عن الصابئة الفلاسفة .

وأما الروح : فإن مقصوده بها هو الذى يسمونه العقل ، وهو أول الصادرات ، وسماه هو روحا ، وهذا بناه على مذهب الصابئة ، وليس هذا من دين الحنفاء ، وقد بينا فساد ذلك فى غير هذا الموضع .

لكن الصابئة الفلاسفة خير من هؤلاء ؛ فإنهم يقرون بواجب الوجود الذى صدرت عنه العقول ، والنفوس والأفلاك ، والأرض لا يجعلونها إياه وهؤلاء يجعلونها إياه .

فقولهم إنما ينطبق على المعطلة ، مثل فرعون — وحزبه — الذى قال : (وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ) وقال : (مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى) وقال : (يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ * أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ) الآية .

فإن فرعون : يقر بوجود هذا العالم ، ويقول : ما فوقه رب ، ولا له خالق غيره .

فهؤلاء إذا قالوا إنه عين السموات والأرض : فقـد جحدوا ما جحده فرعون ، وأقروا بمـا أقربه فرعون ؛ إلا أن فرعون لم يسمه إلهـا ولم يقل هو الله .

وهؤلاء قالوا : هذا هو الله ؛ فهم مقرون بالصانع؛ لـكن جعلوه هو الصنعة .

فهم فى الحقيقة معطلون ، وفى اعتقادهم مقرون .

وفرعون بالعكس : كان منكراً للصانع فى الظاهر ، وكان فى الباطن مقرا به ؛ فهو أكفر منهم ؛ وهم أضل منه وأجهل ؛ ولهذا يعظمونه جدا .

(الوجه الحادى عشر) قول القائل : بل هـذا هو الحق الصريح المتبع ؛ لا مايرى المنحرف عن مناهج الإسلام ودينه ، المتحير فى بيداء ضلالته وجهله .

فيقال : من الذى قال هذا الحق من الأولين والآخرين ؟ وهذا كتاب الله من أوله إلى آخره ، الذى هو كلام الله ، ووحيه ، وتنزيله ، ليس فيه شيء من هذا ، ولا فى حديث واحد عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا عن أحد من أئمة الإسلام ومشايخه ، إلا عن هؤلاء المفترين على الله الذين هم فى مشايخ الدين : نظير جنكيزخان فى أمر الحرب ، فدياناتهم تشبه دولته ، ولعل إقراره بالصانع : خير من إقرارهم ؛ لـكن بعضهم قـد يوجب الإسلام فيكون خـيرا من التتار من هذا الوجه .

وأما محققوهم وجمهورهم : فيجوز عنـدهم التهود والتنصر ، والإسلام

والإشراك ، لا يحرمون شيئا من ذلك ، بل المحقق عندهم لا يحرم عليه شيء ، ولا يجب عليه شيء .

ومعلوم أن التتار الكفار : خير من هؤلاء ، فإن هؤلاء مرتدون عن الإسلام، من أقبح أهل الردة ، والمرتد شر من الكافر الأصلى من وجوه كثيرة ، وإذا كان أبو بكر الصديق قاتل المرتدين بمنعهم الزكاة : فقتال هؤلاء أولى .

وأما ما حكاه عن الذى سماه الشيخ المحقق ، العالم الربانى ، الغوث السابع (فى الشمعة) من أنه قال : اعلم أن العالم بمجموعه حدقة عين الله ، التى لا تنام الخ . فالكلام عليه من وجوه .

(أحدها) أن تسمية قائل مثل هذا المقال : محققاً ، وعالماً ، وربانياً ، عين الضلالة والغواية ، بل هذا كلام لا تقوله لا اليهود ، ولا النصارى ، ولا عباد الأوثان .

فإن كان الذى قاله مسلوب العقل : كان حكمه حكم غيره فى أن الله رفع عنه القلم ، وإن كان عاقلا فجرأة على الله الذى يقول : (وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا * لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا * تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ) إلى آخر الآيات . وقال : (وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ) إلى قوله : (ٱلظَّٰلِمِينَ) وقال (لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ) إلى قوله : (وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ) .

فإذا كان هذا قوله فيمن يقول : إنهم أبناؤه وأحباؤه ، فكيف قوله فيمن يقول : إنهم أهداب جفنه ؟ ! تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

(الوجه الثانى) أن هذا الشيخ الضال ـ الذى قال هذا الكفر والضلال ـ قد نقض آخر كلامه بأوله ، فإن لفظ العين : مشترك بين نفس الشيء ، وبين العضو المبصر ، وبين مسميات أخر ، وإذا قال بعين الشيء ، فهو من العين التى بمعنى النفس ، أى تميز بنفسه عن غيره ، فإذا قال : إن العالم بمجموعه حدقة عين الله — التى لا تنام — فالعين هنا بمعنى البصر .

ثم قال فى آخر كلامه : ونعنى بعين الله ما يتعين الله فيه ، فهذا من العين بمعنى النفس ، وهذه العين ليس لها حدقة ولا أجفان ، وإنما هذا بمنزلة من قال : نبعت العين وفاضت ، وشربنا منها واغتسلنا ، ووزنتها فى الميزان ، فوجدتها عشرة مثاقيل ، وذهبها خالص .

وسبب هذا : أنه كان كثيراً ما كان يتصرف فى حروف بلا معان .

(الوجه الثالث) أنه تناقض من وجه آخر ، فإنه إذا كان العالم هو حدقة العين ، فينبغى أن يكون قد بقى من الله بقية الأعضاء غير العين ، فإذا قال فى آخر كلامه : والله هو نور العين ، كان الله جزءاً من العين ، أو صفة له ، فقد جعل — فى أول كلامه — العالم جزءاً من الله ، وفى آخر كلامه جعل الله جزءاً من العالم ، وكل من القولين كفر ، بل هذا أعظم من كفر الذين ذكرهم الله بقوله : (وَجَعَلُوا لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ * أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ

وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ) فإذا كان الله كفر من جعل له من عباده جزءاً فكيف من جعل عباده تارة جزءاً منه وتارة جعله هو جزءاً منهم ؟ !

فلعن الله أرباب هذه المقالات ، وانتصر لنفسه ، ولكتابه ، ولرسوله ، ولعباده المؤمنين منهم .

(الوجه الرابع) أنه تناقض من جهة أخرى ، فإنه إذا قال : العين ما يتعين الله فيه ، والعالم كله حدقة عينه التى لا تنام ؛ فقد جعله متعيناً فى جميع العالم ؛ فإذا قال بعدها وهو نور العين ، بقيت سائر أجزاء العين ؛ من الأجفان ، والأهداب والسواد ، والبياض ، لم يتعين فيها ، فقد جعله متعيناً فيها ، غير متعين فيها .

(الوجه الخامس) أن نور العين : مفتقر إلى العين ، محتاج إليها لقيامه بها ، فإذا كان الله فى العالم كالنور فى العين ؛ وجب أن يكون محتاجاً إلى العالم .

واعلم أن هذا القول يشبه قول الحلولية ؛ الذين يقولون : هو فى العالم كالماء فى الصوفة ، وكالحياة فى الجسم ونحو ذلك ، ويقولون : هو بذاته فى كل مكان ؛ وهذا قول قدماء الجهمية ، الذين كفرهم أئمة الإسلام ، وحكى عن الجهم أنه كان يقول : هو مثل هذا الهواء ، أو قال هو هذا الهواء .

وقوله أولا : هو حدقة عين الله ، يشبه قول الاتحادية ، فإن الاتحادية يقولون : هو مثل الشمعة التى تتصور فى صور مختلفة وهى واحدة ، فهو عندهم الوجود ؛ واختلاف أحواله كاختلاف أحوال الشمعة .

ولهذا كان صاحب هذه المقالات : متخبطا لا يستقر عند المسلمين الموحدين المخلصين ، ولا هو عند هؤلاء الملاحدة الاتحادية من محققيهم العارفين .

فإن هؤلاء كلهم من جنس النصيرية ، والإسماعيلية ، مقالات هؤلاء فى الرب من جنس مقالات أولئك ، وأولئك فيهم المتمسك بالشريعة ، وفيهم المتخلى عنها ، وهؤلاء كذلك ، لكن أولئك أحذق فى الزندقة ، وهم يعلمون أنهم معطلون مثل فرعون ، وهؤلاء جهال يحسبون أنهم يحسنون صنعا .

(الوجه السادس) قوله : إن العلويات والسفليات لو ارتفعت : لانبسط نور الله تعالى : بحيث لا يظهر فيه شىء أصلا ؛ وهذا كلام مجمل ، ولا ريب أن قائل هذه المقالة من المذبذبين ، بين الكافرين والمؤمنين ، لا هو من المؤمنين ، ولا من الاتحادية المحضة ؛ لكنه قد لبس الحق بالباطل ، وذلك أن الاتحادية يقولون إن عين السموات والأرض لو زالت لعدم الله ، وهذا اللفظ يصرح به بعضهم ، وأما غالبهم فيشيرون إليه إشارة ، وعوامهم لا يفهمون هذا من مذهب الباقين ، فإن هؤلاء من جنس القرامطة ،والباطنية ،وأولئك إنما يصلون إلى البلاغ الأكبر ، الذى هو آخر مراتب خواصهم .

ولهذا حدثنى بعض أكابر هؤلاء الاتحادية : عن صاحب هذه المقالة ، أنه كان يقول : ليس بين التوحيد والإلحاد إلا فرق لطيف . فقلت له : هذا من أبطل الباطل ، بل ليس بين مذهبين من الفرق أعظم مما بين التوحيد والإلحاد ، وهذا قاله بناء على هذا الخلط واللبس الذى خلطه ، مثل

قوله إن العلويات والسفليات لو ارتفعت لانبسط نور الله بحيث لا يظهر فيه شيء .

فيقال له : إذا ارتفعت العلويات والسفليات : فما تعنى بانبساطه ؟ أتعنى تفرقه وعدمه كما يتفرق نور العين عند عدم الأجفان ؟ أم تعنى أنه ينبسط شيء موجود ؟ وما الذى ينبسط حينئذ ؟ أهو نفس الله ، أم صفة من صفاته ؟ وعلى أى شيء ينبسط ؟ وما الذى يظهر فيه أو لا يظهر ؟ .

فإن عنيت الأول وهو مقتضى أول كلامك ، لأنك قلت : وإنما قلنا إن العلويات والسفليات أجفان عين الله لأنهما يحافظان على ظهور النور ، فلو قطعت أجفان عين الإنسان ، لتفرق نور عينه وانتشر ، بحيث لا يرى شيئاً أصلا ، فكذلك العلويات والسفليات لو ارتفعت : لانبسط نور الله ، بحيث لا يظهر فيه شيء أصلا .

وقد قلت : إن الله هو نور العين ، والروح الأعظم بياضها ، والنفس الكلية سوادها .

ومعلوم أن نور العين على ما ذكرته بشرط وجوده هو الأجفان ، فإذا ارتفع الشرط ارتفع المشروط ، فيكون العالم عندك شرطاً فى وجود الله ، فإذا ارتفع العالم ارتفعت حقيقة الله لانتفاء شرطه ، وإن أثبت له ذاتا غير العالم فهذا أحد قولى الاتحادية .

فإنهم تارة يجعلون وجود الحق : هو عين وجود المخلوقات ليس غيرها ،

وعلى هذا فلا يتصور وجوده مع عدم المخلوقات ، وهذا تعطيل محض للصانع وهو قول القونوى والتلمسانى ، وهو قول صاحب الفصوص فى كثير من كلامه ، وتارة يجعلون له وجوداً قائماً بنفسه ، ثم يجعلون نفس ذلك الوجود هو أيضاً وجود المخلوقات ، بمعنى أنه فاض عليها ؛ وهذا أقل كفراً من الأول ، وإن كان كلاهما من أغلظ الكفر وأقبحه .

وفى كلام صاحب الفصوص وغيره — فى بعض المواضع — ما يوافق هذا القول ، وكذلك كلام هذا ، فإنه قد يشير إلى هذا المعنى .

ثم مع ذلك : هل يجعلون وجوده مشروطا بوجود العالم ، فيكون محتاجا الى العالم ، أولا يجعلون ؟ قد يقولون هذا ، وقد يقولون هذا .

(السابع) إنهم يمدحون الضلال والحيرة ، والظلم والخطأ ، والعذاب الذى عذب الله به الأمم ، ويقلبون كلام الله وكلام رسوله قلبا يعلم فساده بضرورات العقول مثل قول صاحب الفصوص : لو أن نوحا ما جمع لقومه بين الدعوتين لأجابوه فدعاهم جهاراً ، ثم دعاهم إسراراً — إلى أن قال : وذكر عن قومه أنهم تصاموا عن دعوته ، لعلمهم بما يجب عليهم من إجابة دعوته ، فعلم العلماء بالله ما أشار إليه نوح فى حق قومه ؛ من الثناء عليهم بلسان الذم ، وعلم أنهم إنما لم يجيبوا دعوته لما فيها من الفرقان ، والأمر قرآن لا فرقان . ومن أقيم فى القرآن : لا يصغى إلى الفرقان ؛ وإن كان فيه .

فيمدحون ويحمدون ما ذمه الله ولعنه ، ونهى عنه ، ويأتون من الإفك

والفرية على الله والإلحاد فى أسماء الله وآياته ، بما : (تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا) كقول صاحب الفصوص فى فص نوح .

(مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟) فهى التى خطت بهم فغرقوا فى بحار العلم بالله وهو الحيرة .

(فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا) فى عين الماء فى المحمدتين ' (وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ) سجرت التنور إذا أوقدته (فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا) : فكان الله عين أنصارهم ، فهلكوا فيـــه إلى الأ بد ، فلو أخرجتهم إلى السيف سيف الطبيعة : لنزلوا عن هذه الدرجة الرفيعة ، وإن كان الـكل لله ، وبالله ، بل هو الله .

(وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ) الذين استغشوا ثيابهم وجعلوا أصابعهم فى آذانهم ، طلباً للستر لأنه دعاهم ليغفر لهم ، والغفر الستر (دَيَّارًا) أحداً حتى تعم المنفعة كما عمت الدعوة (إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ) أى تدعهم وتتركهم (يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ) أى يحيروهم ويخرجوهم من العبودية ، إلى مافيهم من أسرار الربوبية ، فينظروا أنفسهم أرباباً ، بعد ما كانوا عند أنفسهم عبيداً ، فهم العبيـــد الأرباب (وَلَا يَلِدُوٓا۟) أى ما ينتجون ولا يظهرون (إِلَّا فَاجِرًا) أى مظهراً ما ستر (كَفَّارًا) أى ساتراً ماظهر بعد ظهوره ، فيظهرون ما ستر ، ثم يسترونه بعد ظهوره ، فيحار الناظر ، ولا يعرف قصد الفاجر فى فجوره ، ولا الـكافر فى كفره ، والشخص واحد (رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى) أى استرنى ، واستر مراحلى ، فيجهل مقامى وقدرى كما جهل قدرك فى قولك

(وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ) (وَلِوَٰلِدَىَّ) أى من كنت نتيجة عنهما وهما العقل والطبيعة (وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ) أى قلبى (مُؤْمِنًا) مصدقاً بما يكون فيه من الأخبار الإلهية وهو ما حدثت به أنفسها (وَلِلْمُؤْمِنِينَ) من العقول (وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ) من النفوس (وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ) من الظلمات أهل الغيب المكتنفين داخل الحجب الظلمانية (إِلَّا تَبَارًۢا) أى هلاكا ، فلا يعرفون نفوسهم ، لشهودهم وجه الحق دونهم .

وهذا كله : من أقبح تبديل كلام الله وتحريفه ، ولقد ذم الله أهل الكتاب فى القرآن على ما هو دون هذا ، فإنه ذمهم على أنهم حرفوا الكلم عن مواضعه ، وأنهم : (يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا) (وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) .

وهؤلاء قد حرفوا كلام الله عن مواضعه أقبح تحريف . وكتبوا كتب النفاق والإلحاد بأيديهم ، وزعموا أنها من عند الله .

تارة يزعمون أنهم يأخذون من حيث يأخذ الملك الذى يوحى به إلى النبى ، فيكونون فوق النبى بدرجة .

وتارة يزعمون أنهم يأخذون من حيث يأخذ الله ، فيكون أحدهم فى علمه بنفسه بمنزلة علم الله به ، لأن الأخذ من معدن واحد .

وتارة يزعم أحدهم أن النبى صلى الله عليه وسلم أعطاه فى منامه هذا النفاق

العظيم ، والإلحاد البليغ ، وأمره أن يخرج به إلى أمته وأنه أبرزه ، كما حده له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من غير زيادة ولا نقصان ، وكان جماعة من الفضلاء — حتى بعض من خاطبني فيه وانتصر له — يرى أنه كان يستحل الكذب ، ويختارون أن يقال : كان يتعمد الكذب ، وأن ذلك هو أهون من الكفر ، ثم صرحوا بأن مقالته كفر ، وكان ممن يشهد عليه بتعمد الكذب غير واحد من عقلاء الناس ، وفضلائهم ؛ من المشايخ والعلماء .

ومعلوم أن هذا من أبلغ الكذب على الله ورسوله ، وأنه من أحق الناس بقوله : (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ) وكثير من المتنبئين الكذابين — كالمختار بن أبي عبيد وأمثاله — لم يبلغ كذبهم وافتراؤهم إلى هذا الحد .

بل مسيلمة الكذاب لم يبلغ كذبه وافتراؤه إلى هذا الحد ، وهؤلاء كلهم كان يعظم النبي صلى الله عليه وسلم ويقر له بالرسالة ؛ لكن كان يدعي أنه رسول آخر ، ولا ينكر وجود الرب ، ولا ينكر القرآن في الظاهر ، وهؤلاء جحدوا الرب ، وأشركوا به كل شيء ، وافتروا هذه الكتب التي قد يزعمون أنها أعظم من القرآن ، ويفضلون نفوسهم على النبي صلى الله عليه وسلم من بعض الوجوه ، كما قد صرح به صاحب الفصوص عن خاتم الأولياء .

وحدثني الثقة عن الفاجر التلمساني أنه كان يقول : القرآن كله شرك ليس فيه توحيد ، وإنما التوحيد في كلامنا .

وأما الضلال والحيرة : فما مدح الله ذلك قط ، ولا قال النبي صلى الله عليه وسلم : « زدني فيك تحيراً » ولم يرو هذا الحديث أحد من أهل العلم بالحديث ، ولا هو في شيء من كتب الحديث ، ولا في شيء من كتب من يعلم الحديث ؛ بل ولا من يعرف الله ورسوله ، وكذلك احتجاجه بقوله : (كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ) .

وإنما هذا حال المنافقين المرتدين ؛ فإن الضلال والحيرة مما ذمه الله في القرآن ، قال الله تعالى في القرآن : (قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ) الآية .

وهكذا يريد هؤلاء الضالون ، المتحيرون ، أن يفعلوا بالمؤمنين ، يريدون أن يدعوا من دون الله مالا يضرهم ، ولا ينفعهم ، وهي المخلوقات والأوثان ، والأصنام ، وكل ما عبد من دون الله ، ويريدون أن يردوا المؤمنين على أعقابهم ، يردونهم عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت ، ويصيروا حائرين ضالين (كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا) . وقال تعالى : (وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ) إلى قوله : (يَعْمَهُونَ) أي يحارون . وقال تعالى : (وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ) . وقال تعالى : (ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ) فأمر بأن نسأله

هداية الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم، المغـايرين للمغضوب عليهم وللضالين .

وهؤلاء يذمون الصراط المستقيم ويمدحون طريق أهل الضــــلال والحيرة مخالفة لـكتب الله ورسله ، ولمـا فطر الله عليه عبـاده من العقول والألبـاب .

فصـــــل

﴿ فى ذكر بعض ألفاظ ابن عربى التى تبين ما ذكرنا من مذهبه ، فإن أكثر الناس قد لا يفهمونه ﴾ .

قال فى فص يوسف — بعد أن جعل العالم بالنسبة إلى الله كظل الشخص ، وتناقض فى التشبيه — : فكل ما تدركه فهو وجود الحق فى أعيان الممكنات ، فمن حيث هوية الحق هو وجوده ، ومن حيث اختلاف الصور فيه هو أعيان الممكنات ، فكما لا يزول عنه باختلاف الصور اسم الظل : كذلك لا يزول عنه باختلاف الصور اسم العالم أو اسم سوى الحق ، فمن حيث أحدية كونه ظلا هو الحق ، لأنه الواحد الأحد ، ومن حيث كثرة الصور هو العالم ، فتفطن وتحقق ما أوضحناه لك .

وإذا كان الأمر على ما ذكرته لك : فالعالم متوهم ماله وجود حقيقى ، وهذا معنى الخيال ، أى خيل لك أنه أمر زائد قائم بنفسه ، خارج عن الوجود الحق ، وليس كذلك فى نفس الأمر ؛ ألا تراه فى الحس متصلا بالشخص الذى امتد عنه يستحيل عليه الانفكاك عن ذلك الاتصال ؛ لأنه يستحيل على الشيء الانفكاك عن ذاته ، فاعرف عينك ومن أنت وما هويتك ؟ وما نسبتك إلى الحق ، وبما أنت حق ، وبما أنت عالم ، وسوى، وغير ؟ وما شاكل هذه الألفاظ .

وقال فى أول الفصوص — بعد (فص حكمة إلهية فى كلمة آدمية) (وفص حكمة نفسية ، فى كلمة شيثية) — وقد قسم العطاء بأمر الله ، وإنما يكون عن سؤال وعن غير سؤال ، وذكر القسم الذى لا يسأل ، لأن شيثا هو هبة الله إلى أن قال :

« ومن هؤلاء من يعلم أن علم الله به فى جميع أحواله : هو ما كان عليه فى حال ثبوت عينه قبل وجودها ، ويعلم أن الحق لا يعطيه إلا ما أعطاه عينه من العلم به . وهو ما كان عليه فى حال ثبوته ، فيعلم علم الله به من أين حصل ، وما ثم صنف من أهل الله أعلى وأكشف من هذا الصنف ، فهم الواقفون على سر القدر ، وهم على قسمين :

منهم من يعلم ذلك مجملا ، ومنهم من يعلم ذلك مفصلا .

والذى يعلمه مفصلا : أعلى وأتم من الذى يعلمه مجملا ، فإنه يعلم ما تعين فى علم الله فيه ، إما بإعلام الله إياه بما أعطاه عينه من العلم به ، وإما بأن يكشف له عن عينه الثابتة ، وعن انتقالات الأحوال عليها إلى ما لا يتناهى ، وهو أعلى ، فإنه يكون فى علمه بنفسه بمنزلة علم الله به ، لأن الأخذ من معدن واحد ، إلا أنه من جهة العبد عناية من الله سبقت له ، هى من جملة أحوال عينه ، يعرفها صاحب هذا الكشف إذا أطلعه الله على ذلك — أى على أحوال عينه — فإنه ليس فى وسع المخلوق إذا أطلعه الله على أحوال عينه الثابتة — التى تقع صورة الوجود عليها — أن يطلع فى هذه الحال على اطلاع الحق على هذه الأعيان الثابتة فى حال عدمها ، لأنها نسب ذاتية لا صورة لها .

فبهذا القدر نقول : إن العناية الإلهية سبقت لهذا العبد بهذه المساواة فى إفادتها العلم ، ومن هنا يقول الله : (حَتَّىٰ نَعْلَمَ) وهى كلمة محققة المعنى ، ما هى كما يتوهم من ليس له هذا المشرب ، وغاية المنزه أن يجعل ذلك الحدوث فى العلم للتعلق ، وهو أعلى وجه يكون للمتكلم يعقله فى هذه المسئلة ، لولا أنه أثبت العلم زائداً على الذات فجعل التعلق له لا للذات ، وبهذا انفصل عن المحقق من أهل الله صاحب الكشف والشهود .

ثم نرجع إلى الأعطيات فنقول : إن الأعطيات إما ذاتية أو أسمائية ، فأما المنح والهبات ، والعطايا الذاتية ، فلا تكون أبداً إلا عن تجلى إلهى ، والتجلى من الذات لا يكون أبداً إلا لصورة استعداد العبد المتجلى له ، وغير ذلك لا يكون ، فإذن المتجلى له ما رأى سوى صورته فى مرآة الحق ، وما رأى الحق ، ولا يمكن أن يراه مع علمه أنه ما رأى صورته إلا فيه ، كالمرآة فى الشاهد ، إذا رأيت الصور فيها لا تراها مع علمك أنك ما رأيت الصور أو صورتك إلا فيها .

فأبرز الله ذلك مثالا نصبه لتجليه الذاتى، ليعلم المتجلى له أنه ما رآه ، وما ثم مثال أقرب ولا أشبه بالرؤية والتجلى من هذا ، واجهد فى نفسك عند ما ترى الصورة فى المرآة أن ترى جرم المرآة ، لا تراه أبداً ألبتة ، حتى أن بعض من أدرك مثل هذا فى صورة المرئى : ذهب إلى أن الصورة المرئية بين بصر الرائى ، وبين المرآة ، هذا أعظم ما قدر عليه من العلم ، والأمر كما قلناه وذهبنا إليه .

وقد بينا هذا فى الفتوحات المكية ، وإذا ذقت هذا : ذقت الغاية التى ليس

فوقها غاية فى حق المخلوق ، فلا تطمع ولا تتعب نفسك فى أن ترقى أعلى من هذا الدرج ، فما هو ثم أصلا وما بعده إلا العدم المحض ، فهو مرآتك فى رؤيتك نفسك ، وأنت مرآته فى رؤيته أسماءه وظهور أحكامها ، وليست سوى عينه ، فاختلط الأمر وانبهم ، فمنا من جهل فى علمه فقال : والعجز عن درك الإدراك إدراك * ومنا من علم فلم يقل مثل هذا القول ، وهو أعلى القول ، بل أعطاه العلم السكوت ما أعطاه العجز ، وهذا هو أعلى عالم بالله .

وليس هذا العلم إلا لخاتم الرسل صلى الله عليه وسلم ، وخاتم الأولياء ، وما يراه أحد من الأنبياء والرسل إلا من مشكاة الرسول الخاتم صلى الله عليه وسلم ، ولا يراه أحد من الأولياء إلا من مشكاة الولى الخاتم ، حتى أن الرسل لا يرونه متى رأوه إلا من مشكاة خاتم الأولياء ، فإن الرسالة والنبوة — أعنى نبوة التشريع ورسالته — ينقطعان ، والولاية لا تنقطع أبداً .

فالمرسلون من حيث كونهم أولياء : لا يرون ما ذكرناه إلا من مشكاة خاتم الأولياء ، فكيف من دونهم من الأولياء ؟ وإن كان خاتم الأولياء تابعاً فى الحكم لما جاء به خاتم الرسل من التشريع ، فذلك لا يقدح فى مقامه ، ولا يناقض ما ذهبنا إليه ، فإنه من وجه يكون أنزل ، كما أنه من وجه يكون أعلى .

وقد ظهر فى ظاهر شرعنا : ما يؤيد ما ذهبنا إليه فى فضل عمر ، فى أسارى بدر بالحكم فيهم ، وفى تأبير النخل ؛ فما يلزم الكامل أن يكون له التقدم فى كل

شيء ، وفى كل مرتبة ، وإنما نظر الرجال إلى التقدم فى مرتبة العلم بالله ، هنالك مطلبهم ، وأما حوادث الأكوان فلا تعلق لخواطرهم بها ، فتحقق ما ذكرناه .

ولما مثل النبي صلى الله عليه وسلم النبوة بالحائط من اللبن وقد كمل سوى موضع لبنة فكان النبي صلى الله عليه وسلم تلك اللبنة ، غير أنه صلى الله عليه وسلم لا يراها — إلا كما قال — لبنة واحدة .

وأما خاتم الأولياء : فلا بد له من هذه الرؤية ، فيرى ما مثل به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيرى فى الحائط موضع لبنتين ، واللبن من ذهب وفضة فيرى اللبنتين اللتين ينقص الحائط عنهما ويكمل بهما لبنة ذهب ولبنة فضة ، فلا بد من أن يرى نفسه تنطبع فى موضع تينك اللبنتين فيكون خاتم الأولياء تينك اللبنتين ، فيكمل الحائط .

والسبب الموجب لكونه رآها لبنتين : أنه تابع لشرع خاتم الرسل صلى الله عليه وسلم فى الظاهر ، وهو موضع اللبنة الفضة وهو ظاهره ، وما يتبعه فيه من الأحكام كما هو آخذ عن الله تعالى فى السر ماهو بالصورة الظاهرة متبع فيه ، لأنه رأى الأمر على ما هو عليه ، فلا بد أن يراه هكذا ، وهو موضع اللبنة الذهبية فى الباطن ، فإنه آخذ من المعدن الذى يأخذ منه الملك ، الذى يوحى به إلى الرسول .

فإن فهمت ما أشرت به فقد حصل لك العلم النافع ، فكل نبى من لدن آدم إلى آخر نبى ، مامنهم أحد يأخذ إلا من مشكاة خاتم النبيين ، وإن تأخر وجود

طينته ، فإنه بحقيقته موجود ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « كنت نبياً وآدم بين الماء والطين » وغيره من الأنبياء ، ما كان نبياً إلا حين بعث .

وكذلك خاتم الأولياء ، كان ولياً وآدم بين الماء والطين ، وغيره من الأولياء ما كان ولياً إلا بعد تحصيله شرائط الولاية ، من الأخلاق الإلهية ، والاتصاف بها من أجل كون الله يسمى بالولى الحميد .

فخاتم الرسل من حيث ولايته نسبته مع الختم للولاية ، مثل نسبة الأنبياء والرسل معه ، فإنه الولى الرسول النبى .

وخاتم الأولياء : الولى الوارث ، الآخذ عن الأصل المشاهد للمراتب ، وهو حسنة من حسنات خاتم الرسل محمد صلى الله عليه وسلم ، مقدم الجماعة ، وسيد ولد آدم فى فتح باب الشفاعة ، فعين بشفاعته حالا خاصاً ماعمم ، وفى هذه الحال الخاص تقدم على الأسماء الإلهية ، فإن الرحمن ماشفع عند المنتقم فى أهل البلاء إلا بعد شفاعة الشافعين ، ففاز محمد بالسيادة فى هذا المقام الخاص .

فمن فهم المراتب والمقامات لم يعسر عليه قبول مثل هذا الكلام اه .

* * *

فهذا الفص قد ذكر فيه حقيقة مذهبه التى يبنى عليها سائر كلامه فتدبر ما فيه من الكفر الذى : (تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا) وما فيه من جحد خلق الله وأمره ، وجحود ربوبيته وألوهيته وشتمه وسبه ، وما فيه من الإزراء برسله ، وصديقيه ، والتقدم عليهم

بالدعاوى الكاذبة ، التى ليس عليها حجة ، بل هى معلومة الفساد بأدنى عقل وإيمان وأيسر ما يسمع من كتاب وقرآن ، وجعل الكفار والمنافقين والفراعنة هم أهل الله وخاصته أهل الكشوف وذلك باطل من وجوه :—

(أحدها) أنه أثبت له عيناً ثابتة قبل وجوده ولسائر الموجودات وإن ذلك ثابت له ولسائر أحواله وكل ما كان موجوداً من الأعيان والصفات والجواهر والأعراض فعينه ثابتة قبل وجوده . وهذا ضلال قد سبق إليه كما تقدم .

(الثانى) أنه جعل علم الله بالعبد إنما حصل له من علمه بتلك العين الثابتة فى العدم التى هى حقيقة العبد ، لا من نفسه المقدسة ، وأن علمه بالأعيان الثابتة فى العدم وأحوالها تمنعه أن يفعل غير ذلك ، وأن هذا هو سر القدر .

فتضمن هذا وصف الله تعالى بالفقر إلى الأعيان وغناها عنه ، ونفى ما استحقه بنفسه ، من كمال علمه وقدرته ، ولزوم التجهيل والتعجيز ، وبعض ما فى هذا الكلام المضاهاة لما ذكره الله عمن قال فيه (لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ) الآية ، فإنه جعل حقائق الأعيان الثابتة فى العدم غنية عن الله فى حقائقها وأعيانها ، وجعل الرب مفتقرا إليها فى علمه بها ، فما استفاد علمه بها إلا منها ، كما يستفيد العبد العلم بالمحسوسات من إدراكه لها ، مع غنى تلك المدركات عن المدرك .

والمسلمون يعلمون أن الله عالم بالأشياء ، قبل كونها بعلمه القديم الأزلى ، الذى هو من لوازم نفسه المقدسة ، لم يستفد علمه بها منها : (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ) فقد دلت هـذه الآية ، على وجوب علمه بالأشيـاء ، من وجوه انتظمت البراهين المذكورة ، لأهـل النظر والاستدلال القياسى العقلى ، من أهل الكلام والفلسفة وغيرهم :

(أحدها) أنه خالق لهـا والخلق هو الإبداع بتقدير ، وذلك يتضمن تقديرها فى العلم قبل تـكونها فى الخارج .

(الثانى) أن ذلك مستلزم للإرادة ؛ والمشيئة والإرادة مستلزمة لتصور المراد والشعور به ، وهذه الطريقة المشهورة عند أكثر أهل الكلام .

(الثالث) أنهـا صادرة عنه ، وهو سببها التـام ، والعلم بأصل الأمر وسببه ، يوجب العـلم بالفرع المسبب ، فعلمه بنفسه مستلزم العـلم بكل ما يصدر عنه .

(الرابع) أنه فى نفسه لطيف يدرك الدقيق ؛ خبير يدرك الخفى ، وهذا هو مقتضى العلم بالأشياء ، فيجب وجـود المقتضى لوجـود السبب التـام ، فهو فى علمه بالأشياء مستغن بنفسه عنها ، كما هو غنى بنفسه فى جميع صفاته ، ثم إذا رأى الأشياء بعد وجودها ، وسمع كلام عباده ونحو ذلك ؛ فإنما يدرك ما أبدع وما خلق ، وما هو مفتقر إليه ، ومحتاج من جميع وجوهه ، لم يحتج فى علمه وإدراكه إلى غيره ألبتة ؛ فلا يجوز القول بأن علمه بالأشياء استفاده من نفس الأشياء الثابتة ، الغنية فى ثبوتها عنه .

وأما جحود قدرته : فلأنه جعل الرب لا يقدر إلا على تجليه فى تلك الأعيان ، الثابتة فى العدم ، الغنية عنه ، فقدرته محدودة بها ، مقصورة عليها ، مع غناها عنه وثبوت حقائقها بدونه ، وهذا عنده هو السر الذى أعجز الله أن يقدر على غير ما خلق ، فلا يقدر عنده على أن يزيد فى العالم ذرة ، ولا ينقص منه ذرة ، ولا يزيد فى المطر قطرة ، ولا ينقص منه قطرة ، ولا يزيد فى طول الإنسان ولا ينقص منه ، ولا يغير شيئا من صفاته ، ولا حركاته ، ولا سكناته ، ولا ينقل حجرا عن مقره ، ولا يحول ماء عن ممره ، ولا يهدى ضالا ولا يضل مهتديا ، ولا يحرك ساكنا ولا يسكن متحركا ؛ ففى الجملة لا يقدر إلا على ما وجد ، لأن ما وجد فعينه ثابتة فى العدم ولا يقدر على أكثر من ظهوره فى تلك الأعيان .

وهذا التجهيل والتعجيز الذى ذكره ، وزعم أنه هو سر القدر — وإن كان قد تضمن بعض ما قاله غيره من الضلال — ففيه من الكفر ما لا يرضاه غيره من الضالين .

فإن القائلين بأن المعدوم شىء : يقولون ذلك فى كل ممكن كان أو لم يكن ، ولا يجعلون علمه بالأشياء مستفاداً من الأشياء قبل أن يكون وجودها ، ولا أن خلقه وقدرته مقصورة على ما علمه منها ، فإنه يعلم أنواعا من الممكنات لم يخلقها فمعلومه من الممكنات أوسع مما خلقه ، ولا يجعلون المانع من أن يخلق غير ما خلق هو كون الأعيان الثابتة فى العدم لا تقبل سوى هذا الوجود ؛ بل يمكن عندهم وجودها على صفة أخرى ، هى أيضا من الممكن الثابت فى العدم .

فلا يفضى قولهم لا إلى تجهيل ، ولا إلى تعجيز من هذا الوجه ؛ وإنما

قد يقولون المانع من ذلك : إن هذا هو أكمل الوجوه وأصلحها ، فعلمه بأنه لا أكمل من هذا يمنعه أن يريد ما ليس أكمل بحكمته ، فيجعلون المانع أمراً يعود إلى نفسه المقدسة ، حتى لا يجعلونه ممنوعا من غيره .

فأين من لا يجعل له مانعاً من غيره ، ولا راد لقضائه ، ممن يجعله ممنوعا مصدوداً ؟ وأين من يجعله عالما بنفسه ، ممن يجعله مستفيداً للعلم من غيره ؟ وممن هو غنى عنه ؟ هذا مع أن أكثر الناس أنكروا على من قال : ليس فى الإمكان أبدع من هذا العالم .

(الثالث) أنه زعم أن من الصنف الذى جعله أعلى أهل الله من يكون فى علمه بمنزلة علم الله ، لأن الأخذ من معدن واحد إذا كشف له عن أحوال الأعيان الثابتة فى العدم ، فيعلمها من حيث علمها الله ، إلا أنه من جهة العبد عناية من الله سبقت له ، هى من جملة أحوال عينه ، يعرفها صاحب هذا الكشف إذا أطلعه الله على ذلك ، فجعل علمه وعلم الله من معدن واحد .

(الرابع) أنه جعل الله عالماً بها بعد أن لم يكن عالما ، واتبع المتشابه الذى هو قوله : (حَتَّىٰ نَعْلَمَ) وزعم أنها كلمة محققة المعنى ، بناء على أصله الفاسد أن وجود العبد هو عين وجود الرب ، فكل مخلوق علم مالم يكن علمه ، فهو الله علم مالم يكن علمه .

وهذا الكفر ما سبقه إليه كافر ، فإن غاية المكذب بقدر الله أن يقول : إن الله علم مالم يكن عالما ، أما إنه يجعل كل ما تجدد لمخلوق من العلم فإنما تجدد

لله ، وأن الله لم يكن عالمـا بما علمه كل مخلوق ، حتى علمه ذلك المخلوق ، فهذا لم يفتره غيره .

(الخامس) أنه زعم أن التجلى الذاتى ، بصورة استعداد المتجلى والمتجلى له ، ما رأى سوى صورته فى مرآة الحق ، وأنه لا يمكن أن يرى الحق مع علمه بأنه ما رأى صورته إلا فيه ، وضرب المثل بالمرآة ؛ فجعل الحق هو المرآة ، والصورة فى المرآة هى صورته .

وهذا تحقيق ماذكرته من مذهبه : أن وجود الأعيان عنده وجود الحق ، والأعيان كانت ثابتة فى العدم ، فظهر فيهـا وجود الحق ، فالمتجلى له ، وهو العبد لا يرى الوجود مجرداً عن الذوات ، مايرى إلا الذوات التى ظهر فيها الوجود ، فلا سبيل له إلى رؤية الوجود أبداً . وهذا عنده هو الغاية التى ليس فوقها غاية فى حق المخلوق ، وما بعده إلا العدم المحض ، فهو مرآتك فى رؤيتك نفسك ، وأنت مرآته فى رؤيته أسماءه ، وظهور أحكامها .

وذلك لأن العبد لا يرى نفسه ـ التى هى عينه ـ إلا فى وجود الحق ، الذى هو وجوده ، والعبد مرآته فى رؤيته أسماءه وظهور أحكامها ، لأن أسماء الحق عنده هى النسب والإضافات ، التى بين الأعيان وبين وجود الحق ؛ وأحكام الأسماء هى الأعيان الثابتة فى العدم ، وظهور هذه الأحكام بتجلى الحق فى الأعيان .

والأعيان التى هى حقيقة العيان : هى مرآة الحق ، التى بهـا يرى أسماءه ؛

وظهور أحكامها ، فإنه إذا ظهر فى الأعيان : حصلت النسبة التى بين الوجود والأعيان — وهى الأسماء — وظهرت أحكامها — وهى الأعيان — ووجود هذه الأعيان هو الحق ؛ فلهذا قال وليست سوى عينه ، فاختلط الأمر وانبهم .

فتدبر هذا من كلامه وما يناسبه ؛ لتعلم ما يعتقده من ذات الحق وأسمائه وأن ذات الحق عنده هى نفس وجود المخلوقات ، وأسماءه هى النسب التى بين الوجود والأعيان ، وأحكامها هى الأعيان ، لتعلم كيف اشتمل كلامه على الجحود لله ولأسمائه ، ولصفاته وخلقه وأمره ، وعلى الإلحاد فى أسماء الله وآياته ؟ فإن هذا الذى ذكره غاية الإلحاد فى أسماء الله وآياته ؛ الآيات المخلوقة والآيات المتلوة ، فإنه لم يثبت له اسما ولا آية ، إذ ليس إلا وجوداً واحداً ؛ وذاك ليس هو اسما ولا آية ، والأعيان الثابتة ليست هى أسماءه ولا آياته ؛ ولما أثبت شيئين فرق بينهما بالوجود والثبوت ، - وليس بينهما فرق - اختلط الأمر عليه وانبهم .

وهذا حقيقة قوله : وسر مذهبه ؛ الذى يدعى أنه به أعلم العالم بالله ، وأنه تقدم بذلك على الصديق ، الذى جهل فقال : العجز عن درك الإدراك إدراك ؛ وتقدم به على المرسلين ، الذين ما علموا ذلك إلا من مشكاته ، وفيه من أنواع الكفر والضلال ما يطول عدها :

منها : الكفر بذات الله إذ ليس عنده إلا وجود المخلوق .

(ومنها) الكفر بأسماء الله ، فإنها ليست عنده إلا أمور عدمية ، فإذا قلنا:(ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ)فليس الرب عنده إلا نسبة إلى الثبوت .

(السادس) أنه قال : فاختلط الأمر وانبهم ، أو هو على أصله الفاسد مختلط منبهم ، وعلى أصل الهدى والإيمان متميز متبين ، قد بين الله بكتابه الحق من الباطل والهدى من الضلال .

قال : فمنا من جهل فى علمه فقال : العجز عن درك الإدراك إدراك ، وهذا الكلام مشهور عندهم نسبته إلى أبى بكر الصديق ، فجعله جاهلا ، وإن كان هذا اللفظ لم يحفظ عن أبى بكر ، ولا هو مأثور عنه فى شيء من النقول المعتمدة ، وإنما ذكر ابن أبى الدنيا فى كتاب الشكر نحوا من ذلك ، عن بعض التابعين غير مسمى ، وإنما يرسل عنه إرسالاً من جهة من يكثر الخطأ فى مراسيلهم .

كما يحكون عن عمر أنه قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر إذا تخاطبا كنت كالزنجى بينهما » . وهذا أيضا كذب باتفاق أهل المعرفة ، وإنما الذى فى الصحيح عن أبى سعيد الخدرى قال:خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر ، فقال : « إن عبداً خيره الله بين الدنيا والآخرة فاختار ذلك العبد ما عند الله » فبكى أبو بكر ، فقال : بل نفديك بأنفسنا وأموالنا ، أو كما قال .

فجعل الناس يقولون : عجبا لهذا الشيخ ، يبكى إن ذكر رسول الله صلى الله

عليه وسلم عبداً خيره الله بين الدنيا والآخرة ! فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المخير ، وكان أبو بكر هو أعلمنا به ، فكان أبو بكر هو أعلمهم بمراد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومقاصده فى كلامه ؛ وإن كانوا كلهم مشتركين فى فهمه .

وهذا كما فى الصحيح أنه قيل لعلى رضى الله عنه : هل ترك عندكم رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً ؟ وفى لفظ : هل عهد إليكم رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً لم يعهده إلى الناس ؟ فقال : « لا والذى فلق الحبة وبرأ النسمة ، إلا فهماً يؤتيه الله عبداً فى كتابه ، وما فى هذه الصحيفة : وفيها العقل ، وفكاك الأسير ، وأن لا يقتل مسلم بكافر .

وبهذا الحديث ونحوه من الأحاديث الصحيحة : استدل العلماء على أن كل ما يذكر عن على وأهل البيت ؛ من أنهم اختصوا بعلم خصهم به النبى صلى الله عليه وسلم دون غيرهم كذب عليهم ، مثل ما يذكر منه الجفر ، والبطاقة والجدول ، وغير ذلك وما يأثره القرامطة الباطنية عنهم ، فإنه قد كذب على جعفر الصادق رضى الله عنه ، ما لم يكذب على غيره . وكذلك كذب على علىّ رضى الله عنه ، وغيره من أئمة أهل البيت رضى الله عنهم ، كما قد بين هذا وبسط فى غير هذا الموضع .

وهكذا يكذب قوم من النساك ومدعى الحقائق ، على أبى بكر وغيره ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم كان يخاطبه بحقائق لا يفهمها عمر مع حضوره ؛ ثم قد يدعون أنهم عرفوها ، وتكون حقيقتها زندقة وإلحاداً .

وكثير من هؤلاء الزنادقة والجهال : قد يحتج على ذلك بحديث أبى هريرة « حفظت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم جرابين : أما أحدهما فبثثته فيكم ؛ وأما الآخر فلو بثثته لقطعتم هذا الحلقوم » وهذا الحديث صحيح ؛ لكن الجراب الآخر لم يكن فيه شيء من علم الدين، ومعرفة الله وتوحيده، الذى يختص به أولياؤه.

ولم يكن أبو هريرة من أكابر الصحابة ، الذين يخصون بمثل ذلك — لو كان هذا مما يخص به — بل كان فى ذلك الجراب أحاديث الفتن ، التى تكون بين المسلمين ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم أخبرهم بما سيكون من الفتن التى تكون بين المسلمين ، ومن الملاحم التى تكون بينهم وبين الكفار .

ولهذا لما كان مقتل عثمان وفتنة ابن الزبير ونحو ذلك : قال ابن عمر : لو أخبركم أبو هريرة أنكم تقتلون خليفتكم ، وتهدمون البيت وغير ذلك ، لقلتم : كذب أبو هريرة ، فكان أبو هريرة يمتنع من التحديث بأحاديث الفتن قبل وقوعها ؛ لأن ذلك مما لا يحتمله رؤوس الناس وعوامهم .

وكذلك قد يحتجون بحديث حذيفة بن اليمان ، وأنه صاحب السر الذى لا يعلمه غيره ، وحديث حذيفة معروف ؛ لكن السر الذى لا يعلمه غيره : هو معرفته بأعيان المنافقين ، الذين كانوا فى غزوة تبوك . ويقال : إنهم كانوا هموا بالفتك بالنبي صلى الله عليه وسلم ، فأوحى الله إلى النبي صلى الله عليه وسلم أمرهم ، فأخبر حذيفة بأعيانهم ؛ ولهذا كان عمر لا يصلى إلا على من صلى عليه حذيفة ؛ لأن الصلاة على المنافقين منهى عنها .

وقد ثبت فى الصحيح عن حذيفة ، أنه لما ذكر الفتن ، وأنه أعلم الناس

بها ، بين أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يخصه بحديثها ، ولكن حدث الناس كلهم قال : « وكان أعلمنا أحفظنا » .

ومما يبين هذا : أن فى السنن أن النبي صلى الله عليه وسلم كان عام الفتح قد أهدر دم جماعة : منهم عبد الله بن أبى سرح ، فجاء به عثمان إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليبايعه ، فتوقف عنه النبي صلى الله عليه وسلم ساعة ، ثم بايعه وقال : « أما كان فيكم رجل رشيد ينظر إلى ، وقد أمسكت عن هذا فيضرب عنقه ؟ » فقال رجل من الأنصار : يا رسول الله ! هلا أومأت إلى ؟ فقال : « ما ينبغى لنبي أن تكون له خائنة الأعين » فهذا ونحوه مما يبين أن النبي صلى الله عليه وسلم يستوى ظاهره وباطنه ، لا يظهر للناس خلاف ما يبطنه ، كما تدعيه الزنادقة من المتفلسفة والقرامطة وضلال المتنسكة ونحوهم .

(السابع) أنه قال : « ومنا من علم فلم يقل مثل هذا ، وهو أعلى القول ، بل أعطاه العلم والسكوت ما أعطاه العجز ، وهذا هو أعلى عالم بالله ، وليس هذا العلم إلا لخاتم الرسل وخاتم الأولياء ، وما يراه أحد من الأولياء والرسل : إلا من مشكاة الرسول الخاتم ، ولا يراه أحد من الأولياء إلا من مشكاة الولى الخاتم ؛ حتى إن الرسل لا يرونه متى رأوه ، إلا من مشكاة خاتم الأولياء .

فإن الرسالة والنبوة — أعنى نبوة التشريع ورسالته — ينقطعان ، والولاية لا تنقطع أبداً ؛ فالمرسلون من كونهم أولياء : لا يرون ماذكرناه إلا من مشكاة خاتم الأولياء ، فكيف من دونهم من الأولياء ؟ وإن كان خاتم الأولياء تابعاً

فى الحكم لما جاء به خاتم الرسل من التشريع ، فذلك لا يقدح فى مقامه ، ولا يناقض ماذهبنا إليه ، فإنه من وجه يكون أنزل ، كما أنه من وجه يكون أعلى — إلى قوله — ولما مثل النبى صلى الله عليه وسلم النبوة بالحائط من اللبن .

ففى هذا الكلام من أنواع الإلحاد والكفر ، وتنقيص الأنبياء والرسل مالا تقوله لا اليهود ولا النصارى ، وما أشبهه فى هذا الكلام بما ذكر فى قول القائل : فخر عليهم السقف من تحتهم إن هذا لا عقل ولا قرآن .

وكذلك ما ذكره هنا — من أن الأنبياء والرسل تستفيد من خاتم الأولياء الذى بعدهم — هو مخالف للعقل ، فإن المتقدم لا يستفيد من المتأخر . ومخالف للشرع ، فإنه معلوم بالاضطرار من دين الإسلام : أن الأنبياء والرسل أفضل من الأولياء ، الذين ليسوا أنبياء ولا رسلا .

وقد يزعم أن هذا العلم — الذى هو عنده — أعلى العلم (وهو القول بوحدة الوجود) وأن وجود الخالق هو وجود المخلوق ، وحقيقة تعطيل الصانع وجحده ، وهو القول الذى يظهره فرعون ، فلم يكفه زعمه أن هذا حق ، حتى زعم أنه أعلى العلم ، ولم يكفه ذلك حتى زعم أن الرسل إنما يرونه من مشكاة خاتم الأولياء .

فجعل خاتم الأولياء : أعلم بالله من جميع الأنبياء والرسل ، وجعلهم يرون العلم بالله من مشكاته .

ثم أخذ يبين ذلك فقال : فإن الرسالة والنبوة : — أعنى نبوة التشريع

ورسالته — ينقطعان والولاية لا تنقطع أبداً . فالمرسلون من كونهم أولياء لا يرون ما ذكرناه إلا من مشكاة خاتم الأولياء ، فكيف بالأولياء الذين ليسوا أنبياء ولا رسلا ؟ وذلك أنه لم يمكنهم أن يجعلوا بعد النبي صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولا ، فإن هذا كفر ظاهر ، فزعموا أنه إنما تنقطع نبوة التشريع ورسالته ، يعنى وأما نبوة التحقيق ورسالة التحقيق — وهى الولاية عندهم — فلم تنقطع ، وهذه الولاية عندهم هى أفضل من النبوة والرسالة ، ولهذا قال ابن عربى فى بعض كلامه :—

مقام النبـــوة فى برزخ   فويق الرسول ودون الولى

وقال فى الفصوص فى : (كلمة عزيرية) فإذا سمعت أحداً من أهل الله تعالى يقول أو ينقل إليك عنه ، أنه قال : الولاية أعلى من النبوة : فليس يريد ذلك القائل إلا ما ذكرناه .

أو يقول : إن الولى فوق النبي والرسول ، فإنه يعنى بذلك فى شخص واحد وهو أن الرسول عليه السلام من حيث هو ولى : أتم منه من حيث هو نبي ورسول ، لا أن الولى التابع له أعلى منه ، فإن التابع لا يدرك المتبوع أبداً فيما هو تابع له فيه ، إذ لو أدركه لم يكن تابعاً له » .

وإذا حوققوا على ذلك قالوا : إن وَلاية النبي فوق نبوته ، وإن نبوته فوق رسالته ، لأنه يأخذ بولايته عن الله ، ثم يجعلون مثل ولايته ثابتة لهم ، ويجعلون ولاية خاتم الأولياء أعظم من ولايته ، وأن ولاية الرسول تابعة لولاية خاتم الأولياء الذى ادعوه » .

وفى هذا الكلام أنواع قد بيناها فى غير هذا الموضع :

(منها) أن دعوى المدعى وجود خاتم الأولياء على ما ادعوه باطل لا أصل له .

ولم يذكر هذا أحد من المعروفين قبل هؤلاء ، إلا أبو عبد الله محمد بن على الترمذى الحكيم ، فى كتاب (ختم الولاية) وقد ذكر فى هذا الكتاب ما هو خطأ وغلط ، مخالف للكتاب والسنة والإجماع .

وهو — رحمه الله تعالى وإن كان فيه فضل ومعرفة ، وله من الكلام الحسن المقبول والحقائق النافعة أشياء محمودة — ففى كلامه من الخطأ : ما يجب رده ، ومن أشنعها ما ذكره فى كتاب (ختم الولاية) مثل دعواه فيه أنه يكون فى المتأخرين من درجته عند الله أعظم من درجة أبى بكر ، وعمر ، وغيرهما .

ثم إنه تناقض فى موضع آخر ، لما حكى عن بعض الناس أن الولى يكون منفرداً عن الناس ، فأبطل ذلك واحتج بأبى بكر وعمر وقال : يلزم هذا أن يكون أفضل من أبى بكر وعمر ، وأبطل ذلك .

(ومنها) أنه ذكر فى كتابه ما يشعر أن ترك الأعمال الظاهرة — ولو أنها التطوعات المشروعة — أفضل فى حق الكامل ذى الأعمال القلبية ، وهذا أيضا خطأ عند أئمة الطريق ، فإن أكمل الخلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم ، وما زال محافظا على ما يمكنه من الأوراد والتطوعات البدنية إلى مماته .

(ومنها) ما ادعاه من خاتم الأولياء ، الذى يكون فى آخر الزمان ، وتفضيله وتقديمه على من تقدم من الأولياء ، وأنه يكون معهم كخاتم الأنبياء مع الأنبياء . وهذا ضلال واضح ؛ فإن أفضل أولياء الله من هذه الأمة أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ، وأمثالهم من السابقين الأولين ، من المهاجرين والأنصار ، كما ثبت ذلك بالنصوص المشهورة .

وخير القرون قرنه صلى الله عليه وسلم ، كما فى الحديث الصحيح : « خير القرون قرنى الذين بعثت فيهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » وفى الترمذى وغيره أنه قال فى أبى بكر وعمر : « هذان سيدا كهول أهل الجنة ، من الأولين والآخرين ، إلا النبيين والمرسلين » قال الترمذى حديث حسن . وفى صحيح البخارى عن على رضى الله عنه أنه قال له ابنه : يا أبت من خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « يا بنى أبو بكر » قال : ثم من ؟ قال : « ثم عمر » وروى بضع وثمانون نفسا عنه أنه قال : « خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر » .

وهذا باب واسع ، وقد قال تعالى : (فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ) وهذه الأربعة هى مراتب العباد : أفضلهم الأنبياء ، ثم الصديقون ، ثم الشهداء ، ثم الصالحون .

وقد نهى النبى صلى الله عليه وسلم أن يفضل أحد منا نفسه على يونس بن متى — مع قوله (وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ) وقوله (وَهُوَ مُلِيمٌ) — تنبيها على أن غيره أولى أن لا يفضل أحد نفسه عليه ، فى صحيح البخارى عن ابن

مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا يقولن أحدكم إنى خير من يونس ابن متى » وفى صحيح البخارى أيضا عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما ينبغى لعبد أن يكون خيرا من يونس بن متى » وفى لفظ : « أن يقول : أنا خير من يونس بن متى » وفى البخارى أيضا عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من قال أنا خير من يونس بن متى فقد كذب » وفى الصحيحين عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال - يعنى رسول الله - « لا ينبغى لعبد أن يقول : أنا خير من يونس بن متى » وفى الصحيحين عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم - وفى لفظ : فيما يرويه عن ربه « لا ينبغى لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى » وهذا فيه نهى عام .

وأما ما يرويه بعض الناس أنه قال : « لا تفضلونى على يونس بن متى » ويفسره باستواء حال صاحب المعراج ، وحال صاحب الحوت : فنقل باطل وتفسير باطل وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « اثبت أحد فما عليك إلا نبى ، أو صديق أو شهيد » وأبو بكر أفضل الصديقين .

ولفظ خاتم الأولياء : لا يوجد فى كلام أحد من سلف الأمة ، ولا أئمتها ولا له ذكر فى كتاب الله ولا سنة رسوله ، وموجب هذا اللفظ أنه آخر مؤمن تقى ، فإن الله يقول : (أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ) الآية فكل من كان مؤمنا تقيا كان لله وليا » .

وهم على درجتين : السابقون المقربون ، وأصحاب اليمين المقتصدون ، كما قسمهم الله تعالى فى سورة فاطر ، وسورة الواقعة ، والإنسان ، والمطففين .

وفى صحيح البخارى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يقول الله تعالى : من عادى لى ولياً فقد بارزنى بالمحاربة ، وما تقرب إلى عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن ، يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه » .

فالمتقربون إلى الله بالفرائض : هم الأبرار المقتصدون أصحاب اليمين ، والمتقربون إليه بالنوافل التى يحبها بعد الفرائض : هم السابقون المقربون ، وإنما تكون النوافل بعد الفرائض . وقد قال أبو بكر الصديق فى وصيته لعمر ابن الخطاب : اعلم أن لله عليك حقاً بالليل لا يقبله بالنهار ، وحقاً بالنهار لا يقبله بالليل ، وأنه لا يقبل النافلة حتى تؤدى الفريضة .

والاتحادية يزعمون أن قرب النوافل : يوجب أن يكون عين الحق عين أعضائه ، وأن قرب الفرائض : يوجب أن يكون الحق عين وجوده كله ، وهذا فاسد من وجوه كثيرة ، بل كفر صريح ، كما بيناه فى غير هذا الموضع .

وإذا كان خاتم الأولياء آخر مؤمن تقى فى الدنيا فليس ذلك الرجل أفضل الأولياء ، ولا أكملهم ، بل أفضلهم وأكملهم سابقوهم ، الذين هم أخص بأفضل الرسل من غيرهم ، فإنه كلما كان الولى أعظم اختصاصاً بالرسول ، وأخذا عنه وموافقة له : كان أفضل ، إذ الولى لا يكون ولياً لله إلا بمتابعة الرسول باطناً وظاهراً ؛ فعلى قدر المتابعة للرسول : يكون قدر الولاية لله .

والأولياء ، وإن كان فيهم محدثون كما ثبت فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنه قد كان فى الأمم قبلكم محدثون ، فإن يكن فى أمتى أحد فعمر » فهذا الحديث يدل على أن أول المحدثين من هذه الأمة عمر ؛ وأبو بكر أفضل منه ، إذ هو الصديق ، فالمحدث ـ وإن كان يلهم ويحدث من جهة الله تعالى فعليه أن يعرض ذلك على الكتاب والسنة ، فإنه ليس بمعصوم ، كما قال أبو الحسن الشاذلى : قد ضمنت لنا العصمة فيما جاء به الكتاب والسنة ، ولم تضمن لنا العصمة فى الكشوف والإلهام .

ولهذا كان عمر بن الخطاب وقافاً عند كتاب الله ، وكان أبو بكر الصديق يبين له أشياء تخالف ما يقع له ، كما بين له يوم الحديبية ، ويوم موت النبى صلى الله عليه وسلم ، ويوم قتال مانعى الزكاة وغير ذلك ، وكان عمر بن الخطاب يشاور الصحابة ؛ فتارة يرجع إليهم وتارة يرجعون إليه ، وربما قال القول : فترد عليه امرأة من المسلمين قوله ، وتبين له الحق فيرجع إليها ، ويدع قوله ، كما قدر الصداق ، وربما يرى رأياً فيذكر له حديث عن النبى صلى الله عليه وسلم فيعمل به ويدع رأيه ، وكان يأخذ بعض السنة عمن هو دونه فى قضايا متعددة ، وكان يقول القول ، فيقال له : أصبت فيقول والله ما يدرى عمر أصاب الحق أم أخطأه ؟ .

فإذا كان هذا إمام المحدثين ، فكل ذى قلب يحدثه قلبه عن ربه إلى يوم القيامة هو دون عمر ، فليس فيهم معصوم ، بل الخطأ يجوز عليهم كلهم ، وإن

كان طائفة تدعى أن الولى محفوظ ، وهو نظير ما يثبت للأنبياء من العصمة ، والحكيم الترمذى قد أشار إلى هذا ـ فهذا باطل مخالف للسنة والإجماع.

ولهذا اتفق المسلمون على أن كل أحد من الناس : يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وإن كانوا متفاضلين فى الهدى ، والنور والإصابة ؛ ولهذا كان الصديق أفضل من المحدث ، لأن الصديق يأخذ من مشكاة النبوة ، فلا يأخذ إلا شيئاً معصوما محفوظاً .

وأما المحدث فيقع له صواب وخطأ ، والكتاب والسنة تميز صوابه من خطئه ؛ وبهذا صار جميع الأولياء مفتقرين إلى الكتاب والسنة ، لا بد لهم أن يزنوا جميع أمورهم بآثار الرسول ، فما وافق آثار الرسول فهو الحق ، وما خالف ذلك فهو باطل ، وإن كانوا مجتهدين فيه ، والله تعالى يثيبهم على اجتهادهم ، ويغفر لهم خطأهم .

ومعلوم أن السابقين الأولين أعظم اهتداء واتباعا للآثار النبوية، فهم أعظم إيماناً وتقوى، وأما آخر الأولياء : فلا يحصل له مثل ما حصل لهم .

والحديث الذى يروى : « مثل أمتى كمثل الغيث لا يدرى أوله خير أم آخره ؟ » قد تكلم فى إسناده، وبتقدير صحته إنما معناه يكون فى آخر الأمة من يقارب أولها ، حتى يشتبه على بعض الناس أيهما خير ، كما يشتبه على بعض الناس طرفا الثوب ، مع القطع بأن الأول خير من الآخر ولهذا قال : « لايدرى » ومعلوم أن هذا السلب ليس عاما لها ، فإنه لابد أن يكون معلوما أيهما أفضل .

ثم إن هذا خاتم الأولياء صار مرتبة موهومة لا حقيقة له ، وصار يدعيها لنفسه أو لشيخه طوائف ، وقد ادعاها غير واحد ، ولم يدعها إلا من فى كلامه من الباطل مالم تقله اليهود ولا النصارى ، كما ادعاها صاحب الفصوص ، وتابعه صاحب الكلام فى الحروف ، وشيخ من أتباعهم كان بدمشق ، وآخر كان يزعم أنه المهدى ، الذى يزوج بنته بعيسى بن مريم ، وأنه خاتم الأولياء ، ويدعى هؤلاء وأمثالهم من الأمور ما لا يصلح إلا لله وحده ، كما قد يدعى المدعى منهم لنفسه أو لشيخه ما ادعته النصارى فى المسيح .

ثم صاحب الفصوص وأمثاله بنوا الأمر : على أن الولى يأخذ عن الله بلا واسطة ، والنبي يأخذ بواسطة الملك ، فلهذا صار خاتم الأولياء أفضل عندهم من هذه الجهة ، وهذا باطل وكذب ، فإن الولى لا يأخذ عن الله إلا بواسطة الرسول إليه ، وإذا كان محدثا قد ألقى إليه شيء : وجب عليه أن يزنه بما جاء به الرسول من الكتاب والسنة .

وتكليم الله لعباده على ثلاثة أوجه :—

من وراء حجاب ، كما كلم موسى .

وبإرسال رسول ، كما أرسل الملائكة إلى الأنبياء .

وبالإيحاء ، وهذا فيه للولى نصيب ، وأما المرتبتان الأوليان : فإنهما للأنبياء خاصة ، فالأولياء الذين قامت عليهم الحجة بالرسل لا يأخذون علم الدين إلا بتوسط رسل الله إليهم ، ولو لم يكن إلا عرضه على ما جاء به الرسول

ولن يصلوا فى أخذهم عن الله إلى مرتبة نبي أو رسول ، فكيف يكونون آخذين عن الله بلا واسطة ، ويكون هذا الأخذ أعلى ، وهم لا يصلون إلى مقام تكليم موسى ، ولا إلى مقام نزول الملائكة عليهم ، كما نزلت على الأنبياء ؟ وهذا دين المسلمين ، واليهود ، والنصارى .

وأما هؤلاء الجهمية الاتحادية : فبنوا على أصلهم الفاسد : أن الله هو الوجود المطلق ، الثابت لكل موجود ، وصار ما يقع فى قلوبهم من الخواطر - وإن كانت من وساوس الشيطان - يزعمون أنهم أخذوا ذلك عن الله بلا واسطة ، وأنهم يكلمون كما كلم موسى بن عمران ، وفيهم من يزعمون أن حالهم أفضل من حال موسى بن عمران ؛ لأن موسى سمع الخطاب من الشجرة ، وهم — على زعمهم — يسمعون الخطاب من حى ناطق ، كما يذكر عن صاحب الفصوص أنه قال :-

وكل كلام فى الوجود كلامه ‏ ‏ ‏ ‏ سواء علينا نثره ونظامه

وأعانهم على ذلك : ما اعتقدوه من مذاهب الجهمية وأتباعهم ، الذين يزعمون أن تكليم الله لموسى إنما كان من جنس الإلهام ، وأن العبد قد يرى الله فى الدنيا إذا زال عن عينه المانع ، إذ لا حجاب عندهم للرؤية منفصل عن العبد ، وإنما الحجاب متصل به ؛ فإذا ارتفع شاهد الحق .

وهم لا يشاهدون إلا ما يتمثلونه ، من الوجود المطلق ، الذى لا حقيقة له إلا فى أذهانهم ، أو من الوجود المخلوق . فيكون الرب المشهود عندهم — الذى

يخاطبهم فى زعمهم — لا وجود له إلا فى أذهانهم ، أو لا وجود له إلا وجود المخلوقات ؛ وهذا هو التعطيل للرب تعالى ، ولكتبه ، ولرسله ، والبدع دهليز الكفر والنفاق ، كما أن التشيع دهليز الرفض ، والرفض دهليز القرمطة والتعطيل ، فالكلام الذى فيه تجهم هو دهليز التجهم ، والتجهم دهليز الزندقة والتعطيل .

وقد ثبت فى صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « واعلموا أن أحداً منكم لن يرى ربه حتى يموت » ولهذا اتفق سلف الأمة وأئمتها على أن الله يرى فى الآخرة ، وأنه لا يراه أحد فى الدنيا بعينه .

وفى رؤية النبي صلى الله عليه وسلم ربه كلام معروف لعائشة وابن عباس فعائشة أنكرت الرؤية ، وابن عباس ثبت عنه فى صحيح مسلم أنه قال : رأى محمد ربه بفؤاده مرتين ؛ وكذلك ذكر أحمد عن أبى ذر وغيره أنه أثبت رؤيته بفؤاده وهذا المنصوص عن ابن عباس وأبى ذر وغيرهما هو المنصوص عن أحمد وغيره من أئمة السنة ، ولم يثبت عن أحد منهم إثبات الرؤية بالعين فى الدنيا ، كما لم يثبت عن أحد منهم إنكار الرؤية فى الآخرة .

ولكن كلا القولين تقول به طوائف من الجهمية ، فالنفى يقول به متكلمة الجهمية ، والإثبات يقول به بعض متصوفة الجهمية ، كالاتحادية ، وطائفة من غيرهم ، وهؤلاء الاتحادية يجمعون بين النفى والإثبات ، كما يقول ابن سبعين : عين ما ترى ذات لا ترى ، وذات لا ترى عين ما ترى . ونحو ذلك ، لأن

مذهبهم مستلزم الجمع بين النقيضين ، فهم يقولون فى عموم الكائنات ما قالته النصارى فى المسيح ، ولهذا تنوعوا فى ذلك تنوع النصارى فى المسيح .

ومن الأنواع التى فى دعواهم أن خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء ، من بعض الوجوه ، فإن هذا لم يقله أبو عبد الله الحكيم الترمذى ، ولا غيره من المشايخ المعروفين ، بل الرجل أجل قدراً ، وأعظم إيمانا ، من أن يفترى هذا الكفر الصريح ، ولكن أخطأ شبراً ، ففرعوا على خطئه ما صار كفراً .

وأعظم من ذلك : زعمهم أن الأولياء والرسل من حيث ولا يتهم تابعون لخاتم الأولياء ، وآخذون من مشكاته ، فهذا باطل بالعقل والدين ، فإن المتقدم لا يأخذ من المتأخر ، والرسل لا يأخذون من غيرهم .

وأعظم من ذلك : أنه جعلهم تابعين له فى العلم بالله ، الذى هو أشرف علومهم ، وأظهر من ذلك أنه جعل العلم بالله هو مذهب أهل وحدة الوجود ، القائلين بأن وجود المخلوق : هو عين وجود الخالق .

فليتدبر المؤمن هذا الكفر القبيح ، درجة بعد درجة . واستشهاده على تفضيل غير النبي عليه بقصة عمر ، وتأبير النخل ، فهل يقول مسلم إن عمر كان أفضل من النبي صلى الله عليه وسلم برأيه فى الأسرى ؟ أو أن الفلاحين الذين يحسنون صناعة التأبير أفضل من الأنبياء فى ذلك ؟ ثم ما قنع بذلك حتى قال : فما يلزم الكامل أن يكون له التقدم فى كل علم وكل مرتبة ، وإنما نظر الرجال إلى التقدم فى مرتبة العلم بالله ، هنالك مطلبهم .

فقد زعم أنه أعلم بالله من خاتم الأنبياء ، وأن تقدمه عليه بالعلم بالله ، وتقدم خاتم الأنبياء عليه بالتشريع فقط ؛ وهذا من أعظم الكفر الذى يقع فيه غالية المتفلسفة ، وغالية المتصوفة ، وغالية المتكلمة ، الذين يزعمون أنهم فى الأمور العلمية أكمل من الرسل ، كالعلم بالله ونحو ذلك ، وأن الرسل إنما تقدموا عليهم بالتشريع العام ، الذى جعل لصلاح الناس فى دنياهم .

وقد يقولون : إن الشرائع قوانين عدلية ، وضعت لمصلحة الدنيا ، فأما المعارف والحقائق والدرجات العالية فى الدنيا والآخرة : فيفضلون فيها أنفسهم ، وطرقهم على الأنبياء ، وطرق الأنبياء .

وقد علم بالاضطرار من دين المسلمين : أن هذا من أعظم الكفر والضلال ، وكان ذلك من سبب جحد حقائق ما أخبرت به الرسل ، من أمر الإيمان بالله واليوم الآخر ، وزعمهم أن ما يقوله هؤلاء فى هذا الباب هو الحق .

وصاروا فى أخبار الرسل ، تارة يكذبونها ، وتارة يحرفونها ، وتارة يفوضونها ، وتارة يزعمون أن الرسل كذبوا لمصلحة العموم .

ثم عامة الذين يقولون هذه المقالات : يفضلون الأنبياء والرسل على أنفسهم ، إلا الغالية منهم كما تقدم ، فهؤلاء من شر الناس قولا واعتقاداً .

وقد كان عندنا شيخ من أجهل الناس ، كان يعظمه طائفة من الأعاجم ، ويقال إنه خاتم الأولياء ، يزعم أنه يفسر العلم بوجهين ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم إنما فسره بوجه واحد ، وأنه هو أكمل من النبى صلى الله عليه وسلم

وهذا تلقاه من صاحب الفصوص ، وأمثال هذا فى هذه الأوقات كثيرون ، وسبب ضلال المتفلسفة ، وأهل التصوف ، والكلام : الموافقة لضلالهم ، وليس هذا موضع الإطناب فى بيان ضلال هذا ، وإنما الغرض التنبيه على أن صاحب الفصوص وأمثاله قالوا قول هؤلاء .

فأما كفر من يفضل نفسه على النبي صلى الله عليه وسلم — كما ذكر صاحب الفصوص - فظاهر ؛ ولكن من هؤلاء من لا يرى ذلك ؛ ولكن يرى أن له طريقاً إلى الله غير اتباع الرســـول ، ويسوغ لنفسه اتباع تلك الطريق وإن خالف شرع الرسول ، ويحتجون بقصة موسى والخضر .

ولا حجة فيها لوجهين (أحدهما) أن موسى لم يكن مبعوثاً إلى الخضر ، ولا كان يجب على الخضر اتباع موسى ، فإن موسى كان مبعوثاً إلى بنى إسرائيل ، ولهذا جاء فى الحديث الصحيح : « أن موسى لما سلم على الخضر قال : وأنى بأرضك السلام ؟ قال أنا موسى ، قال : موسى بنى إسرائيل ؟ قال نعم ، قال : إنك على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه ، وأنا على علم من الله علمنيه لا تعلمه » .

ولهذا قال نبينا صلى الله عليه وسلم : « فضلنا على الناس بخمس : جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، فأى رجل أدركته الصلاة فعنده مسجده وطهوره ، وأحلت لى الغنائم ، ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى

الناس عامة » وقال : « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، وأحلت لى الغنائم ، ولم تحل لأحد قبلى وأعطيت الشفاعة وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة » وقد قال تعالى : (وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا) وقال تعالى : (قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا) الآية .

فمحمد صلى الله عليه وسلم رسول الله إلى جميع الثقلين : إنسهم وجنهم ، عربهم وعجمهم ، ملوكهم وزهادهم ، الأولياء منهم وغير الأولياء ، فليس لأحد الخروج عن متابعته باطناً وظاهراً ، ولا عن متابعة ما جاء به من الكتاب والسنة ، فى دقيق ولا جليل ، لا فى العلوم ولا الأعمال ، وليس لأحد أن يقول له كما قال الخضر لموسى ، وأما موسى فلم يكن مبعوثاً إلى الخضر .

(الثانى) أن قصة الخضر ليس فيها مخالفة للشريعة ، بل الأمور التى فعلها تباح فى الشريعة ، إذا علم العبد أسبابها كما علمها الخضر ، ولهذا لما بين أسبابها لموسى وافقه على ذلك ، ولو كان مخالفاً لشريعته لم يوافقه بحال .

وقد بسطنا هذا فى غير هذا الموضع ، فإن خرق السفينة مضمونه أن المال المعصوم يجوز للإنسان أن يحفظه لصاحبه بإتلاف بعضه ، فإن ذلك خير من ذهابه بالكلية ، كما جاز للراعى — على عهد النبى صلى الله عليه وسلم — أن يذبح الشاة التى خاف عليها الموت ، وقصة الغلام مضمونها جواز قتل الصبى الصائل ولهذا قال ابن عباس لنجدة : وأما الغلمان فإن كنت تعلم منهم ما علمه الخضر

من ذلك الغلام فاقتلهم ، وإلا فلا تقتلهم . وأما إقامة الجدار ففيها فعل المعروف بلا أجرة مع الحاجة ، إذا كان لذرية قوم صالحين .

* * *

(الوجه الثامن) أنه قال : ولما مثل النبي صلى الله عليه وسلم النبوة بالحائط إلى آخر كلامه وهو متضمن أن العلم نوعان :

(أحدهما) علم الشريعة ، وهو يأخذ عن الله كما يأخذ النبي ، فإنه قال : والسبب الموجب لكونه رآها لبنتين أنه تابع لشرع خاتم الرسل فى الظاهر ، وهو موضع اللبنة الفضية ، وهو ظاهره ، وما يتبعه فيه من الأحكام ، كما هو آخذ عن الله فى السر ما هو بالصورة الظاهرة ، متبع فيه ، لأنه يرى الأمر على ما هو عليه ، فلا بد أن يراه هكذا .

وهذا الذى زعمه — من أن الولى يأخذ عن الله فى السر ما يتبع فيه الرسل كأئمة العلماء مع أتباعهم — فيه من الإلحاد ما لا يخفى على من يؤمن بالله ورسله فإن هذا يدعى أنه أوتى مثل ما أوتى رسل الله ، ويقول إنه أوحى إلى ولم يوح إليه شيء ، ويجعل الرسل بمنزلة معلمى الطب والحساب والنحو وغير ذلك ؛ إذا عرف المتعلم الدليل الذى قال به معلمه ، فينبغي موافقته له لمشاركته له فى العلم لا لأنه رسول وواسطة من الله إليه فى تبليغ الأمر والنهى .

وهذا الكفر يشبه كفر مسيلمة الكذاب ونحوه ممن يدعى أنه مشارك للرسول فى الرسالة وكان يقول مؤذنه أشهد أن محمداً ومسيلمة رسولا الله .

(والنوع الثانى) علم الحقيقة وهو فيه فوق الرسول ، كما قال : هو موضع اللبنة الذهبية فى الباطن ، فإنه أخذ من المعدن الذى يأخذ منه الملك ، الذى يوحى به إلى الرسول ، فقد ادعى أن هذا العلم الذى هو موضع اللبنة الذهبية — وهو علم الباطن والحقيقة — هو فيه فوق الرسول ، لأنه يأخذه من حيث يأخذ الملك العلم الذى يوحى به إلى الرسول ، والرسول يأخذه من الملك ، وهو يأخذه من فوق الملك ، من حيث يأخذه الملك ، وهذا فوق دعوى مسيلمة الكذاب ، فإن مسيلمة لم يدع أنه أعلى من الرسول ، فى علم من العلوم الإلهية ، وهذا ادعى أنه فوقه فى العلم بالله .

ثم قال : فإن فهمت ما أشرت به : فقد حصل لك العلم النافع . ومعلوم أن هذا الكفر فوق كفر اليهود والنصارى فإن اليهود والنصارى لا ترضى أن تجعل أحداً من المؤمنين فوق موسى وعيسى ، وهذا يزعم أنه هو وأمثاله ممن يدعى أنه خاتم الأولياء أنه فوق جميع الرسل ، وأعلم بالله من جميع الرسل ، وعقلاء الفلاسفة لا يرضون بهذا ، وإنما يقول مثل هذا غلاتهم ' وأهل الحمق منهم ' الذين هم من أبعد الناس عن العقل والدين .

* * *

(التاسع) قوله : فكل نبى من لدن آدم - إلى آخر الفصل - تضمن أن جميع الأنبياء والرسل لا يأخذون إلا من مشكاة خاتم النبيين ، ليوطن لنفسه بذلك أن جميع الأنبياء : لا يأخذون إلا من مشكاة خاتم الأولياء ،

وكلاهما ضلال ، فإن الرسل ليس منهم أحد يأخذ من آخر ، إلا من كان مأموراً باتباع شريعته ، كأنبياء بنى إسرائيل، والرسل الذين بعثوا فيهم الذين أمروا باتباع التوراة ، كما قال تعالى : (إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ) الآية .

وأما إبراهيم : فلم يأخذ عن موسى وعيسى . ونوح : لم يأخذ عن إبراهيم ، ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى : لم يأخذوا عن محمد ، وإن بشروا به وآمنوا به ، كما قال تعالى : (وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ) الآية . قال ابن عباس : ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه العهد فى أمر محمد ، وأخذ العهد على قومه ليؤمنن به ، ولئن بعث وهم أحياء لينصرنه .

* * *

(العاشر) قوله : فإنه بحقيقته موجود ، وهو قوله : « كنت نبياً وآدم بين الماء والطين » بخلاف غيره من الأنبياء ، وكذلك خاتم الأولياء ، كان ولياً وآدم بين الماء والطين : كذب واضح ، مخالف لإجماع أئمة الدين ، وإن كان هذا يقوله طائفة من أهل الضلال والإلحاد .

فإن الله علم الأشياء ، وقدرها قبل أن يكونها ، ولا تكون موجودة بحقائقها إلا حين توجد ، ولا فرق فى ذلك بين الأنبياء وغيرهم ، ولم تكن حقيقته صلى الله عليه وسلم موجودة قبل أن يخلق ، إلا كما كانت حقيقة غيره ، بمعنى أن الله علمها وقدرها .

لكن كان ظهور خبره واسمه مشهوراً أعظم من غيره ، فإنه كان مكتوباً

فى التوراة والإنجيل وقبل ذلك، كما روى الإمام أحمد فى مسنده، عن العرباض ابن سارية، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إنى لعبد الله، مكتوب خاتم النبيين وإن آدم لمنجدل فى طينته، وسأنبئكم بأول ذلك: دعوة أبى إبراهيم، وبشرى عيسى، ورؤيا أمى، رأت حين ولدتنى كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام.

وحديث ميسرة الفجر: قلت يا رسول الله، متى كنت نبياً؟ وفى لفظ متى كتبت نبياً؟ قال: «وآدم بين الروح والجسد» وهذا لفظ الحديث.

وأما قوله: «كنت نبياً وآدم بين الماء والطين» فلا أصل له، لم يروه أحد من أهل العلم بالحديث بهذا اللفظ، وهو باطل، فإنه لم يكن بين الماء والطين، إذ الطين ماء وتراب، ولكن لما خلق الله جسد آدم قبل نفخ الروح فيه: كتب نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وقدرها، كما ثبت فى الصحيحين عن ابن مسعود، قال: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو الصادق المصدوق: «إن خلق أحدكم يجعل فى بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات، فيقال: اكتب رزقه، وعمله، وأجله، وشقياً أو سعيداً، ثم ينفخ فيه الروح» وروى أنه كتب اسمه على ساق العرش، ومصاريع الجنة. فأين الكتاب والتقدير من وجود الحقيقة؟.

وما يروى فى هذا الباب من الأحاديث: هو من هذا الجنس، مثل كونه كان نوراً يسبح حول العرش، أو كوكباً يطلع فى السماء ونحو ذلك، كما ذكره

ابن حمويه — صاحب ابن عربى — وذكر بعضه عمر الملا فى وسيلة المتعبدين ، وابن سبعين وأمثالهم ، ممن يروى الموضوعات المكذوبات ، باتفاق أهل المعرفة بالحديث .

فإن هذا المعنى رووا فيه أحاديث كلها كذب ، حتى أنه اجتمع بى قديما شيخ معظم ، من أصحاب ابن حمويه ، يسميه أصحابه سلطان الأقطاب ، وتفاوضنا فى كتاب الفصوص ، وكان معظما له ولصاحبه ؛ حتى أبديت له بعض ما فيه ، فهاله ذلك وأخذ يذكر مثل هذه الأحاديث ، فبينت له أن هذا كله كذب .

* * *

(الحادى عشر) قوله : وخاتم الأولياء كان ولياً وآدم بين الماء والطين — إلى قوله — فخاتم الرسل من حيث ولايته ، نسبته مع الختم للولاية ، كنسبة الأولياء والرسل معه — إلى آخر الكلام — ذكر فيه ما تقدم من كون رسول الله صلى الله عليه وسلم مع هذا الختم المدعى كسائر الأنبياء والرسل معه يأخذ من مشكاته العلم بالله ، الذى هو أعلى العلم ، وهو وحدة الوجود ، أنه مقدم الجماعة ، وسيد ولد آدم فى فتح باب الشفاعة . فعين حالا خاصا ما عمم — إلى قوله ـ ففاز محمد بالسيادة فى هذا المقام الخاص .

فكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله : أنه قال : أنا سيد ولد آدم فى الشفاعة خاصة ، وألحد وافترى من حيث زعم أنه سيد فى الشفاعة فقط ، لا فى بقية المراتب ؛ بخلاف الختم المفترى ، فإنه سيد فى العلم بالله ، وغير ذلك من المقامات .

ولقد كنت أقول : لو كان المخاطب لنا من يفضل إبراهيم ، أو موسى ، أوعيسى على محمد صلى الله عليه وسلم : لكانت مصيبة عظيمة . لا يحتملها المسلمون فكيف بمن يفضل رجلا من أمة محمد على محمد ، وعلى جميع الأنبياء والرسل فى أفضل العلوم؟! ويدعى أنهم يأخذون ذلك من مشكاته ؟ وهذا العلم هو غاية الإلحاد والزندقة .

وهذا المفضل من أضل بنى آدم ، وأبعدهم عن الصراط المستقيم ، وإن كان له كلام كثير ، ومصنفات متعددة ، وله معرفة بأشياء كثيرة ، وله استحواذ على قلوب طوائف من أصناف المتفلسفة ، والمتصوفة ، والمتكلمة ، والمتفقهة ، والعامة ، فإن هذا الكلام من أعظم الكلام ضلالا ، عند أهل العلم والإيمان والله أعلم .

* * *

وقد تبين أن فى هذا الكلام من الكفر ، والتنقيص بالرسل ، والاستخفاف بهم ، والغض منهم ؛ بل والكفر بهم، وبما جاءوا به: ما لا يخفى على مؤمن ، وقد حدثنى أحد أعيان الفضلاء : أنه سمع الشيخ إبراهيم الجعبرى - رحمة الله عليه - يقول : رأيت ابن عربى - وهو شيخ نجس - يكذب بكل كتاب أنزله الله ، وبكل نبى أرسله الله . ولقد صدق فيما قال ؛ ولكن هذا بعض الأنواع التى ذكرها من الكفر .

وكذلك قول أبى محمد بن عبد السلام : هو شيخ سوء ، مقبوح كذاب ،

يقول بقدم العالم ، ولا يحرم فرجا ـ هو حق عنه ؛ لكنه بعض أنواع ما ذكره من الكفر ؛ فإن قوله : لم يكن قد تبين له حاله وتحقق ، وإلا فليس عنده رب وعالم ، كما تقوله الفلاسفة الإلهيون ؛ الذين يقولون بواجب الوجود ؛ وبالعالم الممكن ؛ بل عنده وجود العالم هو وجود الله ، وهذا يطابق قول الدهرية الطبائعية ، الذين ينكرون وجود الصانع مطلقاً ، ولا يقرون بوجود واجب غير العالم .

كما ذكر الله عن فرعون وذويه ؛ وقوله مطابق لقول فرعون ، لكن فرعون لم يكن مقراً بالله ، وهؤلاء يقرون بالله ، ولكن يفسرونه بالوجود ، الذى أقر به فرعون ، فهم أجهل من فرعون وأضل ؛ وفرعون أكفر منهم : إذ فى كفره من العناد والاستكبار ما ليس فى كفرهم ، كما قال تعالى : (وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا) وقال له موسى : (لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ) .

وجماع أمر صاحب الفصوص وذويه : هدم أصول الإيمان الثلاثة ؛ فإن أصول الإيمان : الإيمان بالله ؛ والإيمان برسله ؛ والإيمان باليوم الآخر .

فأما الإيمان بالله : فزعموا أن وجوده وجود العالم ، ليس للعالم صانع غير العالم .

وأما الرسول فزعموا أنهم أعلم بالله منه ، ومن جميع الرسل ، ومنهم من

يأخذ العلم بالله ـــ الذى هو التعطيل ووحدة الوجود ـــ من مشكاته ، وأنهم يساوونه فى أخذ العلم بالشريعة عن الله .

وأما الإيمان باليوم الآخر فقد قال :

فلم يبق إلا صادق الوعد وحده   وبالوعيد الحق عين تعاين
وإن دخلوا دار الشقاء فإنهم   على لذة فيها نعيم يباين

وهذا يذكر عن بعض أهل الضلال قبله أنه قال : إن النار تصير لأهلها طبيعة نارية يتمتعون بها ، وحينئذ : فلا خوف ولا محذور ولا عذاب ؛ لأنه أمر مستعذب . ثم إنه فى الأمر والنهى : عنده الآمر ، والناهى ، والمأمور ، والمنهى : واحد ، ولهذا كان أول ما قاله فى الفتوحات المكية التى هى أكبر كتبه : ـ

الرب حق ، والعبد حق   يا ليت شعرى من المكلف ؟
إن قلت عبد فذاك رب   أو قلت رب أنى يكلف ؟

وفى موضع آخر « فذاك ميت » رأيته بخطه .

وهذا مبنى على أصله ، فإن عنده ما ثم عبد ولا وجود إلا وجود الرب ، فمن المكلف ؟ وعلى أصله هو المكلِّف والمكلَّف كما يقولون : أرسل من نفسه إلى نفسه رسولا .

وكما قال ابن الفارض فى قصيدته : التى نظمها على مذهبهم ، وسماها نظم السلوك : ـ

إلىَّ رسولا كنت منى مرسلا وذاتى بآياتى على استدلت

ومضمونها : هو القول بوحدة الوجود ، وهو مذهب ابن عربى ، وابن سبعين ، وأمثالهم ، كما قال : —

لها صلواتى بالمقام أقيمها وأشهد فيها أنها لى صلت
كلانا مصل واحد ساجد إلى حقيقته بالجمع فى كل سجدة
وما كان لى صلى سواى ، فلم تكن
صلاتى لغيرى ، فى أدا كل ركعة

الى قوله : —

وما زلت إياها ، وإياى لم تزل ولا فرق ،بل ذاتى لذاتى أحبت

ومثل هذا كثير والله أعلم .

وحدثنى صاحبنا الفقيه الصوفى ، أبو الحسن على بن قرباص : أنه دخل على الشيخ قطب الدين بن القسطلانى ، فوجده يصنف كتابا . فقال : ما هذا؟ فقال : هذا فى الرد على ابن سبعين ، وابن الفارض وأبى الحسن الجزلى ، والعفيف التلمسانى .

وحدثنى عن جمال الدين بن واصل ، وشمس الدين الأصبهانى : أنهما كانا

ينكران كلام ابن عربى ويبطلانه ، ويردان عليه ، وأن الأصبهانى رأى معه كتاباً من كتبه فقال له : إن اقتنيت شيئاً من كتبه فلا تجىء إلى ، أو ما هذا معناه . وأن ابن واصل لما ذكر كلامه فى التفاحة ، التى انقلبت عن [حوراء] فتكلم معها أو جامعها فقال : والله الذى لا إله إلا هو يكذب . ولقد بر فى يمينه .

وحدثنى صاحبنا العالم الفاضل أبو بكر بن سالار : عن الشيخ تقى الدين ابن دقيق العيد - شيخ وقته - عن الإمام أبى محمد بن عبد السلام ، أنهم سألوه عن ابن عربى ، لما دخل مصر ، فقال : شيخ سوء كذاب مقبوح ، يقول بقدم العالم ، ولا يحرم فرجا ، وكان تقى الدين يقول : هو صاحب خيال واسع . حدثنى بذلك غير واحد من الفقهاء المصريين ممن سمع كلام ابن دقيق العيد .

وحدثنى ابن بحير عن رشيد الدين سعيد وغيره أنه قال : كان يستحل الكذب ، هذا أحسن أحواله .

وحدثنى الشيخ العالم العارف ، كمال الدين المراغى ، شيخ زمانه ، أنه لما قدم وبلغه كلام هؤلاء فى التوحيد قال : قرأت على العفيف التلمسانى من كلامهم شيئاً ، فرأيته مخالفاً للكتاب والسنة ، فلما ذكرت ذلك له قال : القرآن ليس فيه توحيد ، بل القرآن كله شرك ، ومن اتبع القرآن لم يصل إلى التوحيد ، قال فقلت له : ما الفرق عندكم بين الزوجة ، والأجنبية ، والأخت ، الكل واحد ؟

قال لا فرق بين ذلك عندنا ، وإنما هؤلاء المحجوبون اعتقدوه حراما ، فقلنا هو حرام عليهم عندهم ، وأما عندنا فما ثم حرام .

وحدثنى كمال الدين المراغى ، أنه لما تحدث مع التلمسانى فى هذا المذهب قال ـ وكنت أقرأ عليه فى ذلك ـ فإنهم كانوا قد عظموه عندنا ، ونحن مشتاقون إلى معرفة (فصوص الحكم) فلما صار يشرحه لى أقول هذا خلاف القرآن والأحاديث ، فقال : ارم هذا كله خلف الباب ، واحضر بقلب صاف ، حتى تتلقى هذا التوحيد ـ أو كما قال ـ ثم خاف أن أشيع ذلك عنه ، فجاء إلى باكياً وقال :استبرعنى ما سمعته منى .

وحدثنى أيضاً كمال الدين ، أنه اجتمع بالشيخ أبى العباس الشاذلى ، تلميذ الشيخ أبى الحسن ، فقال عن التلمسانى : هؤلاء كفار ، هؤلاء يعتقدون أن الصنعة هى الصانع .

قال : وكنت قد عزمت على أن أدخل الخلوة على يده فقلت : أنا لا آخذ عنه هذا ، وإنما أتعلم منه أدب الخلوة ، فقال لى : مثلك مثل من يريد أن يتقرب إلى السلطان ، على يد صاحب الأتون والزبال ، فإذا كان الزبال هو الذى يقربه إلى السلطان : كيف يكون حاله عند السلطان ؟ .

وحدثنا أيضاً قال : قال لى قاضى القضاة تقى الدين بن دقيق العيد : إنما استولت التتار على بلاد المشرق ؛ لظهور الفلسفة فيهم ؛ وضعف

الشريعة ، فقلت له : فى بلادكم مذهب هؤلاء الذين يقولون بالاتحاد ، وهو شر من مذهب الفلاسفة ؟ فقال : قول هؤلاء لا يقوله عاقل ، بل كل عاقل يعلم فساد قول هؤلاء - يعنى إن فساده ظاهر - فلا يذكر هذا فيما يشتبه على العقلاء ، بخلاف مقالة الفلاسفة ، فإن فيها شيئاً من المعقول ، وإن كانت فاسدة .

وحدثنى تاج الدين الأنبارى ، الفقيه المصرى الفاضل ، أنه سمع الشيخ إبراهيم الجعبرى يقول : رأيت ابن عربى شيخا مخضوب اللحية ، وهو شيخ نجس ، يكفر بكل كتاب أنزله الله ، وكل نبى أرسله الله .

وحدثنى الشيخ رشيد الدين بن المعلم أنه قال : كنت وأنا شاب بدمشق أسمع الناس يقولون عن ابن عربى ، والخسر وشاهى : إن كلاهما زنديق - أو كلاما هذا معناه - وحدثنى عن الشيخ إبراهيم الجعبرى : أنه حضر ابن الفارض عند الموت وهو ينشد : —

إن كان منزلتى فى الحب عندكم ما قد لقيت فقد ضيعت أيامى

أمنية ظفرت نفسى بها زمنا واليوم أحسبها أضغاث أحلام

وحدثنى الفقيه الفاضل تاج الدين الأنبارى ، أنه سمع الشيخ إبراهيم الجعبرى يقول : رأيت فى منامى ابن عربى ، وابن الفارض ، وهما شيخان أعميان يمشيان ويتعثران ، ويقولان كيف الطريق ؟ أين الطريق ؟ .

وحدثني شهاب الدين المزى ، عن شرف الدين بن الشيخ نجم الدين بن الحكيم عن أبيه أنه قال : قدمت دمشق فصادفت موت ابن عربى ، فرأيت جنازته كأنما ذر عليها الرماد ، فرأيتها لا تشبه جنائز الأولياء — أو قال — فعلمت أن هذه أو نحو هذا ، وعن أبيه عن الشيخ إسماعيل الكورانى أنه كان يقول : ابن عربى شيطان ، وعنه أنه كان يقول عن الحريرى إنه شيطان .

وحدثني شهاب الدين عن القاضى شرف الدين البازيلى ، أن أباه كان ينهاه عن كلام ابن عربى ، وابن الفارض ، وابن سبعين .

فصـــــل

فى بعض ما يظهر به كفرهم ، وفساد قولهم . وذلك من وجوه : —

(أحدها) أن حقيقة قولهم : إن الله لم يخلق شيئاً ، ولا ابتدعه ، ولا برأه ولا صوره ؛ لأنه إذا لم يكن وجود إلا وجوده ، فمن الممتنع أن يكون خالقاً لوجود نفسه ، أو بارئاً لذاته ، فإن العلم بذلك من أبين العلوم ، وأبدهها للعقول ، إن الشيء لا يخلق نفسه .

ولهذا قال سبحانه : (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ) . فإنهم يعلمون أنهم لم يكونوا مخلوقين من غير خالق ، ويعلمون أن الشيء لا يخلق نفسه فتعين أن لهم خالقا .

وعند هؤلاء الكفار ، الملاحدة الفرعونية : أنه ما ثم شيء يكون الرب قد خلقه أو برأه ، أو أبدعه إلا نفسه المقدسة ، ونفسه المقدسة لا تكون إلا مخلوقة ، مربوبة مصنوعة ، مبروءة ؛ لامتناع ذلك فى بدائه العقول ، وذلك من أظهر الكفر عند جميع أهل الملل والآراء .

وأما على رأى صاحب الفصوص : فما ثم إلا وجوده ، والذوات الثابتة فى العدم الغنية عنه ، ووجوده لا يكون مخلوقا ، والذوات غنية عنه ، فلم يخلق الله شيئاً .

(الثانى) أن عندهم أن الله ليس رب العالمين ، ولا مالك الملك ، إذ ليس إلا وجوده ، وهو لا يكون رب نفسه ، ولا يكون الملك المملوك هو الملك المالك ، وقد صرحوا بهذا الكفر مع تناقضه ، وقالوا : إنه هو ملك الملك ، بناء على أن وجوده مفتقر إلى ذوات الأشياء ، وذوات الأشياء مفتقرة إلى وجوده ، فالأشياء مالكة لوجوده ، فهو ملك الملك .

(الثالث) أن عندهم أن الله لم يرزق أحداً شيئاً ، ولا أعطى أحداً شيئاً ، ولا رحم أحداً ، ولا أحسن إلى أحد ، ولا هدى أحداً . ولا أنعم على أحد نعمة ، ولا علم أحداً علما ، ولا علم أحداً البيان ، وعندهم فى الجملة : لم يصل منه إلى أحد لا خير ولا شر ، ولا نفع ولا ضر ، ولا عطاء ولا منع ، ولا هدى ولا إضلال أصلا . وأن هذه الأشياء جميعها عين نفسه ، ومحض وجوده ، فليس هناك غير يصل إليه ، ولا أحد سواه ينتفع بها ، ولا عبد يكون مرزوقا ، أو منصوراً ، أو مهديا .

ثم على رأى صاحب الفصوص: إن هذه الذوات ثابتة فى العدم ، والذوات هى أحسنت وأساءت ، ونفعت وضرت ، وهذا عنده سر القدر .

وعلى رأى الباقين ما ثم ذات ثابتة غيره أصلا ، بل هو ذام نفسه بنفسه ، ولا عن نفسه بنفسه ، وقاتل نفسه بنفسه ، وهو المرزوق المضروب المشتوم ، وهو الناكح والمنكوح ، والآكل والمأكول ، وقد صرحوا بذلك تصريحاً بيناً .

(الربع) أن عندهم أن الله هو الذى يركع ويسجد ، ويخضع ويعبد ،

ويصوم ويجوع ، ويقوم وينام ، وتصيبه الأمراض والأسقام ، وتبتليه الأعداء ويصيبه البلاء ، وتشتد به اللّأواء ، وقد صرحوا بذلك ؛ وصرحوا بأن كل كرب يصيب النفوس فإنه هو الذى يصيبه الكرب ، وأنه إذا نفس الكرب ، فإنما يتنفس عنه ، ولهذا كره بعض هؤلاء ـ الذين هم من أكفر خلق الله وأعظمهم نفاقا وإلحاداً وعتواً على الله وعناداً ـ أن يصبر الإنسان على البلاء ، لأن عندهم أنه هو المصاب المبتلى .

وقد صرحوا بأنه موصوف بكل نقص وعيب ، فإنه ما ثم من يتصف بالنقائص والعيوب غيره ؛ فكل عيب ونقص ، وكفر وفسوق فى العالم : فإنه هو المتصف به ، لا متصف به غيره ؛ كلهم متفقون على هذا فى الوجود .

ثم صاحب الفصوص يقول : إن ذلك ثابت فى العدم ، وغيره يقول : ما ثم سوى وجود الحق ، الذى هو متصف بهذه المعايب والمثالب .

(الخامس) أن عندهم أن الذين عبدوا اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى . والذين عبدوا ودا ، وسواعاً ، ويغوث ، ويعوق ، ونسراً ، والذين عبدوا الشعرى ، والنجم ، والشمس ، والقمر . والذين عبدوا المسيح ، وعزيراً ، والملائكة ، وسائر من عبد الأوثان والأصنام : من قوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وقوم فرعون ، وبنى إسرائيل ، وسائر المشركين من العرب : ما عبدوا إلا الله ، ولا يتصور أن يعبدوا غير الله ، وقد صرحوا بذلك فى مواضع كثيرة ، مثل قول صاحب الفصوص فى فص الكلمة النوحية .

(وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا) لأن الدعوة إلى الله مكر بالمدعو ، لأنه ما عدم من البداية فيدعى إلى الغاية (أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ) فهذا عين المكر (عَلَىٰ بَصِيرَةٍ) ففيه أن الأمر له كله ، فأجابوه مكراً كما دعاهم - إلى أن قال - فقالوا فى مكرهم : (لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا) .

فإنهم إذا تركوهم جهلوا من الحق على قدر ما تركوا من هؤلاء ، فإن للحق فى كل معبود وجها خاصا ، يعرفه من عرفه ، ويجهله من جهله فى المحمديين : (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ) أى حكم ، فالعالم يعلم من عبد ، وفى أى صورة ظهر حتى عبد ، وأن التفريق والكثرة كالأعضاء فى الصورة المحسوسة ، وكالقوى المعنوية فى الصورة الروحانية .

فما عبد غير الله فى كل معبود ، فالأدنى من تخيل فيه الألوهية ، فلولا هذا التخيل ما عبد الحجر ولا غيره . ولهذا قال تعالى : (قُلۡ سَمُّوهُمۡ) فلو سموهم لسموهم حجراً وشجراً وكوكباً . ولو قيل لهم : من عبدتم ؟ لقالوا : إلها واحداً ، ما كانوا يقولون : الله ولا الإله ، إلا على ماتخيل ؛ بل قال : هذا مجلى إلهى ينبغى تعظيمه فلا يقتصر ، فالأدنى صاحب التخيل يقول : (مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ) والأعلى العالم يقول : (فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْ) حيث ظهر : (وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ * ٱلَّذِينَ) خبت نار طبيعتهم فقالوا : « إلها » ولم يقولوا : « طبيعة » .

وقال أيضاً فى فص الهارونية : ثم قال هارون لموسى : (إِنِّي خَشِيتُ أَن

تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ) فتجعلنى سبباً فى تفريقهم ، فإن عبادة العجل فرقت بينهم ، فكان فيهم من عبده اتباعا للسامرى ، وتقليداً له ، ومنهم من توقف عن عبادته ، حتى يرجع موسى إليهم فيسألونه فى ذلك ، فخشى هارون أن ينسب ذلك التفريق بينهم إليه ، فكان موسى أعلم بالأمر من هارون ؛ لأنه علم ما عبده أصحاب العجل ، لعلمه بأن الله قد قضى أن لا يعبد إلا إياه ، وما حكم الله بشىء إلا وقع ، فكان عتب موسى أخاه هارون : لما وقع الأمر فى إنكاره ، وعدم اتساعه ، فإن العارف من يرى الحق فى كل شىء ، بل يراه عين كل شىء ، فكان موسى يربى هارون تربية علم ، وإن كان أصغر منه فى السن .

ولذلك لما قال له هارون ما قال : رجع إلى السامرى فقال له : (فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ) يعنى فيما صنعت من عدولك إلى صورة العجل ، على الاختصاص وساق الكلام إلى أن قال : فكان عدم قوة إرداع هارون بالفعل : أن ينفذ فى أصحاب العجل بالتسليط على العجل ، كما سلط موسى عليه ، حكمة من الله ظاهرة فى الوجود ، ليعبد فى كل صورة وإن ذهبت تلك الصورة بعد ذلك : فما ذهبت إلا بعد ما تلبست عند عابدها بالألوهية .

ولهذا ما بقى نوع من الأنواع : إلا وعبد ، إما عبادة تأله ، وإما عبادة تسخير ، ولا بد من ذلك لمن عقل ، وما عبد شىء من العالم إلا بعد التلبس بالرفعة عند العابد ، والظهور بالدرجة فى قلبه .

ولذلك تسمى الحق لنا برفيع الدرجات ، ولم يقل رفيع الدرجة ، فكثر الدرجات فى عين واحدة ، فإنه قضى أن لا يعبد إلا إياه فى درجات كثيرة مختلفة ، أعطت كل درجة مجلى إلهياً عبد فيها . وأعظم مجلى عبد فيه ، وأعلاه الهوى كما قال : (أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ) فهو أعظم معبود ، فإنه لا يعبد شيء إلا به ، ولا يعبد هو إلا بذاته . وفيه أقول :

وحق الهوى ، إن الهوى : سبب الهوى
ولولا الهوى فى القلب ما عبد الهوى

ألا ترى علم الله بالأشياء ما أكمله ! كيف تمم فى حق من عبد هواه ، واتخذه إلهاً ، فقال : (وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ) والضلالة الحيرة ، وذلك أنه لما رأى هذا العابد ما عبد إلا هواه ، بانقياده لطاعته فيما يأمره به ، من عبادة من عبده من الأشخاص ، حتى إن عبادة الله كانت عن هوى أيضاً ؛ فإنه لو لم يقع له فى ذلك الجناب المقدس هوى ، وهو الإرادة بمحبة ما عبد الله ، ولا آثره على غيره .

وكذلك كل من عبد صورة ما من صور العالم ، واتخذها إلهاً ما اتخذها إلا بالهوى ، فالعابد لا يزال تحت سلطان هواه ، ثم رأى المعبودات تتنوع فى العابدين ، فكل عابد أمراً ما : يكفر من يعبد سواه ، والذى عنده أدنى تنبه يحار لاتحاد الهوى ، بل لأحدية الهوى كما ذكر ، فإنه عين واحدة فى كل عابد (وَأَضَلَّهُ اللَّهُ) أى حيره الله على علم ؛ بأن كل عابد ما عبد إلا هواه ، ولا استعبده إلا هواه ، سواء

صادف الأمر المشروع أو لم يصادف ، والعارف المكمل من رأى كل معبود مجلى للحق يعبد فيه .

ولذلك سموه كلهم إلهاً مع اسمه الخاص شجر ، أو حجر ، أو حيوان ؛ أو إنسان ، أو كوكب ، أو ملك ، هذا اسم الشخصية فيه ، والألوهية مرتبة تخيل العابد له ، أنها مرتبة معبوده ، وهى على الحقيقة مجلى الحق لبصر هذا العابد ؛ المعتكف على هذا المعبود فى هذا المجلى المختص بحجر .

ولهذا قال بعض من لم يعرف مقاله جهالة : (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ) مع تسميتهم إياهم آلهة ، كما قالوا : (أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ) فما أنكروه بل تعجبوا من ذلك فإنهم وقفوا مع كثرة الصورة ، ونسبة الألوهية لها ، فجاء الرسول ودعاهم إلى إله واحد يعرف ، ولا يشهد بشهادتهم أنهم أثبتوه عندهم ، واعتقدوه فى قولهم : (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ) لعلمهم بأن تلك الصور حجارة .

ولذلك قامت الحجة عليهم بقوله : (قُلْ سَمُّوهُمْ) فما يسمونهم إلا بما يعلمون أن تلك الأسماء لهم حقيقة كحجر ، وخشب ، وكوكب ، وأمثالها .

وأما العارفون بالأمر على ماهو عليه : فيظهرون بصورة الإنكار لما عبد من الصور ؛ لأن مرتبتهم فى العلم تعطيهم أن يكونوا بحكم الوقت ، لحكم الرسول الذى آمنوا به عليهم ، الذى به سموا مؤمنين ، فهم عباد الوقت ، مع علمهم بأنهم ماعبدوا من تلك الصور أعيانها ، وإنما عبدوا الله فيها بحكم سلطان التجلى ،

الذى عرفوه منهم ، وجهله المنكر الذى لا علم له بما يتجلى ، وستره العارف المكمل من نبي أو رسول ، أو وارث عنهم .

فأمرهم بالانتزاح عن تلك الصور ، لما انتزح عنها رسول الوقت اتباعاً للرسول ، طمعاً فى محبة الله إياهم بقوله : (قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ) فدعا إلى إلهٍ يصمد إليه ، ويعلم من حيث الجملة ، ولا يشهد ، ولا تدركه الأبصار ، بل هو يدرك الأبصار للطفه وسريانه فى أعيان الأشياء ، فلا تدركه الأبصار ، كما أنها لا تدرك أرواحها المدبرة أشباحها ، وصورها الظاهرة : فهو اللطيف الخبير ، والخبرة ذوق ، والذوق تجلى والتجلى فى الصور ، فلا بد منها ولا بد منه ، فلا بد أن يعبده من رآه بهواه . إن فهمت هذا اه .

فتدبر حقيقة ما عليه هؤلاء : فإنهم أجمعوا على كل شرك فى العالم ، وعدلوا بالله كل مخلوق ، وجوزوا أن يعبد كل شيء ، ومع كونهم يعبدون كل شيء فيقولون : ما عبدنا إلا الله .

فاجتمع فى قولهم أمران : كل شرك ، وكل جحود ، وتعطيل ؛ مع ظنهم أنهم ما عبدوا إلا الله ؛ ومعلوم أن هذا خلاف دين المرسلين كلهم ؛ وخلاف دين أهل الكتاب كلهم ، والملل كلها ؛ بل وخلاف دين المشركين أيضاً ؛ وخلاف ما فطر الله عليه عباده مما يعقلونه بقلوبهم ويجدونه فى نفوسهم وهو فى غاية الفساد ، والتناقض ، والسفسطة ، والجحود لرب العالمين .

وذلك أنه علم بالاضطرار : أن الرسل كانوا يجعلون ما عبده المشركون

غير الله ، ويجعلون عابده عابداً لغير الله ، مشركا بالله عادلا به ، جاعلا له نداً ، فإنهم دعوا الخلق إلى عبادة الله وحده لا شريك له ؛ وهذا هو دين الله ؛ الذى أنزل به كتبه ، وأرسل به رسله ، وهو الإسلام العام ؛ الذى لا يقبل الله من الأولين والآخرين غيره ، ولا يغفر لمن تركه بعد بلاغ الرسالة ، كما قال : (إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ) .

وهو الفارق بين أهل الجنة وأهل النار ، والسعداء والأشقياء ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من كان آخر كلامه لا إله إلا الله : وجبت له الجنة » وقال : « من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله : وجبت له الجنة » وقال : إنى لأعلم كلمة لا يقولها عبد عند الموت : إلا وجد روحه لها روحاً وهى رأس الدين » وكما قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأنى رسول الله ، فإذا قالوها : عصموا منى دماءهم ، وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله » .

وفضائل هذه الكلمة وحقائقها ، وموقعها من الدين : فوق ما يصفه الواصفون ، ويعرفه العارفون ؛ وهى حقيقة الأمر كله ؛ كما قال تعالى : (وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ) فأخبر سبحانه أنه يوحى إلى كل رسول بنفى الألوهية عما سواه وإثباتها له وحده .

وزعم هؤلاء الملاحدة المشركون : أن كل شىء يستحق الألوهية كاستحقاق الله لها ، وقال تعالى : (وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ

ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ) وزعم هؤلاء الملاحدة أن كل شيء فإنه إله معبود ؛ فأخبر — سبحانه — أنه لم يجعل من دون الرحمن آلهة ، وقال تعالى : (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ) فأمر الله سبحانه بعبادته واجتناب الطاغوت.

وعند هؤلاء : أن الطواغيت جميعها فيها الله ، أو هى الله ، ومن عبدها فما عبد إلا الله، وقال تعالى : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ) الآيتين . فأمر سبحانه بعبادة الرب الخالق لهذه الآيات ، وعند هؤلاء الملاحدة الملاعين : هو عين هذه الآيات ، ونهى — سبحانه - أن يجعل الناس له أنداداً ، وعندهم هـذا لا يتصور ، فإن الأنداد هى عينه ، فـكيف يكون نداً لنفسه؟ والذين عبدوا الأنداد فما عبدوا سواه .

ثم إن هؤلاء الملاحدة : احتجوا بتسمية المشركين ، لما عبدوه إلهاً ، كما قالوا (أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا) واعتقدوا أنهم لما سموهم آلهة كانت تسمية المشركين دليلا على أن الإلهية ثابتة لهم.

وهذه الحجة : قد ردها الله على المشركين فى غير موضع ، كقوله سبحانه عن هود فى مخاطبته للمشركين من قومه : (أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم) الآية هذا رد لقولهم : (أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا) فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، أن تسميتهم إياها آلهة

ومعبودين تسمية ابتدعوها هم وآباؤهم ، ما أنزل الله بها من حجة ولا سلطان ، والحكم ليس إلا لله وحده .

وقد أمر هو – سبحانه – أن لا يعبد إلا إياه ، فكيف يحتج بقول مشركين لا حجة لهم ؟ وقد أبطل الله قولهم ؟ وأمر الخلق أن لا يعبدوا إلا إياه دون هذه الأوثان ، التي سماها المشركون آلهة ، وعند الملاحدة عابدوا الأوثان ما عبدوا إلا الله .

ثم إن المشركين أنكروا على الرسول ، حيث جاءهم ليعبدوا الله وحده ، ويذروا ما كان يعبد آباؤهم ، فإذا كانوا هم مازالوا يعبدون الله وحده ، كما تزعمه الملاحدة : فلم يدعوا إلى ترك مايعبده آباؤهم ؛ بل جاءهم - ليعبد كل شيء كان يعبده آباؤهم - هو وغيره من الأنبياء.

وكذلك قال سبحانه فى سورة يوسف عنه : (يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ * مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍ) إلى قوله : (وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ) وقال سبحانه : (أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ * وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ) إلى قوله : (وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ) .

وهذه الثلاثة المذكورة فى هذه السورة : هى الأوثان العظام الكبار ، التى كان المشركون ينتابونها من أمصارهم ؛ فاللات : كانت حذو قديد بالساحل

لأهل المدينة ، والعزى : كانت قريبة من عرفات لأهل مكة ، ومناة : كانت بالطائف لثقيف ، وهذه الثلاث هى أمصار أرض الحجاز .

أخبر — سبحانه — أن الأسماء التى سماها المشركون أسمـــاء ابتدعوها : لا حقيقة لها ، فهم إنما يعبدون أسماء لا مسميات لها ؛ لأنه ليس فى المسمى من الألوهية ، ولا العزة ، ولا التقدير شيء ، ولم ينزل الله سلطاناً بهذه الأسماء ؛ أن يتبع المشركون إلا ظنا لا يغنى من الحق شيئاً ؛ فى أنها آلهة تنفع وتضر ، ويتبعوا أهواء أنفسهم .

وعند الملاحدة أنهم إذا عبدوا أهواءهم فقد عبدوا الله ، وقد قال سبحانه عن إمام الأئمة ، وخليل الرحمن ، وخير البرية — بعد محمد صلى الله عليه وسلم — أنه قال لأبيه : (يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا * يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ - إلى قوله - فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا)
فنهاه وأنكر عليه أن يعبد الأوثان ، التى لا تسمع ولا تبصر ، ولا تغنى عنه شيئاً .

وعلى زعم هؤلاء الملحدين - فما عبدوا غير الله فى كل معبود - فيكون الله هو الذى لا يسمع ، ولا يبصر ، ولا يغنى عنه شيئاً ، وهو الذى نهاه عن عبادته ، وهو الذى أمره بعبادته . وهكذا قال أحذق طواغيتهم الفاجر التلمسانى فى قصيدة له : -

يا عاذلى ! أنت تنهانى ، وتأمرنى والوجد أصدق نهاء وأمار

فإن أطعك وأعص الوجد عدت عمى		عن العيان إلى أوهام أخبار

وعين ما أنت تدعونى إليه إذا		حققته تره المنهى يا جارى !

وقد قال أيضاً إبراهيم لأبيه : (يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا) وعندهم أن الشيطان مجلى إلهى ، ينبغى تعظيمه ، ومن عبده فما عبد غير الله ، وليس الشيطان غير الرحمن حتى نعصيه ، وقد قال سبحانه : (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ) إلى قوله : (تَعْقِلُونَ) فنهاهم عن عبادة الشيطان ، وأمرهم بعبادة الله سبحانه وحده ، وعندهم عبادة الشيطان هى عبادته أيضاً ، فينبغى أن يعبد الشيطان وجميع الموجودات فإنها عينه .

وقال تعالى أيضاً عن إمام الخلائق خليل الرحمن أنه لما : (رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ - إلى قوله - وَهُم مُّهْتَدُونَ) وقال أيضاً : (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ) إلى قوله : (حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ) وقال تعالى : (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي). الآية وقال تعالى : (أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ - إلى قوله - إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

وقال تعالى : (إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ)
إلى قوله : (قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ) .

فهذا الخليل الذى جعله الله إمام الأئمة ، الذين يهتدون بأمره ، من الأنبياء والمرسلين بعده ، وسائر المؤمنين قال : (إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا) .

وعند الملاحدة الذى أشركوه : هو عين الحق ليس غيره ، فكيف يتبرأ من الله الذى وجه وجهه إليه ؟ وأحد الأمرين لازم على أصلهم ؛ إما أن يعبده فى كل شىء من المظاهر بدون تقييد ولا اختصاص ـ وهو حال المكمل عندهم ـ فلا يتبرأ من شىء ؛ وإما أن يعبده فى بعض المظاهر ، كفعل الناقصين عندهم .

وأما التبرىء من بعض الموجودات فقد قال : إن قوم نوح لو تركوهم لتركوا من الحق بقدر ما تركوا من تلك الأوثان ، والرسل قد تبرأت من الأوثان ، فقد تركت الرسل من الحق شيئاً كثيراً ، وتبرأوا من الله الذى دعوا الخلق إليه ، والمشركون ـ على زعمهم ـ أحسن حالا من المرسلين ، لأن المشركين عبدوه فى بعض المظاهر ، ولم يتبرأوا من سائرها ، والرسل تبرأوا منه فى عامة المظاهر .

ثم قول إبراهيم : (وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ) باطل على أصلهم ، فإنه لم يفطرها ، إذ هى ليست غيره ، فما أجدرهم بقوله : (أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ) الآية .

ثم قول الخليل : (وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ) الآية . وهذه حجة الله التى آتاها إبراهيم على قومه بقوله : كيف أخاف ما عبدتموه من دون الله ؟ وهى المخلوقات المعبودة من دونه ، وعندهم ليست معبودة من دونه ، ومن لم يخفها فلم يخف الله ، فالرسل لم يخافوا الله .

وقول الخليل : (أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا) لم يصح عندهم ، فإنهم لم يشركوا بالله شيئا ، إذ ليس ثم غيره حتى يشركوه به ، بل المعبود الذى عبدوه هو الله ، وأكثر ما فعلوه : إنهم عبدوه فى بعض المظاهر ، وليس فى هذا أنهم جعلوا غيره شريكا له فى العبادة .

وقوله : (ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ) وورد فى الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال : لما نزلت هذه الآية شق ذلك على أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وقالوا : أينا لم يظلم نفسه ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح (لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) ؟ » فقد أخبر الله ورسوله أن الشرك ظلم عظيم ، وأن الأمن هو لمن آمن بالله ، ولم يخلط إيمانه بشرك ، وعلى زعم هؤلاء الملاحدة : فإيمان الذين خلطوا إيمانهم بشرك : هو الإيمان الكامل التام ، وهو إيمان المحقق العارف عندهم ، لأن من آمن بالله فى جميع مظاهره وعبده فى كل موجود : هو أكمل ممن لم يؤمن به حيث لم يظهر ، ولم يعبده إلا من حيث لا يشهد ولا يعرف ، وعندهم لا يتصور أن يوجد إلا فى المخلوق ، فمن لم يعبده فى شىء

من المخلوقات أصلا ، فما عبده فى الحقيقة أصلا ، وإذا أطلقوا أنه عبده فهو لفظ لا معنى له ، أى إذا فسروه بالتخصيص فيكون بالتخصيص بمعنى أنه خصص بعض المظاهر بالعبادة ، وهذا عندهم نقص لا من جهة ما أشركه وعبده ، وإنما هو من جهة ما تركه ، فليس عندهم فى الشرك ظلم ولا نقص إلا من جهة قِلّته ، وإلا فإذا كان الشرك عاما كان أكمل وأفضل .

وكذلك أيضا قول الخليل لقومه : (إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ) تبرأ عندهم من الحق الذى ظهر فيهم وفى آلهتهم ، وكذلك كفره به ومعاداته لهم كفر بالحق عندهم ومعاداة له .

ثم قوله : (حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ) كلام لا معنى له عندهم ، فإنهم كانوا مؤمنين بالله وحده ، إذ لا يتصور عندهم غيره ، وإنما غايتهم إنهم عبدوه فى بعض المظاهر ، وتركوا بعضها من غير كفر به فيها .

وكذلك سائر ما قصه عن إبراهيم من معاداته لما عبده أولئك هو عندهم معاداة لله لأنه ما عبد غير الله كما زعم الملحدون محتجين بقوله : (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ) قالوا : وما قضى الله شيئا إلا وقع .

وهذا هو الإلحاد فى آيات الله ، وتحريف الكلم عن مواضعه ، والكذب على الله ، فإن « قضى » هنا ليست بمعنى القدر ، والتكوين بإجماع المسلمين ، بل وبإجماع العقلاء ، حتى يقال : ما قدر الله شيئا إلا وقع ، وإنما هى بمعنى أمر ،وما أمر الله به فقد يكون وقد لا يكون ، فتدبر هذا التحريف.

وكذلك قوله ما حكم الله بشيء إلا وقع كلام مجمل ؛ فإن الحكم يكون بمعنى الأمر الديني ، وهو الأحكام الشرعية ، كقوله : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ) الآية ، وقوله : (وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا) وقوله : (ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ) ويكون الحكم حكما بالحق والتكوين والفعل كقوله : (فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِي) وقوله : (قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّ) .

ولهذا كان بعض السلف يقرءون (ووصى ربك أن لا تعبدوا إلا اياه) ذكره ثعلب عن ابن عباس ، وذكروا أنها كذلك فى بعض المصاحف ، ولهذا قال فى سياق الكلام : (وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا) الآية وساق أمره ، ووصاياه ، إلى أن قال : (ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا) .

نختم الكلام بمثل ما فتحه به ، من أمره بالتوحيد ، ونهيه عن الشرك ، ليس هو إخباراً أنه ما عبد أحد إلا الله ، وأن الله قدر ذلك وكونه ، وكيف وقد قال : (وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ) ؟ وعندهم ليس فى الوجود شيء يجعل إلها آخر ، فأى شيء عبد فهو نفس الإله ليس آخر غيره .

ومثل معاداة إبراهيم والمؤمنين لله — على زعمهم — حيث عادى العابدين والمعبودين ، وما عبد غير الله ، وما عبد الله غير الله ، فهو عين كل عابد وعين كل معبود ، فكذلك قوله تعالى : (لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ

(إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ) وعلى زعمهم ما لله عدو أصلا ، وأنه ما ثم غير ، ولا سوى ، بحيث يتصور أن يكون عدو نفسه ، أو عدو الذوات التى لا يظهر إلا بها .

(السادس) أن عندهم أن دعوة العباد إلى الله مكر بهم ، كما صرح به ، حيث قال : إن الدعوة إلى الله مكر بالمدعو ، فإنه ما عدم من البداية فيدعى إلى الغاية .

وقال أيضا صاحب الفصوص : (وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ) الذين خبت نار طبيعتهم فقالوا إلها ولم يقولوا طبيعة : (وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا) أى حيروهم فى تعداد الواحد بالوجوه والنسب : (وَلَا تَزِدِ ٱلظَّالِمِينَ) لأنفسهم ، المصطفين الذين أورثوا الكتاب ، فهم أول الثلاثة ، فقدمه على المقتصد والسابق : (إِلَّا ضَلَٰلًا) أى إلا حيرة ، وفى المحمدى زدنى فيك تحيراً .

(كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ) له فالمحير له ، الدور ، والحركة الدورية حول القطب ، فلا يبرح منه ، وصاحب الطريق المستطيل مائل ، خارج عن المقصود ، طالب ما هو فيه ، صاحب خيال إليه غايته ، فله « من » و « إلى » وما بينهما ، وصاحب الحركة الدورية لا بدء له ، فيلزمه «من» ولا غاية فتحكم عليه «إلى» فله الوجود الأتم ، وهو المؤتى جوامع الكلم . اه

وقال بعض شعرائهم :ـ

ما بال عيسك لا يقر قرارها　　　والا م ضلك لا ينى متنقلا ؟

فلسوف تعلم أن سيرك لم يكن　　　إلا إليك إذا بلغت المنزلا !

فعندهم الإنسان هو غاية نفسه ، وهو معبود نفسه ، وليس وراءه شيء يعبده أو يقصده ، أو يدعوه ، أو يستجيب له ؛ ولهـذا كان قولهم حقيقة قول فرعون .

وكنت أقول لمن أخاطبه إن قولهم هو حقيقة قول فرعون ، حتى حدثنى بعض من خاطبته فى ذلك من الثقات العارفين : إن بعض كبرائهم لما دعا هذا المحدث إلى مذهبهم ، وكشف له حقيقة سرهم . قال : فقلت له هذا قول فرعون ؟ قال : نعم ، ونحن على قول فرعون ، فقلت له : الحمد لله الذى اعترفوا بهذا ، فإنه مع إقرار الخصم لا يحتاج إلى بينة .

وقد جعل صاحب الطريق المستطيل : صاحب خيال ، ومدح الحركة المستديرة الحائرة ، والقرآن يأمر بالصراط المستقيم ، ويمدحه ويثنى على أهله لا على المستدير ؛ ففى أم الكتاب : (ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ) وقال : (وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ) وقال : (وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا) الآيتين .

وقال تعالى فى موسى وهارون : (وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ * وَهَدَيْنَٰهُمَا

ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ) وقال تعالى : (وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ) وقال عن إبليس : (فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم) الآية وقال تعالى : (وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ) .

وهؤلاء الملحدون من أكابر متبعيه ، فإنه قعد لهم على صراط الله المستقيم ، فصدهم عنه حتى كفروا بربهم ، وآمنوا أن نفوسهم هى معبودهم وإلهم .

وقال تعالى فى حق خاتم الرسل : (وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَٰطِ ٱللَّهِ) الآية .

وأيضاً فإن الله يقول : (وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ) وقال تعالى : (إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم) وقال تعالى : (إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا) الآية وقال تعالى : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ) وهؤلاء عندهم ما ثم إلا أنت ، وأنت إلى الآن مردود إلى الله ، وما زلت مردوداً إليه ، وليس هو شيء غيرك ، حتى ترد إليه أو ترجع إليه ، أو تكدح إليه أو تلاقيه ، ولهذا حدثونا أن ابن الفارض لما احتضر أنشد بيتين :

إن كان منزلتى فى الحب عندكم ما قد لقيت : فقد ضيعت أيامى !
أمنية ظفرت نفسى بها زمناً واليوم أحسبها أضغاث أحلام !

وذلك أنه كان يتوهم أنه هو الله ، وأنه ما ثم مرد إليه ومرجع إليه غير ما كان هو عليه ، فلما جاءته ملائكة الله تنزع روحه من جسمه ، وبدا له من الله ما لم يكن يحتسب ، تبين له أن ما كان عليه أضغاث أحلام من الشيطان .

وكذلك حدثنى بعض أصحابنا ، عن بعض من أعرفه وله اتصال بهؤلاء ، عن الفاجر التلمسانى : أنه وقت الموت تغير واضطرب ، قال : دخلت عليه وقت الموت فوجدته يتأوه ، فقلت له : مم تتأوه ؟ فقال : من خوف الفوت ، فقلت سبحان الله ، ومثلك يخاف الفوت وأنت تدخل الفقير إلى الخلوة فتوصله إلى الله فى ثلاثة أيام ؟ ! فقال ما معناه : زال ذلك كله وما وجدت لذلك حقيقة ! .

(الثامن) أن عندهم من يدعى الإلهية من البشر ، كفرعون والدجال المنتظر ، أو ادعيت فيه وهو من أولياء الله نبياً كالمسيح ، أو غير نبى كعلى ، أو ليس من أولياء الله كالحاكم بمصر وغيرهم ، فإنه عند هؤلاء الملاحدة المنافقين يصحح هذه الدعوى .

وقد صرح صاحب الفصوص بتصحيح هذه الدعوى ، كدعوى فرعون ، وهم كثيراً ما يعظمون فرعون ، فإنه لم يتقدم لهم رأس فى الكفر مثله ، ولا يأتى متأخر لهم مثل الدجال الأعور الكذاب ، وإذا نافقوا المؤمنين وأظهروا الإيمان قالوا : إنه مات مؤمناً ، وأنه لا يدخل النار ، وقالوا : ليس فى القرآن ما يدل على دخوله النار .

وأما فى حقيقة أمرهم فما زال عندهم عارفاً بالله ، بل هو الله ، وليس عندهم نار فيها ألم أصلا ، كما سنذكره إن شاء الله عنهم ؛ ولكن يتفطن بهذا لكون البدع مظان النفاق ، كما أن السنن شعائر الإيمان .

قال صاحب الفصوص فى فص الحكمة ، التى فى «الكلمة الموسوية» ، لما تكلم على قوله : (وَمَارَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ) قال : وهنا سر كبير ، فإنه أجاب بالفعل لمن سأل عن الحد الذاتى فجعل الحد الذاتى عين إضافته إلى ما ظهر به من صور العالم ، أو ماظهر فيه من صور العالم ، فكأنه قال له فى جواب قوله : (وَمَارَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ) قال الذى يظهر فيه صور العالمين ، من علو وهو السماء ، وسفل وهو الأرض (إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ) أو يظهر هو بها .

فلما قال فرعون لأصحابه إنه لمجنون — كما قلنا فى معنى كونه مجنوناً أى لمستور عنه — علم ما سألته عنه إذ لا يتصور أن يعلمه أصلا ، زاد موسى فى البيان ليعلم فرعون رتبته فى العلم الإلهى ؛ لعلمه بأن فرعون يعلم ذلك فقال : (رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ) فجاء بما يظهر ويستر ، وهو الظاهر والباطن (وَمَا بَيْنَهُمَآ) وهو قوله : (وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ) (إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ) أى إن كنتم أصحاب تقييد فإن العقل للتقييد .

والجواب الأول : جواب الموقنين وهم أهل الكشف والوجود ، فقال له : (إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ) أى أهل كشف ووجود فقد أعلمتكم بما تيقنتموه فى كشفكم ووجودكم .

فإن لم تكونوا من هذا الصنف فقد أجبتكم بالجواب الثانى إن كنتم أهل عقل وتقييد ، وحصرتم الحق فيما تعطيه أدلة عقولكم ، فظهر موسى بالوجهين ليعلم فرعون فضله وصدقه ، وعلم موسى أن فرعون علم ذلك ، أو يعلم ذلك لكونه سأل عن الماهية ، فعلم أن سؤاله ليس على اصطلاح القدماء فى السؤال ؛ فلذلك أجاب : فلو علم منه غير ذلك لخطأه فى السؤال .

فلما جعل موسى المسئول عنه عين العالم : خاطبه فرعون بهذا اللسان ، والقوم لا يشعرون فقال له : (لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ) والسين فى السجن من حروف الزوائد ، أى لأسترنك ، فإنك أجبت بما أيدتنى به أن أقول مثل هذا القول ، فإن قلت لى بلسان الإشارة : فقد جهلت يا فرعون بوعيدك إياى ، والعين واحدة ، فكيف فرقت ؟ فيقول فرعون : إنما فرقت المراتب العين ؛ ما تفرقت العين ، ولا انقسمت فى ذاتها ؛ ومرتبتى الآن التحكم فيك يا موسى بالفعل ، وأنا أنت بالعين ، وأنا غيرك بالرتبة .

وساق الكلام إلى أن قال : ولما كان فرعون فى منصب الحكم صاحب الوقت وأنه الخليفة بالسيف وأنه جار فى العرف الناموسى لذلك قال : (أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ) أى وإن كان الكل أرباباً بنسبة ما، فأنا الأعلى منهم ، بما أعطيته فى الظاهر من التحكم فيكم .

ولما علمت السحرة صدقه فيما قال لهم : لم ينكروه ، وأقروا له بذلك ، وقالوا له : (فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ) فالدولة لك ،

فصح قوله : (أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ) وإن كان عين الحق : فالصورة لفرعون ، فقطع الأيدى والأرجل ، وصلب بعين حق ' فى صورة باطل ؛ لنيل مراتب لا تنال إلا بذلك الفعل ، فإن الأسباب لا سبيل إلى تعطيلها ؛ لأن الأعيان الثابتة اقتضتها ' فلا تظهر فى الوجود إلا بصورة ما هى عليه فى الثبوت إذ لا تبديل لـكلمات الله ' وليست كلمة الله سوى أعيان الموجودات » .

فصـــــل

ومن أعظم الأصول التي يعتمدها هؤلاء الاتحادية ، الملاحدة ، المدعون للتحقيق والعرفان : ما يأثرونه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « كان الله ولا شيء معه ، وهو الآن على ما عليه كان » وهذه الزيادة وهو قوله : « وهو الآن على ما عليه كان » كذب مفترى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اتفق أهل العلم بالحديث على أنه موضوع مختلق ، وليس هو فى شيء من دواوين الحديث ، لا كبارها ولا صغارها ، ولا رواه أحد من أهل العلم بإسناد ، لا صحيح ولا ضعيف ، ولا بإسناد مجهول ، وإنما تكلم بهذه الكلمة : بعض متأخرى متكلمة الجهمية ، فتلقاها منهم هؤلاء ، الذين وصلوا إلى آخر التجهم — وهو التعطيل والإلحاد — .

ولكن أولئك قد يقولون : كان الله ولا مكان ولا زمان ، وهو الآن على ماعليه كان ، فقال هؤلاء : كان الله ولاشيء معه ، وهو الآن على ماعليه كان ، وقد اعترف بأن هذا ليس من كلام النبي صلى الله عليه وسلم ، أعلم هؤلاء بالإسلام ابن عربي فقال فى كتاب : (ما لا بد للمريد منه) وكذلك ، جاء فى السنة « كان الله ولاشيء معه » قال : وزاد العلماء وهو الآن على ما عليه كان ، فلم يرجع إليه

من خلقه العالم وصف لم يكن عليه ، ولا عالم موجود ، فاعتقدْ فيه من التنزيه مع وجود العالم ما تعتقده فيه ولا عالم ولا شيء سواه . » وهذا الذى قاله هو قول كثير من متكلمى أهل القبلة .

ولو ثبت على هذا لكان قوله من جنس قول غيره ؛ لكنه متناقض ، ولهذا كان مقدم الاتحادية الفاجر التلمسانى : يرد عليه فى مواضع يقرب فيها إلى المسلمين ، كما يرد عليه المسلمون المواضع التى خرج فيها إلى الاتحاد .

وإنما الحديث المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم ما أخرجه البخارى عن عمران بن حصين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « كان الله ولم يكن شيء قبله ، وكان عرشه على الماء ، وكتب فى الذكر كل شيء ، ثم خلق السموات والأرض » .

وهذه الزيادة الإلحادية ، وهو قولهم : وهو الآن على ما عليه كان ، قصد بها المتكلمة المتجهمة نفى الصفات ، التى وصف بها نفسه ؛ من استوائه على العرش ، ونزوله إلى السماء الدنيا ، وغير ذلك فقالوا : كان فى الأزل ليس مستويا على العرش ، وهو الآن على ما عليه كان ، فلا يكون على العرش لما يقتضى ذلك من التحول والتغير .

ويجيبهم أهل السنة والإثبات بجوابين معروفين :

(أحدهما) أن المتجدد نسبة وإضافة بينه وبين العرش : بمنزلة المعية ،

ويسميها ابن عقيل الأحوال ، وتجدد النسب والإضافات متفق عليه بين جميع أهل الأرض ، من المسلمين وغيرهم ؛ إذ لا يقتضى ذلك تغيراً ، ولا استحالة .

(والثانى) أن ذلك وإن اقتضى تحولا من حال إلى حال ، ومن شأن إلى شأن ، فهو مثل مجيئه ، وإتيانه ، ونزوله ، وتكليمه لموسى ، وإتيانه يوم القيامة فى صورة ، ونحو ذلك مما دلت عليه النصوص ، وقال به أكثر أهل السنة والحديث ، وكثير من أهل الكلام ، وهو لازم لسائر الفرق .

وقد ذكرنا نزاع الناس فى ذلك ، فى قاعدة الفرق بين الصفات ، والمخلوقات ، والصفات الفعلية .

وأما هؤلاء الجهمية الاتحادية فقالوا : وهو الآن على ما عليه كان ، ليس معه غيره ، كما كان فى الأزل ولا شىء معه ، قالوا : إذ الكائنات ليست غيره ولا سواه ، فليس إلا هو : فليس معه شىء آخر ، لا أزلا ولا أبدا ؛ بل هو عين الموجودات ، ونفس الكائنات ، وجعلوا المخلوقات المصنوعات : هى نفس الخالق البارئ المصور .

وهم دائما يهذون بهذه الكلمة : « وهو الآن على ما عليه كان » وهى أجل عندهم من : (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ) ومن آية الكرسى لما فيها من الدلالة على الاتحاد الذى هو إلحادهم ، وهم يعتقدون أنها ثابتة عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وأنها من كلامه ، ومن أسرار معرفته ، وقد بينا أنها كذب مختلق على النبى صلى الله عليه وسلم لم يقلها ؛ ولم يروها أحد من أهل العلم ، ولا هى فى شىء من دواوين

الحديث ؛ بل اتفق العارفون بالحديث على أنها موضوعة ، ولا تنقل هذه الزيادة عن إمام مشهور فى الأمة بالإمامة ، وإنما مخرجها ممن يعرف بنوع من التجهم ، وتعطيل بعض الصفات ، ولفظ الحديث المعروف عند علماء الحديث ، الذى أخرجه أصحاب الصحيح : « كان الله ولا شىء معه ، وكان عرشه على الماء ، وكتب فى الذكر كل شىء » وهذا إنما ينفى وجود المخلوقات من السموات والأرض ، وما فيهما من الملائكة ، والإنس والجن ؛ لا ينفى وجود العرش .

ولهذا ذهب كثير من السلف والخلف : إلى أن العرش متقدم على القلم واللوح . مستدلين بهذا الحديث ، وحملوا قوله : « أول ما خلق الله القلم فقال له : اكتب . فقال : وما أكتب ؟ قال أكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة » على هذا الخلق المذكور فى قوله : (وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ) .

وهذا نظير حديث أبى رزين العقيلى ، المشهور فى كتب المسانيد والسنن ، أنه سأل النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه ؟ فقال : « كان فى عماء ، ما فوقه هواء وما تحته هواء ثم خلق عرشه على الماء » فالخلق المذكور فى هذا الحديث لم يدخل فيه العماء وذكر بعضهم أن هذا هو السحاب المذكور فى قوله : (هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ) وفى ذلك آثار معروفة .

والدليل على أن هذا الكلام — وهو قولهم وهو الآن على ما عليه كان — كلام باطل مخالف للكتاب والسنة والإجماع والاعتبار وجوه :ـ

(أحدها) أن الله قد أخبر بأنه مع عباده فى غير موضع من الكتاب ، عموما وخصوصاً ، مثل قوله : (هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ) إلى قوله : (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ) وقوله : (مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ) إلى قوله : (أَيْنَ مَا كَانُوا۟) وقوله : (إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ) وقال : (وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ) فى موضعين وقوله : (إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ) (لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا) (وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ) (إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ) .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا سافر يقول : « اللهم أنت الصاحب فى السفر ، والخليفة فى الأهل ، اللهم اصحبنا فى سفرنا ، واخلفنا فى أهلنا » فلو كان الخلق عموماً وخصوصاً ليسوا غيره ، ولا هم معه ، بل ما معه شيء آخر : امتنع أن يكون هو مع نفسه وذاته ، فإن المعية توجب شيئين : كون أحدهما مع الآخر فلما أخبر الله أنه مع هؤلاء علم بطلان قولهم : « هو الآن على ما عليه كان » لا شيء معه ؛ بل هو عين المخلوقات ، وأيضاً فإن المعية لا تكون إلا من الطرفين ، فإن معناها المقارنة والمصاحبة ، فإذا كان أحد الشيئين مع الآخر : امتنع ألا يكون الآخر معه ، فمن الممتنع أن يكون الله مع خلقه ، ولا يكون لهم وجود معه ، ولا حقيقة أصلا ، بل هم هو .

(الوجه الثانى) أن الله قال فى كتابه : (وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا) وقال تعالى : (فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ) وقال : (وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ) .

فنهاه أن يجعل أو يدعو معه إلها آخر ، ولم ينهه أن يثبت معه مخلوقا ، أو يقول : إن معه عبدا مملوكا أو مربوبا فقيرا أو معه شيئا موجودا خلقه ، كما قال : (لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ) ولم يقل لا موجود إلا هو ، أو لا هو إلا هو ، أو لا شىء معه إلا هو : بمعنى أنه نفس الموجودات وعينها .

وهذا كما قال : (وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ) فأثبت وحدانيته فى الألوهية ، ولم يقل إن الموجودات واحد ، فهذا التوحيد الذى فى كتاب الله : هو توحيد الألوهية ، وهو أن لا تجعل معه ولا تدعو معه إلها غيره ، فأين هذا من أن يجعل نفس الوجود هو إياه ؟ .

وأيضا : فنهيه أن يجعل معه أو يدعو معه إلها آخر دليل على أن ذلك ممكن ، كما فعله المشركون الذين دعوا مع الله آلهة أخرى ، فلو كانت تلك الآلهة هى إياه — ولا شىء معه أصلا — امتنع أن يدعى معه آلهة أخرى .

فهذه النصوص : تدل على أن معه أشياء ليست بآلهة ، ولا يجوز أن تجعل آلهة ، ولا تدعى آلهة ، وأيضا فعند الملحدين يجوز أن يعبد كل شىء ؛ ويدعى كل شىء ؛ إذ لا يتصور أن يعبد غيره ، فإنه هو الأشياء .

فيجوز للإنسان حينئذ : أن يدعو كل شيء من الآلهة المعبودة من دون الله ، وهو عند الملاحدة ما دعا معه إلهـا آخر ! فجعل نفس ما حرمه الله وجعله شركا : جعله توحيدا ، والشرك عنده لا يتصور بحال .

(الوجه الثالث) أن الله لما كان ولاشيء معه : لم يكن معه سماء ، ولا أرض ، ولا شمس ولا قمر ، ولا جن ولا إنس ، ولا دواب ولا شجر ، ولا جنة ولا نار ، ولا جبـال ولا بحار . فإن كان الآن على ما عليه كان : فيجب أن لا يكون معه شيء من هذه الأعيـان ، وهذا مكابرة للعيـان ، وكفر بالقرآن والإيمان .

(الوجه الرابع) أن الله كان ولا شيء معه ، ثم كتب فى الذكر كل شيء ، كما جاء فى الحديث الصحيح ، فإن كان لا شيء معه فيما بعد : فمـا الفرق بين حال الـكتابة وقبلها ، وهو عين الـكتابة واللوح عند الفراعنة الملاحدة .

فصـــــل

وزعمت طائفة من هؤلاء الاتحادية ـ الذين ألحدوا فى أسماء الله وآياته ـ أن فرعون كان مؤمناً ، وأنه لا يدخل النار ، وزعموا أنه ليس فى القرآن ما يدل على عذابه ، بل فيه ما ينفيه ، كقوله : (أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ) قالوا : فإنما أدخل آ له دونه . وقوله : (يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ) قالوا إنما أوردهم ولم يدخلها، قالوا : ولأنه قد آمن أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنوا إسرائيل ، ووضع جبريل الطين فى فمه لا يرد إيمان قلبه.

وهذا القول كفر معلوم فساده بالاضطرار من دين الإسلام ، لم يسبق ابن عربى إليه — فيما أعلم — أحد من أهل القبلة ؛ بل ولا من اليهود ، ولا من النصارى ؛ بل جميع أهل الملل مطبقون على كفر فرعون .

فهذا عند الخاصة والعامة أبين من أن يستدل عليه بدليل ، فإنه لم يكفر أحد بالله ، ويدعى لنفسه الربوبية والإلهية مثل فرعون .

ولهذا ثنى الله قصته فى القرآن فى مواضع فإن القصص إنما هى أمثال

مضروبة للدلالة على الإيمان ، وليس فى الكفار أعظم من كفره ، والقرآن قد دل على كفره وعذابه فى الآخرة فى مواضع :

(أحدها) قوله تعالى فى القصص : (فَذَانِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ) إلى قوله : (وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ) .

فأخبر سبحانه أنه أرسله إلى فرعون وقومه ، وأخبر أنهم كانوا قوماً فاسقين ، وأخبر أنهم : (قَالُواْ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى) وأخبر أن فرعون قال : (مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى) وأنه أمر باتخاذ الصرح ليطلع إلى إله موسى ، وأنه يظنه كاذباً ، وأخبر أنه استكبر فرعون وجنوده ، وظنوا أنهم لا يرجعون إلى الله ، وأنه أخذ فرعون وجنوده فنبذهم فى اليم ؛ فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ، وأنه جعلهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون ، وأنه أتبعهم فى الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين .

فهذا نص فى أن فرعون من الفاسقين ، المكذبين لموسى ، الظالمين ، الداعين إلى النار ، الملعونين فى الدنيا بعد غرقهم ، المقبوحين فى الدار الآخرة .

وهذا نص فى أن فرعون بعد غرقه ملعون ، وهو فى الآخرة مقبوح غير منصور ، وهذا إخبار عن غاية العذاب ، وهو موافق للموضع الثانى فى سورة المؤمن وهو قوله : (وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ * ٱلنَّارُ

يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ)
وهذا إخبارعن فرعون وقومه ؛ أنه حاق بهم سوء العذاب فى البرزخ ، وأنهم فى القيامة يدخلون أشد العذاب ، وهذه الآية إحدى ما استدل به العلماء على عذاب البرزخ .

وإنما دخلت الشبهة على هؤلاء الجهال : لما سمعوا آل فرعون ، فظنوا أن فرعون خارج منهم ؛ وهذا تحريف للكلم عن مواضعه ، بل فرعون داخل فى آل فرعون بلا نزاع بين أهل العلم بالقرآن ، واللغة ، يتبين ذلك بوجوه :—

(أحدها) أن لفظ آل فلان فى الكتاب والسنة يدخل فيها ذلك الشخص ، مثل قوله فى الملائكة الذين ضافوا إبراهيم : (إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ * إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا امْرَأَتَهُ) ثم قال : (فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ * قَالَ) يعنى لوطاً : (إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ) وكذلك قوله : (إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ) ثم قال بعد ذلك : (وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ * كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ) .

ومعلوم أن لوطاً داخل فى آل لوط فى هذه المواضع ، وكذلك فرعون : داخل فى آل فرعون المكذبين المأخوذين ، ومنه قول النبى صلى الله عليه وسلم « قولوا اللهم صل على محمد ، وعلى آل محمد ، كما صليت على آل إبراهيم »

وكذلك قوله : « كما باركت على آل إبراهيم » فإبراهيم داخل فى ذلك ، وكذلك قوله للحسن : « إن الصدقة لاتحل لآل محمد » .

وفى الصحيح عن عبد الله بن أبى أوفى قال : كان القوم إذا أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بصدقة يصلى عليهم ، فأتى أبى بصدقة فقال : « اللهم صل على آل أبى أوفى » وأبو أوفى هو صاحب الصدقة .

ونظير هذا الاسم أهل البيت ، فإن الرجل يدخل فى أهل بيته ، كقول الملائكة : (رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ) وقول النبى صلى الله عليه وسلم : « سلمان منا أهل البيت » وقوله تعالى : (إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ) وذلك لأن آل الرجل من يؤول إليه ، ونفسه ممن يؤول إليه ، وأهل بيته هم من يأهله ، وهو ممن يأهل أهل بيته .

فقد تبين أن الآية التى ظنوا أنها حجة لهم : هى حجة عليهم ، فى تعذيب فرعون مع سائر آل فرعون فى البرزخ ، وفى يوم القيامة ، ويبين ذلك : أن الخطاب فى القصة كلها إخبار عن فرعون وقومه . قال تعالى : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ * إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ) إلى قوله : (قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ) إلى قوله : (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ * أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ) إلى قوله : (وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ * ٱلنَّارُ

يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا) إلى قوله (قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ) .

فأخبر عقب قوله : (أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ) عن محاجتهم فى النار ، وقول الضعفاء للذين استكبروا ، وقول المستكبرين للضعفاء : (إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ) ومعلوم أن فرعون هو رأس المستكبرين ، وهو الذى استخف قومه فأطاعوه ، ولم يستكبر أحد استكبار فرعون ، فهو أحق بهذا النعت والحكم من جميع قومه .

(الموضع الثانى) — وهو حجة عليهم لا لهم — قوله تعالى : (فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ * يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ) إلى قوله : (بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ) فأخبر أنه يقدم قومه ولم يقل يسوقهم ، وأنه أوردهم النار . ومعلوم أن المتقدم إذا أورد المتأخرين النار : كان هو أول من يردها ، وإلا لم يكن قادماً ؛ بل كان سائقاً ؛ يوضح ذلك أنه قال : (وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ) فعلم أنه وهم يردون النار ، وأنهم جميعاً ملعونون فى الدنيا والآخرة .

وما أخلق المحاج عن فرعون أن يكون بهذه المثابة ، فإن المرء مع من أحب (وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍ) وأيضاً فقد قال الله تعالى : (فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ) يقول : هلا آمن قوم فنفعهم إيمانهم إلا قوم يونس .

وقال تعالى : (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ) إلى قوله : (سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ) فأخبر عن الأمم المكذبين للرسل ، أنهم آمنوا عند رؤية البأس ، وأنه لم يك ينفعهم إيمانهم حينئذ ، وأن هذه سنة الله الخالية فى عباده .

وهذا مطابق لما ذكره الله فى قوله لفرعون : (آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ) فإن هذا الخطاب هو استفهام إنكار أى الآن تؤمن وقد عصيت قبل ؟ فأنكر أن يكون هذا الإيمان نافعاً أو مقبولا فمن قال : إنه نافع مقبول فقد خالف نص القرآن ، وخالف سنة الله التى قد خلت فى عباده .

يبين ذلك أنه لو كان إيمانه حينئذ مقبولا : لدفع عنه العذاب كما دفع عن قوم يونس ، فإنهم لما قبل إيمانهم متعوا إلى حين ، فإن الإغراق هو عذاب على كفره فإذا لم يكن كافراً لم يستحق عذابا .

وقوله بعد هذا : (فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً) يوجب أن يعتبر من خلفه ، ولو كان إنما مات مؤمناً لم يكن المؤمن مما يعتبر بإهلاكه وإغراقه . وأيضاً فإن النبى صلى الله عليه وسلم لما أخبره ابن مسعود بقتل أبى جهل قال : « هذا فرعون هذه الأمة » فضرب النبى صلى الله عليه وسلم المثل فى رأس الكفار المكذبين له برأس الكفار المكذبين لموسى .

فهذا يبين أنه هو الغاية فى الكفر ، فكيف يكون قد مات مؤمناً ؟ ومعلوم أن من مات مؤمناً : لا يجوز أن يوسم بالكفر ولا يوصف ، لأن الإسلام يهدم ما كان قبله ، وفى مسند أحمد وإسحاق وصحيح أبى حاتم ، عن عوف ابن مالك ، عن عبد الله بن عمرو ، عن النبى صلى الله عليه وسلم فى تارك الصلاة : « يأتى مع قارون ، وفرعون ، وهامان ، وأبى بن خلف » .

سئل الشيخ الإمام الربانى شيخ الإسلام ، بحر العلوم إمام الأئمة ناصر ، السنة ، علامة الورى ، وارث الأنبياء .

أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية

عن كلمات وجدت بخط من يوثق به ، ذكرها عنه جماعة من الناس ، فيهم من انتسب إلى الدين[١] .

فمن ذلك : قال بعض السلف : إن الله لطف ذاته فسماها حقا ، وكثفها فسماها خلقاً .

وقال الشيخ نجم الدين بن إسرائيل : إن الله ظهر فى الأشياء حقيقة ، واحتجب بها مجازاً ، فمن كان من أهل الحق والجمع : شهدها مظاهر ومجالى ، ومن كان من أهل المجاز والفرق : شهدها ستوراً وحجباً قال : وقال فى قصيدة له : —

لقد حق لى رفض الوجود وأهله ... وقد علقت كفاى جمعا بموجدى

---

(١) تسمى : الحجج العقلية والنقلية ، فيما ينافي الإسلام من بدع الجهمية والصوفية .

ثم بعد مدة غير البيت بقوله : —

* لقد حق لى عشق الوجود وأهله *

فسألته عن ذلك فقال : مقام البداية أن يرى الأكوان حجبا فيرفضها ، ثم يراها مظاهر ومجالى فيحق له العشق لها ، كما قال بعضهم : —

أقبل أرضاً سار فيها جِمالها فكيف بدار دار فيها جَمالها

قال : وقال ابن عربى عقيب إنشاد بيتى أبى نواس : ـ

رق الزجاج وراقت الخمر وتشاكلا فتشابه الأمر
فكأنما خمر ولا قدح وكأنما قدح ولا خمر

لبس صورة العالم ، فظاهره خلقه ، وباطنه حقه .

وقال بعض السلف : عين ما ترى ذات لا ترى ، وذات لا ترى عين ما ترى ، الله فقط والكثرة وهم .

قال الشيخ قطب الدين بن سبعين : رب مالك ، وعبد هالك ، وأنتم ذلك . الله فقط والكثرة وهم .

وقال الشيخ محي الدين بن عربى : ـ

يا صورة أُنس سرها معنائى ما خلقك للأمر ترى لولائى
شئناك فأنشأناك خلقا بشرا لتشهدنا فى أكمل الأشياء

وفيه : طلب بعض أولاد المشايخ من والده الحج ، فقال له الشيخ : يا بنى طف ببيت ما فارقه الله طرفة عين .

قال : وقيل عن رابعة العدوية : إنها حجت فقالت : هذا الصنم المعبود فى الأرض ، والله ماولجه الله ولا خلا منه .

وفيه للحلاج :ـ

سبحان من أظهر ناسوته　　سر سنا لاهوته الثاقب

ثم بدا مستتراً ظاهرا　　فى صورة الآكل والشارب

قال وله :

عقد الخلائق فى الإله عقائدا　　وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوه

وله أيضاً :

بينى وبينك إنىّ تزاحمنى　　فارفع بحقك إنّيِّيْ من البين

قال : وقال الشيخ شهاب الدين السهروردى الحلبى المقتول : وبهذه الإنية التى طلب الحلاج رفعها تصرفت الأغيار فى دمه ، ولذلك قال السلف : الحلاج نصف رجل وذلك أنه لم ترفع له الإنيةُ بالمعنى فرفعت له صورة .

وفيه لمحي الدين ابن عربى : ـ

والله ما هى إلا حيرة ظهرت　　وبى حلفت وإن المقسم الله

وقال فيه : المنقول عن عيسى عليه السلام أنه قال : « إن الله ـ تبارك

وتعالى ـ اشتاق بأن يرى ذاته المقدسة ، فخلق من نوره آدم عليه السلام ، وجعله كالمرآة ينظر إلى ذاته المقدسة فيها ، وإنى أنا ذلك النور ، وآدم المرآة . قال ابن الفارض فى قصيدته السلوك :

وشاهد إذا استجليت نفسك من ترى بغير مراء فى المرآة الصقيلة
أغيرك فيها لاح أم أنت ناظر إليك بها عند انعكاس الأشعة ؟

قال : وقال ابن إسرائيل ، الأمر أمران : أمر بواسطة ، وأمر بغير واسطة ، فالأمر الذى بالوسائط رده من شاء الله وقبله من شاء الله ، والأمر الذى بغير واسطة لا يمكن رده ، وهو قوله تعالى : (إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) .

فقال له فقير : إن الله قال لآدم بلا واسطة : لا تقرب الشجرة ـ فقرب وأكل . فقال : صدقت ، وذلك أن آدم إنسان كامل ؛ ولذلك قال شيخنا على الحريرى : آدم صفى الله تعالى ، كان توحيده ظاهراً وباطناً ، فكان قوله لآدم « لا تقرب الشجرة » ظاهراً ، وكان أمره « كل » باطناً ، فأكل فكذلك قوله تعالى . وإبليس كان توحيده ظاهراً ، فأمر بالسجود لآدم ، فرآه غيرا فلم يسجد ، فغير الله عليه وقال : (اخْرُجْ مِنْهَا) .

وقال شخص لسيدى يا سيدى حسن ، إذا كان الله يقول لنبيه : (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ) أيش نكون نحن ؟ فقال سيدى له : ليس الأمر كما تقول أو تظن ، فقوله له : (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ) عين الإثبات للنبى صلى الله

عليه وسلم كقوله تعالى : (وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ) (إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) .

وفيه لأوحد الدين الكرمانى : ـ

ما غبت عن القلب ولا عن عينى ما بينكم وبيننا من بين

وقال غيره : ـ

لا تحسب بالصلاة والصوم تنال قربا ودنواً من جمال وجلال
فارق ظلم الطبع وكن متحداً بالله وإلا كل دعواك محال

وغيره للحلاج : ـ

إذا بلغ الصب الكمال من الهوى وغاب عن المذكور فى سطوة الذكر
يشاهد حقاً حين يشهده الهوى بأن صلاة العارفين من الكفر

وللشيخ نجم الدين بن إسرائيل .

الكون يناديك ألا تسمعنى من ألف أشتاتى ومن فرقنى
أنظر لترانى منظراً معتبرا مافىَّ سوى وجود من أوجدنى

وله أيضاً : ـ

ذرات وجود الكون للحق شهود أن ليس لموجودٍ سوى الحق وجود
والكون وإن تكثرت عدته منه وإلى علاه يبدو ويعود

وله أيضاً : ـ

برئت إليك من قولى وفعلى ومن ذاتى براءة مستقيـــل
وما أنا فى طراز الـكون شيء لأنى مثل ظل مستحيـــل

وللعفيف التلمسانى : ـ

أحن إليه وهو قلبي وهل يرى سواى أخو وجد يحن لقلبه ؟
ويحجب طرفى عنه إذ هو ناظرى وما بُعده إلا لإفراط قربه

وقال بعض السلف : التوحيد لا لسان له ، والألسنة كلها لسانه .

ومن ذلك أيضاً : التوحيد لا يعرفه إلا الواحد ، ولا تصح العبارة عن الواحد ، وذلك أنه لا يعبر عنه إلا بغيره ومن أثبت غيرا فلا توحيد له .

قال : وسمعت الشيخ محمد بن بشر النواوى يقول : ورد سيدنا الشيخ على الحريرى إلى جامع نوى ، قال الشيخ محمد : فجئت إليه ، فقبلت الأرض بين يديه ، وجلست ، فقال : يا بنى وقفت مع المحبة مدة فوجدتها غير المقصود ؛ لأن المحبة لا تـكون إلا من غير لغير ، وغير ما ثم ، ثم وقفت مع التوحيد مدة فوجدته كذلك ، لأن التوحيد لا يكون إلا من عبد لرب ، ولو أنصف الناس ما رأوا عبداً ولا معبودا .

وفيه : سمعت من الشيخ نجم الدين بن إسرائيل مما أسر إلى أنه سمع من

شيخنا ، الشيخ على الحريرى ، فى العام الذى توفى فيه ، قال يا نجم ، رأيت لهاتى الفوقانية فوق السموات ، وحنكى تحت الأرضين ، ونطق لسانى بلفظة لو سمعت منى ما وصل إلى الأرض من دمى قطرة .

فلما كان بعد ذلك بمدة قال شخص فى حضرة سيدى الشيخ حسن بن على الحريرى : ياسيدى حسن ، ما خلق الله أقل عقلا ممن ادعى أنه إله مثل فرعون ونمروذ وأمثالهما ، فقال : إن هذه المقالة لا يقولها إلا أجهل خلق الله أو أعرف خلق الله ، فقلت له : صدقت ؛ وذلك أنه قد سمعت جدك يقول : رأيت كذا وكذا ؛ فذكر ما ذكره الشيخ نجم الدين عن الشيخ .

وفيه قال بعض السلف : من كان عين الحجاب على نفسه فلا حجاب ولا محجوب .

فالمطلوب من السادة العلماء : -

أن يبينوا هذه الأقوال ، وهل هى حق أو باطل ؟ وما يعرف به معناها ؟ وما يبين أنها حق أو باطل ؟ وهل الواجب إنكارها ، أو إقرارها ، أوالتسليم لمن قالها ؟ وهل لها وجه سائغ ؟ وما الحكم فيمن اعتقد معناها ، إما مع المعرفة بحقيقتها ؟ وإما مع التسليم المجمل لمن قالها .

والمتكلمون بهـا ، هل أرادوا معنى صحيحا يوافق العقل والنقل ؟ وهل يمكن تأويل ما يشكل منها وحمله على ذلك المعنى؟ وهل الواجب بيان معناها ، وكشف مغزاها ، إذا كان هناك ناس يؤمنون بها ، ولا يعرفون حقيقتها ؟ أم ينبغي السكوت عن ذلك وترك الناس يعظمونها ، ويؤمنون بها ، مع عدم العلم بمعناها ؟ بينوا ذلك مأجورين .

فأجاب رضي الله عنه :-

الحمد لله رب العالمين .

هذه الأقوال المذكورة : تشتمل على أصلين باطلين ، مخالفين لدين المسلمين ، واليهود ، والنصارى مع مخالفتهما للمنقول والمعقول .

أحدهما: الحلول والاتحاد، ومايقارب ذلك، كالقول بوحدةالوجود ،كالذين يقولون : إن الوجود واحد ، فالوجود الواجب للخالق : هو الوجود الممكن للمخلوق ، كما يقول ذلك أهل الوحدة ، كابن عربى ، وصاحبه القونوى ، وابن سبعين ، وابن الفارض صاحب القصيدة التائية — نظم السلوك — وعامر البصرى السيواسى ، الذى له قصيدة تناظر قصيدة ابن الفارض . والتلمسانى الذى شرح (مواقف النفرى) ، وله شرح الأسماء الحسنى ، على طريقة هؤلاء ، وسعيد الفرغانى ، الذى شرح قصيدة ابن الفارض ، والششترى صاحب الأزجال ، الذى هو تلميذ ابن سبعين ، وعبد الله البليانى ، وابن أبى المنصور المتصوف المصرى ، صاحب (فك الأزرار عن أعناق الأسرار) وأمثالهم .

ثم من هؤلاء من يفرق بين الوجود والثبوت ـ كما يقوله ابن عربى ـ ويزعم

أن الأعيان ثابتة فى العدم، غنية عن الله فى أنفسها، ووجود الحق هو وجودها، والخالق مفتقر إلى الأعيان، فى ظهور وجوده بها، وهى مفتقرة إليه فى حصول وجودها، الذى هو نفس وجوده. وقوله مركب من قول من قال المعدوم شىء وقول من يقول: وجود الخالق هو وجود المخلوق ويقول: فالوجود المخلوق هو الوجود الخالق، والوجود الخالق هو الوجود المخلوق، كما هو مبسوط فى موضع آخر.

ومنهم من يفرق بين الإطلاق والتعيين، كما يقول القونوى ونحوه، فيقولون: إن الواجب هو الوجود المطلق لا بشرط، وهذا لا يوجد مطلقا إلا فى الأذهان لا فى الأعيان، فما هو كلى فى الأذهان لا يكون فى الأعيان إلا معينا، وإن قيل: إن المطلق جزء من المعين لزم أن يكون وجود الخالق جزءاً من وجود المخلوق، والجزء لا يبدع الجميع ويخلقه، فلا يكون الخالق موجوداً.

ومنهم من قال: إن البارئ هو الوجود المطلق بشرط الإطلاق، كما يقول ابن سينا وأتباعه، فقوله أشد فساداً. فان المطلق بشرط الإطلاق لا يكون إلا فى الأذهان لا فى الأعيان؛ فقول هؤلاء بموافقة من هؤلاء — الذين يلزمهم التعطيل — شر من قول الذين يشبهون أهل الحلول والاتحاد.

وآخرون يجعلون الوجود الواجب. والوجود الممكن: بمنزلة المادة

والصورة ، التى تقولها المتفلسفة ، أو قريب من ذلك ، كما يقوله ابن سبعين وأمثاله .

وهؤلاء أقوالهم فيها تناقض وفساد ، وهى لا تخرج عن وحدة الوجود ، والحلول ، أو الاتحاد ، وهم يقولون بالحلول المطلق ، والوحدة المطلقة ، والاتحاد المطلق ، بخلاف من يقول بالمعين ، كالنصارى والغالية (من الشيعة) الذين يقولون بإلهية على ، أو الحاكم ، أو الحلاج ، أو يونس القنينى ، أو غير هؤلاء ممن ادعيت فيه الإلهية .

فإن هؤلاء : قد يقولون بالحلول المقيد الخاص ، وأولئك يقولون بالإطلاق والتعميم .

ولهذا يقولون إن النصارى إنما كان خطؤهم فى التخصيص ، وكذلك يقولون فى المشركين عباد الأصنام ، إنما كان خطؤهم لأنهم اقتصروا على بعض المظاهر دون بعض ، وهم يجوزون الشرك وعبادة الأصنام مطلقا ، على وجه الإطلاق والعموم .

ولا ريب أن فى قول هؤلاء من الكفر والضلال : ما هو أعظم من كفر اليهود والنصارى .

وهذا المذهب شائع فى كثير من المتأخرين ، وكان طوائف من الجهمية يقولون به ، وكلام ابن عربى ، فى فصوص الحكم وغيره ، وكلام ابن سبعين

وصاحبه الششترى ، وقصيدة ابن الفارض (نظم السلوك) وقصيدة عامر البصرى ، وكلام العفيف التلمسانى ، وعبد الله البليانى ، والصدر القونوى وكثير من شعر ابن إسرائيل ، وما ينقل من ذلك عن شيخه الحريرى ؛ وكذلك نحو منه يوجد فى كلام كثير من الناس غير هؤلاء هو مبنى على هذا المذهب — مذهب الحلول والاتحاد ، ووحدة الوجود — .

وكثير من أهل السلوك ، الذين لا يعتقدون هذا المذهب : يسمعون شعر ابن الفارض وغيره ، فلا يعرفون أن مقصوده هذا المذهب ، فإن هذا الباب وقع فيه من الاشتباه والضلال ، ما حير كثيراً من الرجال .

وأصل ضلال هؤلاء : أنهم لم يعرفوا مباينة الله لمخلوقاته ، وعلوه عليها ، وعلموا أنه موجود ، فظنوا أن وجوده لا يخرج عن وجودها ، بمنزلة من رأى شعاع الشمس فظن أنه الشمس نفسها .

ولما ظهرت الجهمية — المنكرة لمباينة الله وعلوه على خلقه — افترق الناس فى هذا الباب على أربعة أقوال : —

فالسلف والأئمة يقولون : إن الله فوق سمواته ، مستو على عرشه ، بائن من خلقه ، كما دل على ذلك الكتاب والسنة ، وإجماع سلف الأمة ، وكما علم المباينة والعلو بالمعقول الصريح ، الموافق للمنقول الصحيح ، وكما فطر الله على ذلك خلقه ؛ من إقرارهم به ، وقصدهم إياه سبحانه وتعالى .

(والقول الثانى) قول معطلة الجهمية ونفاتهم ، وهم الذين يقولون . لا هو داخل العالم ، ولا خارجه ، ولا مبـــاين له ، ولا محايث له ؛ فينفون الوصفين المتقابلين ، اللذين لا يخلو موجود عن أحدهما ، كما يقول ذلك أكثر المعتزلة ، ومن وافقهم من غيرهم .

(والقول الثالث) قول حلولية الجهمية ، الذين يقولون : إنه بذاته فى كل مكان ، كما يقول ذلك النجارية — أتباع حسين النجار — وغيرهم من الجهمية ، وهؤلاء القائلون بالحلول والاتحـاد : من جنس هؤلاء ، فإن الحلول أغلب على عباد الجهمية ، وصوفيتهم وعامتهم ، والنفى والتعطيل أغلب على نظارهم ومتكلميهم كما قيل : متكلمة الجهمية لا يعبدون شيئاً ، ومتصوفة الجهمية يعبدون كل شىء .

وذلك لأن العبادة تتضمن الطلب والقصـد ، والإرادة والمحبة ، وهذا لا يتعلق بمعدوم ، فإن القلب يطلب موجوداً ، فإذا لم يطلب ما فوق العالم : طلب ما هو فيه .

وأما الكلام والعـلم والنظر : فيتعلق بموجود ومعدوم ، فإذا كان أهل الكلام والنظر يصفون الرب بصفات السلب والنفى — التى لا يوصف بها إلا المعدوم — لم يكن مجرد العـلم والكلام ينـافى عدم المعبود المذكور ، بخلاف القصد والإرادة والعبادة ، فإنه ينافى عدم المعبود .

ولهذا تجد الواحد من هؤلاء — عند نظره وبحثه — يميل إلى النفى ، وعند عبادته وتصوفه يميل إلى الحلول ، وإذا قيل له هـذا ينافى ذلك قال : هذا مقتضى

عقلى ونظرى ، وذاك مقتضى ذوقى ومعرفتى ، ومعلوم أن الذوق والوجد إن لم يكن موافقاً للعقل والنظر ، وإلا لزم فسادهما أو فساد أحدهما .

والقول الرابع : قول من يقول إن الله بذاته فوق العالم ، وهو بذاته فى كل مكان ، وهذا قول طوائف من أهل الكلام والتصوف ، كأبى معاذ وأمثاله ، وقد ذكر الأشعرى فى المقالات هذا عن طوائف ، ويوجد فى كلام السالمية - كأبى طالب المكى وأتباعه : كأبى الحكم بن برجان وأمثاله - ما يشير إلى نحو من هذا ، كما يوجد فى كلامهم ما يناقض هذا .

وفى الجملة فالقول بالحلول أو ما يناسبه : وقع فيه كثير من متأخرى الصوفية ؛ ولهذا كان أئمة القوم يحذرون منه : كما فى قول الجنيد - لما سئل عن التوحيد - فقال : التوحيد إفراد الحدوث عن القدم . فبين أن التوحيد أن يميز بين القديم والمحدث .

وقد أنكر ذلك عليه ابن عربى - صاحب الفصوص - وادعى أن الجنيد وأمثاله ماتوا وما عرفوا التوحيد ، لما أثبتوا الفرق بين الرب والعبد ، بناء على دعواه أن التوحيد ليس فيه فرق بين الرب والعبد ، وزعم أنه لا يميز بين القديم والمحدث ، إلا من ليس بقديم ولا محدث ، وهذا جهل ، فإن المعرفة بأن هذا ليس ذاك ، والتمييز بين هذا وذاك : لا يفتقر إلى أن يكون العارف المميز بين الشيئين ليس هو أحد الشيئين ؛ بل الإنسان يعلم أنه ليس هو ذلك الإنسان الآخر ، مع أنه أحدهما ، فكيف لا يعلم أنه غير ربه ؛ وإن كان هو أحدهما ؟ .

(الأصل الثانى) الاحتجاج بالقدر على المعاصى ، وعلى ترك المأمور وفعل المحظور ، فإن القدر يجب الإيمان به ، ولا يجوز الاحتجاج به على مخالفة أمر الله ونهيه ، ووعده ووعيده .

والناس ـ الذين ضلوا فى القدر ـ على ثلاثة أصناف :

قوم آمنوا بالأمر والنهى ، والوعد والوعيد ؛ وكذبوا بالقدر ، وزعموا أن من الحوادث ما لا يخلقه الله ، كالمعتزلة ونحوهم .

وقوم آمنوا بالقضاء والقدر ، ووافقوا أهل السنة والجماعة ، على أنه ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأنه خالق كل شيء ، وربه ومليكه ؛ لكن عارضوا هذا بالأمر والنهى ، وسموا هذا حقيقة ، وجعلوا ذلك معارضاً للشريعة .

وفيهم من يقول : إن مشاهدة القدر تنفى الملام والعقاب ، وإن العارف يستوى عنده هذا وهذا .

وهم فى ذلك متناقضون ، مخالفون للشرع والعقل ، والذوق والوجد ؛ فإنهم لا يسوون بين من أحسن إليهم ، وبين من ظلمهم ، ولا يسوون بين العالم والجاهل ، والقادر والعاجز ، ولا بين الطيب والخبيث ، ولا بين العادل والظالم ؛ بل يفرقون بينهما ، ويفرقون أيضاً بموجب أهوائهم وأغراضهم ، لا بموجب الأمر والنهى ؛ ولا يقفون لا مع القدر ، ولا مع الأمر ؛ بل كما

قال بعض العلماء : أنت عند الطاعة قدرى ، وعند المعصية جبرى ، أىّ مذهب يوافق هواك تمذهبت به .

ولا يوجد أحد يحتج بالقدر فى ترك الواجب وفعل المحرم : إلا وهو متناقض ، لا يجعله حجة فى مخالفة هواه ، بل يعادى من آذاه وإن كان محقاً ، ويحب من وافقه على غرضه وإن كان عدواً لله ، فيكون حبه وبغضه ، وموالاته ومعاداته : بحسب هواه وغرضه وذوق نفسه ووجده لا بحسب أمر الله ونهيه ، ومحبته وبغضه ، وولايته وعداوته .

إذ لا يمكنه أن يجعل القدر حجة لكل أحد . فإن هذا مستلزم للفساد ، الذى لا صلاح معه ، والشر الذى لا خير فيه ؛ إذ لو جاز أن يحتج كل أحد بالقدر لما عوقب معتد ، ولا اقتص من ظالم باغ ، ولا أخذ لمظلوم حقه من ظالمه ، ولفعل كل أحدما يشتهيه ، من غير معارض يعارضه فيه ، وهذا فيه من الفساد : ما لا يعلمه إلا رب العباد .

فمن المعلوم بالضرورة : أن الأفعال تنقسم إلى ما ينفع العباد ، وإلى ما يضرهم ، والله قد بعث رسوله صلى الله عليه وسلم يأمر المؤمنين بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، فمن لم يتبع شرع الله ودينه : تبع ضده من الأهواء والبدع ، وكان احتجاجه بالقدر من الجدل بالباطل ، ليدحض به الحق ، لا من باب الاعتماد عليه ، ولزمه أن يجعل كل من جرت عليه المقادير ، من أهل المعاذير .

وإن قال : أنا أعذر بالقدر من شهده ، وعلم أن الله خالق فعله ومحركه ، لا من غاب عن هذا الشهود ، أو كان من أهل الجحود . قيل له : فيقال لك وشهود هذا ، وجحود هذا من القدر ؟ فالقدر متناول لشهود هذا ، وجحود هذا ؟ فإن كان هذا موجباً للفرق مع شمول القدر لهما : فقد جعلت بعض الناس محموداً ، وبعضهم مذموماً مع شمول القدر لهما ؟ وهذا رجوع إلى الفرق واعتصام بالأمر والنهى ، وحينئذ فقد نقضت أصلك ، وتناقضت فيه ، وهذا لازم لكل من دخل معك فيه .

ثم مع فساد هذا الأصل وتناقضه : فهو قول باطل وبدعة مضلة .

فمن جعل الإيمان بالقدر وشهوده عذرا فى ترك الواجبات ، وفعل المحظورات ؟ بل الإيمان بالقدر حسنة من الحسنات ، وهذه لا تنهض بدفع جميع السيئات ، فلو أشرك مشرك بالله ، وكذب رسوله ناظراً إلى أن ذلك مقدر عليه : لم يكن ذلك غافراً لتكذيبه ، ولا مانعا من تعذيبه ، فإن الله لا يغفر أن يشرك به ، سواء كان المشرك مقرا بالقدر وناظراً إليه ، أومكذباً به أو غافلا عنه ، فقد قال إبليس : (بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ) فأصر واحتج بالقدر ، فكان ذلك زيادة فى كفره ، وسببا لمزيد عذابه .

وأما آدم عليه السلام فانه قال : (رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ) قال تعالى : (فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ

ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ) فمن استغفر وتاب كان آدميا سعيدا ، ومن أصر واحتج بالقدر كان إبليسيا شقيا ، وقد قال تعالى لإبليس (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ).

وهذا الموضع ضل فيه كثير من الخائضين فى الحقائق ، فإنهم يسلكون أنواعا من الحقائق التى يجدونها ويذوقونها ، ويحتجون بالقدر فيما خالفوا فيه الأمر ، فيضاهئون المشركين الذين كانوا يبتدعون دينا لم يشرعه الله ، ويحتجون بالقدر على مخالفة أمر الله .

(والصنف الثالث) من الضالين فى القدر : من خاصم الرب فى جمعه بين القضاء والقدر ، والأمر والنهى — كما يذكرون ذلك على لسان إبليس — وهؤلاء خصماء الله وأعداؤه .

وأما أهل الإيمان : فيؤمنون بالقضاء والقدر ، والأمر والنهى ، ويفعلون المأمور ، ويتركون المحظور ، ويصبرون على المقدور ، كما قال تعالى : (إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ) فالتقوى تتناول فعل المأمور ، وترك المحظور ، والصبر يتضمن الصبر على المقدور .

وهؤلاء إذا أصابتهم مصيبة فى الأرض أو فى أنفسهم علموا أن ذلك فى كتاب ، وأن ما أصابهم لم يكن ليخطئهم ، وما أخطأهم لم يكن ليصيبهم ، فسلموا الأمر لله وصبروا على ما ابتلاهم به .

وأما إذا جاء أمر الله فإنهم يسارعون فى الخيرات ، ويسابقون إلى

الطاعات ، ويدعون ربهم رغبا ورهبا ، ويجتنبون محارمه ويحفظون حدوده ، ويستغفرون الله ويتوبون إليه ، من تقصيرهم فيما أمر وتعديهم لحدوده ؛ علما منهم بأن التوبة فرض على العباد دائما ، واقتداء بنبيهم ، حيث يقول فى الحديث الصحيح : « أيها الناس توبوا إلى ربكم ، فوالذى نفسى بيده إنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم مائة مرة » وفى رواية « أكثر من سبعين مرة » وآخر سورة نزلت عليه : (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا) .

وإذا عرف هذان الأصلان : فعليهما ينبنى جواب ما فى هذا السؤال من الكلمات ، ويعرف ما دخل فى هذه الأمور من الضلالات .

فقول القائل : إن الله لطف ذاته فسماها حقا ، وكثفها فسماها خلقا — هو من أقوال أهل الوحدة والحلول والاتحاد ، وهو باطل ؛ فإن اللطيف إن كان هو الكثيف : فالحق هو الخلق ولا تلطيف ولا تكثيف ، وإن كان اللطيف غير الكثيف : فقد ثبت الفرق بين الحق والخلق ، وهذا هو الحق وحينئذ فالحق لا يكون خلقا ، فلا يتصور أن ذات الحق تكون خلقا بوجه من الوجوه ، كما أن ذات المخلوق لا تكون ذات الخالق بوجه من الوجوه .

وكذلك قول الآخر : « ظهر فيها حقيقة ، واحتجب عنها مجازاً » فإنه إن كان الظاهر غير المظاهر ، فقد ثبت الفرق بين الرب والعبد ، وإن لم يكن أحدهما غير الآخر فلا يتصور ظهور ولا احتجاب .

ثم قوله : « فمن كان من أهل الحق شهدها مظاهر ومجالى ، ومن كان من أهل الفرق شهدها ستوراً وحجبا » كلام ينقض بعضه بعضا ، فإنه إن كان الوجود واحداً لم يكن أحد الشاهدين غير الآخر ، ولم يكن الشاهد غير المشهود. ولهذا قال بعض شيوخ هؤلاء : من قال إن فى الكون سوى الله فقد كذب. فقال له آخر : فمن الذى كذب ؟ فأفحمه . وهذا لأنه إذا لم يكن موجود سوى الواجب بنفسه : كان هو الذى يكذب ويظلم ، ويأكل ويشرب ، وهذا يصرح به أئمة هؤلاء ، كما يقول صاحب الفصوص وغيره : إنه موصوف بجميع صفات الذم ، وأنه هو الذى يمرض ويضرب وتصيبه الآفات ، ويوصف بالمعايب والنقائص، كما أنه هو الذى يوصف بنعوت المدح والذم .

قال : فالعلى بنفسه هو الذى يكون له جميع الصفات الثبوتية والسلبية ، سواء كانت محمودة عقلا وشرعا وعرفا ، أو مذمومة عقلا وشرعا وعرفا ، وليس ذلك إلا لمسمى الله خاصة .

وقال : ألا ترى الحق يظهر بصفات المحدثات ، وقد أخبر بذلك عن نفسه ، وبصفات النقص وبصفات الذم ؟ ألا ترى المخلوق يظهر بصفات الخالق وكلها حق له ، كما أن صفات المخلوق حق للخالق .

وقول القائل :

* لقد حق لى عشق الوجود وأهله *

يقتضى أنه يعشق إبليس وفرعون وهامان وكل كافر ، ويعشق الكلاب

والخنازير ، والبول والعذرة ، وكل خبيث ، مع أنه باطل عقلا وشرعا ، فهو كاذب فى ذلك متناقض فيه ، فإنه لو آذاه مؤذ وآلمه ألماً شديداً لأبغضه وعاداه بل اعتدى فى أذاه ، فعشق الرجل لكل موجود محال عقلا ، محرم شرعا .

وما ذكر عن بعضهم من قوله « عين ما ترى ذات لا ترى ، وذات لا ترى عين ما ترى » هو من كلام ابن سبعين ، وهو من أكابر أهل الشرك والإلحاد ، والسحر والاتحاد ، وكان من أفاضلهم وأذكيائهم وأخبرهم بالفلسفة وتصوف المتفلسفة .

وقول ابن عربى « ظاهره خلقه ، وباطنه حقه » هو قول أهل الحلول ، وهو متناقض فى ذلك ، فإنه يقول بالوحدة ، فلا يكون هناك موجودان ؛ أحدهما باطن والآخر ظاهر ، والتفريق بين الوجود والعين : تفريق لا حقيقة له ، بل هو من أقوال أهل الكذب والمين .

وقول ابن سبعين « رب مالك ، وعبد هالك ، وأنتم ذلك ؛ الله فقط ، والكثرة وهم » هو موافق لأصله الفاسد فى أن وجود المخلوق وجود الخالق ؛ ولهذا قال : وأنتم ذلك . فإنه جعل العبد هالكا أى لا وجود له ، فلم يبق إلا وجود الرب ، فقال : وأنتم ذلك ، وكذلك قال : الله فقط ، والكثرة وهم ؛ فإنه على قوله لا موجود إلا الله .

ولهذا كان يقول هو وأصحابه فى ذكرهم : ليس إلا الله بدل قول المسلمين لا إله إلا الله .

وكان الشيخ قطب الدين بن القسطلانى يسميهم «الليسية» ويقول: احذروا هؤلاء الليسية ، ولهذا قال : (والكثرة وهم) وهذا تناقض ، فإن قوله « وهم » يقتضى متوهما ؛ فإن كان المتوهم هو الوهم فيكون الله هو الوهم ؛ وإن كان المتوهم هو غير الوهم فقد تعدد الوجود ، وكذلك إن كان المتوهم هو الله : فقد وصف الله بالوهم الباطل ، وهذا مع إنه كفر فهو يناقض قوله : الوجود واحد ، وإن كان المتوهم غيره ، فقد أثبت غير الله ، وهذا يناقض أصله ، ثم متى أثبت غيراً لزمت الكثرة ، فلا تكون الكثرة وهما ، بل تكون حقا .

والبيتان المذكوران عن ابن عربى مع تناقضهما : مبنيان على هذا الأصل ؛ فإن قوله :

* يا صورة أُنس سرها معنـــائى *

خطاب على لسان الحق ، يقول لصورة الإنسـان ، يا صورة أنس سرها معنائى ؛ أى هى الصورة وأنا معناها ، وهذا يقتضى أن المعنى غير الصورة ، وهو يقتضى التعدد والتفريق بين المعنى والصورة ، فإن كان وجود المعنى هو وجود الصورة — كما يصرح به — فلا تعدد ؛ وإن كان وجود هذا غير وجود هذا : فهو متناقض فى قوله .

وقوله :

* ما خلقك للأمر ترى لولائى *

كلام مجمل يمكن أن يريد به معنى صحيحاً ، أى لولا الخالق لما وجد المكلفون ولا خلق لأمر الله ، لكن قد عرف أنه لا يقول بهذا ، وأن مراده الوحدة والحلول والاتحاد ، ولهذا قال : ـ

شئناك فأنشأناك خلقاً بشراً   كى تشهدنا فى أكمل الأشياء

فبين أن العبيد يشهدونه فى أكمل الأشياء وهى الصورة الإنسانية ، وهذا يشير إلى الحلول ـ وهو حلول الحق فى الخلق ـ لكنه متناقض فى كلامه ؛ فإنه لا يرضى بالحلول ، ولا يثبت موجودين حل أحدهما فى الآخر ، بل عنده وجود الحال هو عين وجود المحل ؛ لكنه يقول بالحلول بين الثبوت والوجود ، فوجود الحق حل فى ثبوت الممكنات ، وثبوتها حل فى وجوده ؛ وهذا الكلام لا حقيقة له فى نفس الأمر ، فإنه لا فرق بين هذا وهذا ؛ لكنه هو مذهبه المتناقض فى نفسه .

وأما الرجل الذى طلب من والده الحج ، فأمره أن يطوف بنفس الأب فقال : طف ببيت ما فارقه الله طرفة عين قط : فهذا كفر بإجماع المسلمين ، فإن الطواف بالبيت العتيق مما أمر الله به ورسوله ، وأما الطواف بالأنبياء والصالحين فحرام بإجماع المسلمين ؛ ومن اعتقد ذلك ديناً فهو كافر ، سواء طاف ببدنه أو بقبره .

وقوله: «ما فارقه الله طرفة عين قط» : إن أراد به الحلول المطلق العام فهو مع بطلانه متناقض ، فإنه لا فرق حينئذ بين الطائف والمطوف به ، فلم يكن طواف

هذا بهذا أولى من العكس ؛ بل هذا يستلزم أنه يطاف بالكلاب ، والخنازير ، والكفار ، والنجاسات ، والأقذار ، وكل خبيث وكل ملعون ؛ لأن الحلول والاتحاد العام يتناول هذا كله .

وقد قال مرة شيخهم الشيرازى ، لشيخه التلسانى ، وقد مر بكلب أجرب ميت : هذا أيضاً من ذات الله ؟ فقال : وثَمَّ خارج عنه ؟ ومر التلمسانى ومعه شخص بكلب ، فركضه الآخر برجله ، فقال : لا تركضه فإنه منه ، وهذا مع أنه من أعظم الكفر والكذب الباطل فى العقل والدين : فإنه متناقض ، فإن الراكض والمركوض واحد ، وكذلك الناهى والمنهى ، فليس شىء من ذلك بأولى بالأمر والنهى من شىء ، ولا يعقل مع الوحدة تعدد ، وإذا قيل مظاهر ومجالى : قيل إن كان لها وجود غير وجود الظاهر والمتجلى ، فقد ثبت التعدد وبطلت الوحدة ؛ وإن كان وجود هذا هو وجود هذا : لم يبق بين الظاهر ، والمظهر ، والمتجلى فيه : فرق .

وإن أراد بقوله : ما فارقه الله طرفة عين الحلول الخاص — كما تقوله النصارى فى المسيح — لزم أن يكون هذا الحلول ثابتاً له من حين خلق ـ كما تقوله النصارى فى المسيح ـ فلا يكون ذلك حاصلا له بمعرفته ، وعبادته وتحقيقه وعرفانه .

وحينئذ فلا يكون فرق بينه وبين غيره من الآدميين ، فلماذا يكون الحلول ثابتاً له دون غيره ؟ وهذا شر من قول النصارى ؛ فإن النصارى ادعوا ذلك فى المسيح لكونه خلق من غير أب ، وهؤلاء الشيوخ لم يفضلوا فى نفس التخليق ، وإنما فضلوا بالعبادة والمعرفة ، والتحقيق والتوحيد .

وهذا أمر حصل لهم بعد أن لم يكن لهم ، فإذا كان هذا هو سبب الحلول : وجب أن يكون الحلول فيهم حادثا لا مقارنا لخلقهم ، وحينئذ فقولهم إن الرب ما فارق أبدانهم أو قلوبهم طرفة عين قط ، ـ كلام باطل كيفما قدر .

* * *

وأما ما ذكر عن رابعة العدوية من قولها عن البيت : إنه الصنم المعبود فى الأرض ـ فهو كذب على رابعة ، ولو قال هذا من قاله لـكان كافراً يستتاب فإن تاب وإلا قتل ، وهو كذب ، فإن البيت لا يعبده المسلمون ؛ ولـكن يعبدون رب البيت بالطواف به ، والصلاة إليه ، وكذلك ما نقل من قولها : والله ماولجه الله ولا خلا منه ، كلام باطل عليها .

وعلى مذهب الحلولية لا فرق بين ذاك البيت وغيره فى هذا المعنى فلأى مزية يطاف به ويصلى إليه ويحج دون غيره من البيوت ؟

وقول القائل : ماولج الله فيه ـ كلام صحيح .

وأما قوله : ما خلا منه فإن أراد أن ذاته حالة فيه أو ما يشبه هذا المعنى ، فهو باطل وهو مناقض لقوله ماولج فيه ، وإن أراد به أن الاتحاد ملازم له لم يتجدد له ولوج ولم يزل غير حال فيه ، فهذا مع أنه كفر وباطل يوجب أن لا يكون للبيت مزية على غيره من البيوت إذ الموجودات كلها عندهم كذلك .

* * *

وأما البيتان المنسوبان إلى الحلاج : —

سبحان من أظهر ناسوته　　سر سنا لاهوته الثاقب

حتى بدا فى خلقه ظاهرا　　فى صورة الآكل والشارب

فهذه قد بين بها الحلول الخاص — كما تقول النصارى فى المسيح — وكان أبو عبد الله ابن خفيف الشيرازى ـ قبل أن يطلع على حقيقة أمر الحلاج ـ يذب عنه ، فلما أنشد هذين البيتين قال : لعن الله من قال هذا .

وقوله وله : —

عقد الخلائق فى الإله عقائدا　　وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوه

فهذا البيت يعرف لابن عربى ، فإن كان قد سبقه إليه الحلاج وقد تمثل هو به : فإضافته إلى الحلاج صحيحة ، وهو كلام متناقض باطل .

فإن الجمع بين النقيضين فى الاعتقاد فى غاية الفساد . والقضيتان المتناقضتان بالسلب والإيجاب على وجه يلزم من صدق أحدهما كذب الأخرى لا يمكن الجمع بينهما .

وهؤلاء يزعمون أنه يثبت عندهم فى الكشف ما يناقض صريح العقل ، وأنهم يقولون بالجمع بين النقيضين وبين الضدين ، وأن من سلك طريقهم يقول بمخالفة المعقول والمنقول ، ولا ريب أن هذا من أفسد ما ذهب إليه أهل السفسطة :

ومعلوم أن الأنبياء عليهم السلام : أعظم من الأولياء ، والأنبياء جاءوا بما تعجز العقول عن معرفته ، ولم يجيئوا بما تعلم العقول بطلانه ، فهم يخبرون بمحارات العقول ، لا بمحالات العقول ، وهؤلاء الملاحدة يدعون أن محالات العقول صحيحة ، وأن الجمع بين النقيضين صحيح ، وأن ما خالف صريح المعقول وصحيح المنقول صحيح .

ولا ريب أنهم أصحاب خيال وأوهام ، يتخيلون في نفوسهم أموراً يتخيلونها ويتوهمونها ، فيظنونها ثابتة في الخارج ، وإنما هي من خيالاتهم ، والخيال الباطل يتصور فيه ما لا حقيقة له .

ولهذا يقولون : أرض الحقيقة هي أرض الخيال ، كما يقول ذلك ابن عربي وغيره ، ولهذا يحكون حكاية ذكرها سعيد الفرغاني شارح قصيدة ابن الفارض - وكان من شيوخهم .

* * *

وأما قوله :-

بيني وبينك إنيّ تزاحمني   فارفع بحقك إنيي من البين

فإن هذا الكلام يفسر بمعاني ثلاثة ، يقوله الملحد ، ويقوله الزنديق ، ويقوله الصديق .

فالأول : مراده به طلب رفع ثبوت إنيته حتى يقال إن وجوده هو وجود الحق وإنيته هي إنية الحق ، فلا يقال إنه غير الله ولا سواه .

ولهذا قال سلف هؤلاء الملاحدة : إن الحلاج نصف رجل ؛ وذلك أنه لم ترفع له الإنية بالمعنى ، فرفعت له صورة : يقولون إنه لما لم ترفع إنيته فى الثبوت فى حقيقة شهوده رفعت صورة فقتل ، وهذا القول مع ما فيه من الكفر والإلحاد : فهو متناقض ينقض بعضه بعضاً فإن قوله : * بينى وبينك إنىّ تزاحمنى * خطاب لغيره ، وإثبات إنية بينه وبين ربه ؛ وهذا إثبات أمور ثلاثة ولذلك يقول : * فارفع بحقك إنيي من البين * طلب من غيره أن يرفع إنيته ، وهذا إثبات لأمور ثلاثة.

وهذا المعنى الباطل ، هو الفناء الفاسد ، وهو الفناء عن وجود السوى ، فإن هذا فيه طلب رفع الإنية ـ وهو طلب الفناء ـ والفناء ثلاثة أقسام :

فناء عن وجود السوى ، وفناء عن شهود السوى ، وفناء عن عبادة السوى .

فالأول : هو فناء أهل الوحدة الملاحدة ، كما فسروا به كلام الحلاج ـ وهو أن يجعل الوجود وجوداً واحداً ـ .

وأما الثانى :ـ وهو الفناء عن شهود السوى ـ فهذا هو الذى يعرض لكثير من السالكين ، كما يحكى عن أبى يزيد وأمثاله وهو مقام الاصطلام ، وهو أن يغيب بموجوده عن وجوده ، وبمعبوده عن عبادته ، وبمشهوده عن شهادته ، وبمذكوره عن ذكره ، فيفنى من لم يكن ، ويبقى من لم يزل ؛ وهذا كما يحكى أن

رجلا كان يحب آخر ؛ فألقى المحبوب نفسه فى المـاء ، فألقى المحب نفسه خلفه فقال : أنا وقعت فلم وقعت أنت؟ فقال : غبت بك عنى ، فظننت أنك أنى .

فهذا حال من عجز عن شهود شيء من المخلوقات إذا شهد قلبه وجود الخالق وهو أمر يعرض لطائفة من السالـكين .

ومن الناس من يجعل هذا من السلوك ، ومنهم من يجعله غاية السلوك ، حتى يجعلوا الغاية هو الفناء فى توحيد الربوبية ، فلا يفرقون بين المـأمور والمحظور ، والمحبوب والمـكروه .

وهذا غلط عظيم ، غلطوا فيه بشهود القدر وأحكام الربوبية عن شهود الشرع والأمر والنهى ، وعبادة الله وحده وطاعة رسوله ، فمن طلب رفع إنيته بهذا الاعتبار : لم يكن محموداً على هذا ولـكن قد يكون معذوراً .

وأما النوع الثالث : وهو الفناء عن عبـادة السوى ـ فهذا حال النبيين وأتباعهم ، وهو أن يفنى بعبادة الله عن عبادة ماسواه ، وبحبه عن حب ما سواه ، وبخشيته عن خشية ما سواه ، وطاعته عن طاعة ما سواه ، وبالتوكل عليه عن التوكل على ما سـواه ؛ فهذا تحقيق توحيد الله وحده لا شريك له ، وهو الحنيفية ملة إبراهيم .

ويدخل فى هذا : أن يفنى عن اتباع هواه بطاعة الله ، فلا يحب إلا لله ، ولا يبغض إلا لله ، ولا يعطى إلا لله ، ولا يمنـع إلا لله ، فهـذا هو الفناء الدينى الشرعى ، الذى بعث الله به رسله وأنزل به كتبه .

ومن قال : * فارفع بحقك إني من البين * بمعنى أن يرفع هو نفسه فلا يتبع هواه ، ولا يتوكل على نفسه وحوله وقوته ، بل يكون عمله لله لا لهواه ، وعمله بالله وبقوته لا بحوله وقوته ، كما قال تعالى : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) فهذا حق محمود .

وهذا كما يحكى عن أبي يزيد أنه قال : رأيت رب العزة فى المنام فقلت : خدايى كيف الطريق إليك ؟ قال : اترك نفسك وتعال ـ أى اترك اتباع هواك والاعتماد على نفسك ـ فيكون عملك لله واستعانتك بالله ، كما قال تعالى : (فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ) .

* * *

والقول المحكى عن ابن عربى :

* وبى حلفت وإن المقسم الله *

هو أيضاً من إلحادهم وإفكهم : جعل نفسه حالفة بنفسه ، وجعل الحالف هو الله ، فهو الحالف والمحلوف به ، كما يقولون : أرسل من نفسه إلى نفسه رسولا بنفسه ، فهو المرسل والمرسل إليه والرسول . وكما قال ابن الفارض فى قصيدته نظم السلوك : —

لها صلواتى بالمقام أقيمها وأشهد فيها أنها لى صلت
كلانا مصل واحد ساجد إلى حقيقته بالجمع فى كل سجدة

وما كان بى صلى ســـواى ولم تـكن
صـــلاتى لغيرى فى أدا كل ركعة

إلى أن قال : —

وما زلت إياها وإياى لم تزل ولا فرق بل ذاتى لذاتى أحبت
وقد رفعت تاء المخاطب بيننـا وفى رفعها عن فُرقة الفرق رفعتى
فإن دعيت كنت المجيب وإن أكن
منـــادى أجابت من دعانى ولبت
إلى رسولا كنت منى مرسلا وذاتى بآياتى على استدلت

* * *

وأما المنقول عن عيسى بن مريم صلوات الله عليه : فهو كذب عليه ، وهو كلام ملحد كاذب وضعه على المسيح ، وهذا لم ينقله عنه مسلم ولا نصرانى ، فإنه لا يوافق قول النصارى ، فإن قوله : إن الله اشتاق أن يرى ذاته المقدسة فخلق من نوره آدم ، وجعله كالمرآة ينظر إلى ذاته المقدسة فيها ، وإنى أنا ذلك النور وآدم المرآة : فهذا الكلام — مع ما فيه من الكفر والإلحاد — متناقض وذلك أن الله سبحانه يرى نفسه كما يسمع كلام نفسه ، وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم — وهو عبد مخلوق لله — قال لأصحابه : « إنى أراكم من وراء ظهرى كما أراكم من بين يدى » فإذا كان المخلوق قد يرى ما خلفه — وهو أبلغ من رؤية نفسه — فالخالق تعالى كيف لا يرى نفسه؟ وأيضا فإن شوقه إلى رؤية نفسه حتى خلق آدم : يقتضى أنه لم يكن فى الأزل يرى نفسه حتى خلق آدم .

ثم ذلك الشوق إن كان قديما : كان ينبغي أن يفعل ذلك فى الأزل ، وإن كان محدثا فلا بد من سبب يقتضى حدوثه ، مع أنه قد يقال : الشوق أيضا صفة نقص ، ولهذا لم يثبت ذلك فى حق الله تعالى ، وقد روى : « طال شوق الأبرار إلى لقائى وأنا إلى لقائهم أشوق » وهو حديث ضعيف .

وقوله : فخلق من نوره آدم وجعله كالمرآة ، وأنا ذلك النور وآدم هو المرآة — يقتضى أن يكون آدم مخلوقا من المسيح ، وهذا نقيض الواقع ، فإن آدم خلق قبل المسيح ، والمسيح خلق من مريم ، ومريم من ذرية آدم فكيف يكون آدم مخلوقا من ذريته ؟ .

وإن قيل : المسيح هو نور الله فهذا القول — وإن كان من جنس قول النصارى — فهو شر من قول النصارى ، فإن النصارى يقولون : إن المسيح هو الناسوت ، واللاهوت الذى هو الكلمة هى جوهر الابن ، وهم يقولون : اتحاد اللاهوت والناسوت متجدد حين خلق بدن المسيح ، لا يقولون : إن آدم خلق من المسيح ، إذ المسيح عندهم اسم اللاهوت والناسوت جميعا ، وذلك يمتنع أن يخلق منه آدم ، وأيضا فهم لا يقولون : إن آدم خلق من لاهوت المسيح .

وأيضا فقول القائل : إن آدم خلق من نور الله الذى هو المسيح ؛ إن أراد به نوره الذى هو صفة لله : فذاك ليس هو المسيح الذى هو قائم بنفسه ؛ إذ يمتنع أن يكون القائم بنفسه صفة لغيره ، وإن أراد بنوره ما هو نور منفصل عنه : فمعلوم أن المسيح لم يكن شيئا موجوداً منفصلا قبل خلق آدم ، فامتنع على كل تقدير أن يكون آدم مخلوقا من نور الله الذى هو المسيح .

وأيضا فإذا كان آدم كالمرآة ، وهو ينظر إلى ذاته المقدسة فيها : لزم أن يكون الظاهر فى آدم هو مثال ذاته ، لا أن آدم هو ذاته ، ولا مثال ذاته ، ولا كذاته .

وحينئذ فإن كان المراد بذلك أن آدم يعرف الله تعالى : فيرى مثال ذاته العلمى فى آدم . فالرب تعالى يعرف نفسه، فكان المثال العلمى إذا أمكن رؤيته كانت رؤيته للعلم المطابق له القائم بذاته أولى من رؤيته للعلم القائم بآدم ، وإن كان المراد أن آدم نفسه مثال لله : فلا يكون آدم هو المرآة ؛ بل يكون هو كالمثال الذى فى المرآة .

وأيضا فتخصيص المسيح بكونه ذلك النور : هو قول النصارى الذين يخصونه بأنه الله أو ابن الله ، وهؤلاء الاتحادية ضموا إلى قول النصارى قولهم بعموم الاتحاد ، حيث جعلوا فى غير المسيح من جنس ما تقوله النصارى فى المسيح .

وأما قول ابن الفارض :ـ

وشاهدْ إذا استجليت ذاتك من ترى ... بغير مراء فى المرآة الصقيلة

أغيرك فيها لاح أم أنت ناظر ... إليك بها عند انعكاس الأشعة ؟

فهذا تمثيل فاسد ، وذلك أن الناظر فى المرآة يرى مثال نفسه ، فيرى نفسه بواسطة المرآة لا يرى نفسه بلا واسطة ، فقولهم بوحدة الوجود باطل ، وبتقدير صحته ليس هذا مطابقا له .

فتخصيصهم بعد هذا آدم أو نحو المسيح يناقض قولهم بالعموم ، وإنما يخص المسيح ونحوه من يقول بالاتحاد الخاص ، كالنصارى والغالية من الشيعة ، وجهال النساك ونحوهم .

وأيضا فلو قدر أن الإنسان يرى نفسه فى المرآة : فالمرآة خارجة عن نفسه ، فيرى نفسه أو مثال نفسه فى غيره ، والكون عندهم ليس فيه غير ولا سوى ، فليس هناك مظهر مغاير للظاهر ، ولا مرآة مغايرة للرائى .

وهم يقولون : إن الكون مظاهر الحق ، فإن قالوا : المظاهر غير الظاهر لزم التعدد وبطلت الوحدة ، وإن قالوا : المظاهر هى الظاهر لم يكن قد ظهر شىء فى شىء ، ولا تجلى شىء فى شىء ، ولا ظهر شىء لشىء ، ولا تجلى شىء لشىء ، وكان قوله :

* وشاهد إذا استجليت نفسك من ترى . . .

كلاما متناقضا ؛ لأن هنا مخاطبا ومخاطبا ومرآة تستجلى فيها الذات ، فهذه ثلاثة أعيان ، فإن كان الوجود واحداً بالعين بطل هذا الكلام ، وكل كلمة يقولونها تنقض أصلهم .

فصـــــل

وأما ما ذكره من قول ابن إسرائيل : الأمر أمران : أمر بواسطة وأمر بغير واسطة ، إلى آخره — فمضمونه أن الأمر الذى بواسطة هو الأمر الشرعى الدينى ، والذى بلا واسطة هو الأمر القدرى الكونى ؛ وجعله أحد الأمرين بواسطة والآخر بغير واسطة كلام باطل ، فإن الأمر الدينى يكون بواسطة وبغير واسطة ، فإن الله كلم موسى وأمره بلا واسطة ، وكذلك كلم محمداً صلى الله عليه وسلم ، وأمره ليلة المعراج ، وكذلك كلم آدم وأمره بلا واسطة وهى أوامر دينية شرعية .

وأما الأمر الكونى : فقول القائل إنه بلا واسطة خطأ ، بل الله تعالى خلق الأشياء بعضها ببعض ، وأمر التكوين ليس هو خطابا يسمعه المكون المخلوق ، فإن هذا ممتنع ؛ ولهذا قيل : إن كان هذا خطابا له بعد وجوده لم يكن قد كون بكن ؛ بل كان قد كون قبل الخطاب ، وإن كان خطابا له قبل وجوده فخطاب المعدوم ممتنع . وقد قيل فى جواب هذا : إنه خطاب لمعلوم لحضوره فى العلم ، وإن كان معدوما فى العين .

وأما ما ذكره الفقير فهو سؤال وارد بلا ريب .

وأما ما ذكره عن شيخه من أن آدم كان توحيده ظاهراً وباطناً فكان قوله « لا تقرب » ظاهراً ، وكان أمره « بكل » باطناً .

فيقال : إن أريد بكونه قال « كل » باطناً أنه أمره بذلك فى الباطن أمر تشريع ودين : فهذا كذب وكفر ، وإن كان أراد أنه خلق ذلك وقدره وكونه : فهذا قدر مشترك بين آدم وبين سائر المخلوقات ، فإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون .

وإن قيل : إن آدم شهد الأمر الكونى القدرى وكان مطيعاً لله بامتثاله له . كما يقول هؤلاء : إن العارف الشاهد للقدر يسقط عنه الملام . فهذا مع أنه معلوم بطلانه بالضرورة من دين الإسلام فهو كفر باتفاق المسلمين .

فيقال : الأمر الكونى يكون موجوداً قبل وجود المكون ، لا يسمعه العبد وليس امتثاله مقدوراً له ، بل الرب هو الذى يخلق ما كونه بمشيئته وقدرته ، والله تعالى ليس له شريك فى الخلق والتكوين .

والعبد وإن كان فاعلا بمشيئته وقدرته ، والله خالق كل ذلك ، فتكوين الله للعبد ليس هو أمراً لعبد موجود فى الخارج يمكنه الامتثال ، وكذلك ما خلقه من أحواله وأعماله : خلقه بمشيئته وقدرته و : (إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ) فكل ما كان من المكونات فهو داخل فى هذا الأمر .

وأ كل آدم من الشجرة ، وغير ذلك من الحوادث : داخل تحت هذا كدخول آدم ؛ فنفس أ كل آدم هو الداخل تحت هذا الأمر كما دخل آدم .

فقول القائل : إنه قال لآدم فى البـاطن : « كل » مثل قوله إنه قال للكافر اكفر ، وللفاسق افسق ، والله لا يأمر بالفحشاء ، ولا يحب الفساد ، ولا يرضى لعبـاده الكفر ، ولا يوجد منه خطاب باطن ، ولا ظاهر للكفار والفسـاق ، والعصاة : بفعل الكفر والفسوق والعصيان ، وإن كان ذلك واقعاً بمشيئته ، وقدرته وخلقه وأمره الكونى ، فالأمر الكونى ليس هو أمراً للعبد أن يفعل ذلك الأمر ، بل هو أمر تكوين لذلك الفعل فى العبد ، أو أمر تكوين لكون العبد على ذلك الحال .

فهو سبحانه الذى خلق الإنسان هلوعا (إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا) وهو الذى جعل المسلمين مسلمين ، كما قال الخليل : (رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ) فهو سبحانه جعل العبـاد على الأحوال التى خلقهم عليها ، وأمره لهم بذلك أمر تكوين ، بمعنى أنه قال لهم كونوا كذلك فيكونون كذلك ، كما قال للجماد : كن فيكون .

فأمر التكوين لا فرق فيه بين الجماد والحيوان ، وهو لا يفتقر إلى علم المـأمور ولا إرادته ولا قدرته ، لكن العبد قد يعلم ماجرى به القدر فى أحواله ، كما يعلم ما جرى به القدر فى أحوال غيره ، وليس فى ذلك علم منه بأن الله أمره فى الباطن ؛ بخلاف ما أمره فى الظاهر ، بل أمره بالطاعة باطناً

وظاهراً ، ونهاه عن المعصية باطناً وظاهراً ، وقدر ما يكون فيه من طاعة ومعصية باطناً وظاهراً ، وخلق العبد وجميع أعماله باطناً وظاهراً ، وكون ذلك بقوله « كن » باطناً وظاهراً .

وليس فى القدر حجة لابن آدم ولا عذر ، بل القدر يؤمن به ولا يحتج به ، والمحتج بالقدر فاسد العقل والدين ، متناقض ، فإن القدر إن كان حجة وعذراً : لزم أن لا يلام أحد ، ولا يعاقب ولا يقتص منه ، وحينئذ فهذا المحتج بالقدر يلزمه — إذا ظلم فى نفسه وماله وعرضه وحرمته — أن لا ينتصر من الظالم ، ولا يغضب عليه ، ولا يذمه ؛ وهذا أمر ممتنع فى الطبيعة ، لا يمكن أحد أن يفعله ، فهو ممتنع طبعاً محرم شرعاً .

ولو كان القدر حجة وعذراً : لم يكن إبليس ملوماً ولا معاقباً ، ولا فرعون وقوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الكفار ، ولا كان جهاد الكفار جائزاً ، ولا إقامة الحدود جائزاً ، ولا قطع السارق ، ولا جلد الزانى ولا رجمه ، ولا قتل القاتل ولا عقوبة معتد بوجه من الوجوه .

ولما كان الاحتجاج بالقدر باطلا فى فطر الخلق وعقولهم : لم تذهب إليه أمة من الأمم ، ولا هو مذهب أحد من العقلاء ، الذين يطردون قولهم ، فإنه لا يستقيم عليه مصلحة أحد ، لا فى دنياه ولا آخرته ، ولا يمكن اثنان أن يتعاشرا ساعة واحدة ؛ إن لم يكن أحدهما ملتزماً مع الآخر نوعاً من الشرع ، فالشرع نور الله فى أرضه ، وعدله بين عباده .

لكن الشرائع تتنوع : فتارة تكون منزلة من عند الله كما جاءت به الرسل ، وتارة لا تكون كذلك ، ثم المنزلة : تارة تبدل وتغير - كما غير أهل الكتاب شرائعهم - وتارة لا تغير ولا تبدل ، وتارة يدخل النسخ فى بعضها وتارة لا يدخل .

وأما القدر : فإنه لا يحتج به أحد إلا عند اتباع هواه ، فإذا فعل فعلا محرما بمجرد هواه وذوقه ووجده ؛ من غير أن يكون له علم بحسن الفعل ومصلحته استند إلى القدر ، كما قال المشركون : (لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ) قال الله تعالى : (كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ * قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ) فبين أنهم ليس عندهم علم بما كانوا عليه من الدين ، وإنما يتبعون الظن .

والقوم لم يكونوا ممن يسوغ لكل أحد الاحتجاج بالقدر ، فإنه لو خرب أحد الكعبة ، أو شتم إبراهيم الخليل ، أو طعن فى دينهم لعادوه وآذوه ، كيف وقد عادوا النبي صلى الله عليه وسلم على ما جاء به من الدين ، وما فعله هو أيضاً من المقدور .

فلو كان الاحتجاج بالقدر حجة لكان للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه . فإن كان كل ما يحدث فى الوجود فهو مقـــدر ، فالمحق والمبطل يشتركان فى الاحتجاج بالقدر ، إن كان الاحتجاج به صحيحاً ، ولكن كانوا يتعمدون

على ما يعتقدونه من جنس دينهم وهم فى ذلك يتبعون الظن ليس لهم به علم بل هم يخرصون .

وموسى لما قال لآدم : « لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة ؟ » فقال آدم عليه السلام - فيما قال لموسى - لم تلومنى على أمر قدره الله على قبل أن أخلق بأربعين عاماً ؟ فحج آدم موسى » لم يكن آدم عليه السلام محتجاً على فعل ما نهى عنه بالقدر ، ولا كان موسى ممن يحتج عليه بذلك فيقبله ، بل آحاد المؤمنين لا يفعلون مثل هذا ، فكيف آدم وموسى ؟ .

وآدم قد تاب مما فعل واجتباه ربه وهدى ، وموسى أعلم بالله من أن يلوم من هو دون نبي على فعل تاب منه ، فكيف بنبي من الأنبياء ؟ وآدم يعلم أنه لو كان القدر حجة لم يحتج إلى التوبة ، ولم يجر ما جرى من خروجه من الجنة وغير ذلك ، ولو كان القدر حجة لكان لإبليس وغيره ، وكذلك موسى يعلم أنه لو كان القدر حجة لم يعاقب فرعون بالغرق ، ولا بنو إسرائيل بالصعقة وغيرها . كيف وقد قال موسى (رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي) وقال : (أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ) وهذا باب واسع .

وإنما كان لوم موسى لآدم من أجل المصيبة التى لحقتهم بآدم من أكل الشجرة ؛ ولهذا قال : لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة ؟ واللوم لأجل المصيبة التى لحقت الإنسان نوع ، واللوم لأجل الذنب الذى هو حق الله نوع آخر ،

فإن الأب لو فعل فعلا افتقر به حتى تضرر بنوه ، فأخذوا يلومونه لأجل ما لحقهم من الفقر : لم يكن هذا كلومه لأجل كونه أذنب .

والعبد مأمور أن يصبر على المقدور ، ويطيع المأمور ، وإذا أذنب استغفر . كما قال تعالى : (فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ) وقال تعالى: (مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ) قال طائفة من السلف : هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم .

فمن احتج بالقدر على ترك المأمور ، وجزع من حصول ما يكرهه من المقدور فقد عكس الإيمان والدين ، وصار من حزب الملحدين المنافقين ، وهذا حال المحتجين بالقدر .

فإن أحدهم إذا أصابته مصيبة عظم جزعه وقل صبره ، فلا ينظر إلى القدر ولا يسلم له ، وإذا أذنب ذنباً أخذ يحتج بالقدر ، فلا يفعل المأمور ، ولا يترك المحظور ، ولا يصبر على المقدور ، ويدعى مع هذا أنه من كبار أولياء الله المتقين ، وأئمة المحققين الموحدين ، وإنما هو من أعداء الله الملحدين ، وحزب الشيطان اللعين .

وهذا الطريق إنما يسلكه أبعد الناس عن الخير والدين والإيمان ، تجد أحدهم أجبر الناس إذا قدر ، وأعظمهم ظلماً وعدواناً ، وأذل الناس إذا قهر ، وأعظمهم جزعا ووهنا ، كما جربه الناس من الأحزاب البعيدين عن الإيمان بالكتاب ، والمقاتلة من أصناف الناس .

والمؤمن إن قدر عدل وأحسن ، وإن قهر وغلب صبر واحتسب ، كما قال كعب بن زهير فى قصيدته التى أنشدها للنبى صلى الله عليه وسلم — التى أولها بانت سعاد الخ — فى صفة المؤمنين :ـ

ليسوا مفاريح إن نالت رماحهم   يوما وليسوا مجازيعا إذا نيلوا

وسئل بعض العرب عن شىء من أمر النبى صلى الله عليه وسلم فقال : رأيته يَغلب فلا يبطر ، ويُغلب فلا يضجر .

وقد قال تعالى : (قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَـٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ) وقال تعالى: (وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا) وقال تعالى : (بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ) وقال تعالى : (وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ) فذكر الصبر والتقوى فى هذه المواضع الأربعة فالصبر يدخل فيه الصبر على المقدور ، والتقوى يدخل فيها فعل المأمور وترك المحظور .

فمن رزق هذا وهذا فقد جمع له الخير ، بخلاف من عكس فلا يتقى الله بل يترك طاعته متبعا لهواه ويحتج بالقدر ، ولا يصبر إذا ابتلى ولا ينظر حينئذ إلى القدر ، فإن هذا حال الأشقياء ، كما قال بعض العلماء : أنت عند الطاعة قدرى ، وعند المعصية جبرى ، أى مذهب وافق هواك تمذهبت به .

يقول : أنت إذا أطعت جعلت نفسك خالقا لطاعتك ، فتنسى نعمة الله عليك أن جعلك مطيعا له ، وإذا عصيت لم تعترف بأنك فعلت الذنب ؛ بل تجعل نفسك بمنزلة المجبور عليه بخلاف مراده ، أو المحرك الذى لا إرادة له ولا قدرة ولا علم ، وكلاهما خطأ .

وقد ذكر أبو طالب المكى عن سهل بن عبد الله التسترى أنه قال : إذا عمل العبد حسنة فقال : أى ربى أنا فعلت هذه الحسنة ، قال له ربه أنا يسرتك لها وأنا أعنتك عليها . فإن قال : أى ربى أنت أعنتنى عليها ويسرتنى لها ، قال له ربه : أنت عملتها وأجرها لك . وإذا فعل سيئة فقال أى ربى أنت قدرت على هذه السيئة . قال له ربه : أنت اكتسبتها وعليك وزرها ، فإن قال أى ربى إنى أذنبت هذا الذنب وأنا أتوب منه ، قال له ربه : أنا قدرته عليك وأنا أغفره لك . وهذا باب مبسوط فى غير هذا الموضع .

وقد كثر فى كثير من المنتسبين إلى المشيخة والتصوف شهود القدر فقط ، من غير شهود الأمر والنهى ، والاستناد إليه فى ترك المأمور وفعل المحظور ، وهذا أعظم الضلال .

ومن طرد هذا القول والتزم لوازمه : كان أكفر من اليهود والنصارى والمشركين ، لكن أكثر من يدخل فى ذلك يتناقض ولا يطرد قوله .

وقول هذا القائل هو من هذا الباب فقوله : آدم كان أمره بكل باطنا فأكل ، وإبليس كان توحيده ظاهراً فأمر بالسجود لآدم فرآه غيراً فلم يسجد

فغير الله عليه وقال : (ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا) الآية — فإن هذا - مع ما فيه من الإلحاد — كذب على آدم وإبليس فإن آدم اعترف بأنه هو الفاعل للخطيئة ، وأنه هو الظالم لنفسه وتاب من ذلك ، ولم يقل إن الله ظلمنى ، ولا أن الله أمرنى فى الباطن بالأكل ، قال تعالى : (فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ) وقال تعالى : (قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ) وإبليس أصر واحتج بالقدر فقال :(رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ) .

وأما قوله : رآه غيراً فلم يسجد - فهذا شر من الاحتجاج بالقدر ، فإن هذا قول أهل الوحدة الملحدين، وهو كذب على إبليس فان إبليس لم يمتنع من السجود لكونه غيراً بل قال : (أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ) ولم تؤمر الملائكة بالسجود لكون آدم ليس غيراً ، بل المغايرة بين الملائكة وآدم ثابتة معروفة ، والله تعالى : (وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ * قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ) .

وكانت الملائكة وآدم : معترفين بأن الله مباين لهم ، وهم مغايرون له ، ولهذا دعوه دعاء العبد ربه ، فآدم يقول : (رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا) والملائكة تقول : (لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآ) وتقول : (رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ) الآية ، وقد قال تعالى : (قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ) وقال تعالى : (أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ) وقال: (أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا) .

فلو لم يكن هنـاك غيره لم يكن المشركون أمروه بعبادة غير الله ، ولا اتخـاذ غير الله ولياً ولا حكماً ، فلم يكونوا يستحقون الإنكار ، فلمـا أنـكر عليهم ذلك دل على ثبوت غيرٍ يمكن عبادته واتخاذه ولياً وحكماً ، وأنه من فعل ذلك فهو مشرك بالله كما قال تعالى: (فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ) وقال : (لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا) وأمثال ذلك .

* * *

وأما قول القـائل : إن قوله : (لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ) عـين الإثبـات للنبي صلى الله عليه وسلم كقوله : (وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ) . (إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) فهـذا بنـاء على قول أهل الوحدة والاتحـاد ، وجعلِ معنى قوله : (لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ) أن فعلك هو فعل الله لعدم المغـايرة ، وهذا ضـلال عظيم من وجوه :—

(أحدها) أن قوله : (لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ) نزل فى سياق قوله : (لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ * لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ) .

وقد ثبت فى الصحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يدعو على قوم من الكفار أو يلعنهم فى القنوت ، فلما أنزل الله هذه الآية : ترك ذلك ، فعلم أن معناها إفراد الرب تعالى بالأمر ، وأنه ليس لغيره أمر ؛ بل إن شاء الله تعالى قطع طرفاً من الكفار ، وإن شاء كبتهم فانقلبوا بالخسارة ، وإن شاء تاب عليهم وإن شاء عذبهم .

وهذا كما قال فى الآية الأخرى : (قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ) ونحو ذلك قوله تعالى : (يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَـٰهُنَا)(قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ) .

(الوجه الثانى) أن قوله : (وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ) لم يرد به أن فِعلَ العبد هو فعل الله تعالى ـ كما تظنه طائفة من الغالطين ـ فإن ذلك لو كان صحيحاً لكان ينبغى أن يقال لكل أحد ، حتى يقال للماشى : ما مشيت إذ مشيت ولكن الله مشى ، ويقال للراكب : وما ركبت إذ ركبت ولكن الله ركب ، ويقال للمتكلم : ماتكلمت إذ تكلمت ولكن الله تكلم ، ويقال مثل ذلك للآكل والشارب ، والصائم والمصلى ونحو ذلك .

وطرد ذلك : يستلزم أن يقال للكافر ما كفرت إذ كفرت ولكن الله كفر ويقال للكاذب ما كذبت إذ كذبت ولكن الله كذب .

ومن قال مثل هذا : فهو كافر ملحد خارج عن العقل والدين .

ولكن معنى الآية أن النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر رماهم ، ولم يكن في قدرته أن يوصل الرمى إلى جميعهم فإنه إذ رماهم بالتراب وقال : « شاهت الوجوه » لم يكن فى قدرته أن يوصل ذلك إليهم كلهم ، فالله تعالى أوصل ذلك الرمى إليهم كلهم بقدرته . يقول : وما أوصلت إذ حذفت ولكن الله أوصل ، فالرمى الذى أثبته له ليس هو الرمى الذى نفاه عنه ، فإن هذا مستلزم للجمع بين النقيضين ، بل نفى عنه الإيصال والتبليغ ، وأثبت له الحذف والإلقاء ، وكذلك إذا رمى سهماً فأوصله الله إلى العدو إيصالا خارقاً للعادة : كان الله هو الذى أوصله بقدرته .

(الوجه الثالث) أنه لو فرض أن المراد بهذه الآية أن الله خالق أفعال العباد فهذا المعنى حق ، وقد قال الخليل : (رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ) فالله هو الذى جعل المسلم مسلماً ، وقال تعالى : (إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا) فالله هو الذى خلقه هلوعا ، لكن ليس فى هذا أن الله هو العبد ، ولا أن وجود الخالق هو وجود المخلوق، ولا أن الله حال فى العبد .

فالقول بأن الله خالق أفعال العباد حق ، والقول بأن الخالق حال فى المخلوق أو وجوده وجود المخلوق باطل .

وهؤلاء ينتقلون من القول بتوحيد الربوبية إلى القول بالحلول والاتحاد ، وهذا عين الضلال والإلحاد .

(الوجه الرابع) أن قوله تعالى : (إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ) لم يرد به أنك أنت الله ، وإنما أراد أنك أنت رسول الله ومبلغ أمره ونهيه ، فمن بايعك فقد بايع الله ، كما أن من أطاعك فقد أطاع الله ، ولم يرد بذلك أن الرسول هو الله ، ولكن الرسول أمر بما أمر الله به .

فمن أطاعه فقد أطاع الله ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « من أطاعنى فقد أطاع الله ، ومن أطاع أميرى فقد أطاعنى ، ومن عصانى فقد عصى الله ، ومن عصى أميرى فقد عصانى » ومعلوم أن أميره ليس هو إياه .

ومن ظن فى قوله : (إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ) أن المراد به أن فعلك هو فعل الله ، أو المراد أن الله حال فيك ونحو ذلك . فهو — مع جهله وضلاله بل كفره وإلحاده — قد سلب الرسول خاصيته وجعله مثل غيره وذلك أنه لو كان المراد به كون الله فاعلا لفعلك : لكان هذا قدراً مشتركا بينه وبين سائر الخلق ، وكان من بايع أبا جهل فقد بايع الله ، ومن بايع مسيلمة الكذاب فقد بايع الله ، ومن بايع قادة الأحزاب فقد بايع الله ، وعلى هذا التقدير فالمبايع هو الله أيضا ، فيكون الله قد بايع الله ؛ إذ الله خالق لهذا ولهذا ، وكذلك إذا قيل بمذهب أهل الحلول والوحدة والاتحاد ، فإنه عام عندهم فى هذا وهذا ، فيكون الله قد بايع الله .

وهذا يقوله كثير من شيوخ هؤلاء الحلولية الاتحادية ، حتى إن أحدهم إذا أمر بقتال العدو يقول : أقاتل الله ؟ ما أقدر أن أقاتل الله ، ونحو هذا

الـكلام الذى سمعناه من شيوخهم ، وبينا فسـاده لهم وضلالهم فيه غير مرة .

وأما الحلول الخاص فليس هو قول هؤلاء ؛ بل هو قول النصارى ومن وافقهم من الغالية ، وهو باطل أيضا ، فإن الله سبحانه قال له : (لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ) وقال : (وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ) وقال : (سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا) وقال : (وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا) وقال : (لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا * وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا)

فقوله : (لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ) بين قوله : (إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ) ولهذا قال : (يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) ومعلوم أن يد النبي صلى الله عليه وسلم كانت مع أيديهم ، كانوا يصافحونه ويصفقون على يده فى البيعة ، فعلم أن يد الله فوق أيديهم ليست هى يد النبي صلى الله عليه وسلم ، ولـكن الرسول عبد الله ورسوله ، فبايعهم عن الله وعاهدهم وعاقدهم عن الله ، فالذين بايعوه بايعوا الله الذى أرسله وأمره ببيعتهم .

ألا ترى أن كل من وكل شخصا يعقد مع الوكيل : كان ذلك عقداً مع الموكل ؟ ومن وكل نائبا له فى معاهدة قوم فعاهدهم عن مستنيبه : كانوا معاهدين لمستنيبه ؟ ومن وكل رجلا فى إنكاح أو تزويج : كان الموكل هو الزوج الذى وقع له العقد؟ وقدقال تعالى : (إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم

بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ) الآية ، ولهذا قال فى تمـام الآية : (وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا) .

فتبين أن قول ذلك الفقير هو القول الصحيح ، وأن الله إذا كان قد قال لنبيه : (لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ) فأيش نـكون نحن ؟ وقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم فى الصحيح أنه قال : « لا تطرونى كما أطرت النصارى المسيح بن مريم ، فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله » .

وأما قول القائل :

ما غبت عن القلب ولا عن عينى ما بينكم وبيننـــا من بين

فهذا قول مبنى على قول هؤلاء ، وهو باطل متناقض فإن مبناه على أنه يرى الله بعينه ، وقد ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « واعلموا أن أحداً منكم لن يرى ربه حتى يموت » .

وقد اتفق أئمة المسلمين على أن أحداً من المؤمنين لا يرى الله بعينه فى الدنيا ، ولم يتنازعوا إلا فى النبى صلى الله عليه وسلم خاصة مع أن جماهير الأئمة على أنه لم يره بعينه فى الدنيا ، وعلى هذا دلت الآثار الصحيحة الثابتة عن النبى صلى الله عليه وسلم ، والصحابة وأئمة المسلمين .

ولم يثبت عن ابن عباس ، ولا عن الإمام أحمد وأمثالهما : أنهم قالوا إن محمدا رأى ربه بعينه ، بل الثابت عنهم إما إطلاق الرؤية وإما تقييدها بالفؤاد ،

وليس فى شيء من أحاديث المعراج الثابتة أنه رآه بعينه ، وقوله : « أتانى البارحة ربى فى أحسن صورة » الحديث الذى رواه الترمذى وغيره ، إنما كان بالمدينة فى المنام ، هكذا جاء مفسرا .

وكذلك حديث أم الطفيل وحديث ابن عباس وغيرهما — مما فيه رؤية ربه — إنما كان بالمدينة كما جاء مفسراً فى الأحاديث ، والمعراج كان بمكة كما قال تعالى: (سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا) وقد بسط الكلام على هذا فى غير هذا الموضع .

وقد ثبت بنص القرآن أن موسى قيل له : (لَن تَرَىٰنِى) وأن رؤية الله أعظم من إنزال كتاب من السماء ، كما قال تعالى : (يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً) فمن قال إن أحداً من الناس يراه ؛ فقد زعم أنه أعظم من موسى بن عمران ، و دعواه أعظم من دعوى من ادعى أن الله أنزل عليه كتاباً من السماء .

والناس فى رؤية الله على ثلاثة أقوال :—

فالصحابة والتابعون وأئمة المسلمين على أن الله يرى فى الآخرة بالأبصار عياناً ، وأن أحداً لا يراه فى الدنيا بعينه ؛ لكن يرى فى المنام ويحصل للقلوب ـ من المكاشفات والمشاهدات ـ ما يناسب حالها .

ومن الناس من تقوى مشاهدة قلبه ، حتى يظن أنه رأى ذلك بعينه ؛

وهو غالط ، ومشـاهدات القلوب تحصل بحسب إيمـان العبد ، ومعرفته فى صورة مثالية ، كما قد بسط فى غير هذا الموضع .

(والقول الثـانى) قول نفاة الجهمية أنه لا يرى فى الدنيا ولا فى الآخرة .

(والثالث) قول من يزعم أنه يرى فى الدنيا والآخرة .

وحلولية الجهمية يجمعون بين النفى والإثبات ، فيقولون : أنه لا يرى فى الدنيا ولا فى الآخرة ، وأنه يرى فى الدنيا والآخرة . وهذا قول ابن عربى ـ صاحب الفصوص ـ وأمثـــاله ؛ لأن الوجود المطلق السارى فى الكائنات لا يرى ، وهو وجود الحق عندهم .

ثم من أثبت الذات قال : يرى متجلياً فيها ، ومن فرق بين المطلق والمعين قال : لا يرى إلا مقيداً بصورة .

وهؤلاء قولهم دائر بين أمرين : إنـكار رؤية الله ، وإثبـات رؤية المخلوقات ، ويجعلون المخلوق هو الخالق ، أو يجعلون الخالق حالا فى المخلوق ، وإلا فتفريقهم بين الأعيان الثابتة فى الخارج وبين وجودها : هو قول من يقول : بأن المعـدوم شىء فى الخارج ، وهو قول باطل ، وقد ضموا إليه أنهم جعلوا نفس وجود المخلوق هو وجود الخالق .

وأما التفريق بين المطلق والمعين ـ مع أن المطلق لا يكون هو فى الخارج مطلقاً ـ فيقتضى أن يكون الرب معدوماً ، وهذا هو جحود الرب وتعطيله ،

وإن جعلوه ثابتا فى الخارج جعلوه جزءاً من الموجودات ، فيكون الخالق جزءاً من المخلوق أو عرضاً قائماً بالمخلوق ، وكل هذا مما يعلم فساده بالضرورة ، وقد بسط هذا فى غير هذا الموضع.

وأما تناقضه فقوله :

ما غبت عن القلب ولا عن عينى   ما بينكم وبيننا من بين

يقتضى المغايرة ، وأن المخاطب غير المخاطب ، وأن المخاطب له عين وقلب لا يغيب عنهما المخاطب ؛ بل يشهده القلب والعين ، والشاهد غير المشهود .

وقوله : ما بينكم وبيننا من بين فيه إثبات ضمير المتكلم وضمير المخاطب ، وهذا إثبات لاثنين ، وإن قالوا : هذه مظاهر ومجالى . قيل : فإن كانت المظاهر والمجالى غير الظاهر والمتجلى فقد ثبتت الثنية وبطلت الوحدة ، وإن كان هو إياها فقد بطل التعدد، فالجمع بينهما تناقض .

وقول القائل :

فارق ظلم الطبع وكن متحدا
بالله وإلا فكل دعواك محال

إن أراد الاتحاد المطلق : فالمفارق هو المفارق ، وهو الطبع وظلم الطبع ، وهو المخاطب بقوله : « وكن متحداً بالله » وهو المخاطب بقوله : « كل دعواك محال » وهو القائل هذا القول ، وفى ذلك من التناقض مالا يخفى .

وإن أراد الاتحاد المقيد : فهو ممتنع ؛ لأن الخالق والمخلوق إذا اتحدا فإن كانا بعد الاتحاد اثنين ـ كما كانا قبل الاتحاد ـ فذلك تعدد وليس باتحاد .

وإن كانا استحالا إلى شيء ثالث — كما يتحد الماء واللبن والنار والحديد ، ونحو ذلك مما يثبته النصارى بقولهم فى الاتحاد — لزم من ذلك أن يكون الخالق قد استحال وتبدلت حقيقته ، كسائر ما يتحد مع غيره ؛ فإنه لا بد أن يستحيل .

وهذا ممتنع على الله تعالى ينزه عنه ؛ لأن الاستحالة تقتضى عدم ما كان موجوداً ، والرب تعالى واجب الوجود بذاته وصفاته اللازمة له ، يمتنع العدم على شيء من ذلك ، ولأن صفات الرب اللازمة له صفات كمال ، فعدم شيء منها نقص يتعالى الله عنه ، ولأن اتحاد المخلوق بالخالق : يقتضى أن العبد متصف بالصفات القديمة اللازمة لذات الرب ، وذلك ممتنع على العبد المحدث المخلوق ، فإن العبد يلزمه الحدوث والافتقار والذل .

والرب تعالى يلازمه القدم والغنى والعزة ، وهو — سبحانه — قديم غنى عزيز بنفسه ، يستحيل عليه نقيض ذلك ، فاتحاد أحدهما بالآخر : يقتضى أن يكون الرب متصفاً بنقيض صفاته : من الحدوث والفقر والذل ، والعبد متصفاً بنقيض صفاته من القدم ،والغنى الذاتى ، والعز الذاتى ، وكل ذلك ممتنع ، وبسط هذا يطول .

ولهذا سئل الجنيد عن التوحيد فقال : التوحيد إفراد الحدوث عن القدم ، فبين أنه لا بد من تمييز المحدث عن القديم .

ولهذا اتفق أئمة المسلمين على أن الخالق بائن عن مخلوقاته ، ليس فى مخلوقاته شيء من ذاته ، ولا فى ذاته شيء من مخلوقاته ، بل الرب رب ، والعبد عبد : (إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا * لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا) .

وإن كان المتكلم بهذا البيت أراد الاتحاد الوصفى : وهو أن يحب العبد ما يحبه الله ، ويبغض مايبغضه الله ، ويرضى بما يرضى الله ، ويغضب لما يغضب الله ، ويأمر بما يأمر الله به ، وينهى عما ينهى الله عنه ، ويوالى من يواليه الله ، ويعادى من يعاديه الله ، ويحب لله ويبغض لله ، ويعطى لله ويمنع لله ؛ بحيث يكون موافقاً لربه تعالى .

فهذا المعنى حق وهو حقيقة الإيمان وكماله ، كما فى الحديث الذى رواه البخارى عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يقول الله تعالى : من عادى لى ولياً فقد بارزنى بالمحاربة ، وما تقرب إلى عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، فبى يسمع ، وبى يبصر ، وبى يبطش ، وبى يمشى ، ولئن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه ، وما ترددت عن شيء

أنا فاعله ترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن ، يكره الموت وأكره مساءته ، ولا بد له منه » .

وهذا الحديث يحتج به أهل الوحدة وهو حجة عليهم من وجوه كثيرة :ـ

(منها) أنه قال : « من عادى لى ولياً فقد بارزنى بالمحاربة » فأثبت نفسه ووليه ومعادى وليه ، وهؤلاء ثلاثة ، ثم قال : « وما تقرب إلى عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه » فأثبت عبداً يتقرب إليه بالفرائض ثم بالنوافل ، وأنه لا يزال يتقرب بالنوافل حتى يحبه ، فإذا أحبه كان العبد يسمع به . ويبصر به ، ويبطش به ويمشى به .

وهؤلاء هو عندهم قبل أن يتقرب بالنوافل ، وبعده : هو عين العبد وعين غيره من المخلوقات فهو بطنه وفخذه ، لا يخصون ذلك بالأعضاء الأربعة المذكورة فى الحديث ، فالحديث مخصوص بحال مقيد ، وهم يقولون بالإطلاق والتعميم ، فأين هذا من هذا .

وكذلك قد يحتجون بما فى الحديث الصحيح : «إن الله يتجلى لهم يوم القيامة ثم يأتيهم فى صورة غير الصورة التى رأوه فيها أول مرة فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : نعوذ بالله منك ، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا ، فإذا جاء ربنا عرفناه . ثم يأتيهم فى الصورة التى رأوه فيها فى أول مرة فيقول : أنا ربكم فيقولون : أنت ربنا » فيجعلون هذا حجة لقولهم أنه يرى فى الدنيا فى كل صورة بل هو كل صورة .

وهذا الحديث حجة عليهم فى هذا أيضاً ، فإنه لا فرق عندهم بين الدنيا والآخرة وهو عندهم ـ فى الآخرة ـ المنكرون الذين قالوا نعوذ بالله منك هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا .

وهؤلاء الملاحدة يقولون إن العارف يعرفه فى كل صورة، فإن الذين أنكروه يوم القيامة فى بعض الصور كان لقصور معرفتهم . وهذا جهل منهم ،فإن الذين أنكروه يوم القيامة ثم عرفوه لما تجلى لهم فى الصورة التى رأوه فيها أول مرة هم الأنبياء والمؤمنون ، وكان إنكارهم مما حمدهم — سبحانه وتعالى — عليه ، فإنه امتحنهم بذلك حتى لا يتبعوا غير الرب الذى عبدوه ، فلهذا قال فى الحديث : « وهو يسألهم ويثبتهم وقد نادى المنادى : ليتبع كل قوم ما كانوا يعبدون » .

ثم يقال لهؤلاء الملاحدة : إذا كان عندكم هو الظاهر فى كل صورة ، فهو المنكر وهو المنكر ، كما قال بعض هؤلاء لآخر : من قال لك إن فى الكون سوى الله فقد كذب ، وقال له الآخر : فمن هو الذى كذب ؟ .

وذكر ابن عربى أنه دخل على مريد له فى الخلوة وقد جاءه الغائط فقال : ما أبصر غيره أبول عليه ، فقال له شيخه فالذى يخرج من بطنك من أين هو ؟ قال : فرجت عنى .

ومر شيخان منهم التلمسانى هـــذا والشيرازى على كلب أجرب ميت ، فقال الشيرازى للتلمسانى : هذا أيضاً من ذاته ؟ فقال التلمسانى هل ثم شىء خارج عنهـا ؟

وكان التلسانى قد أضل شيخاً زاهداً عابداً ببيت المقدس يقال له أبو يعقوب المغربى المبتلى ، حتى كان يقول : الوجود واحد ، وهو الله ، ولا أرى الواحد ، ولا أرى الله . ويقول : نطق الكتاب والسنة بثنوية الوجود ، والوجود واحد لا ثنوية فيه ، ويجعل هذا الكلام له تسبيحا ، يتلوه كما يتلو التسبيح .

* * *

وأما قول الشاعر : —

إذا بلغ الصب الكمال من الهوى   وغاب عن المذكور فى سطوة الذكر

فشاهد حقا حين يشهده الهوى   بأن صلاة العارفين من الكفر

فهذا الكلام — مع أنه كفر — هو كلام جاهل لا يتصور ما يقول ، فإن الفناء والغيب : هو أن يغيب بالمذكور عن الذكر ، وبالمعروف عن المعرفة ، وبالمعبود عن العبادة ؛ حتى يفنى من لم يكن ويبقى من لم يزل ، وهذا مقام الفناء الذى يعرض لكثير من السالكين ، لعجزهم عن كمال الشهود المطابق للحقيقة ؛ بخلاف الفناء الشرعى ، فمضمونه الفناء بعبادته عن عبادة ما سواه ، وبحبه عن حب ما سواه ، وبخشيته عن خشية ما سواه ، وبطاعته عن طاعة ما سواه ، فإن هذا تحقيق التوحيد والإيمان .

(وأما النوع الثالث) من الفناء — وهو الفناء عن وجود السوى بحيث يرى أن وجود الخالق هو وجود المخلوق — فهذا هو قول هؤلاء الملاحدة أهل الوحدة .

والمقصود هنا أن قوله : يغيب عن المذكور، كلام جاهل ، فإن هذا لا يحمد أصلا ، بل المحمود أن يغيب بالمذكور عن الذكر ، لا يغيب عن المذكور فى سطوات الذكر. اللهم إلا أن يريد أنه غاب عن المذكور فشهد المخلوق ، وشهد أنه الخالق ولم يشهد الوجود إلا واحدا ، ونحو ذلك من المشاهد الفاسدة ؛ فهذا شهود أهل الإلحاد لا شهود الموحدين ، ولعمرى إن من شهد هذا الشهود الإلحادى فإنه يرى صلاة العارفين من الكفر .

* * *

وأما قول القائل :

الكون ينـاديك إما تسمعنى   من ألف أشتاتى ومن فرقنى ؟

انظر لـتراني منظراً معتبراً   مافى سوى وجود من أوجدنى

فهو من أقوال هؤلاء الملاحدة ، وأقوالهم كفر متناقض باطل فى العقل والدين ، فإنه إذا لم يكن فيه إلا وجود من أوجده : كان ذلك الوجود هو الكون المنادى ، وهو المخاطب المنادى ، وهو الأشتات المؤلفة المفرقة ، وهو المخاطب الذى قيل له : انظر .

وحينئذ يكون الوجود الواجب القديم الأزلى : قد أوجد نفسه وفرقها وألفها . فهذا جمع بين النقيضين، فإن الواجب بنفسه لا يكون مفعولا مصنوعا ، والشىء الواحد لا يكون خالقا مخلوقا ، قديما محدثا ، واجبا بنفسه واجبا بغيره ، فإن هذا جمع بين النقيضين .

فالواجب هو الذى لا تقبل ذاته العدم ، والممكن هو الذى تقبل ذاته العدم ، فيمتنع أن يكون الشيء الواحد قابلا للعدم غير قابل للعدم ، والقديم هو الذى لا أول لوجوده ، والمحدث هو الذى له أول ، فيمتنع كون الشيء الواحد قديما محدثا .

ولولا أنه قد علم مرادهم بهذا القول : لأمكن أن يراد بذلك : ما فى سوى الوجود الذى خلقه من أوجدنى : وتكون إضافة الوجود إلى الله إضافة الملك ، لكن قد علم أنه لم يرد هذا ، ولأن هذه العبارة لا تستعمل فى هذا المعنى ، وإنما يراد بوجود الله وجود ذاته لا وجود مخلوقاته وهكذا قول القائل :ـ

ذات وجـــود الـ ـكون للخلق شهود
أن ليس لموجـــو د سوى الحق وجود

مراده به أن وجود الكون هو نفس وجود الحق ، وهذا هو قول أهل الوحدة ، وإلا فلو أراد أن وجود كل موجود من المخلوقات هو من الحق تعالى — فليس لشيء وجود من نفسه ، وإنما وجوده من ربه ، والأشياء باعتبار أنفسها لا تستحق سوى العدم ، وإنما حصل لها الوجود من خالقها وبارئها ، فهى دائمة الافتقار إليه لا تستغنى عنه لحظة ، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة — لكان قد أراد معنى صحيحا وهو الذى عليه أهل العقل والدين ، من الأولين والآخرين .

وهؤلاء القائلون بالوحدة : قولهم متناقض ؛ ولهذا يقولون : الشيء

ونقيضه ، وإلا فقوله : منه وإلا علاه يبدئ ويعيد ، يناقض الوحدة ، فمن هو البادئ والعائد منه وإليه إذا لم يكن إلا واحداً وقوله :

وما أنا فى طراز الكون شيء   لأنى مثل ظل مستحيل

يناقض الوحدة ، لأن الظل مغاير لصاحب الظل ، فإذا شبه المخلوق بالظل لزم إثبات اثنين كما إذا شبهه بالشعاع ، فإن شعاع الشمس ليس هو نفس قرص الشمس ، وكذلك إذا شبهه بضوء السراج وغيره .

والنصارى تشبه الحلول والاتحاد بهذا .

(وقلت) لمن حضرنى منهم وتكلم بشيء من هذا : فإذا كنتم تشبهون المخلوق بالشعاع الذى للشمس والنار ، والخالق بالنار والشمس ، فلا فرق فى هذا بين المسيح وغيره ، فإن كل ما سوى الله — على هذا — هو بمنزلة الشعاع والضوء ، فما الفرق بين المسيح و بين إبراهيم وموسى ؟ بل ما الفرق بينه وبين سائر المخلوقات على هذا ؟ .

وجعلت أردد عليه هذا الكلام ؛ وكان فى المجلس جماعة حتى فهمه فهما جيداً ، وتبين له وللحاضرين أن قولهم باطل لا حقيقة له ، وأن ما أثبتوه للمسيح إما ممتنع فى حق كل أحد وإما مشترك بين المسيح وغيره ، وعلى التقديرين فتخصيص المسيح بذلك باطل .

(وذكرت له) أنه ما من آية جاء بها المسيح إلا وقد جاء موسى بأعظم

منها ، فإن المسيح صلى الله عليه وسلم وإن كان جاء بإحياء الموتى فالموتى الذين أحياهم الله على يد موسى أكثر ، كالذين قالوا : (لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ) ثم بعثهم الله بعد موتهم ، كما قال : (ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ) ، وكالذى ضرب ببعض البقرة ، وغير ذلك .

وقد جاء بإحياء الموتى غير واحد من الأنبياء ، والنصارى يصدقون بذلك .

وأما جعل العصا حية : فهذا أعظم من إحياء الميت ، فإن الميت كانت فيه حياة فردت الحياة إلى محل كانت فيه الحياة ، وأما جعل خشبة يابسة حيوانا تبتلع العصى والحبال : فهذا أبلغ فى القدرة ، وأندر ، فإن الله يحيي الموتى ولا يجعل الخشب حيات .

وأما إنزال المائدة من السماء : فقد كان ينزل على قوم موسى كل يوم من المن والسلوى ، وينبع لهم من الحجر من الماء : ما هو أعظم من ذلك ، فإن الحلوى أو اللحم دائما هو أجل فى نوعه وأعظم فى قدره مما كان على المائدة ؛ من الزيتون والسمك وغيرهما .

وذكرت له نحوا من ذلك ، مما يبين أن تخصيص المسيح بالاتحاد ودعوى الإلهية ليس له وجه ، وإن سائر ما يذكر فيه إما أن يكون مشتركا بينه وبين غيره من المخلوقات ، وإما أن يكون مشتركا بينه وبين غيره من الأنبياء والرسل مع أن بعض الرسل كإبراهيم ، وموسى : قد يكون أكمل فى ذلك منه ، وأما

خلقه من امرأة بلا رجل : فخلق حواء من رجل بلا امرأة أعجب من ذلك ، فإنه خلق من بطن امرأة ، وهذا معتاد ، بخلاف الخلق من ضلع رجل فإن هذا ليس بمعتاد .

فما من أمر يذكر فى المسيح صلى الله عليه وسلم : إلا وقد شركه فيه أو فيما هو أعظم منه غيره من بنى آدم ، فعلم قطعا أن تخصيص المسيح باطل ، وأن ما يدعونه له إن كان ممكنا فلا اختصاص له به ، وإن كان ممتنعا فلا وجود له فيه ولا فى غيره .

ولهذا قال هؤلاء الاتحادية : إن النصارى إنما كفروا بالتخصيص ، وهذا أيضا باطل ، فإن فى الاتحاد عموما وخصوصا .

والمقصود هنا : أن تشبيه الاتحادية أحدهم بالظل المستحيل يناقض قولهم بالوحدة ، وكذلك قول الآخر :ـ

أحن إليه وهو قلبي وهل يرى سواى أخو وجد يحن لقلبه ؟
ويحجب طرفى عنه إذ هو ناظرى وما بعده إلا لإفـــراط قربه

هو — مع ما قصده به من الكفر والاتحاد — كلام متناقض ، فإن حنين الشيء إلى ذاته متناقض ، ولهذا قال : وهل يرى سواى أخو وجد يحن لقلبه ؟ .

وقوله : وما بعده إلا لإفراط قربه . متناقض ، فإنه لا قرب ولا بعد عند

أهل الوحدة ، فإنها تقتضى اثنين يقرب أحدهما من الآخر . والواحد لا يقرب من ذاته ولا يبعد من ذاته .

* * *

وأما قول القائل : التوحيد لا لسان له والألسنة كلها لسانه — فهذا أيضا من قول أهل الوحدة ، وهو — مع كفره — قول متناقض ، فإنه قد علم بالاضطرار من دين الإسلام أن لسان الشرك لا يكون له لسان التوحيد ، وأن أقوال المشركين الذين قالوا : (لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا) والذين قالوا : (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ) والذين قالوا : (وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ) والذين قالوا : (حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ) ونحو هؤلاء ليس هذا هو لسان التوحيد .

وأما تناقض هذا القول على أصلهم ، فإن الوجود إن كان واحداً كان إثبات التعدد تناقضاً ، فإذا قال القائل : الوجود واحد ، وقال الآخر : ليس بواحد ؛ بل متعدد ، كان هذان القولان متناقضين ، فيمتنع أن يكون أحدهما هو الآخر .

وإذا قال قائل : : الألسنة كلها لسانه : فقد صرح بالتعدد ، فى قوله : الألسنة كلها ، وذلك يقتضى أن لا يكون هذا اللسان هو هذا اللسان ، فثبت التعدد وبطلت الوحدة .

وكل كلام لهؤلاء ولغيرهم فإنه ينقض أصلهم فإنهم مضطرون إلى إثبات التعدد .

فإن قالوا : الوجود واحد ، بمعنى أن الموجودات اشتركت فى مسمى الوجود فهذا صحيح، لكن الموجودات المشتركات فى مسمى الواحد لا يكون وجود هذا عين وجود هذا ، بل هذا اشتراك فى الاسم العام الكلى ، كالاشتراك فى الاسماء التى يسميها النحاة اسم الجنس ، ويقسمها المنطقيون إلى جنس ، ونوع ، وفصل ، وخاصة وعرض عام .

فالاشتراك فى هذه الأسماء : هو مستلزم لتباين الأعيان ، وكون أحد المشتركين ليس هو الآخر . وهذا مما يعلم به أن وجود الحق مباين لوجود المخلوقات ، فإنه أعظم من مباينة هذا الموجود لهذا الموجود ، فإذا كان وجود الفلك مبايناً مخالفاً لوجود الذرة والبعوضة ؛ فوجود الحق تعالى أعظم مباينة لوجود كل مخلوق ، من مباينة وجود ذلك المخلوق لوجود مخلوق آخر .

وهذا وغيره مما يبين بطلان قول ذلك الشيخ حيث قال : لا يعرف التوحيد إلا الواحد ، ولا تصح العبارة عن التوحيد ، وذلك أنه لا يعبر عنه إلا بغير ، ومن أثبت غيراً فلا توحيد له .

فإن هذا الكلام — مع كفره — متناقض ، فإن قوله : لا يعرف التوحيد إلا واحد ، يقتضى أن هناك واحداً يعرفه وأن غيره لا يعرفه ، هذا تفريق بين من يعرفه ومن لا يعرفه ، وإثبات اثنين أحدهما يعرفه والآخر لا يعرفه ،

وإثبات للمغايرة بين من يعرفه ومن لا يعرفه ، فقوله بعد هذا : ومن أثبت غيراً فلا توحيد له يناقض هذا .

وقوله : إنه لا تصح العبارة عن التوحيد : كفر بإجماع المسلمين ، فإن الله قد عبر عن توحيده ، ورسوله عبر عن توحيده ، والقرآن مملوء من ذكر التوحيد ؛ بل إنما أرسل الله الرسل وأنزل الكتب بالتوحيد .

وقد قال تعالى : (وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ) وقال تعالى : (وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ) ولو لم يكن يصح عنه عبارة لما نطق به أحد .

وأفضل ما نطق به الناطقون : هو التوحيد ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء الحمد لله » وقال : « من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة » .

لكن التوحيد الذى يشير إليه هؤلاء الملاحدة ـ وهو وحدة الوجود ـ أمر ممتنع فى نفسه ، لا يتصور تحققه فى الخارج ، فإن الوحدة العينية الشخصية تمتنع فى الشيئين المتعددين ، ولكن الوجود واحد فى نوع الوجود ، بمعنى أن اسم الموجود اسم عام يتناول كل أحد ، كما أن اسم الجسم والإنسان ونحوهما : يتناول كل جسم وكل إنسان ، وهذا الجسم ليس هو ذاك ، وهذا الإنسان ليس هو ذاك ، وكذلك هذا الوجود ليس هو ذاك .

وقوله : لا يعبر عنه إلا بغير ، يقال له (أولا) التعبير عن التوحيد يكون بالكلام ، والله يعبر عن توحيده بكلامه ، فكلام الله وعلمه وقدرته وغير ذلك من صفاته : لا يطلق عليه عند السلف والأئمة القول بأنه الله ، ولا يطلق عليه بأنه غير الله ؛ لأن لفظ الغير : قد يراد به ما يباين غيره ، وصفات الله لا تباينه ، ويراد به ما لم يكن إياه ، وصفة الله ليست إياه ، فى أحد الاصطلاحين يقال إنه غيره ، وفى الاصطلاح الآخر لا يقال إنه غير .

فلهذا لا يطلق أحدهما إلا مقروناً ببيان المراد ؛ لئلا يقول المبتدع إذا كانت صفة الله غيره فكل ما كان غير الله فهو مخلوق ، فيتوسل بذلك إلى أن يجعل علم الله وقدرته وكلامه : ليس هو صفة قائمة به ؛ بل مخلوقة فى غيره ، فإن هذا فيه من تعطيل صفات الخالق وجحد كماله ما هو من أعظم الإلحاد ، وهو قول الجهمية الذين كفرهم السلف والأئمة تكفيراً مطلقاً ؛ وإن كان الواحد المعين لا يكفر إلا بعد قيام الحجة التى يكفر تاركها .

وأيضاً فيقال لهؤلاء الملاحدة إن لم يكن فى الوجود غيره بوجه من الوجوه لزم أن يكون كلام الخلق ، وأكلهم وشربهم ، ونكاحهم وزناهم ، وكفرهم وشركهم وكل ما يفعلونه من القبائح : هو نفس وجود الله .

ومعلوم أن من جعل هذا صفة لله كان من أعظم الناس كفراً وضلالا ، فمن قال إنه عين وجود الله : كان أكفر وأضل ، فإن الصفات والأعراض لا تكون عين الموجود القائم بنفسه ، وأئمة هؤلاء الملاحدة كابن عربى يقول :—

وكل كلام فى الوجـــود كلامه سواء علينـــا نثره ونظامه

فيجعلون كلام المخلوقين — من الكفر والكذب وغير ذلك — كلاماً لله . وأما هـــذا الملحد فزاد على هؤلاء ، فجعل كلام الخلق وعبادتهم نفس وجوده ، لم يجعل ذلك كلاماً له ، بل نفى أن يكون هذا كلاماً له لئلا يثبت غيراً له .

وقد علم بالكتاب والسنة والإجماع ، وبالعلوم العقلية الضرورية : إثبات غير الله تعالى ، وأن كل ما سواه من المخلوقات فإنه غير الله تعالى ، ليس هو الله ولا صفة من صفات الله .

ولهذا أنكر الله على من عبد غيره ـ ولو لم يكن هناك غير لما صح الإنكار ـ قال تعالى : (قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ) وقال تعالى : (قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ) وقال تعالى : (هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ) وقال تعالى : (أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا) .

وكذلك قول القائل : وجدت المحبة غير المقصود ؛ لأنها لا تكون إلا من غير لغير ، وغير ما ثم ، ووجدت التوحيـــد غير المقصود ؛ لأن التوحيد ما يكون إلا من عبد لرب ، ولو أنصف الناس ما رأوا عبداً ولا معبوداً : هو كلام فيه من الكفر والإلحاد والتناقض مالا يخفى .

فإن الكتاب والسنة وإجماع المسلمين : أثبتت محبة الله لعباده المؤمنين ، ومحبتهم له ، كقوله تعالى : (وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ) وقوله : (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ) وقوله : (أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ) وقوله : (إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ) (يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ) (يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ) (يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ) .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح : « ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله ، ومن كان يكره أن يرجع فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى فى النار » .

وقد أجمع سلف الأمة وأئمتها على إثبات محبة الله تعالى لعباده المؤمنين ومحبتهم له ، وهذا أصل دين الخليل إمام الحنفاء عليه السلام .

وأول من أظهر ذلك فى الإسلام الجعد بن درهم ، فضحى به خالد بن عبد الله القسرى يوم الأضحى بواسط ، وقال : أيها الناس : ضحوا تقبل الله ضحايا كم فإنى مضح بالجعد بن درهم ، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا ، ولم يكلم موسى تكليما ، تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً ! ثم نزل فذبحه .

وقوله : المحبة ما تكون إلا من غير لغير ، وغير ما ثم : كلام باطل من كل وجه. فإن قوله لا تكون إلا من غير ، ليس بصحيح ، فإن الإنسان يحب نفسه وليس غيراً لنفسه ، والله يحب نفسه ، وقوله ما ثم غير : باطل ، فإن المخلوق

غير الخالق ، والمؤمنون غير الله وهم يحبونه ، فالدعوى باطلة ، فكل واحدة من مقدمتى الحجة باطلة ـ قوله لا تكون إلا من غير لغير ، وقوله غير مائم ـ فإن الغير موجود ، والمحبة تكون من المحب لنفسه ولهذا كثير من الاتحادية يناقضه فى هذا القول ويقول كما قال ابن الفارض .

وكذلك قوله : التوحيد لا يكون إلا من عبد لرب ، ولو أنصف الناس ما رأوا عابداً ولا معبوداً : كلا المقدمتين باطل ، فإن التوحيد يكون من الله لنفسه ، فإنه يوحد نفسه بنفسه كما قال تعالى : (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ) والقرآن مملوء من توحيد الله لنفسه فقد وحد نفسه بنفسه ، كقوله : (وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ) وقوله : (وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ) وقوله : (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ) وأمثال ذلك .

وأما المقدمة الثانية : فقوله إن الناس لو أنصفوا ما رأوا عابداً ولا معبودا ـ مع أنه غاية فى الكفر والإلحاد ـ كلام متناقض ، فإنه إذا لم يكن ثم عابد ولا معبود بل الكل واحد: فمن هم الذين لا ينصفون ؟ إن كانوا هم الله؟ فيكون الله هو الذى لا ينصف وإن كانوا غير الله فقد ثبت الغير ثم إذا فسروه على كفرهم وقالوا إن الله هو الذى لا ينصف ، وهو الذى يأكل ، ويشرب ويكفر ، كما يقول ذلك كثير منهم ، مثل ما قال بعضهم لشيخه : الفقير إذا صح أكل بالله ، فقال له الآخر : الفقير إذا صح أكل الله .

وقد صرح ابن عربى وغيره من شيوخهم بأنه هو الذى يجوع ويعطش ،

ويمرض ويبول ، وينكح وينكح ، وأنه موصوف بكل نقص وعيب ، لأن ذلك هو الكمال عندهم .

كما قال فى «الفصوص»: فالعلى بنفسه هو الذى يكون له الكمال الذى يستقصى به جميع الأمور الوجودية والنسب العدمية ، سواء كانت محمودة عرفا وعقلا وشرعا ، أو مذمومة عرفا وعقلا وشرعا ، وليس ذلك إلا لمسمى الله خاصة وقال : ألا ترى الحق يظهر بصفات المحدثات ، وأخبر بذلك عن نفسه وبصفات النقص والذم ؟ ألا ترى المخلوق يظهر بصفات الخالق ؟ فهى كلها من أولها إلى آخرها صفات للعبد ، كما أن صفات العبد من أولها إلى آخرها صفات الله تعالى .

وهذا المتكلم بمثل هذا الكلام يتناقض فيه ، فإنه يقال له : فأنت الكامل فى نفسك ، الذى لا ترى عابداً ولا معبوداً نعاملك بموجب مذهبك فتضرب وتوجع ، وتهان وتصفع ، وإذا تظلم ممن فعل به ذلك واشتكى وصاح منه وبكى قيل له : ما ثم غير ، ولا عابد ولا معبود ، فلم يفعل بك هذا غيرك ، بل الضارب هو المضروب والشاتم هو المشتوم ، والعابد هو المعبود ، فإن قال : تظلم من نفسه واشتكى من نفسه قيل له أيضا : فقل عبد نفسه ، فإذا أثبت ظالما ومظلوما وهما واحد ، قيل له : فأثبت عابداً ومعبوداً وهما واحد .

ثم يقال له : هذا الذى يضحك ويضرب : هو نفس الذى يبكى ويصيح ؟ وهذا الذى شبع وروى : هو نفس هذا الذى جاع وعطش ؟ فإن اعترف بأنه

غيره أثبت المغايرة ، وإذا أثبت المغايرة بين هذا وهذا ، فبين العابد والمعبود أولى وأحرى .

وإن قال : بل هو هو — عومل معاملة السوفسطائية ، فإن هذا القول من أقبح السفسطة . فيقال : فإذا كان هو هو فنحن نضربك ونقتلك ، والشيء قتل نفسه وأهلك نفسه .

والإنسان قد يظلم نفسه بالذنوب فيقول : (رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا) لكون نفسه أمرته بالسوء ، والنفس أمارة بالسوء ، لكن جهة أمرها ليست جهة فعلها ، بل لابد من نوع تعدد ؛ إما فى الذات وإما فى الصفات ، وكل أحد يعلم بالحس والاضطرار أن هذا الرجل الذى ظلم ذاك ليس هو إياه ، وليس هو بمنزلة الرجل الذى ظلم نفسه . وإذا كان هذا فى المخلوقين : فالخالق أعظم مباينة للمخلوقين من هذا لهذا . سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا .

ولولا أن أصحاب هذا القول كثروا وظهروا وانتشروا ، وهم عند كثير من الناس سادات الأنام ، ومشايخ الإسلام ، وأهل التوحيد والتحقيق . وأفضل أهل الطريق ، حتى فضلوهم على الأنبياء والمرسلين ، وأكابر مشايخ الدين : لم يكن بنا حاجة إلى بيان فساد هذه الأقوال ، وإيضاح هذا الضلال .

ولكن يعلم أن الضلال لاحد له ، وأن العقول إذا فسدت : لم يبق لضلالها حد معقول ، فسبحان من فرق بين نوع الإنسان ؛ فجعل منه من هو أفضل العالمين ، وجعل منه من هو شر من الشياطين ، ولكن تشبيه هؤلاء بالأنبياء

الأولياء ، كتشبيه مسيلمة الكذاب بسيد أولى الألباب ، هو الذى يوجب جهاد هؤلاء الملحدين ، الذين يفسدون الدنيا والدين .

والمقصود هنا : رد هذه الأقوال ، وبيان الهدى من الضلال .

وأما توبة من قالها وموته على الإسلام : فهذا يرجع إلى الملك العلام ، فإن الله يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ، ومن الممكنات أنه قد تاب على أصحاب هذه المقالات ، والله تعالى غافر الذنب قابل التوب شديد العقاب ، والذنب وإن عظم ، والكفر وإن غلظ وجسم ، فإن التوبة تمحو ذلك كله ، والله سبحانه لا يتعاظمه ذنب أن يغفره لمن تاب ، بل يغفر الشرك وغيره للتائبين ، كما قال تعالى :(قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ) وهذه الآية عامة مطلقة ؛ لأنها للتائبين .

وأما قوله : (إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ) فإنها مقيدة خاصة ؛ لأنها فى حق غير التائبين ، لا يغفر لهم الشرك ، وما دون الشرك معلق بمشيئة الله تعالى .

* * *

وأما الحكاية المذكورة عن الذى قال : إنه التقم العالم كله ، وأراد أن يقول : أنا الحق (وأختها) التى قيل فيها : إن الإلهية لا يدعيها إلا أجهل خلق الله أو أعرف خلق الله ـ هو من هذا الباب .

والفقير الذى قال : ما خلق الله أقل عقلا ممن ادعى أنه إله — مثل فرعون ونمرود وأمثالهما — هو الذى أصاب ونطق بالصواب ، وسدد فى الخطاب .

ولكن هؤلاء الملاحدة يعظمون فرعون وأمثاله ، ويدعون أنهم خير من موسى وأمثاله ، حتى إنه حدثنى بهاء الدين عبد السيد الذى كان قاضى اليهود وأسلم وحسن اسلامه — رحمه الله — وكان قد اجتمع بالشيرازى أحد شيوخ هؤلاء ، ودعاه إلى هذا القول ، وزينه له فحدثنى بذلك ، فبينت له ضلال هؤلاء وكفرهم، وأن قولهم من جنس قول فرعون. فقال لى: إنه لما دعاه حسن الشيرازى إلى هذا القول قال له : قولكم هذا يشبه قول فرعون ، فقال : نعم ، ونحن على قول فرعون ، وكان عبد السيد إذ ذاك لم يسلم بعد ، فقال : أنا لا أدع موسى وأذهب إلى فرعون ، قال له ولم ؟ قال لأن موسى أغرق فرعون . فانقطع ، فاحتج عليه بالنصر القدرى الذى نصر الله به موسى لا بكونه كان رسولا صادقا قلت لعبد السيد : وأقر لك أنه على قول فرعون ؟ قال نعم ، قلت فمع إقرار الخصم لا يحتاج إلى بينة . أنا كنت أريد أن أبين لك أن قولهم : هو قول فرعون ، فإذا كان قد أقر بهذا فقد حصل المقصود .

فهذه المقالات وأمثالها من أعظم الباطل ، وقد نبهنا على بعض ما به يعرف معناها وأنه باطل ، والواجب إنكارها ؛ فإن إنكار هذا المنكر السارى فى كثير من المسلمين أولى من إنكار دين اليهود والنصارى ، الذى لا يضل به المسلمون ، لا سيما وأقوال هؤلاء شر من أقوال اليهود والنصارى وفرعون ، ومن عرف

معناها واعتقدها كان من المنافقين ، الذين أمر الله بجهادهم بقوله تعالى : (جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ) والنفاق إذا عظم كان صاحبه شرا من كفار أهل الكتاب ، وكان فى الدرك الأسفل من النار .

وليس لهذه المقالات وجه سائغ ، ولو قدر أن بعضها يحتمل فى اللغة معنى صحيحا فإنما يحمل عليها إذا لم يعرف مقصود صاحبها ، وهؤلاء قد عرف مقصودهم ، كما عرف دين اليهود والنصارى والرافضة ، ولهم فى ذلك كتب مصنفة ، وأشعار مؤلفة ، وكلام يفسر بعضه بعضا .

وقد علم مقصودهم بالضرورة ، فلا ينازع فى ذلك إلا جاهل لا يلفت إليه ، ويجب بيان معناها وكشف مغزاها لمن أحسن الظن بها ، وخيف عليه أن يحسن الظن بها أو أن يضل ، فإن ضررها على المسلمين أعظم من ضرر السموم التى يأكلونها ولا يعرفون أنها سموم ، وأعظم من ضرر السراق والخونة ، الذين لا يعرفون أنهم سراق وخونة .

فإن هؤلاء : غاية ضررهم موت الإنسان أو ذهاب ماله ، وهذه مصيبة فى دنياه قد تكون سبباً لرحمته فى الآخرة ، وأما هؤلاء : فيسقون الناس شراب الكفر والإلحاد فى آنية أنبياء الله وأوليائه ، ويلبسون ثياب المجاهدين فى سبيل الله ، وهم فى الباطن من المحاربين لله ورسوله ، ويظهرون كلام الكفار والمنافقين ، فى قوالب ألفاظ أولياء الله المحققين ، فيدخل الرجل معهم على أن يصير مؤمنا وليا لله ، فيصير منافقا عدوا لله .

ولقد ضربت لهم مرة مثلا بقوم أخذوا طائفة من الحجاج ليحجوا بهم فذهبوا بهم إلى قبرص لينصروهم ، فقال لى بعض من كان قد انكشف له ضلالهم من أتباعهم ، لو كانوا يذهبون بنا إلى قبرص لكانوا يجعلوننا نصارى ، وهؤلاء كانوا يجعلوننا شراً من النصارى والأمر كما قاله هذا القائل .

وقد رأيت وسمعت عمن ظن هؤلاء من أولياء الله ، وأن كلامهم كلام العارفين المحققين من هو من أهل الخير والدين ما لا أحصيهم ، فمنهم من دخل فى إلحادهم وفهمه وصار منهم ؛ ومنهم من كان يؤمن بما لا يعلم ، ويعظم ما لا يفهم ، ويصدق بالمجهولات .

وهؤلاء هم أصلح الطوائف الضالين ، وهم بمنزلة من يعظم أعداء الله ورسوله ، ولا يعلم أنهم أعداء الله ورسوله ، ويوالى المشركين وأهل الكتاب ، ظانا أنهم من أهل الإيمان وأولى الألباب ، وقد دخل بسبب هؤلاء الجهال المعظمين لهم من الشر على المسلمين ، ما لا يحصيه إلا رب العالمين .

وهذا الجواب : لم يتسع لأكثر من هذا الخطاب ، والله أعلم بالصواب .

وسئل [1] :-

ما تقول السادة العلماء ، أئمة الدين ، وهداة المسلمين ، رضى الله عنهم أجمعين فى الكلام الذى تضمنه كتاب « فصوص الحكم » وما شاكله من الكلام الظاهر فى اعتقاد قائله : أن الرب والعبد شيء واحد ، ليس بينهما فرق ، وأن ماثمَّ غير ، كمن قال فى شعره :

أنا وهو واحـــد ما معنا شيء

ومثل : أنامن أهوى ، ومن أهوى أنا .

ومثل : إذا كنت ليـــلى وليـلى أنا .

وكقول من قال : لو عرف الناس الحق ما رأوا عابداً ولا معبوداً .

وحقيقة هذه الأقوال لم تكن فى كتاب الله عز وجل ، ولا فى السنة ، ولا فى كلام الخلفاء الراشدين ، والسلف الصالحين .

ويدعى القائل لذلك : أنه يحب الله سبحانه وتعالى ، والله تعالى يقول : (قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ) والله سبحانه وتعالى ذكر خير

---

(١) يسمي الرد الأقوم على مافي فصوص الحكم .

خلقه بالعبودية فى غير موضع ، فقال تعالى عن خاتم رسله صلى الله عليه وسلم : (فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ) وكذلك قال فى حق عيسى عليه السلام : (إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ) وقال تعالى : (لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ) ـ الآية .

فالنصارى كفار بقولهم مثلَ هذا القول فى عيسى بمفرده ، فكيف بمن يعتقد هذا الاعتقاد : تارة فى نفسه ، وتارة فى الصور الحسنة : من النسوان والمردان ؟ !

ويقولون : إن هذا الاعتقاد له سر خفى ، وباطن حق ، وإنه من الحقائق التى لا يطلع عليها إلا خواص الخلق .

فهل فى هذه الأقوال سر خفى يجب على من يؤمن بالله واليوم الآخر وكتبه ورسله أن يجتهد على التمسك بها والوصول إلى حقائقها — كما زعم هؤلاء — أم باطنها كظاهرها ؟ وهذا الاعتقاد المذكور هو حقيقة الإيمان بالله ورسوله ، وبما جاء به ، أم هو الكفر بعينه ؟ .

وهل يجب على المسلم أن يتبع فى ذلك قول علماء المسلمين ، ورثة الأنبياء والمرسلين ، أم يقف مع قول هؤلاء الضالين المضلين ؟ وإن ترك ما أجمع عليه أئمة المسلمين ، ووافق هؤلاء المذكورين ، فماذا يكون من أمر الله له يوم الدين ؟ .

أفتونا مأجورين ، أثابكم الله الكريم .

فأجاب شيخ الإسلام (تقى الدين)

أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام

ابن تيمية رحمه الله : —



الحمد لله رب العالمين .

ما تضمنه كتاب « فصوص الحكم » وما شا كله من الكلام : فإنه كفر باطناً وظاهراً ؛ وباطنه أقبح من ظاهره . وهـذا يسمى مذهب أهل الوحدة ، وأهل الحلول ، وأهل الاتحاد . وهم يسمون أنفسهم المحققين .

وهؤلاء نوعان :

نوع يقول بذلك مطلقاً ، كما هو مذهب صاحب الفصوص ابن عربى وأمثاله : مثل ابن سبعين ، وابن الفارض . والقونوى والششترى والتلمسانى وأمثالهم ممن يقول : إن الوجود واحد ، ويقولون : إن وجود المخلوق هو وجود الخالق ، لا يثبتون موجودين خلق أحدهما الآخر ،بل يقولون : الخالق هو المخلوق ، والمخلوق هو الخالق .

ويقولون : إن وجود الأصنام هو وجود الله ، وإن عبَّاد الأصنام ماعبدوا شيئاً إلا الله .

ويقولون : إن الحق يوصف بجميع ما يوصف به المخلوق من صفات النقص والذم .

ويقولون : إن عبّاد العجل ما عبدوا إلا الله ، وإن موسى أنكر على هارون لكون هارون أنكر عليهم عبادة العجل ، وإن موسى كان بزعمهم من العارفين الذين يرون الحق فى كل شىء ، بل يرونه عين كل شىء ، وأن فرعون كان صادقاً فى قوله : (أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ) بل هو عين الحق ، ونحو ذلك مما يقوله صاحب الفصوص .

ويقول أعظم محققيهم : إن القرآن كله شرك ، لأنه فرق بين الرب والعبد ، وليس التوحيد إلا فى كلامنا .

فقيل له : فإذا كان الوجود واحداً ، فلم كانت الزوجة حلالا والأم حراماً ؟ فقال : الكل عندنا واحد ، ولكن هؤلاء المحجوبون قالوا : حرام . فقلنا : حرام عليكم .

وكذلك ما فى شعر ابن الفارض فى قصيدته التى سماها نظم السلوك ، كقوله :—

لها صلواتى بالمقام أقيمها   وأشهد فيها أنها لى صلت
كلانا مصل واحد ساجد إلى   حقيقته بالجمع فى كل سجدة

وما كان لى صلى سواى ، ولم تكن
صـــلاتى لغيرى فى أدا كل سجدة

وقوله :

وما زلت إياها ، وإياى لم تزل ولا فرق ، بل ذاتى لذاتى أحبت

وقوله :

إلىّ رسولا ، كنت منى مرسلا وذاتى بآياتى علىّ استدلت

فأقوال هؤلاء ونحوها : باطنها أعظم كفراً وإلحاداً من ظاهرها ، فإنه قد يظن أن ظاهرها من جنس كلام الشيوخ العارفين ، أهل التحقيق والتوحيد ، وأما باطنها فإنه أعظم كفراً وكذباً وجهلا من كلام اليهود والنصارى وعباد الأصنام .

ولهذا فإن كل من كان منهم أعرف بباطن المذهب وحقيقته — كان أعظم كفراً وفسقاً ، كالتلمسانى ؛ فإنه كان من أعرف هؤلاء بهذا المذهب ، وأخبرهم بحقيقته ، فأخرجه ذلك إلى الفعل فكان يعظم اليهود والنصارى والمشركين ، ويستحل المحرمات ويصنف للنصيرية كتباً على مذهبهم ، يقرهم فيها على عقيدتهم الشركية .

وكذلك ابن سبعين كان من أئمة هؤلاء ، وكان له من الكفر والسحر —

الذى يسمى السيمياء — والموافقة للنصـــارى ، والقرامطة والرافضة : ما يناسب أصوله .

فكل من كان أخبر بباطن هذا المذهب ، ووافقهم عليه ، كان أظهر كفراً وإلحاداً .

وأما الجهال الذين يحسنون الظن بقول هؤلاء ولا يفهمونه ، ويعتقدون أنه من جنس كلام المشايخ العارفين ، الذين يتكلمون بكلام صحيح لا يفهمه كثير من الناس ، فهؤلاء تجد فيهم إسلاماً وإيماناً ، ومتابعة للكتاب والسنة بحسب إيمانهم التقليدى ، وتجد فيهم إقراراً لهؤلاء وإحساناً للظن بهم ، وتسليما لهم بحسب جهلهم وضلالهم ، ولا يتصور أن يثنى على هؤلاء إلا كافر ملحد ، أو جاهل ضال .

وهؤلاء من جنس الجهمية الذين يقولون : إن الله بذاته حال فى كل مكان ، ولكن أهل وحدة الوجود : حققوا هذا المذهب أعظم من تحقيق غيرهم من الجهمية .

وأما (النوع الثانى) : فهو قول من يقول بالحلول والاتحاد فى معين ، كالنصارى الذين قالوا بذلك فى المسيح عيسى ، والغالية الذين يقولون بذلك فى على بن أبى طالب وطائفة من أهل بيته ، والحاكمية الذين يقولون بذلك فى الحاكم ، والحلاجية الذين يقولون بذلك فى الحلاج ، واليونسية الذين يقولون

بذلك فى يونس ، وأمثال هؤلاء ممن يقول بإلهية بعض البشر ، وبالحلول والاتحاد فيه ، ولا يجعل ذلك مطلقاً فى كل شىء .

ومن هؤلاء من يقول بذلك فى بعض النسوان والمردان ، أو بعض الملوك أو غيرهم ؛ فهؤلاء كفرهم شر من كفر النصارى الذين قالوا : إن الله هو المسيح بن مريم .

وأما الأولون : فيقولون بالإطلاق . ويقولون : النصارى إنما كفروا بالتخصيص .

وأقوال هؤلاء شر من أقوال النصارى ، وفيها من التناقض من جنس ما فى أقوال النصارى ؛ ولهذا يقولون بالحلول تارة ، وبالاتحاد أخرى ، وبالوحدة تارة ، فإنه مذهب متناقض فى نفسه ؛ ولهذا يلبسون على من لم يفهمه .

فهذا كله كفر باطناً وظاهراً بإجماع كل مسلم ، ومن شك فى كفر هؤلاء بعد معرفة قولهم ومعرفة دين الإسلام فهو كافر ، كمن يشك فى كفر اليهود والنصارى والمشركين .

ولكن هؤلاء يشبهون بشىء آخر ، وهو ما يعرض لبعض العارفين فى مقام الفناء والجمع والاصطلام والسكر ، فإنه قد يعرض لأحدهم — لقوة استيلاء الوجد والذكر عليه — من الحال مايغيب فيه عن نفسه وغيره ، فيغيب بمعبوده عن عبادته ، وبمعروفه عن معرفته ، وبمذكوره عن ذكره ، وبموجوده عن وجوده .

ومثل هذا قد يعرض لبعض المحبين لبعض المخلوقين ، كما يذكرون أن رجلا كان يحب آخر فألقى المحبوب نفسه فى اليم ، فألقى المحب نفسه خلفه ، فقال له : أنا وقعت ، فما الذى أوقعك ؟ فقال : غبت بك عنى . فظننت أنك أنى .

وينشدون : —

رقّ الزجاج ، وراقت الخمـــر وتشاكلا ، فتشـــابه الأمر
فكأنما خمر ولا قـــدح وكأنما قدح ولا خمـر

وهذه الحال تعرض لكثير من السالكين ، وليست حالا لازمة لكل سالك ، ولا هى أيضاً غاية محمودة ، بل ثبوت العقل والفهم والعلم مع التوحيد باطناً وظاهراً كحال نبينا صلى الله عليه وسلم وأصحابه أكمل من هذا وأتم .

والمعنى الذى يسمونه الفناء ينقسم ثلاثة أقسام : فناء عن عبادة السوى ، وفناء عن شهود السوى ، وفناء عن وجود السوى .

فالأول : أن يفنى بعبادة الله عن عبادة ما سواه ، وبخوفه عن خوف ما سواه ، وبرجائه عن رجاء ما سواه ، وبالتوكل عليه عن التوكل على ما سواه ، وبمحبته عن محبة ما سواه ؛ وهذا هو حقيقة التوحيد والإخلاص الذى أرسل الله به رسله ، وأنزل به كتبه ، وهو تحقيق « لا إله إلا الله » فإنه يفنى من قلبه كل تأله لغير الله ، ولا يبقى فى قلبه تأله لغير الله ، وكل من كان أكمل فى هذا التوحيد كان أفضل عند الله .

والثانى : أن يفنى عن شهود ما سوى الله ، وهذا الذى يسميه كثير من الصوفية حال الاصطلام والفناء والجمع ، ونحو ذلك .

وهذا فيه فضيلة من جهة إقبال القلب على الله ، وفيه نقص من جهة عدم شهوده للأمر على ما هو عليه ؛ فإنه إذا شهد أن الله رب كل شيء ومليكه وخالقه ، وأنه المعبود لا إله إلا هو ، الذى أرسل الرسل وأنزل الكتب ، وأمر بطاعته وطاعة رسله ، ونهى عن معصيته ومعصية رسله ، فشهد حقائق أسمائه وصفاته وأحكامه خلقاً وأمراً : كان أتم معرفة وشهوداً ، وإيماناً وتحقيقاً ، من أن يفنى بشهود معنى عن شهود معنى آخر ، وشهود التفرقة فى الجمع ، والكثرة فى الوحدة ، وهو الشهود الصحيح المطابق . لكن إذا كان قد ورد على الإنسان ما يعجز معه عن شهود هذا وهذا ، كان معذوراً للعجز ، لا محموداً على النقص والجهل .

والثالث : الفناء عن وجود السوى ؛ وهو قول الملاحدة أهل الوحدة ، كصاحب الفصوص وأتباعه الذين يقولون : وجود الخالق هو وجود المخلوق ، وما ثم غير ولا سوى فى نفس الأمر .

فهؤلاء قولهم أعظم كفراً من قول اليهود والنصارى وعباد الأصنام .

وأيضاً فإن ولاية الله : هى موافقته بالمحبة لما يحب ، والبغض لما يبغض والرضا بما يرضى ، والسخط بما يسخط ، والأمر بما يأمر به ، والنهى عما ينهى عنه ، والموالاة لأوليائه ، والمعاداة لأعدائه ، كما فى صحيح البخارى

عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يقول الله تعالى : من عادى لى ولياً فقد بارزنى بالمحاربة ، وما تقرب إلىَّ عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ؛ فبى يسمع ، وبى يبصر ، وبى يبطش ، وبى يسعى ؛ ولئن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه ؛ وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن ، يكره الموت وأكره مساءته ، ولا بد له منه » فهذا أصح حديث روى فى الأولياء .

فالملاحدة والاتحادية يحتجون به على قولهم ، لقوله : « كنت سمعه وبصره ويده ورجله » والحديث حجة عليهم من وجوه كثيرة :—

منها قوله : « من عادى لى ولياً فقد بارزنى بالمحاربة » فأثبت معادياً محارباً وولياً غير المعادى ، وأثبت لنفسه سبحانه هذا وهذا .

ومنها قوله : « وما تقرب إلى عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه » فأثبت عبداً متقرباً إلى ربه ، وربا افترض عليه فرائض .

ومنها قوله : « ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه » فأثبت متقرِّباً ومتقرَّباً إليه ، ومحباً ومحبوباً غيره . وهذا كله ينقض قولهم : الوجود واحد .

ومنها قوله : « فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر

به » إلى آخره . فإنه جعل لعبده بعد محبته هذه الأمور ، وهو عندهم قبل المحبة وبعدها واحد ، وهو عندهم هذه الأعضاء : بطنه ، وفرجه ، وشعره ، وكل شيء ، لا تعدد عندهم ، ولا كثرة فى الوجود ؛ ولكن يثبتون مراتب ومجالى ومظاهر ؛ فإن جعلوها موجودة نقضوا قولهم .

وإن جعلوها ثابتة فى العدم — كما يقوله ابن عربى — أو جعلوها المعينات ، والمطلق هو الحق — كانوا قد بنوا ذلك على قول من يقول : المعدوم شيء ، وقول من جعل الكليات ثابتة فى الخارج زائدة على المعينات .

والأول : قول طائفة من المعتزلة ، وهو قول ابن عربى .

والثانى : قول طائفة من الفلاسفة ، وهو قول القونوى صاحب ابن عربى ، وكلا القولين باطلان عند العقلاء ؛ ولهذا كان التلمسانى أحذق منهما فلم يثبت شيئاً وراء الوجود .

كما قيل : —

وما البحر إلا الموج ، لا شيء غيره وإن فرقته كثرة المتعدد

لكن هؤلاء الضلال من الفلاسفة والمعتزلة ما قالوا : وجود المخلوق هو وجود الخالق ، وهؤلاء الملاحدة قالوا : هذا هو هذا ؛ ولهذا صاروا يقولون بالحلول من وجه ، لكون الوجود فى كل الذوات ، أو بالعكس ، وبالاتحاد من وجه لاتحادهما ؛ وحقيقة قولهم هى وحدة الوجود .

وفى الحديث وجوه أخرى تدل على فساد قولهم .

والحديث حق ، كما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم ، فإن ولى الله لكمال محبته لله وطاعته لله يبقى إدراكه لله وبالله ، وعمله لله وبالله ؛ فما يسمعه مما يحبه الحق أحبه وما يسمعه مما يبغضه الحق أبغضه ، وما يراه مما يحبه الحق أحبه ، وما يراه مما يبغضه الحق أبغضه ؛ ويبقى فى سمعه وبصره من النور ما يميز به بين الحق والباطل ؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث المتفق على صحته « اللهم اجعل فى قلبي نورا ، وفى بصرى نورا ، وفى سمعى نورا ، وعن يمينى نورا ، وعن يسارى نورا ، وفوقى نورا ، وتحتى نورا ، وأمامى نورا ، وخلفى نورا ، واجعل لى نورا » .

فولى الله فيه من الموافقة لله : ما يتحد به المحبوب والمكروه ، والمأمور والمنهى ونحو ذلك ، فيبقى محبوب الحق محبوبه ، ومكروه الحق مكروهه، ومأمور الحق مأموره ، وولى الحق وليه ، وعدو الحق عدوه ؛ بل المخلوق إذا أحب المخلوق محبة تامة حصل بينهما نحو من هذا ، حتى قد يتألم أحدهما بتألم الآخر ، ويلتذ بلذته .

ولهذا قال صلى الله عليه وسلم : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم : كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر» ولهذا كان المؤمن يسره ما يسر المؤمنين ، ويسوءه ما يسوءهم ، ومن لم يكن كذلك لم يكن منهم .

فهذا الاتحاد الذى بين المؤمنين : ليس هو أن ذات أحدهما هى بعينها ذات الآخر ، ولا حلت فيه ، بل هو توافقهما واتحادهما فى الإيمان بالله ورسوله وشعب ذلك : مثل محبة الله ورسوله ، ومحبة ما يحبه الله ورسوله .

فإذا كان هذا معقولا بين المؤمنين : فالعبد إذا كان موافقا لربه تعالى فيما يحبه ويبغضه ، ويأمر به وينهى عنه ، ونحو ذلك مما يحبه الرب من عبده : كيف تكون ذات أحدهما هى الأخرى أو حالة فيها ؟ .

فإذا عرفت هذه الأصول من الحلول والاتحاد المطلق والمعين ، الذى هو باطل ، ومما هو من أحوال أهل الإيمان ، ومن ولاية الله تعالى وموافقته فيما يحبه ويرضاه وتوابع ذلك : تبين لك جواب مسائل السائل .

وهؤلاء قد يجدون من كلام بعض المشايخ — كلمات مشتبهة مجملة — فيحملونها على المعانى الفاسدة ، كما فعلت النصارى فيما نقل لهم عن الأنبياء ، فيدعون المحكم ، ويتبعون المتشابهة .

فقول القائل : إن الرب والعبد شيء واحد ، ليس بينهما فرق : كفر صريح ، لا سيما إذا دخل فى ذلك كل عبد مخلوق ؛ وأما إذا أراد بذلك عباد الله المؤمنين وأولياءه المتقين ؛ فهؤلاء يحبهم ويحبونه ، ويوافقونه فيما يحبه ويرضاه ويأمر به ؛ فقد رضى الله عنهم ورضوا عنه .

ولما رضوا ما يرضى وسخطوا ما يسخط : كان الحق يرضى لرضاهم ويغضب لغضبهم ؛ إذ ذلك متلازم من الطرفين .

ولا يقال فى أفضل هؤلاء : إن الرب والعبد شىء واحد ليس بينهما فرق ؛ لكن يقال لأفضل الخلق كما قال الله تعالى : (إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) وقال : (مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ) وقال : (وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ) وقال : (إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ) وأمثال ذلك .

وأما سائر العباد : فإن الله خالقهم ومالكهم وربهم ، وخالق قدرتهم وأفعالهم ، ثم ما كان من أفعالهم موافقا لمحبته ورضاه : كان محبا لأهله مكرما لهم ، وما كان منها مما يسخطه ويكرهه : كان مبغضا لأهله مهينا لهم .

وأفعال العباد مفعولة مخلوقة لله ، ليست صفة له ، ولا فعلا قائما بذاته .

وقوله تعالى : (وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ) فمعناه : وما أوصلت إذ حذفت ، ولكن الله أوصل المرمى ؛ فإن النبى صلى الله عليه وسلم كان قد رمى المشركين بقبضة من تراب ، وقال : « شاهت الوجوه » فأوصلها الله إلى وجوه المشركين وعيونهم ؛ وكانت قدرة النبى صلى الله عليه وسلم عاجزة عن إيصالها إليهم ، والرمى له مبدأ ، وهو الحذف ، ومنتهى وهو الوصول ؛ فأثبت الله لنبيه المبدأ بقوله : « إذ رميت » ونفى عنه المنتهى ، وأثبته لنفسه بقوله : (وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ) وإلا فلا يجوز أن يكون المثبت عين المنفى ؛ فإن هذا تناقض .

والله تعالى ـ مع أنه هو خالق أفعال العباد ـ فإنه لا يصف نفسه بصفة من قامت به تلك الأفعال ؛ فلا يسمى نفسه مصلياً ولا صائماً ، ولا آكلا ولاشاربا سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيراً .

وقول القائل : « ما ثم غير » إذا أراد به ما يريده أهل الوحدة ، أى ما ثم غيرٌ موجودٌ سوى الله : فهذا كفر صريح . ولو لم يكن ثم غير لم يقل : (أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا) ولم يقل (أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ) فإنهم كانوا يأمرونه بعبادة الأوثان ، فلو لم يكن غير الله لم يصح قوله : (أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ) ولم يقل : (أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا) ولم يقل الخليل (أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ) ولم يقل : (إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ) فإن ابراهيم لم يعاد ربه ، ولم يتبرأ من ربه ؛ فإن لم تكن تلك الآلهة التى كانوا يعبدونها هم وآباؤهم الأقدمون غير الله : لكان إبراهيم قد تبرأ من الله وعادى الله ، وحاشا إبراهيم من ذلك .

وهؤلاء الملاحدة فى أول أمرهم ينفون الصفات ، ويقولون : القرآن هو الله ، أو غير الله . فإذا قيل لهم : غير الله . قالوا : فغير الله مخلوق .

وفى آخر أمرهم يقولون : ما ثم موجود غير الله ، أو يقولون العالم لا هو الله ولا هو غيره .

ويقولون :

وكل كلام فى الوجـود كلامه ســـواء عاينـا نثره ونظامه

فينـكرون على أهل السنة إذا أثبتوا الصفات ، ولم يطلقوا عليها اسم الغير ، وهم لا يطلقون على المخلوقات اسم الغير ، وقد سمعت هذا التناقض من مشايخهم ، فإنهم فى ضلال مبين .

وأما قول الشاعر فى شعره :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا ؟

وقوله : إذا كنت ليلى وليـــلى أنا .

فهذا إنما أراد به هذا الشاعر الاتحاد الوضعى ، كاتحاد أحد المتحابين بالآخر ، الذى يحب أحدهما ما يحب الآخر ، ويبغض ما يبغض ، ويقول مثل ما يقول ، ويفعل مثل ما يفعل ؛ وهو تشـابه وتماثل ، لا اتحاد العين بالعين ، إذ كان قد استغرق فى محبوبه حتى فنى به عن رؤية نفسه ، كقول الآخر :

غبت بك عـــنى فظننـت أنك أنى

فإما أن يكون غالطاً مستغرقاً بالفناء ، أو يكون عنى التماثل والتشـــابه ، واتحاد المطلوب والمرهوب ، لا الاتحاد الذاتى . فإن أراد الاتحاد الذاتى — مع عقله لمـا يقول — فهو كاذب مفتر ، مستحق لعقوبة المفترين .

وأما قول القائل : لو رأى الناس الحق لمـا رأوا عابداً ولا معبوداً : فهذا من جنس قول الملاحدة الاتحادية ، الذين لا يفرقون بين الرب والعبد ؛

وقد تقدم بيان قول هؤلاء ، وهؤلاء يجمعون بين الضلال والغى ، بين شهوات الغى فى بطونهم وفروجهم ، وبين مضلات الفتن .

وفى الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن أخوف ما أخاف عليكم شهوات الغى فى بطونكم وفروجكم » حتى يبلغ الأمر بأحدهم إلى أن يهوى المردان ، ويزعم أن الرب تعالى تجلى فى أحـــدهم ، ويقولون : هو الراهب فى الصومعة ، وهذه مظاهر الجمال ، ويقبل أحدهم: الأمرد ، ويقول : أنت الله .

ويذكر عن بعضهم أنه كان يأتى ابنه ، ويدعى أنه الله رب العالمين ، أو أنه خلق السموات والأرض ، ويقول أحدهم لجليسه : أنت خلقت هذا ، وأنت هو ، وأمثال ذلك .

فقبح الله طائفة يكون إلهها الذى تعبده هو موطوءها الذى تفترشه ، وعليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منهم صرفاً ولا عدلا .

ومن قال : إن لقول هؤلاء سراً خفياً وباطن حق ، وأنه من الحقائق التى لا يطلع عليها إلا خواص الخلق : فهو أحد رجلين ـ إما أن يكون من كبار الزنادقة أهل الإلحاد والمحال ، وإما أن يكون من كبار أهل الجهل والضلال . فالزنديق يجب قتله ، والجاهل يعرف حقيقة الأمر ، فإن أصر على هذا الاعتقادالباطل بعد قيام الحجة عليه وجب قتله .

ولكن لقولهم سر خفي وحقيقة باطنة لا يعرفها إلا خواص الخلق . وهذا السر هو أشد كفراً وإلحاداً من ظاهره ؛ فإن مذهبهم فيه دقة وغموض وخفاء قد لا يفهمه كثير من الناس .

ولهذا تجد كثيراً من عوام أهل الدين والخير والعبادة ينشد قصيدة ابن الفارض ، ويتواجد عليها ويعظمها ، ظانا أنها من كلام أهل التوحيد والمعرفة ، وهو لا يفهمها ولا يفهم مراد قائلها ؛ وكذلك كلام هؤلاء يسمعه طوائف من المشهورين بالعلم والدين ، فلا يفهمون حقيقته ، فإما أن يتوقفوا عنه أو يعبروا عن مذهبهم بعبارة من لم يفهم حقيقته ؛ وإما أن ينكروه إنكاراً مجملا من غير معرفة بحقيقته ، ونحو ذلك ، وهذا حال أكثر الخلق معهم .

وأئمتهم إذا رأوا من لم يفهم حقيقة قولهم طمعوا فيه ، وقالوا : هذا من علماء الرسوم ، وأهل الظاهر ، وأهل القشر ، وقالوا : علمنا هذا لا يعرف إلا بالكشف والمشاهدة ، وهذا يحتاج إلى شروط ، وقالوا : ليس هذا عشك فادرج عنه ، ونحو ذلك مما فيه تعظيم له وتشويق إليه ، وتجهيل لمن لم يصل إليه .

وإن رأوه عارفاً بقولهم نسبوه إلى أنه منهم ، وقالوا : هو من كبار العارفين .

وإذا أظهر الإنكار عليهم والتكفير قالوا : هذا قام بوصف الإنكار لتكميل المراتب والمجالى .

وهكذا يقولون فى الأنبياء ونهيهم عن عبادة الأصنام .

وهذا كله وأمثاله مما رأيته وسمعته منهم .

فضلالهم عظيم وإفكهم كبير ، وتلبيسهم شديد . والله تعالى يظهر ما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً ، والله أعلم .

فصـــــل

فيما عليه أهل العلم والإيمان من الأولين والآخرين ، مما يشبه الاتحاد والحلول الباطل وهو حق ـ وإن سمى حلولا أو اتحاداً ـ وهو ما عليه أهل الإسلام وأهل السنة والجماعة ، وأهل المعرفة واليقين من جميع الطوائف بدلالة الكتاب والسنة .

أما الحلول : فلا ريب أن من علم شيئاً فلا بد أن يبقى فى قلبه منه أثر ونعت ، وليس حاله بعد العلم به كحاله قبل العلم به ، حتى يكون العلم نسبة محضة بمنزلة العلو والسفول . فإن المستعلى إذا نزل زال علوه ، والسافل إذا اعتلى زال سفوله ، والعلم لا يزول ؛ بل يبقى أثره بكل حال ؛ فإذا كان مع العلم به يحبه أو يرجوه أو يخافه : كان لهذه الأحوال أثر ونعت آخر وراء العلم والشعور ، وإن كانا قد يتلازمان .

فإذا ذكره بلسانه : كانت هذه الآثار أعظم . وإذا خضع له بسائر جوارحه: كان ذلك أعظم وأعظم .

وهذه المعانى هى فى الأصل مشتركة فى كل مدرِك ومدرَك ، ومحب ومحبوب ، وذاكر ومذكور ، وسواء كان على وجه العبادة ، كعبادة الله

وحده لا شريك له ، أو عبادة الأنداد من الذين اتخذوا من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ، أو على غير وجه العبادة ، كمحب الإخوان والولدان ، والنسوان والأوطان ، وغير ذلك من الأكوان .

فالمؤمن الذى آمن بالله بقلبه وجوارحه إيمانه يجمع بين علم قلبه وحال قلبه : تصديق القلب وخضوع القلب ، ويجمع قول لسانه وعمل جوارحه ، وإن كان أصل الإيمان هو ما فى القلب أو ما فى القلب واللسان ؛ فلا بد أن يكون فى قلبه التصديق بالله والإسلام له ، هذا قول قلبه ، وهذا عمل قلبه ، وهو الإقرار بالله .

والعلم قبل العمل ، والإدراك قبل الحركة ، والتصديق قبل الإسلام ، والمعرفة قبل المحبة ، وإن كانا يتلازمان ؛ لكن علم القلب موجب لعمله ، ما لم يوجد معارض راجح ، وعمله يستلزم تصديقه ، إذ لا تكون حركة إرادية ولا محبة إلا عن شعور ، لكن قد تكون الحركة والمحبة فيها فساد إذا لم يكن الشعور والإدراك صحيحاً .

قال عمر بن عبد العزيز : « من عبد الله بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح » فأما العمل الصالح بالباطن والظاهر : فلا يكون إلا عن علم ، ولهذا أمر الله ورسوله بعبادة الله والإنابة إليه ، وإخلاص الدين له ونحو ذلك ، فإن هذه الأسماء تنتظم العلم والعمل جميعاً : علم القلب وحاله ، وإن دخل فى ذلك قول اللسان وعمل الجوارح أيضاً ، فإن وجود الفروع الصحيحة مستلزم لوجود الأصول ؛ وهذا ظاهر ، ليس الغرض هنا بسطه ، وإنما الغرض

(فصل) ، وهو أن المؤمن لا بد أن يقوم بقلبه من معرفة الله والمحبة له : ما يوجب أن يكون للمعروف المحبوب فى قلبه من الآثار ما يشبه الحلول من بعض الوجوه ، لا أنه حلول ذات المعروف المحبوب ، لكن هو الإيمان به ومعرفة أسمائه وصفاته .

قال الله تعالى : (ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ) الآية قال أبى ابن كعب : « مثل نوره فى قلب المؤمن » فهذه هى الأنوار التى تحصل فى قلوب المؤمنين .

وقد قيل فى قوله تعالى : (وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ) إنه الكفر بذلك ؛ فإن من كفر بالإقرار الذى هو التصديق بالله وملائكته وكتبه ورسله والإسلام له : المتضمن للاعتقاد والانقياد لإيجاب الواجبات ، وتحريم المحرمات ، وإباحة المباحات : فهو كافر ؛ إذ المقصود لنا من إنزال الكتب وإرسال الرسل هو حصول الإيمان لنا ، فمن كفر بهذا فهو كافر بذاك ، وهذا قد يسمى المثل والمثال ؛ لأنه قد يقال : إن العلم مثال المعلوم فى العالم ، وكذلك الحب يكون فيه تمثيل المحبوب فى المحب .

ثم من الناس من يدعى أن كل علم وكل حب ففيه هذا المثال ، كما يقوله قوم من المتفلسفة ، ومنهم من ينكر حصول شىء من هذا المثال فى شىء من العلم والحب .

والتحقيق : أنه قد يحصل تمثل وتخيل لبعض العالمين والمحبين ، حتى

يتخيل صورة المحبوب ، وقد لا يحصل تخيل حسى . وليس هذا المثل من جنس الحقيقة أصلا ؛ وإنما لما كان العلم مطابقا للمعلوم وموافقا له ، غير مخالف له ، كان بين المطابق والمطابق ، والموافق والموافق نوع تناسب وتشابه ، ونوع ما من أنواع التمثيل ، فإن المثل يضرب للشيء لمشاركته إياه من بعض الوجوه ، وهنا قطعا اشتراك ما واشتباه ما .

وقد قيل فى قوله تعالى : (لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ) وقوله : (وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ) أنه هذا ، وفى حديث مأثور : « ما وسعنى أرضى ولا سمائى ، ووسعنى قلب عبدى المؤمن النقى التقى الوادع اللين » ويقال : القلب بيت الرب ، وهذا هو نصيب العباد من ربهم ، وحظهم من الإيمان به ، كما جاء عن بعض السلف أنه قال : إذا أحب أحدكم أن يعلم كيف منزلته عند الله ؟ فلينظر كيف منزلة الله من قلبه ؟ فإن الله ينزل العبد من نفسه حيث أنزله العبد من قلبه .

وروى مرفوعا من حديث أيوب بن عبد الله بن خالد بن صفوان ، عن جابر بن عبد الله ، رواه أبو يعلى الموصلى ، وابن أبى الدنيا فى كتاب الذكر ، ولهذا قال أبناء يعقوب : (نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ) ، فإن ألوهية الله متفاوتة فى قلوبهم على درجات عظيمة تزيد وتنقص ، ويتفاوتون فيها تفاوتا لا ينضبط طرفاه ، حتى قد ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم فى حق شخصين : « هذا خير من ملء الأرض من مثل هذا » فصار واحد

من الآدميين خيراً من ملء الأرض من بنى جنسه ، وهذا تباين عظيم لا يحصل مثله فى سائر الحيوان .

وإلى هذا المعنى أشار من قال : « ما سبقكم أبو بكر بفضل صلاة ولا صيام ، ولكن بشىء وقر فى قلبه» . وهو اليقين والإيمان . ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : « وزنت بالأمة فرجحت ، ثم وزن أبو بكر بالأمة فرجح ، ثم وزن عمر بالأمة فرجح ، ثم رفع الميزان » وقال صلى الله عليه وسلم ، فيما رواه عنه الصديق « أيها الناس : سلوا الله اليقين والعافية ، فلم يعط أحد بعد اليقين خيراً من العافية » رواه الترمذى والنسائى فى اليوم والليلة وابن ماجه ، وقال رقبة بن مصقلة للشعبي : « رزقك الله اليقين الذى لا تسكن النفوس إلا إليه ، ولا يعتمد فى الدين إلا عليه » .

وفى كتاب الزهد للإمام أحمد عن . . . . قال قال موسى : « يارب أين أجدك ؟ قال : يا موسى ، عند المنكسرة قلوبهم من أجلى ، أقترب إليها كل يوم شبراً ، ولولا ذلك لاحترقت قلوبهم » .

وقد يتوسع فى العبارة عن هذا المعنى ، حتى يقال : ما فى قلبي إلا الله ، ما عندى إلا الله ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح عن الله عز وجل : « أما علمت أن عبدى فلاناً مرض ؟ فلو عدته لوجدتنى عنده » ويقال :

ساكن فى القلب يعمره لست أنساه فأذكره

ويقال :

مشـــالك فى عينى ، وذكراك فى فمى

ومشـــواك فى قلبى ، فأين تغيب ؟

وهذا القدر يقوى قوة عظيمة ، حتى يعبر عنه بالتجلى والكشف ونحو ذلك باتفاق العقلاء ، ويحصل معه القرب منه ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد » وقال الله تعالى فى الحديث القدسى « من تقرب إلى شبراً تقربت إليه ذراعاً » .

لكن هل فى تقرب العبد إلى الله حركة إلى الله أو إلى بعض الأماكن ؟ اتفقوا على أنه قد تحصل حركة بدن العبد إلى بعض الأمكنة المشرفة ، التى يظهر فيها الإيمان بالله من معرفته وذكره وعبادته ، كالحج إلى بيته ، والقصد إلى مساجده ، ومنه قول إبراهيم : (إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ) .

وأما حركة روحه إلى مثل السموات وغيرها من الأمكنة : فأقر به جمهور أهل الإسلام ، وأنكره الصابئة الفلاسفة المشاءون ومن وافقهم ، وحركة روحه أو بدنه إلى الله أقر بها أهل الفطرة ، وأهل السنة والجماعة ، وأنكرها كثير من أهل الكلام .

وأما القرب من الله إلى عبده : هل هو تابع لتقرب العبد وتقريبه الذى هو عليه أو عمله ، أو هناك قرب آخر من الرب ؟ .

هذا فيه كلام ليس هذا موضعه .

ومن لم يثبت إلا الأول : فهم فى قرب الرب على قولين : —

أحدهما : أنه تجليه وظهوره له .

والثانى : أنه مع ذلك دنو العبد منه ، واقترابه الذى هو بعمله وحركته :
وللقرب معنى آخر : وهو التقارب بمعنى المناسبة ، كما يقال : هذا يقارب هذا .
وليس هذا موضعه .

فصل

وأما ما يشبه الاتحاد : فإن الذاتين المتميزتين لا تتحد عين إحداهما بعين الأخرى ، ولا عين صفتها بعين صفتها ، إلا إذا استحالتا بعد الاتحاد إلى ذات ثالثة ، كاتحاد الماء واللبن ، فإنهما بعد الاتحاد شىء ثالث ، وليس ماء محضاً ولا لبناً محضاً .

وأما اتحادهما وبقاؤهما بعد الاتحاد على ما كانا عليه فمحال ، ومن هنا يعلم أن الله لا يمكن أن يتحد بخلقه ، فإن استحالته محال ؛ وإنما تتحد الأسباب والأحكام فى العين ، وتتحد الأسماء والصفات فى النوع - مثل المتحابين المتخالين الذين صار أحدهما يحب عين ما يحبه الآخر ، ويبغض ما يبغضه ، ويتنعم بما يتنعم به ويتألم بما يتألم به ؛ وهذا فيه مراتب ودرجات لا تنضبط ؛ فأسماؤهما وصفاتهما صارتا من نوع واحد .

وعين الأحكام والأسباب المتعلقة بهما ، التى هى - مثــلا - المحبوب والمكروه هو واحـد بالعين ، كالرسول الذى يحبه كل المؤمنين ؛ فهم متحدون فى محبته ، بمعنى أن محبوبهم واحد ، ومحبة هذا من نوع محبته هذا ؛ لا أنها عينها .

فهذا فى اتحاد الناس بعضهم ببعض ، وهى الأخوة والخلة الإيمانية ، التى قال فيها النبي صلى الله عليه وسلم : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » أخرجاه فى الصحيحين ، فجعل المؤمن مع المؤمن بمنزلة العضو مع العضو اللذين تجمعهما نفس واحدة .

ولهذا سمى الله الأخ المؤمن نفساً لأخيه فى غير موضع من الـكتاب والسنة قال تعالى : (فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ) وقال : (لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ) وقال : (لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ) وقال : (فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ) وقال : (فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ) .

فالعبد المؤمن إذا أناب إلى ربه ، وعبده ووافقه حتى صار يحب ما يحب ربه ، ويكره ما يكره ربه ، ويأمر بما يأمر به ربه ، وينهى عما ينهى عنه ربه ، ويرضى بما يرضى ربه ، ويغضب لما يغضب له ربه ، ويعطى من أعطاه ربه ، ويمنع من منع ربه ، فهو العبد الذى قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو داود من حديث القاسم عن أبى أمامة : « من أحب لله ، وأبغض

لله ، وأعطى لله ، ومنع لله ، فقد استكمل الإيمان » وصار هذا العبد دينه كله لله ، وأتى بما خلق له من العبادة .

فقد اتحدت أحكام هذه الصفات التى له وأسبابها بأحكام صفات الرب وأسبابها .

وهم فى ذلك على درجات ؛ فإن كان نبياً كان له من الموافقة لله ما ليس لغيره ، والمرسلون فوق ذلك ، وأولو العزم أعظم ، ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم له الوسيلة العظمى فى كل مقام .

فهذه الموافقة هى الاتحاد السائغ ، سواء كان واجباً أو مستحباً ، وفى مثل هذا جاءت نصوص الكتاب والسنة . قال الله تعالى : (إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) وقال : (وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ) وقال تعالى : (مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ) وقال تعالى : (إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ) وقال تعالى : (أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ) وقال تعالى : (قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ) .

ومن هذا الباب قول المسيح — إن ثبت هذا اللفظ عنه — « أنا وأبى واحد ، من رآنى فقد رأى أبى » ونحو ذلك ؛ فإنه مثل قوله تعالى : (إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ) وقوله : (مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ) ونحو ذلك من اللفظ الذى فيه تشابه .

فصـــــــل

وجاء فى « أولياء الله » الذين هم المتقون نوع من هذا : فروى البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم : « يقول الله تعالى : من عادى لى ولياً فقد بارزنى بالمحـاربة ، وما تقرب إلى عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ؛ فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، ولئن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه ، وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن ، يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه» .

فأول ما فى الحديث قوله : « من عادى لى ولياً فقد بارزنى بالمحاربة » فجعل معاداة عبده الولى معاداة له ؛ فعين عدوه عين عدو عبده ، وعين معاداة وليه عين معاداته ، ليسا هما شيئين متميزين ، ولكن ليس الله هو عين عبده ، ولا جهة عداوة عبده عين جهة عداوة نفسه ، وإنما اتفقا فى النوع .

ثم قال : « فإذا أحببته كنت سمعه وبصره ويده ورجله » وفى رواية فى غير الصحيح : « فبى يسـمع ، وبى يبصر ، وبى يبطش ، وبى يمشى » فقوله :

بى يسمع وبى يبصر ، وبى يبطش ، وبى يمشى » بين معنى قوله : « كنت سمعه وبصره ويده ورجله » لا أنه يكون نفس الحدقة والشحمة والعصب والقدم ، وإنما يبقى هو المقصود بهذه الأعضاء والقوى وهو بمنزلتها فى ذلك ، فإن العبد بحسب أعضائه وقواه يكون إدراكه وحركته ؛ فإذا كان إدراكه وحركته بالحق ؛ ليس بمعنى خلق الإدراك والحركة ، فإن هذا قدر مشترك فيمن يحبه وفيمن لا يحبه ، وإنما للمحبوب الحق من الحق من هذه الإعانة بقدر ما له من المعية والربوبية والإلهية ؛ فإن كل واحدة من هذه الأمور عامة وخاصة .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم : « يقول الله تعالى : عبدى ! مرضت فلم تعدنى ، فيقول : رب ! كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ فيقول : أما علمت أن عبدى فلاناً مرض ؟ فلو عدته لوجدتنى عنده . عبدى ! جعت فلم تطعمنى . فيقول : رب ! كيف أطعمك ، وأنت رب العالمين ؟ فيقول : أما علمت أن عبدى فلاناً جاع ؟ فلو أطعمته لوجدت ذلك عندى » ففى هذا الحديث ذكر المعنيين الحقين ، ونفى المعنيين الباطلين ، وفسرهما .

فقوله : « جعت ومرضت » لفظ اتحاد يثبت الحق .

وقوله : « لوجدتنى عنده ، ووجدت ذلك عندى » نفى للاتحاد العينى بنفى الباطل ، وإثبات لتميز الرب عن العبد .

وقوله : « لوجدتنى عنده » لفظ ظرف ، وبكل يثبت المعنى الحق من الحلول الحق ، الذى هو بالإيمان لا بالذات .

ويفسر قوله : « مرضت فلم تعدنى » فلو كان الرب عين المريض والجائع لكان إذا عاده وإذا أطعمه يكون قد وجده إياه ، وقد وجده قد أكله .

وفى قوله فى المريض : « وجدتنى عنده » وفى الجائع : « لوجدت ذلك عندى » فرقان حسن ، فإن المريض الذى تستحب عيادته ويجد الله عنده : هو المؤمن بربه ، الموافق لإلهه الذى هو وليه ، وأما الطاعم فقد يكون فيه عموم لكل جائع يستحب إطعامه ، فإن الله يقول : ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ فمن تصدق بصدقة واجبة أو مستحبة : فقد أقرض الله سبحانه بما أعطاه لعبده .

وقد ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ـ ولا يقبل الله إلا الطيب ـ فإن الله يأخذها بيمينه فيربيها كما يربى أحدكم فلوه ، أو فصيله ، حتى تكون مثل الجبل العظيم » وقال : « إن الصدقة لتقع بيد الحق قبل أن تقع بيد السائل » .

لكن الأشبه : أن هذا العبد المذكور فى الجوع هو المذكور فى المرض ، وهو العبد الولى الذى فيه نوع اتحاد ، وإن كان الله يثيب على طعام الفاسق والذمى .

ونظير القرض : النصر فى مثل قوله تعالى : ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾

إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ) وقوله : (إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ) ونحو ذلك ، لكن النصر فيه معنى ؛ لكن لا يقال فى مثله جعت .

فقد ذكر الله فى القرآن القرض والنصر ، وجعله له ، هذا فى الرزق ، وهذا فى النصر ، وجاء فى الحديث العيادة ، وهذه الثلاثة هى المذكورة فى قوله تعالى : (وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ) وقوله : (مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ) وإنما فى الحديث أمر البأساء والضراء فقط ، لأن ذلك ينفرد به الواحد المخاطب بقوله : « عبدى مرضت وجعت » فلذلك عاتبه .

وأما النصر : فيحتاج فى العادة إلى عدد ، فلا يعتب فيه على أحد معين غالبا ، أو المقصود بالحديث التنبيه ، وفى القرآن النصر والرزق ، وليس فيه العيادة ؛ لأن النصر والقرض فيه عموم لا يختص بشخص دون شخص .

وأما العيادة : فإنما تكون لمن يجد الحق عنده .

فصـــــل

فهذان المعنيان صحيحان ثابتان ، بل هما حقيقة الدين واليقين والإيمان .

أما الأول — وهو كون الله فى قلبه بالمعرفة والمحبة — : فهذا فرض على كل أحد ولا بد لكل مؤمن منه ؛ فإن أدى واجبه فهو مقتصد ؛ وإن ترك بعض واجبه فهو ظالم لنفسه ؛ وإن تركه كله فهو كافر بربه.

وأما الثانى — وهو موافقة ربه فيما يحبه ويكرهه ، ويرضاه ويسخطه — فهذا على الإطلاق إنما هو للسابقين المقربين : الذين تقربوا إلى الله بالنوافل - التى يحبها ولم يفرضها - بعد الفرائض التى يحبها ويفرضها ويعذب تاركها .

ولهذا كان هؤلاء لما أتوا بمحبوب الحق من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة ، المنتظمة للمعارف والأحوال والأعمال : أحبهم الله تعالى . فقال : « ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه » فعلوا محبوبه فأحبهم ؛ فإن الجزاء من جنس العمل ، مناسب له مناسبة المعلول لعلته .

ولا يتوهم أن المراد بذلك : أن يأتى العبد بعين كل حركة يحبها الله ؛ فإن هذا ممتنع . وإنما المقصود أن يأتى بما يقدر عليه من الأعمال الباطنة والظاهرة ؛

والباطنة يمكنه أن يأتى منها بأكثر مما يأتى به من الظاهرة ، كما قال بعض السلف : « قوة المؤمن فى قلبه ، وضعفه فى جسمه ، وقوة المنافق فى جسمه ، وضعفه فى قلبه » ولهذا قال صلى الله عليه وسلم : « المرء مع من أحب » وقال : إن بالمدينة لرجالا ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم ، حبسهم العذر» وقال : « فهما فى الأجر سواء » فى حديث القادر على الإنفاق والعاجز عنه ، الذى قال : « لو أن لى مثل ما لفلان لعملت فيه مثل ما عمل » فإنهما لما استويا فى عمل القلب وكان أحدهما معذور الجسم استويا فى الجزاء ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : « إذا مرض العبد أو سافر كتب له من العمل مثل ما كان يعمل وهو صحيح مقيم » .

فصل

وقد يقع بعض من غلب عليه الحال فى نوع من الحلول أو الاتحاد ؛ فإن الاتحاد فيه حق وباطل ، لكن لما ورد عليه ما غيب عقله أو أفناه عما سوى محبوبه ، ولم يكن ذلك بذنب منه : كان معذوراً غير معاقب عليه ما دام غير عاقل ، فإن القلم رفع عن المجنون حتى يفيق ؛ وإن كان مخطئاً فى ذلك كان داخلا فى قوله : (رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا) وقال : (وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ) .

وهذا كما يحكى أن رجلين كان أحدهما يحب الآخر فوقع المحبوب فى اليم ، فألقى الآخر نفسه خلفه . فقال : أنا وقعت ، فما الذى أوقعك ؟ فقال : غبت بك عنى ، فظننت أنك أنى .

فهذه الحال تعترى كثيراً من أهل المحبة والإرادة فى جانب الحق ، وفى غير جانبه ؛ وإن كان فيها نقص وخطأ فإنه يغيب بمحبوبه عن حبه وعن نفسه ، وبمذكوره عن ذكره ، وبمعروفه عن عرفانه ، وبمشهوده عن شهوده ، وبموجوده عن وجوده ، فلا يشعر حينئذ بالتمييز ولا بوجوده ؛ فقد يقول فى هذه الحال : أنا الحق أو سبحانى ، أو ما فى الجبة إلا الله ونحو ذلك ، وهو سكران بوجد المحبة الذى هو لذة وسرور بلا تمييز .

وذلك السكران : يطوى ولا يروى إذا لم يكن سكره بسبب محظور .

فأما إذا كان السبب محظوراً : لم يكن السكران معذوراً .

وأما أهل الحلول : فمنهم من يغلب عليه شهود القلب وتجليه ، حتى يتوهم أنه رأى الله بعينى رأسه .

ولهذا ذكر ذلك طائفة من العباد الأصحاء ، غلطاً منهم .

وقد ثبت فى صحيح مسلم عن النواس بن سمعان : « أن النبي صلى الله عليه وسلم لما ذكر الدجال ، ودعواه الربوبية ، قال : واعلموا أن أحداً منكم لن يرى ربه حتى يموت » وروى هذا المعنى عن النبي صلى الله عليه وسلم من وجوه أخرى متعددة حسنة فى حديث الدجال .

فإنه لما ادعى الربوبية ذكر النبي صلى الله عليه وسلم فرقانين ظاهرين لكل أحد .

أحدهما : أنه أعور ، والله ليس بأعور .

الثانى : أن أحدا منا لن يرى ربه حتى يموت ، وهذا إنما ذكره فى الدجال مع كونه كافراً ، لأنه يظهر عليه من الخوارق التى تقوى الشبهة فى قلوب العامة .

فصـــــــل

فإذا عرف الاتحاد المعين مما يشبه الحلول أو الاتحاد الذى فيه نوع حق تبين أيضاً ما فى المطلق من ذلك .

فنقول : لاريب أن الله رب العالمين ، رب السموات والأرضين وما بينهما ورب العرش العظيم ، رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا ، ربكم ورب آبائكم الأولين ، رب الناس ملك الناس إله الناس . وهو خالق كل شيء ، وهو على كل شيء وكيل ، خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى .

وهو رب كل شيء ومليكه ، وهو مالك الملك ؛ يؤتى الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء ، بيده الخير وهو على كل شيء قدير ، له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ، الرحمن على العرش استوى ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير (مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ) .

قلوب العباد ونواصيهم بيده ، وما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن ، إن شاء أن يقيمه أقامه ، وإن شاء أن يزيغه أزاغه . وهو الذى

أضحك وأبكى ، وأغنى وأقنى ، وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته ، وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها ، ويبث فيهما من كل دابة .

وهو الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون . (فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ) وهو الله لا إله إلا هو ، له الحمد فى الأولى والآخرة ، وله الحكم وإليه ترجعون ، وهو الحى القيوم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم ، وهو القائم بالقسط القائم على كل نفس بما كسبت ، الخالق البارئ المصور . وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها . وما شاء الله لا قوة إلا بالله فما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ولا ملجأ منه إلا إليه .

فهذه المعانى وما أشبهها من معانى ربوبيته وملكه ، وخلقه ورزقه ، وهدايته ونصره ، وإحسانه وبره ، وتدبيره وصنعه ، ثم ما يتصل بذلك من أنه بكل شيء عليم ، وعلى كل شيء قدير ، وأنه سميع بصير ، لا يشغله سمع عن سمع ، ولا تغلطه المسائل ، ولا يتبرم بإلحاح الملحين ، يبصر دبيب النملة السوداء فى الليلة الظلماء على الصخرة الصماء .

فهذا كله حق . وهو محض توحيد الربوبية ؛ وهو مع هذا قد أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ، وأحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين .

وهذا صنع الله الذى أتقن كل شيء والخير كله بيديه ، وهو أرحم الراحمين ، وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها ، كما أقسم على ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « والله ، لله أرحم بعباده من هذه الوالدة بولدها » إلى نحو هذه المعانى التى تقتضى شمول حكمته وإتقانه ، وإحسانه خلق كل شيء ، وسعة رحمته وعظمتها ، وأنها سبقت غضبه ، كل هذا حق .

فهذان الأصلان عموم خلقه وربوبيته ، وعموم إحسانه وحكمته : أصلان عظيمان ، وإن كان من النـاس من يكفر ببعض الأول ، كالقدرية الذين يخرجون أفعال العباد عن خلقه ، ويضيفونها إلى محض فعل ذى الاختيار ، أو الطبيعة الذين يقطعون إضافة الفعل إلى الله سبحانه ، ويضيفونه إما إلى الطبع ، أو إلى جسم فيه طبع ، أو إلى فلك ، أو إلى نفس أو غير ذلك ممـا هو من مخلوقاته العاجزة عن إقامة نفسها ، فهى عن إقامة غيرها أعجز .

ومن الناس من يجحد بعض الثانى ، أو يعرض عنه ، متوهما خلو شيء من مخلوقاته عن إحسان خلقه وإتقانه ، وعن حكمته ، ويظن قصور رحمته . وعجزها ، من القدرية الإبليسية ، أو المجوسية وغيرهم .

وإذا كان كذلك : فجميع الكائنات آيات له ، شاهدة دالة مظهرة لمـا هو مستحق له من الأسماء الحسنى ، والصفات العلى ؛ وعن مقتضى أسمائه وصفاته خلق الـكائنات .

فإن الرحم شجنة من الرحمن ، خلق الرحم وشق لها من اسمه ؛ وهو الرازق

ذو القوة المتين ، يرزق من يشاء بغير حساب ، وهو الهادى النصير ، يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ، وينصر رسله والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد . وهو الحكيم العليم الرحيم ، الذى أظهر من آثار علمه وحكمته ورحمته ما لا يحصيه إلا هو .

فهو رب العالمين ، والعالمون ممتلئون بما فيهم من آثار أسمائه وصفاته، وكل شيء يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، من الناس من يدرك ما فيها من الدلالة والشهادة بالعلم والمعرفة . ومن خرق الله سمعه سمع تأويب الجبال والطير ، وعلم منطق الطير .

فإذا فسر ظهوره وتجليه بهذا المعنى : فهذا صحيح ، ولكن لفظ الظهور والتجلى فيه إجمال ، كما سنبينه إن شاء الله تعالى .

وإذا قال القائل : ما رأيت شيئا إلا ورأيت الله قبله ، لأنه ربه ، والرب متقدم على العبد ، أو رأيت الله بعده ؛ لأنه آيته ودليله وشاهده ؛ والعلم بالمدلول بعد الدليل ، أو رأيت الله فيه ، بمعنى ظهور آثار الصانع فى صنعته ، فهذا صحيح . بل القرآن كله يبين هذا ويدل عليه ، وهو دين المرسلين ، وسبيل الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وهو اعتقاد المسلمين أهل السنة والجماعة ، ومن يدخل فيهم من أهل العلم والإيمان ، ذوى المعرفة واليقين أولياء الله المتقين .

فصـــــل
في الغلط في ذلك

ثم إن كثيراً من أهل التوجه إلى الله إذا أقبلوا على ذكره وعبادته والإنابة إليه : شهدوا بقلوبهم هذه الربوبية الجامعة ، وهذه الإحاطة العامة ، فإنه بكل شيء محيط ، وهو سبحانه الحق الذى خلق السموات والأرض ، ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، ألا له الخلق والأمر ، ما خلق السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق ، وهو سبحانه نور السموات والأرض (ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ) الآية .

وهو سبحانه ليس عنده ليل ولا نهار . نور السموات من نور وجهه . هكذا قال عبد الله بن مسعود : « لا ينام ولا ينبغى له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجابه النور ، أو النار ، لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه » هكذا قال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث المتفق عليه عن أبي موسى .

فقد يشهد العبد القدر المشترك بين المصنوعات ، وهو الحق الموجود فيها ، الذى هو شامل لها ، فيظن أنه الخالق ، لمطابقته له فى نوع من العموم ، وإنما هو صنعه وخلقه ، ثم قد يرتقى إلى حجاب من حجبه النورية أو النارية ، فيظن أنه هو ، ثم يرتقى إلى نوره ، وما يظهر من أثر صفاته ؛ فقد يقع بعض هؤلاء فى نحو من مذهب أهل الاتحاد المطلق العام ؛ فإن تداركهم الله برحمته فاعتصموا بحبل الله واتبعوا هدى الله : علموا أن هذا كله مخلوق لله ، وأن الخالق ليس هو المخلوق ، وأن جميعهم عباد لله ، وربما قد يقع هذا فى نوع من الفناء أو السكر ، فيكون مخطئاً غالطاً ، وإن كان ذلك مغفوراً له ، إذا كان بسبب غير محظور ، كما ذكرنا نظيره فى الاتحاد المعين .

فصـــــل

وهو كما يشهد ربوبيته وتدبيره العالم المحيط وحكمته ورحمته : فكذلك يشهد إلهيته العامة ؛ فإنه الذى فى السماء إله وفى الأرض إله ، إله فى السماء ، وإله فى الأرض (يَسْئَلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ) وكذلك قوله : (وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ) — الآية على أحد القولين ، على وقف من يقف عند قوله (وَفِى ٱلْأَرْضِ) فإن المعنى هو فى السموات الله ، وفى الأرض الله ، ليس فيهما من هو الله غيره .

وهذا وإن كان مشابهاً لقوله : (وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ) فهو أبلغ منه . ونظيره قوله : (لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا) وقد قال : (وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ) وقال تعالى :

(تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) وقال : (أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ) وقوله تعالى : (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ)

وقوله : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ) وقوله تعالى : (وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ * وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ) وقوله :

(سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ)

(يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ) ونحو ذلك — من معانى ألوهيته ، وخضوع الكائنات وإسلامها له ، وافتقارها إليه وسؤالها إياه ، ودعاء الخلق إياه ؛ إما دعاء عبادة ، وإما دعاء مسألة ، وإما دعاؤهما جميعاً .

ومن أعرض عنه وقت الاختيار : (وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ) ، (أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ) ونشهد أن كل معبود سواه من لدن عرشه إلى قرار أرضه فإنه باطل إلا وجهه الكريم ، كما نشهد أنها كلها مفتقرة إليه فى مبدئها ، نشهد أنها مفتقرة إليه فى منتهاها ، وإلا كانت باطلة .

فهذه المعانى التى فيها تأله الكائنات إياه ، وتعلقها به . والمعانى الأول التى فيها ربوبيته إياهم ؛ وخلقه لهم : يوجب أن يعلم أنه رب الناس ملك الناس إله الناس ، وأنه رب العالمين ، لا إله إلا هو ، والكائنات ليس لها من نفسها شىء ، بل هى عدم محض ونفى صرف ، وما بها من وجود : فمنه وبه .

ثم إنه إليه مصيرها ومرجعها ؛ وهو معبودها وإلهها ، لا يصلح أن يعبد إلا هو كما لم يخلقها إلا هو ، لما هو مستحقه بنفسه ومتفرد به من نعوت الإلهية التي لا شريك له فيها ، ولا سمي له ، وليس كمثله شيء .

فهو الأول الذي ليس قبله شيء ، وهو الآخر الذي ليس بعده شئ ، وهو الظاهر الذي ليس فوقه شيء ، وهو الباطن الذي ليس دونه شيء ، وهو معنا أينما كنا ، ونعلم أن معيته مع عباده على أنواع ، وهم فيها درجات .

وكذلك ربوبيته لهم وعبوديتهم التي هم بها معبدون له ، وكذلك ألوهيتهم إياه ، وألوهيته لهم ، وعبادتهم التي هم بها عابدون ، وكذلك قربه منهم وقربهم منه .

فصـــــل

فهذا فيما يشبه الاتحاد أو الحلول فى معين ، كنبي أو رجل صالح ، ونحو ذلك .

قد بينا ما فيه من الحق المحض ، وما فيه من الحق الملبوس بباطل ، وسنبين إن شاء الله ما فيه من الباطل المحض .

وهذا القسم إنما يقع فيمن يعبد الله سبحانه ويتولاه ، أو يظن به ذلك ، فإنه بذلك تظهر ألوهية الله فى عبده ، وتظهر إنابة العبد إلى ربه ، وموافقته له فى محبته ورضاه ، وأمره ونهيه .

وقد يشتبه بهذا قسم آخر ؛ وهو ما يظهره الرب من آثار ربوبيته فى بعض عباده وإن كان ذلك ليس مأموراً به ، ولا هو عبادة له ، مثل مايعطيه من ملكه وسلطانه بعض الملوك المسلطين ، ممن قد يكون مسلماً ، وقد لايكون ، كفرعون وجنكسخان ونحوهما ، وما يهبه من الرزق والمال لبعض عباده ، وما يقسمه من الجمال لبعض عباده من الرجال والنساء .

وكذلك ما يهبه من العلوم والمعارف ، أو يهبه من الأحوال ، أو يعطيه من

خوارق العادات من أنواع المكاشفات والتأثيرات، سواء كان هؤلاء مؤمنين، أو كفاراً مثل الأعور الدجال ونحوه .

فإنه فى هذا القسم يقوم فى العبد المعين من آثار الربوبية وأحكام القدرة أكثر مما يقوم بغيره ، كما يقوم بالقسم الأول من آثار الألوهية وأحكام الشرع أكثر مما يقوم بغيره ؛ وقد يجتمع القسمان فى عبد ، كما يجتمع فى الملائكة والأنبياء والأولياء : مثل نبينا صلى الله عليه وسلم ، والمسيح بن مريم وغيرهما .

فهذا القسم وحده كاف فى أحكام الكلمات الكونية ، كالقسم الأول فى أحكام الكلمات الدينية ؛ فإن الحوادث إنما تكون بمشيئة الله وقدرته . وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يستعيذ ويعوذ ، ويأمر بالاستعاذة بكلمات الله التامات التى لا يجاوزها بر ولا فاجر .

فالكلمات التى بها كون الله الكائنات لا يخرج عنها بر ولا فاجر ؛ فما من ملك ولا سلطان ، ولا مال ولا جمال ، ولا علم ولا حال ، ولا كشف ولا تصرف إلا وهو بمشيئته وقدرته ، وكلماته التامات ، ولكن من ذلك ما هو محبوب لله مأمور به ، ومنه ما هو مكروه لله منهى عنه بل مباح أو عفو . وإذا كان واقعاً بمشيئة الله وقدرته وكلمته ، ولا يقدر على ذلك غيره ، وهو مضاف إلى الله من جهة ربوبيته وملكه . فبينه وبين القسم الأول من الاشتراك والمشابهة ما أوجب أن أقواماً غلطوا فى أمر الله ، فجعلوه فى القسمين واحداً .

بل غلطوا أيضاً فى نفس الرب ، فألحقوا بعض العباد المعبدين من القسم الثانى ببعض العباد العابدين من القسم الأول ، ودخلوا فى الاتحاد والحلول من هذا الوجه ، حتى عبد من عبد فرعون والدجال ، وعبد آخرون الصور الجميلة ونحو ذلك ، ويزعمون أن هذا مظاهر الجمال ؛ وكفر هؤلاء بالعبادات والإيمان تارة ، وبالمعبود أخرى .

ولما كان المقصود هنا بيان الحق من ذلك ، أو ما فيه حق : ذكرنا هذا .

أما الاول : فإن الله سبحانه قد فرق بالقرآن وبالإيمان بين أمره الدينى وخلقه الكونى . فإن الله سبحانه خالق كل شىء ، ورب كل شىء ومليكه ، سواء فى ذلك الذوات وصفاتها وأفعالها ، وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، لا يخرج عن مشيئته شيء ، ولا يكون شيء إلا بمشيئته .

وقد كذب ببعض ذلك القدرية المجوسية من هذه الأمة وغيرها ، وهم الذين يزعمون أن الله لم يخلق أفعال عباده من الملائكة والجن والإنس والبهائم ، ولا يقدر على أن يفعل بعباده من الخير أكثر مما فعله بهم ؛ بل ولا على أفعالهم ؛ فليس هو على كل شيء قدير ، أو أن ما كان من السيئات فهو واقع على خلاف مشيئته وإرادته . وهم ضلال مبتدعة ، مخالفون للكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة ؛ ولما عرف بالعقل والذوق .

ثم إنه قابلهم قوم شر منهم ، وهم القدرية المشركية ، الذين رأوا الأفعال

واقعة بمشيئته وقدرته. فقالوا: (لَوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ) ولو كره الله شيئاً لأزاله ، وما فى العالم إلا ما يحبه الله ويرضاه ، وما ثم عاص ، وأنا كافر برب يعصى ، وإن كان هذا قد عصى الأمر فقد أطاع الإرادة ، وربما استدلوا بالجبر ، وجعلوا العبد مجبوراً ، والمجبور معذور ، والفعل لله فيه لا له ، فلا لوم عليه .

فهؤلاء كافرون بكتب الله ورسله ، وبأمر الله ونهيه ، وثوابه وعقابه ، ووعده ووعيده ، ودينه وشرعه ، كفراً لا ريب فيه ، وهم أكفر من اليهود والنصارى ، بل أكفر من الصابئة والبراهمة الذين يقولون بالسياسات العقلية .

فإن هؤلاء كافرون بالديانات والشرائع الإلهية ، وبالآيات والسياسات العقلية .

وأما الأولون : فى تكفيرهم تفصيل ليس هذا موضعه .

وهؤلاء أعداء الله وأعداء جميع رسله ، بل أعداء جميع عقلاء بنى آدم ، بل أعداء أنفسهم ، فإن هذا القول لا يمكن أحداً أن يطرده ، ولا يعمل به ساعة من زمان ، إذ لازمه : أن لا يدفع ظلم ظالم ، ولا يعاقب معتد ، ولا يعاقب مسىء لا بمثل إساءته ، ولا بأكثر منها .

وأكثر هؤلاء إنما يشيرون إلى ذلك عند أهواء أنفسهم لرفع الملام عنهم ، وإلا فإذا كان لهم هذا مع أحد قابلوه وقاتلوه واعتدوا عليه أيضاً ، ولا يقفون

عند حد ، ولا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة ، بل هم كما قال الله (وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا) ظلمة جهال ، مثل السبع العادى ، يفعلون بحكم الأهواء المحضة ، ويدفعون عن أنفسهم الملام والعذل ، أو ما يجب عليهم من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بالجبر الباطل ، وبملاحظة القدر النافذ ، معرضين عن الأمر والنهى ، ولا يفعلون مثل ذلك بمن اعتدى عليهم وظلمهم وآذاهم ، بل ولا بمن قصر فى حقوقهم ، بل ولا بمن أطاع الله : فأمر بما أمر الله به ، ونهى عما نهى الله عنه . وقد بسطت الكلام فى هؤلاء القدرية والقسم الأول ، وذكرت القدرية الإبليسية فى غير هذا الموضع ؛ وإنما الغرض هنا التنبيه على معاقد الأقوال .

وقد فرق الله فى كتابه بين القسمين بين من قام بكلماته الكونيات ، وبين من اتبع كلماته الدينيات ، وذلك فى أمره وإرادته وقضائه ، وحكمه وإذنه وبعثه وإرساله ؛ فقال فى الأمر الدينى الشرعى : (إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ) (إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا) (إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً) .

وقال فى الأمر الكونى القدرى : (إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ) (أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ) وكذلك قوله : (وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا) على أحد الأقوال .

وقال فى الإرادة الدينية الشرعية (يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ)

(يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ) (مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ) .

وقال فى الإرادة الكونية القدرية : (فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا) (وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ) (أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ) .

وبهذا الجمع والتفريق تزول الشبهة فى مسألة الأمر الشرعى : هل هو مستلزم للإرادة الكونية أم لا ؟ فإن التحقيق أنه غير مستلزم للإرادة الكونية القدرية ، وإن كان مستلزماً للإرادة الدينية الشرعية .

وقال فى الإذن الدينى : (مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ) .

وقال فى الإذن الكونى : (وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ) .

وقال فى القضاء الدينى : (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ) أى أمر ربك بذلك .

وقال فى القضاء الكونى : (فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ) .

وقال فى الحكم الدينى : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم

بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ)
وقال : (ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ) وقال : (أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ) .

وقال فى الحكم الكونى : (فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ) .

وقد يجمع الحكمين مثل ما فى قوله : (إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ) وكذلك فعله : (وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ) .

وقال فى البعثين والإرسالين : (هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ) (بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ) وقوله : (إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا) (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ) وقد قال : (أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا) وقال : (وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ) .

فصـــــــل

وأما كفرهم بالمعبود : فإذا كان لهم فى بعض المخلوقات هوى فقد يعبدونه بشبهة الحلول أو الاتحاد الفاسد مثل ، من يعبد الصور الجميلة ، ويقول : هذا مظهر الجمال ، أو الملك المطاع الجبار ، ويقول : هو مظهر الجلال ، أو مظهر ربانى ونحو ذلك ، وليس فى هذه المخلوقات نوع من الاتحاد أو الحلول الحق ، لكن يشبه ما فيه الحق من جهة ؛ إذ كلاهما بالله ومن الله ؛ وإنه لله ؛ ولهذا يسوى بينهما أهل الحلول والاتحاد المطلق ، كما سنبينه إن شاء الله .

فهؤلاء الاتحادية والحلولية — الذين يخصونه ببعض المصنوعات التى ليس فيها عبادة وإنابة — : هم فرع على أولئك ، ليس معهم من الحق شىء ولا شبهة حق ، كما مع أولئك : ألفاظ متشابهة عن بعض الأنبياء والصالحين ، ولكن مع هؤلاء قول فرعون ؛ (أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ) و (مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى) وقول الدجال : « أنا ربكم » ونحو ذلك .

فهذه الألفاظ التى معهم من ألفاظ الكفار والمنافقين ، ومعهم تشبيه الكونيات بالدينيات ، والكونيات عامة لا اختصاص فيها ، فلهذا كان هؤلاء أدخل فى الاتحاد والحلول المطلق منهم فى المعين ، اعتقادا وقولا ، وإن كانوا من

جهة الحال والهوى يخصون بعض الأعيان - كما هو الواقع - لشبهة اختصاصه ببعض الأحكام الكونية . وسنتكلم عليهم إن شاء الله فى الحلول الفاسد .

وإنما ذكرتهم هنا لما أردت أن أذكر كل ما فيه شوب اتحاد أو حلول بحق ، فنبهت على ذلك ليفطن لموضع ضلالهم ؛ فإذا علم حقيقة هذه الأمور : علم حقيقة قول النبي صلى الله عليه وسلم « أصدق كلمة قالها الشاعر : كلمة لبيد :

* ألا كل شيء ما خلا الله باطل *

فإن الباطل ضد الحق ؛ والله هو الحق المبين .

والحق له معنيان ، أحدهما : الوجود الثابت ، والثانى : المقصود النافع ، كقول النبي صلى الله عليه وسلم : « الوتر حق » .

والباطل نوعان أيضاً :

أحدهما : المعدوم . وإذا كان معدوما كان اعتقاد وجوده والخبر عن وجوده باطلا ؛ لأن الاعتقاد والخبر تابع للمعتقد المخبر عنه ، يصح بصحته ، ويبطل ببطلانه ؛ فإذا كان المعتقد المخبر عنه باطلا كان الاعتقاد والخبر كذلك ؛ وهو الكذب .

الثانى : ما ليس بنافع ولا مفيد ، كقوله تعالى : (وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا) وكقول النبي صلى الله عليه وسلم : « كل لهو يلهو

به الرجل فهو باطل ، إلا رميه بقوسه ، وتأديبه فرسه ، وملاعبته امرأته ، فإنهن من الحق » وقوله عن عمر : «إن هذا رجل لا يحب الباطل» وما لا منفعة فيه : فالأمر به باطل ، وقصده وعمله باطل ؛ إذ العمل به والقصد إليه والأمر به باطل .

ومن هذا قول العلماء : العبادات والعقود تنقسم إلى صحيح وباطل .

فالصحيح : ما ترتب عليه أثره ، وحصل به مقصوده .

والباطل : ما لم يترتب عليه أثره ، ولم يحصل به مقصوده ؛ ولهذا كانت أعمال الكفار باطلا .

فإن الكافر من جهة كونه كافراً يعتقد ما لا وجود له ، ويخبر عنه ، فيكون ذلك باطلا ، ويعبد ما لا تنفعه عبادته ، ويعمل له ويأمر به ، فيكون ذلك أيضاً باطلا .

ولكن لما كان لهم أعمال وأقوال صاروا يشبهون أهل الحق ؛ فلذلك قال تعالى : (وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ) وقال تعالى : (ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ * وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ * ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ مِن رَّبِّهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ

أَمْثَالَهُمْ) الى قوله : (وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ) وقال : (وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا) وقال تعالى : (لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ) .

فبين أن المن والأذى يبطل الصدقة ، فيجعلها باطلا ، لا حقاً ، كما يبطل الرياء وعدم الإيمان الإنفاق أيضاً . وقد عمم بقوله : (وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ) أى لا تجعلوها باطلة ، لا منفعة فيها ولا ثواب ، ولا فائدة .

وقد غلط طائفة من الناس من الاتحادية وغيرهم ، كابن عربى ، فرأوا أن الحق هو الموجود ، فكل موجود حق . فقالوا : ما فى العالم باطل ؛ إذ ليس فى العالم عدم .

قالوا : والكفر إنما هو عدم وجود الشريك مثلا .

وإنما أتوا من جهة اللفظ المجمل .

فإن الشيء له مرتبتان :

مرتبة باعتبار ذاته ؛ فهو إما موجود ، فيكون حقا ؛ وإما معدوم ، فيكون باطلا .

ومرتبة باعتبار وجوده فى الأذهان واللسان والبنان ، وهو العلم والقول

والكتاب ؛ فالاعتقاد والخبر والكتابة أمور تابعة للشيء ، فإن كانت مطابقة موافقة كانت حقا ، وإلا كانت باطلا ، فإذا أخبرنا عن الحق الموجود أنه حق موجود ، وعن الباطل المعدوم أنه باطل معدوم : كان الخبر والاعتقاد حقاً ؛ وإن كان بالعكس كان باطلا ؛ وإن كان الخبر والاعتقاد أمراً موجوداً . فكونه حقاً أو باطلا باعتبار حقيقته المخبر عنها ، لا باعتبار نفسه .

ولا يجوز إطـــلاق القول بأنه حق لمجرد كونه موجوداً إلا بقرينة تبين المراد .

وهكذا العمل والقصد والأمر إنما هو حق باعتبار حقيقته المقصودة ، فإن حصلت وكانت نافعة : كان حقاً ، وإن لم تحصل ، أو حصل ما لا منفعة فيه : كان باطلا .

وبهذين الاعتبارين يصير فى الوجود ما هو من الباطل ، كما دل على ذلك الكتاب والسنة والإجماع ؛ مع ما يوافق ذلك من عقل وذوق وكشف ، خلاف زعم هذه الطائفة الضالة المضلة .

قال الله تعالى : (أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ) .

شبه ما ينزل من السماء على القلوب من الإيمان والقرآن ، فيختلط بالشبهات والأهواء المغوية بالمطر الذى يحتمل سيله الزبد ، وبالذهب والفضة والحديد ونحوه إذا أذيب بالنار ، فاحتمل الزبد فقذفه بعيداً عن القلب ، وجعل ذلك الزبد هو مثل ذلك الباطل الذى لا منفعة فيه ، وأما ما ينفع الناس من الماء والمعادن فهو مثل الحق النافع ، فيستقر ويبقى فى القلب .

وقد تقدم قوله تعالى : (ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ) إلى قوله : (ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ) .

فأخبر سبحانه أن سبب إضلال أعمال هؤلاء الذين كفروا حتى لم تنفعهم ، وأن أعمال هؤلاء الذين آمنوا نفعتهم ، فكفرت سيآتهم وأصلح الله بالهم : أن هؤلاء اتبعوا الباطل قولا وعملا ، اعتقادا واقتصادا ، خبرا وأمراً . وهؤلاء اتبعوا الحق من ربهم ، ولم يتبعوا ما هو من غير ربهم ، وإن كان حقاً من وجه .

وهذا تحقيق ما قلناه ؛ فإن الخبر والعمل تابع للمخبر عنه ، وللمقصود بالعمل فإذا كان ذلك باطلا لا حقيقة له كان التابع كذلك ، وإن كان موجوداً .

وكذلك ما تقدم من قوله : (لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم) وقوله : (وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ) ونحو ذلك من إبطال ما قد مضى ووجد ، إنما هو عدم لعدم فائدته لا عدم ذاته ؛ فإن ذاته انقضت كما انقضى ما لم يبطل من الأعمال ، فكيف

يقال : لا باطل فى الوجود ؟ ثم يجعل هذا ذريعة إلى أن ذلك الموجود الذى فيه الحق والباطل هو عين الله ؛ لأنه هو الحق ، ولا يميز بين الحق الخالق والحق المخلوق ؟ .

فتدبر ، كيف اشتمل مثل هذا الكلام على هاتين المقدمتين الباطلتين ؟ وكيف استزلوا عقول الضعفاء بهذه الشبهة ؟

وقالوا : قوله « ألا كل شيء ما خلا الله باطل » والباطل هو المعدوم ، فكل ما سوى الله معدوم ، والموجود ليس بمعدوم . فالموجود ليس فيه سوى ، وإنما السوى هو العدم .

فإن هذا مبنى على المقدمتين الباطلتين .

إحداهما : قولهم : إن الباطل هو المعدوم ؛ فإنه ليس كذلك ، بل المعدوم باطل ، وليس كل موجود باطلا ، بل فى الموجود ما هو حق ، وفيه ما هو باطل ، كما تقدم : وهو الأعمال التى لا تنفع ، والأخبار التى ليست بصدق ، وما يندرج فى هذين من المقاصد والعقائد .

الثانية : لو كان لا باطل إلا المعدوم ، لكان الموجود حقاً وكل موجود . فقد يسمى حقاً مع القرينة المفسرة باعتبار وجوده ، وإن كان باطلا ، لانتفاء حقيقته التى بها جاز إطلاق الحق عليه ، لكن الحق حقان : حق خالق ، وحق مخلوق .

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم — فى الحديث المتفق عليه ، الذى رواه ابن عباس — يقول : إذا قام من الليل « اللهم لك الحمد ، أنت رب السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد ، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد ، أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن ، أنت الحق ، وقولك الحق ، ووعدك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنبيون حق ، ومحمد حق ، اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت » .

وإذا ظهر أن فى الوجود ما هو باطل فى الحقيقة ، ومنه ما هو حق من مخلوقات الله ، ليس هو الله : ظهر تمويههم بقولهم : إن الباطل هو السوى ، وهو العدم ؛ وأما الموجود فهو هو.

وأيضاً فنفس الحديث حجة عليهم . فإن قوله : « ألا كل شيء ما خلا الله باطل » لفظ عام يدخل فيه كل موجود سوى الله ؛ فإن لفظ : « الشيء » يعم كل الموجود بالاتفاق ، ويدخل فيه ماله وجود ذهنى ، أو لفظى أو رسمى كتابى وإن لم يكن له وجود حقيقى من المعدومات والممتنعات ؛ فهذا نص فى أن كثيراً من الموجودات باطل ، ولا يجوز أن يراد به : كل معدوم ما خلا الله فهو باطل لثلاثة أوجه : —

أحدها : أنه قد استثنى الله تعالى ، وهو الحق المبين ، من لفظ إثبات ، ومثل هذا الاستثناء يدل على التناول ، بخلاف الاستثناء من غير موجب ،

كقوله : (مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ) فإن ذلك لا يدل على التناول ، فلو كان التقدير : كل معدوم ما خلا الله باطل ، للزم أن يكون الحق تعالى معدوماً وهذا أبطل الباطل .

الثـانى : أن « كل شيء » نص فى الوجود ، لا يجوز قصرها على المعدومات بالاتفاق .

الثالث : أن المعدوم لا يدخل فى لفظ « كل شيء » عند أهل السنة وعامة العقلاء ، فضلا عن كونه يختص به .

الرابع : أنه لو كان المعنى : كل معدوم فهو باطل ، لكان هـذا من باب تحصيل الحاصل ، بل لفظ « العـدم » أدل على النفى من لفظ الباطل . فـكيف يبين الجلى بالخفى ؟ .

الخامس : أنه لو أراد هذا لقال : « كل ما سوى الله باطل » فإن هـذه العبارة أقرب إلى احتمال مراد هؤلاء الملاحدة من هذا اللفظ ، وإن كانت تلك العبارة لا تدل أيضاً على مرادهم .

وإذا لم يكن معنى الحديث ما ادعوه ، فقد عرف أن كل ما سوى الله فهو باطل بوجهى الباطل اللذين تقدم تفسيرهما .

أحدهما — وهو المقصود النـــافع . والباطل ما لا منفعة فى قصده ، وكل شيء ما خلا الله — إذا كان له القصد والعمل — كان ذلك باطلا ، والأمر به

باطل وهذا يشبه حال المشركين ، الذين كانوا يعبدون غير الله أو يعبدون الله بغير أمر الله ولا شرعه .

فإن قيل : فالباطل هو نفس القصد والعمل لا نفس العين المقصودة .

قلت : بل نفس العين المقصودة باطل بالاعتبار الذى قصدت له ، كما جاء فى الحديث : « أشهد أن كل معبود من لدن عرشك إلى قرار أرضك باطل إلا وجهك الكريم » .

وذلك : أنه إذا كان الباطل فى الأصل هو العدم ، والعدم هو المنفى ، فالشىء ينفى لانتفاء وجوده فى الجملة ، كقوله تعالى : (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ) و (لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ) وقوله : (مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ) وقوله (لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ) وقول النبى صلى الله عليه وسلم : « لا نبى بعدى » .

وقد ينفى لانتفاء فائدته ومقصوده وخاصته التى هو بها هو ، كما ذكرناه ؛ فإن ما لا فائدة فيه فهو باطل ، والباطل معدوم ، وهذا كقوله صلى الله عليه وسلم لما سئل عن الكهان : « ليسوا بشىء » ومنه قوله تعالى : (يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ) .

وقد ينفى الشىء لانتفاء كماله وتمامه ، إما مطلقاً ، وإما بالنسبة إلى غيره ، كقول النبى صلى الله عليه وسلم : « ليس المسكين بهذا الطواف الذى ترده اللقمة واللقمتان ، والتمرة والتمرتان ، وإنما المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه ، ولا

يتفطن له فيتصدق عليه ، ولا يسأل الناس إلحافاً ». ونحو ذلك قوله فى المفلس والرقوب ، ونظائر كل من هذه الأقسام الثلاثة كثيرة .

فالشيء المقصود لأمر هو باطل منتف إذا انتفت فائدته ومقصوده ، فكل ما سوى الله لا يجوز أن يكون معبوداً ولا مستعاناً ؛ فقد انتفى مما سوى الله هذا المعنى المقصود ، فهو باطل ، وكل ما سوى الله لا يجوز أن يكون صمداً مقصوداً ولا معبوداً ، ولا فائدة فى قصده ، ولا منفعة فى عبادته واستعانته : فهو باطل . وهذا واضح ، وهذا عموم محفوظ لا يستثنى منه شيء .

وبيان ذلك : أن كل ما سوى الله فإما أن يقصد لنفسه ، وإما أن يقصد لغيره .

فالمقصود لغيره : مثل ما يقصد الخبز للأكل ، والثوب للبس ، والسلاح للدفع ، ونحو ذلك ، وهو ما خلقه الله لنفع بنى آدم من الأعيان ؛ فإن هذه إنما تقصد لغيرها لا لذاتها ، وكذلك المال الذى يقصد به جلب منفعة أو دفع مضرة إنما يقصد لغيره ، لا لنفسه ، وكل ما قصد لغيره فإنما المقصود فى الحقيقة ذلك الغير .

وهذا مراد له بحيث إن حصل ذلك الغير المقصود لنفسه وإلا كان هذا مما لا فائدة فيه ولا منفعة ، فيكون من باب الباطل الذى ينفى ، ويقال فيه : ليس بشيء ؛ وهو باطل ، ويلحق بالمعدوم .

فثبت أنه إن لم يحصل فى كل قصد مقصود لنفسه وإلا كان باطلا ، والمقصود لنفسه إن لم يكن هو الله كان باطلا ؛ فإن المقصود لنفسه هو المعبود ؛ ومن عبد غير الله كان باطلا ، وعبادته باطلة ؛ لأنه لا منفعة فيه ولا فى عبادته ، بل ذلك ضرر محض . قال الله تعالى : (يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ) وهذا عام فى كل معبود ، وهذا حقيقة الدين .

فإن الله إنما خلق الخلق لعبادته وحده لا شريك له ، وسخر لهم ما فى السموات وما فى الأرض ليستعينوا به على عبادته ؛ فمن لم يستعن بهذه الأشياء على عبادته فعمله كله وقصده باطل ، ولا منفعة فيه ، بل فيه الضرر .

فثبت أن كل قصد ومقصود سوى الله باطل ، سواء كان مقصوداً لنفسه أو لغيره سوى الله ، وإنما الحق أن يقصد الله ، أو يقصد ما يستعان به على قصد الله . وهذا تحقيق قوله : « ألا كل شىء ما خلا الله باطل » بأحد وجهى الحق والباطل ، وهو كونه مقصوداً ومطلوباً ، وهو أظهر وجهيه .

الثانى : أن كل ما خلا الله فهو معدوم بنفسه ، ليس له من نفسه وجود ، ولا حركة ولا عمل ، ولا نفع لغيره منه ، إذ ذلك جميعه خلق الله وإبداعه وبرؤه وتصويره ، فكل الأشياء إذا تخلى عنها الله فهى باطل ، يكفى فى عدمها وبطلانها نفس تخليه عنها ، وأن لا يقيمها هو بخلقه ورزقه ؛ وإذا كانت باطلة فى أنفسها — والحق إنما هو لله وبالله ومن الله — صدق قول القائل : « ألا كل شىء ما خلا الله باطل » باعتبارين :ـ

أحدهما : أن صنعه على هذا التقدير ليس مستغنياً عنه ، ولا قائماً بسواه ، ولا خارجا عنه ؛ فأدخل فى اسمه على سبيل التبع ، لا لأنه جزء من المسمى ، وكثيراً ما يدخل فى الاسم الجامع والأسماء العامة أشياء على سبيل التبع ، لا لأنها جزء من المسمى ، كما لو قال : بعتك هذا الفرس ، دخل فيه نعله . ولو قال القائل : دخل زيد إلى دارى ، كانت ثيابه داخلة فى حكم اسمه ، وكذلك إذا قيل : حملت زيداً ، وركب زيد على الدابة ، وإذا قيل : بنو هاشم : دخل فيهم مواليهم ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « مولى القوم منهم » وقد يدخل فيهم الحليف وابن الأخت ؛ وهذا مشهور فى كلام العرب وأهل المغازى .

الاعتبار الثانى : أن القائل إذا قال : جاء القوم ما خلا زيدا ، فإن « خلا » هنا فعل ناقص من أخوات « كان » وزيداً منصوب به ؛ وفيه ضمير مرفوع ، وذلك الضمير عائد على « ما » أخت الذى ، وهى الموصولة ؛ وهذه الجملة صلة « ما » وكان تقدير الكلام : قام القوم الذين هم خلا زيدا ، لكن «ما» يحتمل الواحد والاثنين والجميع ، والضمير يعود إلى لفظها أكثر من معناها . فقوله : رأيت ما رأيته من الرجال : أحسن من قولك : ما رأيتهم من الرجال . وباب : (وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ) أكثر وأفصح من قوله : « من يستمعون » ولهذا قوى ، فصار : ما خلا زيدا ، يقوم مقام الذى خلا ، والذين خلوا ، واللاتى خلون ، ونحو ذلك . تقول : قامت النسوة ما خلا هندا .

ولفظ « ما » إما أن يكون له موضع من الإعراب ، وهو الوصف لما

قبله ، أو النصب على الحال ، أولا موضع له ؛ وإذا كان التقدير : كل شيء فى حال خلوه عن الله باطل ، أو كل شيء خلا الله فهو باطل ، أو كل الأشياء حال كونها خلت الله ، أو التى خلت الله باطل ؛ فخلوها الله قد يتضمن معنى خلوها منه .

ومعلوم أنها متى خلته ، أى خلت منه : كانت باطلا ، وإنما قيامها بأن لا تتخلى منه ، بل تتقوم به . وهـــذا ...[1] فى الأصل دون غيره من أدوات الاستثناء .

وأصل هذا المعنى مقصود من هذا ...[1] فى قول النبى صلى الله عليه وسلم .

وهذا التوحيد وتفسيره المذكور فى قوله : « ألا كل شيء ما خلا الله باطل » هو نحو مما ذكر فى قوله تعالى : (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ) بعد قوله : (فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ * وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) فإن ذكره ذلك بعد نهيه عن الإشراك ، وأن يدعو معه إلهاً آخر ، وقوله : « لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ » يقتضى أظهر الوجهين ، وهو أن كل شيء هالك إلا ما كان لوجهه من الأعيان والأعمال وغيرهما .

روى عن أبى العالية قال : « إلا ما أريد به وجهه » وعن جعفر الصادق « إلا دينه » ومعناهما واحد .

---

(١) بياض بالأصل

وقد روى عن عبادة بن الصامت قال « يجاء بالدنيا يوم القيامة فيقال : ميزوا ما كان لله منها . قال : فيماز ما كان لله منها ، ثم يؤمر بسائرها فيلقى فى النــــار » .

وقد روى عن على ما يعم . ففى تفسير الثعلبي عن صالح بن محمد عن سليمان ابن عمرو عن سالم الأفطس عن الحسن وسعيد بن جبير عن على بن أبى طالب « أن رجلا سأله ، فلم يعطه شيئاً . فقال : أسألك بوجه الله فقال له على : كذبت ليس بوجه الله سألتنى ، إنما وجه الله الحق ، ألا ترى إلى قوله : (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ) يعنى الحق – ولـكن سألتنى بوجهك الخلق » وعن مجاهد « إلا هو » وعن الضحاك « كل شيء هالك إلا الله والجنة والنـار ، والعرش » وعن ابن كيسان « إلا ملـكه » .

وذلك أن لفظ « الوجه » يشبه أن يكون فى الأصل مثل الجهة ، كالوعد والعدة ، والوزن والزنة ، والوصل والصلة ، والوسم والسمة ، لـكن فعلة حذفت فاؤها وهى أخص من الفعل ، كالأكل والإكلة . فيكون مصدراً بمعنى التوجه والقصد ، كما قال الشاعر :

أستغفر الله ذنبـاً لست محصيه   رب العبـاد إليه الوجه والعمل

ثم إنه يسمى به المفعول ، وهو المقصود المتوجه إليه ، كما فى اسم الخلق، ودرهم ضرب الأمير ونظائره ، ويسمى به الفاعل المتوجه ، كوجه الحيوان ، يقال : أردت هذا الوجه ، أى هذه الجهة والناحية . ومنه قوله : (وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ

وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ) أى قبلة الله ووجهة الله ، هكذا قال جمهور السلف ، وإن عدها بعضهم فى الصفات ، وقد يدل على الصفة بوجه فيه نظر ، وذلك أن معنى قوله: (فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟) أى تتولوا ، أى تتوجهوا وتستقبلوا يتعدى إلى مفعول واحد ، بمعنى يتولاها . ونظير : ولى وتولى : قدم وتقدم ، وبين وتبين ، كما قال : (لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ) وقال : (بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ) وهو الوجه الذى لله ، والذى أمر الله أن نستقبل . فإن قوله : (وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ) يدل على أن وجه الله هناك من المشرق والمغرب الذى هو لله ، كما فى آية القبلة : (سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ)

فلما سألوا عن سبب التولى عن القبلة أخبر أن له المشرق والمغرب .

وأما لفظ « وجهة » مثل قوله : (وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا) فقد يظن أيضاً أنه مصدر كالوجه ، كالوعدة مع الوعد ، وأنها تركت صحيحة فلم تحذف فاؤها ، وليس كذلك .

لأنه لو كان مصدراً لحذفت واوه ، وهو الجهة . وكان يقال ولكل جهة أو وجه ، وإنما الفعلة هنا بمعنى المفعول ، كالقبلة والبدعة ، والذبحة ونحو ذلك . فالقبلة : ما استقبل ، والوجهة : ما توجه إليه ، والبدعة : ما ابتدع ، والذبحة : ما ذبح ؛ ولهذا صح ولم تحذف فاؤه ؛ لأن الحذف إنما هو من المصدر لا من

بقية الأسماء ، كالصفات وما يشبهها ، مثل أسماء الأمكنة والأزمنة ، والآلات والمفاعيل وغير ذلك .

وأما قول بعض الفقهاء : إن الوجه مشتق من المواجهة : فلا دليل عليه ، بل قد عارضه من قال : هو مشتق من الوجاهة ، وكلاهما ضعيف . وإنما المواجهة مشتق من الوجه ، كما أن المشافهة مشتق من الشفة ، والمناظرة — بمعنى المقابلة — مشتقة من النظر ، والمعاينة من العين .

وأما اشتقاق الوجه الذى هو المتوجه : من الوجه الذى هو التوجه ، فهذا أشبه ، لأن توجهه : هو فعله المختص به الذى لا يفتقر فيه إلى غيره ، بخلاف المواجهة ، فإنها تستدعى اثنين ، والإنسان هو حارث همام ، وهمه هو توجهه ، وإنما يتوجه بهذا العضو إلى أى شىء أراده وتوجه إليه .

ومن هذا الباب قوله تعالى : (بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ) وقوله تعالى : (وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا) وقول الخليل ونبينا والمؤمنين فى الصلاة : (وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ) وقوله تعالى : (قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ) الآية وقوله : (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا) وقوله : (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ) وقوله : (وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ) وقول النبى صلى الله عليه وسلم

للذى علمه دعاء النوم : « اللهم أسلمت نفسى إليك ، ووجهت وجهى إليك »
وقال زيد بن عمرو بن نفيل :

أسلمت وجهى لمن أسـلمت   له المزن تحمـل عذباً زلالا

فهذه ثلاثة ألفاظ : أسلم وجهه ، ووجه وجهه ، وأقام وجهه .

قال قدماء المفسرين فى قوله تعالى : (أَسْلَمَ وَجْهَهُ) أى أخلص فى دينه وعمله لله ، وقال بعضهم : فوض أمره إلى الله ، وقد قيل : خضع وتواضع لله .

وهذا الثالث يليق بالإسلام اللازم ، فإن وجهه هو قصده ، وتوجهه الذى هو أصل عمله ، وهو عمل قلبه الذى هو ملك بدنه ، فإذا توجه قلبه تبعه أيضاً توجه وجهه ، فاستتبع القصد الذى هو الأصل من القلب ، الذى هو الأصل للعمل ، الذى هو تبع من الوجه وسائر البدن الذى هو تبع ، فيكون قد أسلم عمله الباطن والظاهر ، وأعضاءه الباطنة والظاهرة لله ، أى سلمه له ، وأخلصه لله ، كما فى الإسلام اللازم ، وهو قوله : (أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ) وقوله عن بلقيس : (إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ) وقوله عن إبراهيم وإسماعيل : (رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ) أى منقادة مخلصة .

وكذلك توجيه الوجه للذى فطر السموات والأرض : توجيه قصده ، وإرادته وعبادته ، وذلك يستتبع الوجه وغيره ، وإلا فمجرد توجيه العضو من غير عمل القلب لا يفيد شيئاً .

قال الزجاج فى قوله : (وَجَّهْتُ وَجْهِىَ) أى جعلت قصدى بعبادتى وتوحيدى لله رب العالمين ، وكذلك قوله : (وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ) فإن الوجوه التى هى المقاصد ، والنيات التى هى عمل القلب ، وهى أصل الدين : تارة تقام وتارة تزاغ ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ما من قلب من قلوب العباد إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن ، إن شاء أن يقيمه أقامه ، وإن شاء أن يزيغه أزاغه » فإقامة الوجه ضد إزاغته وإمالته ، وهو الصراط المستقيم .

فإذا قوم قصده وسدده ولم ينحرف يميناً ولا شمالا كان قصده لله رب العالمين ، كما قال : (لَّاشَرْقِيَّةٍوَلَاغَرْبِيَّةٍ) وكذلك قال الربيع بن أنس : « اجعلوا سجودكم خالصاً لله » فلا تسجدوا إلا لله .

وروى عن الضحاك وابن قتيبة « إذا حضرت الصلاة وأنتم عند مسجد فصلوا فيه ، ولا يقولن أحدكم : أصلى فى مسجدى » كأنه أراد صلوا لله عند كل مسجد ، لاتخصوا مسجداً دون مسجد .

وعلى هذين القولين يتوجه ماذكرناه .

وروى عن مجاهد والسدى وابن زيد : « توجهوا حيث كنتم فى الصلاة إلى الكعبة » .

وعلى هذا : فإقامة الوجه استقبال الكعبة وهذا فيه نظر ؛ فإن هذه الآية مكية ، والكعبة إنما فرضت فى المدينة ، إلا أن يراد بإقامة الوجه الاستقبال المأمور به .

وإنما وقع النزاع هنا لقوله تعالى : (عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٍ) بخلاف قوله تعالى : (فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗا) .

فقوله : (كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ) أى دينه وإرادته وعبادته ، والمصدر يضاف إلى الفاعل تارة وإلى المفعول أخرى ، وهو قولهم : ما أريد به وجهه ، وهو نظير قوله : (لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا) فكل معبود دون الله باطل ، وكل ما لا يكون لوجهه فهو هالك فاسد باطل ، وسياق الآية يدل عليه وفيه المعنى الآخر .

فإن الإلهية تستلزم الربوبية ، ولهذا قال : (لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ) .

وفى هذا قول آخر ، يقوله كثير من أهل العلم : أن الوجه فى مثل قوله : (أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ) و (أَقِمۡ وَجۡهَكَ) و (وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ) : هو الوجه الظاهر ، كما أنه كذلك بالاتفاق فى قوله : (قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ) وفى قوله : (فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ) وفى قوله : (فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ)

وقد جاء الوجه فى صفات الله فى مواضع من الكتاب والسنة ، ليس هذا موضعها .

قالوا : لكن الوجه إذا وجه : تبعه سائر الإنسان ، وإذا أسلم : فقد أسلم سائر الإنسان ، وإذا أقيم فقد أقيم سائره ؛ لأنه هو المتوجه أولا من الأعضاء الظاهرة للقاصد الطالب ؛ ولهذا يذكر كثيراً على وجه الاستلزام لسائر صاحبه ،

ويعبر به عنه ، لكن هل هذا من باب الحقيقة العرفية التى تقلب الاسم من الخصوص إلى العموم ، أو الحقيقة اللغوية باقية ، وهو من باب الدلالة اللزومية ؟ فيه قولان .

وكذلك فى سائر الأعضاء ، حتى لو قال لعبده : يدك ، أو رجلك حر ، أو قال لزوجته : يدك أو رجلك طالق إن أعطيتنى ألفاً ، ثم قطع العضو قبل الإعطاء . فمن قال : إن اللفظ عبارة عن الجميع أوقع الطلاق والعتق . ومن قال : إن الاسم للعضو فقط ، لم يسر العتق عنده إلى سائر الجملة ، لعدم تبعيضه . وقال : إنه لا يقع شيء فى هذه الصورة .

وإلى هذا الأصل يعود معنى قول الله تعالى : كل شيء هالك إلا وجهه ، كما قد قيل فى قوله : (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) فإن بقاء وجهه المذوى بالجلال والإكرام : هو بقاء ذاته .

فصـــــل

وأما اتحاد ذات العبد بذات الرب ، بل اتحاد ذات عبد بذات عبد ، أو حلول حقيقة فى حقيقة ، كحلول المـاء فى الوعاء : فهذا باطل قطعاً ، بل ذلك باطل فى العبد مع العبد ، فإنه لا تتحد ذاته بذاته ، ولا تحل ذات أحدهما فى ذات الآخر .

وهذا هو الذى وقعت فيه الاتحادية والحلوليـة ؛ من النصارى وغيرهم ؛ من غالية هذه الأمة وغيرها ، وهو اتحـاد متجدد بين ذاتين كانتا متميزتين ، فصارتا متحدتين ، أو حلول إحداهما فى الأخرى فهذا بين البطلان .

وأبطل منه قول من يقول : ما زال واحداً وما ثم تعدد أصلا . وإنمـا التعدد فى الحجاب ، فلمـا انـكشف الأمر رأيت أنى أنا ، وكل شيء هو الله ، سواء قال بالوحدة مطلقاً ، أو بوحدة الوجود المطلق ، دون المعين ، أو بوحدة الوجود دون الأعيان الثابتة فى العدم .

فهذه وما قبلها مذاهب أهل الـكفر والضلال ، كما أن الأولى مذهب أهل الإيمـان والعلم والهدى .

ومن كفر بالحق من ذلك أو آمن بالباطل .

فهما فى طرفى نقيض . كاليهود والنصارى .

وأما المؤمنون : فيؤمنون بحق ذلك دون باطله ، وكتاب الله وسنة رسوله فيهما الهدى والنور ، وفيهما بيان الصراط المستقيم : صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

فأما إثبات الحق من ذلك ، وهو ما يحصل لأنبياء الله وأوليائه ، الذين هم المتقون من السابقين والمقتصدين ، وما قد يحصل من ذلك لكل مؤمن ، مثل محبتهم لله تعالى ، ومحبته لهم ، ورضوانهم عنه ، ورضوانه عنهم : فقد قال الله تعالى : (فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ) وقال تعالى : (وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ) وقال تعالى :
(وَأَنفِقُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ)
وقال تعالى : (بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ) وقال تعالى :
(فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ) وقال : (فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ) وقال : (فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ) وقال : (فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ) وقال : (فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ) .
وقال : (إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ) وقال:
(قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ) وقال : (قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ)

الى قوله : (أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ) وقال : (وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا) وقال : (وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ) وقال : (أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ)وقال : (أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ * جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ) .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله يحب العبد التقى الغنى الخفى » « إن الله جميل يحب الجمال » « إن الله نظيف يحب النظافة » « إن الله وتر يحب الوتر » « إن الله يحب معالى الأخلاق ويكره سفسافها » وقال : « إن الله يرضى لكم ثلاثاً : أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، وأن تناصحوا من ولاه الله أموركم » .

وفى القرآن من ذكر الاصطفاء والاجتباء والتقريب والمناجاة والمناداة والخلة ونحو ذلك : ما هو كثير ، وكذلك فى السنة .

وهذا مما اتفق عليه قدماء أهل السنة والجماعة ، وأهل المعرفة والعبادة والعلم والإيمان .

وخالف فى حقيقته قوم من الملحدة المنافقين : المضارعين للصابئين ومن وافقهم ، والمضارعين لليهود والنصارى ، من الجهمية أو من فيه تجهم ، وإن كان الغالب عليه السنة .

فتارة ينكرون أن الله يخالل أحدا ، أو يحب أحدا ، أو يواد أحدا ، أو يكلم أحدا ، أو يتكلم ، ويحرفون الكلم عن مواضعه ؛ فيفسرون ذلك تارة بإحسانه إلى عباده ، وتارة بإرادته الإحسان إليهم ، وتارة ينكرون أن الله يحب أو يخالل .

ويحرفون الكلم عن مواضعه فى محبة العبد له ؛ بأنه إرادة طاعته ، أو محبته على إحسانه .

وأما إنكار الباطل : فقد نزه الله نفسه عن الوالد والولد ، وكفر من جعل له ولدا أو والدا أو شريكا ، فقال تعالى فى السورة التى تعدل ثلث القرآن - التى هى صفة الرحمن ، ولم يصح عن النبي صلى الله عليه وسلم فى فضل سورة من القرآن ما صح فى فضلها ، حتى أفرد الحفاظ مصنفات فى فضلها ، كالدار قطنى ، وأبى نعيم ، وأبى محمد الخلال ، وأخرج أصحاب الصحيح فيها أحاديث متعددة - قال فيها : (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ) .

وعلى هذه السورة اعتماد الأئمة فى التوحيد ، كالإمام أحمد ، والفضيل ابن عياض ، وغيرهما من الأئمة قبلهم وبعدهم .

فنفى عن نفسه الأصول والفروع والنظراء ، وهى جماع ما ينسب إليه المخلوق من الآدميين والبهائم والملائكة والجن ، بل والنبات ونحو ذلك ؛ فإنه

ما من شيء من المخلوقات إلا ولا بد أن يكون له شيء يناسبه : إما أصل ، وإما فرع ، وإما نظير ، أو اثنان من ذلك ، أو ثلاثة .

وهذا فى الآدميين والجن والبهائم ظاهر .

وأما الملائكة : فإنهم وإن لم يتوالدوا بالتناسل فلهم الأمثال والأشباه ؛ ولهذا قال سبحانه : (وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ) قال بعض السلف : لعلكم تتذكرون ، فتعلمون أن خالق الأزواج واحد .

ولهذا كان فى هذه السورة الرد على من كفر من اليهود والنصارى والصابئين والمجوس والمشركين .

فإن قوله : « لم يلد » رد لقول من يقول : إن له بنين وبنات من الملائكة أو البشر ، مثل من يقول : الملائكة بنات الله ، أو يقول : المسيح ، أو عزير ابن الله ، كما قال تعالى عنهم : (وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ) وقال تعالى : (فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ * أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ * أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ * فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ) وقال تعالى : (وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ * اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ

وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ) وقد أخبر أن هذا مضاهاة لقول الذين كفروا من قبل .

وقد قيل : إنهم قدماؤهم . وقيل : مشركوا العرب ، وفيهما نظر . فإن مشركى العرب الذين قالوا هذا ليسوا قبل اليهود والنصارى وقدمائهم منهم ، فلعله الصابئون المشركون ، الذين كانوا قبل موسى والمسيح بأرض الشام ومصر وغيرها ، الذين يجعلون الملائكة أولادا له ، كما سنبينه .

وقال تعالى : (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ) وهو قول من قال من العرب : إن الملائكة بنات الله .

وقال تعالى : (وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ * وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ * وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ * لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ)

وقال تعالى : (وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ * أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ * وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ * وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ) .

وهذا القدر الذى عابه الله على من جعل الملائكة بناته من العرب ، مع كراهتهم أن يكون لهم بنات ، فنظيره فى النصارى ؛ فإنهم يجعلون لله ولدا ، وينزهون أكابر أهل دينهم عن أن يكون لأحدهم صاحبة أو ولد ، فيجعلون لله ما يكرهونه لأكابر دينهم .

وقال تعالى : (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا * وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا * لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا) .

وقال تعالى : (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۖ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ۘ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا * لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ۖ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا) .

فنهى أهل الكتاب عن الغلو فى الدين ، وعن أن يقولوا على الله إلا الحق ،

وذكر القول الحق فى المسيح ، ثم قال لهم : (فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ) لأنهم كفروا بالله بتثليثهم ، وكفروا برسله بالاتحاد والحلول . فكفروا بأصلى الإسلام العام ، التى هى الشهادة لله بالوحدانية فى الألوهية ، والشهادة للرسل بالرسالة ، وذكر أن المسيح والملائكة لا يستنكفون عن عبادته ؛ لأن من الناس من جعل الملائكة أولاده كالمسيح ، وعبدوا الملائكة والمسيح .

ولهذا قال : (مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن كُونُواْ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ) فذكر الملائكة والنبيين جميعاً .

وقد نفى فى كتابه عن نفسه الولادة ، ونفى اتخاذ الولد جميعاً . فقال : (وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ) وقال تعالى : (مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ) الآية وقال : (ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ) وقال : (وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ * لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَـٰعِلِينَ * بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ * وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ * أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ * لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ)

وقال : (وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ) .

ومعلوم أن الذين خرقوا له بنين وبنات بغير علم ، والذين قالوا : ولد الله ، وإنهم لكاذبون ، والذين قالوا : المسيح بن الله ، وعزير بن الله : لم يرد عقلاؤهم ولادة حسية ، من جنس ولادة الحيوان بانفصال جزء من ذكره فى أنثاه ، يكون منه الولد . فإن النصارى والصابئين متفقون على نفى ذلك ، وكذلك مشركو العرب ، ما أظن عقلاءهم كانوا يعتقدون ذلك ، وإنما وصفوا الولادة العقلية الروحانية ، مثل ما يقوله النصارى : إن الجوهر الذى هو الله من وجه ، وهو الكلمة من وجه ، تدرعت بإنسان مخلوق من مريم ، فيقولون تدرع اللاهوت بالناسوت فظاهره ، — وهو الدرع والقميص — بشر ، وباطنه — وهو المتدرع — لاهوت ، هو الابن الذى هو الكلمة لتولد هذا من الأب الذى هو جوهر الوجود .

فهذه البنوة مركبة عندهم من أصلين :

أحدهما : أن الجوهر الذى هو الكلمة تولد من الجوهر الذى هو الأب ، كتولد العلم والقول من العالم القائل .

والثانى : أن هذا الجوهر اتحد بالمسيح وتدرع به ، وذلك الجوهر هو الأب من وجه، وهو الابن من وجه . فلهذا حكى الله عنهم ، تارة أنهم يقولون : المسيح بن الله . وتارة أنهم يقولون :إن الله هو المسيح بن مريم .

وأما حكايته عنهم أنهم قالوا: (إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ) فالمفسرون يقولون : الله والمسيح وأمه ، كما قال : (يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ) ولهذا قال فى سياق الكلام : (مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ) أى غاية المسيح : الرسالة ، وغاية أمه : الصديقية ، لا يبلغان إلى اللاهوتية ؛ فهذا حجة هذا . وهو ظاهر .

ومن الناس من يزعم أن المراد بذلك الأقانيم الثلاثة ، وهى الأب والابن وروح القدس ، وهذا فيه نظر .

فأما قوله : (وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ * بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ) فإن قوله : (بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ) أى مبدعهما ، كما ذكر مثل ذلك فى البقرة ؛ وليس المراد أنهما بديعة سماواته وأرضه ، كما تحتمله العربية لولا السياق . لأن المقصود نفى ما زعموه من خرق البنين والبنات له ، ومن كونه اتخذ ولداً .

وهذا ينتفى بضده كونه أبدع السموات ، ثم قال : (أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ) وذكر ثلاث أدلة على نفى ذلك .

أحدها : كونه ليس له صاحبة ؛ فهذا نفى الولادة المعهودة : وقوله : (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ) نفى للولادة العقلية ، وهى التولد ؛ لأن خلق كل شيء ينافى تولدها عنه . وقوله : (وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) يشبه — والله أعلم — أن يكون لما ادعت النصارى أن المتحد به هو الكلمة التى يفسرونها بالعلم ، والصابئة القائلون بالتولد والعلة ' لا يجعلونه عالماً بكل شيء — ذكر أنه بكل شيء عليم ، لإثبات هذه الصفة له ، رداً على الصابئة ، ونفيها عن غيره رداً على النصارى .

وإذا كان كذلك فقول من قال بتولد العقول والنفوس — التى يزعمون أنها الملائكة — أظهر فى كونهم يقولون إنه ولد الملائكة . وأنهم بنوه وبناته فالعقول بنوه ، والنفوس بناته : من قول النصارى .

ودخل فى هذا من تفلسف من المنتسبة إلى الإسلام ، حتى إنى أعرف كبيراً لهم سئل عن العقل والنفس : فقال بمنزلة الذكر والأنثى . فقد جعلهم كالابن والبنت ، وهم يجعلونهم متولدين عنه تولد المعلول عن العلة ؛ فلا يمكنه أن يفك ذاته عن معلوله ولا معلوله عنه ، كما لا يمكنه أن يفصل نفسه عن نفسه ، بمنزلة شعاع الشمس مع الشمس وأبلغ .

وهؤلاء يقولون : إن هذه الأرواح التى ولدها متصلة بالأفلاك : الشمس والقمر والكواكب ، كاتصال اللاهوت بجسد المسيح ، فيعبدونها كما عبدت النصارى المسيح ، إلا أنهم أكفر من وجوه كثيرة ؛ وهم أحق بالشرك من النصارى ؛ فإنهم يعبدون ما يعلمون أنه منفصل عن الله ، وليس هو إياه ، ولا صفة من صفاته ، والنصارى يزعمون أنهم ما يعبدون إلا ما اتحد بالله ، لا لما ولده من المعلولات .

ثم من عبد الملائكة والكواكب وأرواح البشر وأجسادهم : اتخذ الأصنام على صورهم وطبائعهم ؛ فكان ذلك أعظم أسباب عبادة الأصنام .

ولهذا كان الخليل إمام الحنفاء : مخاطباً لهؤلاء الذين عبدوا الكواكب والشمس والقمر ، والذين عبدوا الأصنام مع إشراكهم واعترافهم بأصل الجميع .

وقد ذكر الله قصتهم فى القرآن فى غير موضع ، وأولئك هم الصابئون المشركون الذين ملكهم نمروذ . وعلماؤهم الفلاسفة من اليونانيين وغيرهم ، الذين كانوا بأرض الشام والجزيرة والعراق وغيرها ، وجزائر البحر قبل النصارى ، وكانوا بهذه البلاد فى أيام بنى إسرائيل ، وهم الذين كانوا يقاتلون بنى إسرائيل ، فيغلبون تارة ويغلبون تارة ، وسنحاريب وبخت نصر ونحوهما : هم ملوك الصابئة بعد الخليل . والنمروذ الذى كان فى زمانه .

فتبين بذلك ما فى القرآن من الرد لمقالات المتقدمين قبل هـذه الأمة والـكفار والمنافقين فيها : من إثبات الولادة لله ، وإن كان كثير من الناس لا يفهم دلالة القرآن على هذه المقالات ؛ لأن ذلك يحتاج إلى شيئين : إلى تصور مقالتهم بالمعنى لا بمجرد اللفظ ، وإلى تصور معنى القرآن ، والجمع بينهما . فتجد المعنى الذى عنوه قد دل القرآن على ذكره وإبطاله .

وأما اتحاد الولد فيفسر بعين الولادة . وهو من باب الأفعال ، لا من باب الصفات ، كما يقوله طائفة من النصارى فى المسيح .

فصـــــل

فهذا نفى كونه — سبحانه — والداً لشيء ، أو متخذاً لشيء ولداً ، بأى وجه من وجوه الولادة ، أو اتخاذ الولد أياً كان .

وأما نفى كونه مولوداً : فيتضمن نفى كونه متولداً بأى نوع من التوالد من أحد من البشر وسائر ما تولد من غيره : فهو رد على من قال المسيح هو الله . ورد على الدجال الذى يقول : إنه الله ، ورد على من قال فى بشر : إنه الله ، من غالية هذه الأمة فى على وبعض أهل البيت ، أو بعض المشايخ ، كما قال قوم ذلك فى على وطائفة من أهـــل البيت ، وقالوه فى الأنبياء أيضاً ، وقاله قوم فى الحلاج ، وقوم فى الحاكم بمصر ، وقوم فى الشيخ عدى ، وقوم فى يونس العنيني[1] ، وقوم يعمونه فى المشايخ ، ويصوبون هذا كله .

فقوله سبحانه: (وَلَمْ يُولَدْ) نفى لهذا كله ، فإن هؤلاء كلهم مولودون ، والله لم يولد . ولهذا لما ذكر الله المسيح فى القرآن قال : (ٱبْنُ مَرْيَمَ) بخلاف سائر الأنبياء ، كقوله : (لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ) وقوله : (مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ) وقوله : (إِذْ قَالَ

---

(١) نسخة القنيني

ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ) وقوله : (يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ) وقوله : (وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةٗ) وقوله : (وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ) .

وفى ذلك فائدتان :

إحداهما : بيان أنه مولود ، والله لم يولد .

والثانية : نسبته إلى مريم ؛ بأنه ابنها ليس هو ابن الله .

وأما قوله : (لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ) الآية وقوله : (وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِ) : فإنه حكى قولهم الذى قالوه ، وهم قد نسبوه إلى الله أنه ابنه ، فلم يضمنوا ذلك قولهم المسيح بن مريم .

وقوله : (وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ) نفى للشركاء والأنداد ، يدخل فيه كل من جعل شيئا كفواً لله فى شىء من خواص الربوبية ، مثل خلق الخلق ، والإلهية ، كالعبادة له ، ودعائه ونحو ذلك .

فهذه نكت تبين اشتمال كتاب الله على إبطال قول من يعتقد فى أحد من البشر الإلهية ، باتحاد أو حلول أو غير ذلك .

فصـــــل

وأما هؤلاء الملاحدة : فإنهم لا يقتصرون فى كفرهم على أنه ولد شيئا أو اتخذ ولدا . أو أنه بشر مولود ؛ لاتحاد الرب به .

فإن هذا جميعه يقتضى إثبات شيئين متميزين ، اتحد أحدهما بالآخر أو حل فيه ، وهذا إنما يقوله من يقول بالاتحاد الخاص المقيـــد ، أو الحلول الخاص المقيـد .

وهؤلاء عندهم ما ثم غيره ، ولا سواه ، ولم يخلق شيئاً ، ولا هو رب شيء ولا مالك شيء ، ولا له عبـد ولا عابد ، ولا داع يدعوه فيجيبه ، ولا مضطر يضطر إليه فيجيبه ، ولا سائل يسأله فيجيبه ، وإنما يشهد العبد هـذه المعانى ؛ إذا كان محجوبا عن شهود الوحدة المطلقة فى خياله .

فإذا انـكشف حجاب قلبه عنـدهم : رأى ما ثم اثنين بوجـه من الوجوه ، حتى يكون أحـدهما خالقا والآخر مخلوقا ، أو أحـدهما عابدا والآخر ربا ، أو أحدهما والدا والآخر مولودا ، أو أحدهما شريكا للآخر أو شفيعا عنده ، حتى يتقرب بعبادته إليه .

وهذا قول الحذاق منهم ، كالتلمسانى ، وابن الفارض ؛ والتلمسانى أعرف بحقائق قولهم .

وأما ابن عربى فيقول : هذا كله فى الذوات الثابتة فى العدم ، لا فى شىء موجود ، فأما الوجود فلا يتصور أن يكون فيه رب وعبد ، وخالق ومخلوق ، وداع ومجيب ، وإنما الوجود لما فاض على الأعيان ، فظهر فيها حصل التفرق من جهة الأعيان ؛ كتفرق النور فى الزجاج ؛ لاختلاف ألوانه .

فهؤلاء ؛ يرد عليهم القرآن فى مواضع لا تحصى ، وقصص الله التى قصها عن فرعون الذى هو رئيسهم : يتضمن الرد عليهم ؛ فإن فرعون أنكر رب العالمين ، وأن يكون لموسى إله يطلع إليه ، ولم ينكر هذا الوجود الذى هو العالم .

وكذلك هؤلاء : إنما يقرون بهذا الوجود الذى هو هذا العالم ، فما ثم غيره عندهم ، ويقولون : هو الله ، وهو الإنسان الكبير .

وقال شيخ الإسلام (قدس الله روحه)[1] :-

بسم الله الرحمن الرحيم

من أحمد بن تيمية : إلى الشيخ العارف القدوة ، السالك الناسك (أبي الفتح نصر) فتح الله على باطنه وظاهره ما فتح به على قلوب أوليائه ، ونصره على شياطين الإنس والجن في جهره وإخفائه ، ونهج به الطريقة المحمدية الموافقة لشرعته ، وكشف به الحقيقة الدينية المميزة بين خلقه وطاعته ، وإرادته ومحبته؛ حتى يظهر للناس الفرق بين الكلمات الكونية والكلمات الدينية ، وبين المؤمنين الصادقين الصالحين ، ومن تشبه بهم من المنافقين ، كما فرق الله بينهما في كتابه وسنته .

(أما بعد) فإن الله تعالى قد أنعم على الشيخ ، وأنعم به نعمة باطنة وظاهرة في الدين والدنيا ، وجعل له عند خاصة المسلمين — الذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فسادا — منزلة علية ، ومودة إلهية ؛ لما منحه

---

(١) في رسالته الى نصر المنبجى .

الله تعالى به من حسن المعرفة والقصد ، فإن العلم والإرادة ، أصل لطريق الهدى والعبادة .

وقد بعث الله محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم بأكمل محبة فى أكمل معرفة ، فأخرج بمحبة الله ورسوله — التى هى أصل الأعمال — المحبة التى فيها إشراك وإجمال ، كما قال تعالى : (وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ) وقال تعالى : (قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ) .

ولهذا كانت المحبة الإيمانية هى الموجبة للذوق الإيمانى ، والوجد الدينى ، كما فى الصحيحين عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان فى قلبه ، من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله ، ومن كان يكره أن يرجع فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه ، كما يكره أن يلقى فى النار » فجعل صلى الله تعالى عليه وسلم وجود حلاوة الإيمان معلقاً بمحبة الله ورسوله الفاضلة ، وبالمحبة فيه فى الله ، وبكراهة ضد الإيمان .

وفى صحيح مسلم عن العباس قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « ذاق طعم الإيمان من رضى بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد رسولا »

فجعل ذوق طعم الإيمان معلقاً بالرضى بهذه الأصول ، كما جعل الوجد معلقا بالمحبة ؛ ليفرق صلى الله تعالى عليه وسلم بين الذوق والوجد ، الذى هو أصل الأعمال الظاهرة وثمرة الأعمال الباطنة ، وبين ما أمر الله به ورسوله وبين غيره كما قال سهل بن عبد الله التسترى : كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل ، إذ كان كل من أحب شيئاً فله ذوق بحسب محبته .

ولهذا طالب الله تعالى مدعى محبته بقوله : (إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ) قال الحسن البصرى : ادعى قوم على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنهم يحبون الله ؛ فطالبهم بهذه الآية ؛ فجعل محبة العبد لله موجبة لمتابعة رسوله ، وجعل متابعة رسوله موجبة لمحبة الرب عبده .

وقد ذكر نعت المحبين فى قوله : (فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ) فنعت المحبين المحبوبين بوصف الكمال ، الذى نعت الله به رسوله الجامع بين معنى الجلال والجمال ، المفرق فى الملتين قبلنا : وهو الشدة والعزة على أعداء الله ، والذلة والرحمة لأولياء الله ورسوله ؛ ولهذا يوجد كثير ممن له وجد وحب بمجمل مطلق ، كما قال فيه كبير من كبرائهم :

* مشرد عن الوطن *

* مبعد عن السكن *

* يبكى الطـــلول والدمن *

* يهـــوى ولا يدرى لمن *

فالشيخ — أحسن الله إليه — قد جعل الله فيه من النور والمعرفة — الذى هو أصل المحبة والإرادة — ما تتميز به المحبة الإيمانية المحمدية المفصلة ، عن المجملة المشتركة ، وكما يقع هذا الإجمال فى المحبة يقع أيضاً فى التوحيد ، قال الله تعالى فى أم الكتاب ، التى هى مفروضة على العبد - وواجبة فى كل صلاة - أن يقول : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) .

وقد ثبت فى الحديث الصحيح أن الله يقول : « قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين : نصفها لى ونصفها لعبدى ولعبدى ما سأل ، فإذا قال العبد : (ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ) قال الله : حمدنى عبدى ، وإذا قال : (ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ) قال الله : أثنى علىّ عبدى ، وإذا قال : (مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ) قال : مجدنى عبدى ، أو قال فوض إلى عبدى ، وإذا قال : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) قال : فهذه الآية بينى وبين عبدى نصفين ، ولعبدى ما سأل ، فإذا قال : (ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ) قال : فهؤلاء لعبدى ولعبدى ما سأل » .

ولهذا روى أن الله أنزل مائة كتاب وأربعة كتب ، جمع معانيها فى القرآن ، ومعانى القرآن فى المفصل ، ومعانى المفصل فى أم الكتاب ، ومعانى

أم الكتاب ، فى هاتين الكلمتين : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) وهذا المعنى قد ثناه الله فى مثل قوله : (فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ) وفى مثل قوله : (عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) وقوله : (عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ) .

وكان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يقول فى نسكه : « اللهم هذا منك ولك » .

فهو سبحانه مستحق التوحيد ، الذى هو دعاؤه وإخلاص الدين له : دعاء العبادة بالمحبة والإنابة ، والطاعة والإجلال ، والإكرام والخشية ، والرجاء ، ونحو ذلك من معانى تألهه وعبادته ، ودعاء المسئلة والاستعانة بالتوكل عليه ، والالتجاء إليه . والسؤال له ، ونحو ذلك مما يفعل سبحانه بمقتضى ربوبيته ، وهو سبحانه الأول والآخر ، والباطن والظاهر .

ولهذا جاءت الشريعة الكاملة فى العبادة باسم الله ، وفى السؤال باسم الرب فيقول المصلى والذاكر : الله أكبر ، وسبحان الله ، والحمد لله ولا إله إلا الله ، وكلمات الأذان : الله أكبر الله أكبر إلى آخرها ونحو ذلك .

وفى السؤال : (رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا) ، (رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ) ، (رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ) ، (رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي) (رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا) ، (رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ) ونحو ذلك .

وكثير من المتوجهين السالكين يشهد فى سلوكه الربوبية، والقيومية الكاملة الشاملة لكل مخلوق ؛ من الأعيان والصفات .

وهذه الأمور قائمة بكلمات الله الكونية ، التى كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يستعيذ بها فيقول : « أعوذ بكلمات الله التامات ، التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما خلق ، وذرأ وبرأ ، ومن شر ما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، ومن شر ما ذرأ فى الأرض وما يخرج منها . ومن شر فتن الليل والنهار ، ومن شر كل طارق إلا طارقا يطرق بخير يارحمن » .

فيغيب ويفنى بهذا التوحيد الربانى عما هو مأمور به أيضا ومطلوب منه ، وهو محبوب الحق ومرضيه من التوحيد الالهى ؛ الذى هو عبادته وحده لا شريك له ، وطاعته وطاعة رسوله ، والأمر بما أمر به ، والنهى عما نهى عنه ، والحب فيه ، والبغض فيه ، ومن أعرض عن هذا التوحيد وأخذ بالأول : فهو يشبه القدرية المشركية الذين قالوا : (لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا) .

ومن أخذ بالثانى دون الأول : فهو من القدرية المجوسية الذين يزعمون أن الله لم يخلق أفعال العباد ، ولا شاء جميع الكائنات ، كما تقول المعتزلة والرافضة ، ويقع فى (كلام) كثير من المتكلمة والمتفقهة .

والأول ذهب إليه طوائف من الإباحية المنحلين عن الأوامر والنواهى ، وإنما يستعملون ذلك عند أهوائهم وإلا فهو لا يستمر ، وهو كثير فى المتألهة

الخارجين عن الشريعة خفو العدو[1] وغيرهم ؛ فإن لهم زهادات وعبادات فيها ما هو غير مأمور به ، فيفيدهم أحوالا فيها ما هو فاسد ، يشبهون من بعض الوجوه الرهبان وعباد البدود .

ولهذا قال الشيخ عبد القادر (قدس الله روحه): كثير من الرجال إذا دخلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا ، وأنا انفتحت لى فيه روزنة فنازعت أقدار الحق بالحق للحق ، والولى من يكون منازعا للقدر لا من يكون موافقا له .

وهذا الذى قاله الشيخ تكلم به على لسان المحمدية أى أن المسلم مأمور أن يفعل ما أمر الله به ، ويدفع ما نهى الله عنه ، وإن كانت أسبابه قد قدرت ، فيدفع قدر الله بقدر الله ، كما جاء فى الحديث الذى رواه الطبرانى فى كتاب الدعاء عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : « إن الدعاء والبلاء ليلتقيان بين السماء والأرض » وفى الترمذى قيل يا رسول الله ؟ أرأيت أدوية نتداوى بها ، ورقى نسترقى بها ، وتقى نتقيها ، هل ترد من قدر الله شيئا ؟ فقال « هن من قدر الله » .

وإلى هذين المعنين أشار الحديث الذى رواه الطبرانى أيضا عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « يقول الله يا ابن آدم إنما هى أربع : واحدة لى ، وواحدة لك ، وواحدة بينى وبينك ، وواحدة بينك وبين خلقى ؟ فأما التى

---

(١) هكذا الأصل .

لى : فتعبدنى لا تشرك بى شيئا ، وأما التى لك فعملك أجزيك به أحوج ما تكون إليه ، وأما التى هى بينى وبينك فمنك الدعاء وعلى الإجابة ، وأما التى بينك وبين خلقى فأت إلى الناس بما تحب أن يأتوه إليك » .

ثم إن التوحيد الجامع لتوحيد الألوهية والربوبية ، أو توحيد أحدهما : للعبد فيه ثلاث مقامات :

(أحدها) مقام الفرق والكثرة بإنعامه من كثرة المخلوقات والمأمورات .

(والثانى) مقام الجمع والفناء بحيث يغيب بمشهوده عن شهوده . وبمعبوده عن عبادته ، وبموحده عن توحيده ، وبمذكوره عن ذكره ، وبمحبوبه عن حبه ؛ فهذا فناء عن إدراك السوى وهو فناء القاصرين .

وأما الفناء الكامل المحمدى : فهو الفناء عن عبادة السوى ، والاستعانة بالسوى ، وإرادة وجه السوى ، وهذا فى الدرجة الثالثة وهو شهود التفرقة فى الجمع ، والكثرة فى الوحدة ، فيشهد قيام الكائنات مع تفرقها بإقامة الله تعالى وحده وربوبيته .

ويرى أنه ما من دابة إلا ربى آخذ بناصيتها ، وأنه على كل شىء وكيل ، وأنه رب العالمين ، وأن قلوب العباد ونواصيهم بيده ، لا خالق غيره ولا نافع ولا ضار ، ولا معطى ولا مانع ولا حافظ ولا معز ولا مذل سواه ؛ ويشهد أيضا

فعل المأمورات مع كثرتها ، وترك الشبهات مع كثرتها لله وحده لا شريك له .

وهذا هو الدين الجامع العام الذى اشترك فيه جميع الأنبياء ، والإسلام العام والإيمان العام ؛ وبه أنزلت السور المكية ؛ وإليه الإشارة بقوله تعالى : (شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ) وبقوله : (وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ) وبقوله تعالى : (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ) ولهذا ترجم البخارى عليه « باب ما جاء أن دين الأنبياء واحد » .

وقد قال تعالى : (إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) فجمع فى الملل الأربع : (مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا) وذلك قبل النسخ والتبديل .

وخص فى أول الآية المؤمنين ، وهو الإيمان الخاص الشرعى الذى قال فيه : (لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا) والشرعة هى الشريعة ، والمنهاج هو الطريقة ، والدين الجامع هو الحقيقة الدينية ، وتوحيد الربوبية ، هو الحقيقة الكونية ، فالحقيقة المقصودة الدينية الموجودة الكونية متفق عليها بين الأنبياء والمرسلين .

فأما الشرعة والمنهاج الإسلاميان فهو لأمة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم : (خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) وبها أنزلت السور المدنية ؛ إذ فى المدينة النبوية شرعت الشرائع ، وسنت السنن ، ونزلت الأحكام والفرائض والحدود .

فهذا التوحيد : هو الذى جاءت به الرسل ، ونزلت به الكتب ، وإليه تشير مشايخ الطريقة وعلماء الدين ؛ لكن بعض ذوى الأحوال قد يحصل له فى حال الفناء القاصر سكر وغيبة عن السوى ، والسكر وجد بلا تمييز .

فقد يقول فى تلك الحال : سبحانى ، أو ما فى الجبة إلا الله ، أو نحو ذلك من الكلمات التى تؤثر عن أبى يزيد البسطامى أو غيره من الأصحاء ، وكلمات السكران تطوى ولا تروى ولا تؤدى ؛ إذا لم يكن سكره بسبب محظور من عبادة أو وجه منهى عنه .

فأما إذا كان السبب محظوراً لم يكن السكران معذوراً ، لا فرق فى ذلك بين السكر الجسمانى والروحانى ؛ فسكر الأجسام بالطعام والشراب ، وسكر النفوس بالصور ، وسكر الأرواح بالأصوات .

وفى مثل هذا الحال : غلط من غلط بدعوى الاتحاد والحلول العينى ، فى مثل دعوى النصارى فى المسيح ، ودعوى الغالية فى على وأهل البيت ، ودعوى قوم من الجهال الغالية فى مثل الحلاج أو الحاكم بمصر أو غيرهما ، وربما اشتبه عليهم الاتحاد النوعى الحكمى بالاتحاد العينى الذاتى .

فالأول كما رواه مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال: « يقول الله : عبدى ! مرضت فلم تعدنى فيقول كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ فيقول أما علمت أنه مرض عبدى فلان ، فلو عدته لوجدتنى عنده . عبدى ! جعت فلم تطعمنى ، فيقول ربى : كيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ فيقول : أما علمت أن عبدى فلاناً جاع ، فلو أطعمته لوجدت ذلك عندى » .

ففسر ما تكلم به فى هذا الحديث أنه جوع عبده ومحبوبه لقوله : « لوجدت ذلك عندى » ولم يقل لوجدتنى قد أكلته ، ولقوله : « لوجدتنى عنده » ولم يقل لوجدتنى إياه ، وذلك لأن المحب يتفق هو ومحبوبه بحيث يرضى أحدهما بما يرضاه الآخر ، ويأمر بما يأمر به ، ويبغض ما يبغضه ، ويكره ما يكرهه ، وينهى عما ينهى عنه .

وهؤلاء هم الذين يرضى الحق لرضاهم ، ويغضب لغضبهم ، والكامل المطلق فى هؤلاء محمد صلى الله تعالى عليه وسلم .

ولهذا قال تعالى فيه : (إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ) وقال : (وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ) وقال (مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ) .

وقد جاء فى الإنجيل الذى بأيدى النصارى كلمات مجملة إن صح أن المسيح قالها فهذا معناها كقوله « أنا وأبى واحد . من رآنى فقد رأى أبى » ونحو ذلك ،

وبها ضلت النصارى ، حيث اتبعوا المتشابه ، كما ذكر الله عنهم فى القرآن ، لما قدم وفد نجران على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وناظروه فى المسيح .

وقد جاء فى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « من عادى لى ولياً فقد بارزنى بالمحاربة وما تقرب إلى عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه . ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، فبى يسمع ، وبى يبصر ، وبى يبطش ، وبى يمشى » فأخبر فى هذا الحديث أن الحق سبحانه إذا تقرب إليه العبد بالنوافل المستحبة التى يحبها الله بعد الفرائض أحبه الحق على هذا الوجه .

وقد غلط من زعم أن هذا قرب النوافل ، وأن قرب الفرائض أن يكون هو إياه ، فإن الله لا يقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة ، فهذا القرب يجمع الفرائض والنوافل ؛ فهذه المعانى وما يشبهها هى أصول مذهب أهل الطريقة الإسلامية ، أتباع الأنبياء والمرسلين .

وقد بلغنى أن بعض الناس ذكر عند خدمتكم الكلام فى مذهب الاتحادية ، وكنت قد كتبت إلى خدمتكم كتاباً اقتضى الحال من غير قصد أن أشرت فيه إشارة لطيفة إلى حال هؤلاء ، ولم يكن القصد به والله واحداً بعينه ، وإنما الشيخ هو بجمع المؤمنين ، فعلينا أن نعينه فى الدين والدنيا بما هو اللائق به ، وأما هؤلاء الاتحادية فقد أرسل إلى الداعى من طلب كشف حقيقة أمرهم .

وقد كتبت فى ذلك كتاباً ربما يرسل إلى الشيخ ، وقد كتب سيدنا الشيخ عماد الدين فى ذلك رسائل ، والله تعالى يعلم — وكفى به عليما — لولا أنى أرى دفع ضرر هؤلاء عن أهل طريق الله تعالى ، السالكين إليه من أعظم الواجبات — وهو شبيه بدفع التتار عن المؤمنين — لم يكن للمؤمنين بالله ورسوله حاجة إلى أن تكشف أسرار الطريق ، وتهتك أستارها ، ولكن الشيخ — أحسن الله تعالى إليه — يعلم أن مقصود الدعوة النبوية ، بل المقصود بخلق الخلق ، وإنزال الكتب ، وإرسال الرسل : أن يكون الدين كله لله ، هو دعوة الخلائق إلى خالقهم بما قال تعالى : (إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَـذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا) . وقال سبحانه : (قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى) ، وقال تعالى : (وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ) .

وهؤلاء موّهوا على السالكين : التوحيد — الذى أنزل الله تعالى به الكتب ، وبعث به الرسل — بالاتحاد الذى سموه توحيداً ، وحقيقته تعطيل الصانع وجحود الخالق .

وإنما كنت قديماً ممن يحسن الظن بابن عربى ويعظمه : لما رأيت فى كتبه من الفوائد مثل كلامه فى كثير من «الفتوحات» ، والكنة والمحكم المربوط والدرة الفاخرة ، ومطالع النجوم ، ونحو ذلك . ولم نكن بعد اطلعنا على

حقيقة مقصوده ، ولم نطالع الفصوص ونحوه ، وكنا نجتمع مع إخواننا فى الله نطلب الحق ونتبعه ، ونكشف حقيقة الطريق ، فلما تبين الأمر عرفنا نحن ما يجب علينا .

فلما قدم من المشرق مشايخ معتبرون ، وسألوا عن حقيقة الطريقة الإسلامية ، والدين الإسلامى وحقيقة حال هؤلاء : وجب البيان .

وكذلك كتب إلينا من أطراف الشام : رجال سالكون أهل صدق وطلب ، أن أذكر النكت الجامعة لحقيقية مقصودهم .

والشيخ ـ أيده الله تعالى بنور قلبه ، وذكاء نفسه وحقق قصده من نصحه للإسلام وأهله ، ولإخوانه السالكين ـ يفعل فى ذلك ما يرجو به رضوان الله سبحانه ومغفرته فى الدنيا والآخرة .

وهؤلاء الذين تكلموا فى هذا الأمر : لم يعرف لهم خبر من حين ظهرت دولة التتار ، وإلا فكان الاتحاد القديم هو الاتحاد المعين ، وذلك أن القسمة رباعية ، فإن كل واحد من الاتحاد والحلول : إما معين فى شخص وإما مطلق .

أما الاتحاد والحلول المعين : كقول النصارى والغالية فى الأئمة من الرافضة وفى المشايخ من جهال الفقراء والصوفية ، فإنهم يقولون به فى معين ؛ إما بالاتحاد كاتحاد الماء واللبن ، وهو قول اليعقوبية وهم السودان ومن الحبشة والقبط ؛ وإما بالحلول وهو قول النسطورية ، وإما بالاتحاد من وجه دون وجه وهو قول الملكانية .

(وأما الحلول المطلق) وهو أن الله تعالى بذاته حال فى كل شىء فهذا تحكيه أهل السنة والسلف عن قدماء الجهمية ، وكانوا يكفرونهم بذلك .

وأما ما جاء به هؤلاء من الاتحاد العام : فما علمت أحداً سبقهم إليه إلا من أنكر وجود الصانع ، مثل فرعون والقرامطة — وذلك أن حقيقة أمرهم أنهم يرون أن عين وجود الحق هو عين وجود الخلق ، وأن وجود ذات الله خالق السموات والأرض ، هى نفس وجود المخلوقات ؛ فلا يتصور عندهم أن يكون الله تعالى خلق غيره ، ولا أنه رب العالمين ، ولا أنه غنى ، وما سواه فقير .

لكن تفرقوا على ثلاثة طرق ، وأكثر من ينظر فى كلامهم لا يفهم حقيقة أمرهم ؛ لأنه أمر مبهم .

(الأول) أن يقولوا : إن الذوات بأسرها كانت ثابتة فى العدم ذاتها أبدية أزلية ، حتى ذوات الحيوان ، والنبات والمعادن ، والحركات والسكنات وأن وجود الحق فاض على تلك الذوات ، فوجودها وجود الحق ، وذواتها ليست ذوات الحق ، ويفرقون بين الوجود والثبوت ، فما كنت به فى ثبوتك ظهرت به فى وجودك .

ويقولون : إن الله سبحانه لم يعط أحداً شيئاً ، ولا أغنى أحداً ، ولا أسعده ولا أشقاه ، وإنما وجوده فاض على الذوات ، فلا تحمد إلا نفسك ، ولا تذم إلا نفسك .

ويقولون : إن هذا هو سر القدر ، وأن الله تعالى إنما علم الأشياء من جهة رؤيته لها ثابتة فى العدم خارجاً عن نفسه المقدسة .

ويقولون : إن الله تعالى لا يقدر أن يغير ذرة من العالم ، وإنهم قد يعلمون الأشـياء من حيث علمها الله سبحانه ، فيـكون علمهم وعلم الله تعالى من معدن واحد ، وأنهم يكونون أفضل من خاتم الرسـل من بعض الوجوه ؛ لأنهم يأخذون من المعدن الذى أخذ منه الملك الذى يوحى به الرسل .

ويقولون : إنهم لم يعبدوا غير الله ، ولا يتصور أن يعبدوا غير الله تعالى وإن عباد الأصنام ما عبدوا إلا الله سبحانه ، وأن قوله تعالى : (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ) معنى حكم ؛ لا معنى أمر ، فما عبد غير الله فى كل معبود ، فإن الله تعالى ما قضى بشىء إلا وقع .

ويقولون : إن الدعوة إلى الله تعـالى مكر بالمدعو فإنه ما عدم من البداية ، فيدعى إلى الغاية ، وأن قوم نوح قالوا : (لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا) لأنهم لو تركوهم لتركوا من الحق بقدر ما تركوا منهم ؛ لأن للحق فى كل معبود وجهاً يعرفه من عرفه ، وينـكره من أنـكره ، وأن التفريق والـكثرة كالأعضاء فى الصورة المحسوسة ، وكالقوى المعنوية فى الصورة الروحانية ، وأن العارف منهم يعرف من عبَـد وفى أى صورة ظهر حتى عبد » .

فإن الجاهل يقول : هذا حجر وشجر ، والعارف يقول : هذا مجلى إلهى ينبغى تعظيمه فلا يقتصر ، فإن النصارى إنما كفروا لأنهم خصصوا ، وإن

عباد الأصنام ما أخطأوا إلا من حيث اقتصارهم على عبادة بعض المظاهر ، والعارف يعبد كل شيء .

والله يعبد أيضا كل شيء لأن الأشياء غذاؤه بالأسماء والأحكام ، وهو غذاؤها بالوجود ، وهو فقير إليها وهي فقيرة إليه ، وهو خليل كل شيء بهذا المعنى ، ويجعلون أسماء الله الحسنى هي مجرد نسبة ، وإضافة بين الوجود والثبوت وليست أموراً عدمية .

ويقولون : « من أسمائه الحسنى : العلي عن ماذا وما ثم إلا هو ؟ وعلى ماذا وما ثم غيره ؟ فالمسمى محدثات وهي العلية لذاتها وليست إلا هو ، وما نكح سوى نفسه ، وما ذبح سوى نفسه ، والمتكلم هو عين المستمع » .

وإن موسى إنما عتب على هارون حيث نهاهم عن عبادة العجل لضيقه وعدم اتساعه ، وإن موسى كان أوسع في العلم ؛ فعلم أنهم لم يعبدوا إلا الله ، وأن أعلى ما عبد الهوى ، وأن كل من اتخذ إلهه هواه فما عبد إلا الله ، وفرعون كان عندهم من أعظم العارفين ، وقد صدقه السحرة في قوله : (أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ) وفي قوله : (مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى) .

وكنت أخاطب بكشف أمرهم لبعض الفضلاء الضالين ، وأقول إن حقيقة أمرهم هو حقيقة قول فرعون ، المنكر لوجود الخالق الصانع ؛ حتى حدثني بعض عن كثير من كبرائهم أنهم يعترفون ، ويقولون نحن على قول فرعون .

وهذه المعانى كلها هى قول صاحب الفصوص والله تعالى أعلم بما مات الرجل عليه ، والله يغفر لجميع المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، الأحياء منهم والأموات (رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ) .

والمقصود : أن حقيقة ما تضمنه كتاب الفصوص ، المضاف إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه جاء به: وهو ما إذا فهمه المسلم [علم] بالاضطرار أن جميع الأنبياء والمرسلين ، وجميع الأولياء والصالحين ، بل جميع عوام أهل الملل ؛ من اليهود والنصارى والصابئين: يبرءون إلى الله تعالى من بعض هذا القول فكيف منه كله ؟ .

ونعلم أن المشركين عباد الأوثان والكفار أهل الكتاب يعترفون بوجود الصانع الخالق البارئ المصور — الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور — ربهم ورب آبائهم الأولين — رب المشرق والمغرب .

ولا يقول أحد منهم إنه عين المخلوقات ، ولا نفس المصنوعات ، كما يقوله هؤلاء ، حتى إنهم يقولون لو زالت السموات والأرض زالت حقيقة الله ؛ وهذا مركب من أصلين :ـ

(أحدهما) أن المعدوم شىء ثابت فى العدم — كما يقوله كثير من المعتزلة والرافضة — وهو مذهب باطل بالعقل الموافق للكتاب والسنة والإجماع . وكثير من متكلمة أهل الإثبات — كالقاضى أبى بكر — كفر من يقول بهذا .

وإنما غلط هؤلاء من حيث لم يفرقوا بين علم الله بالأشياء قبل كونها — وإنها مثبتة عنده فى أم الكتاب فى اللوح المحفوظ — وبين ثبوتها فى الخارج عن علم الله تعالى ، فإن مذهب المسلمين أهل السنة والجماعة أن الله سبحانه وتعالى كتب فى اللوح المحفوظ مقادير الخلائق قبل أن يخلقها ، فيفرقون بين الوجود العلمى وبين الوجود العينى الخارجى .

ولهذا كان أول ما نزل على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سورة : (ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ * ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ * ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ * عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) فذكر المراتب الأربع : وهى الوجود العينى الذى خلقه ، والوجود الرسمى المطابق للفظى الدال على العلمى ، وبين أن الله تعالى علمه . ولهذا ذكر التعليم بالقلم ، فإنه مستلزم للمراتب الثلاثة .

وهذا القول ـ أعنى قول من يقول : إن المعدوم شىء ثابت فى نفسه ، خارج عن علم الله تعالى ـ وإن كان باطلا ودلالته واضحة لكنه قد ابتدع فى الإسلام من نحو أربعمائة سنة ، وابن عربى وافق أصحابه ، وهو أحد أصلى مذهبه الذى فى الفصوص .

(والأصل الثانى) أن وجود المحدثات المخلوقات : هو عين وجود الخالق ، ليس غيره ولا سواه . وهذا هو الذى ابتدعه وانفرد به عن جميع من تقدمه من المشايخ والعلماء ، وهو قول بقية الاتحادية ، لكن ابن عربى أقربهم إلى الإسلام ، وأحسن كلاما فى مواضع كثيرة ، فإنه يفرق بين الظاهر

والمظاهر ، فيقر الأمر والنهى والشرائع على ما هى عليه ، ويأمر بالسلوك بكثير مما أمر به المشايخ من الأخلاق والعبادات ، ولهذا كثير من العباد يأخذون من كلامه سلوكهم ، فينتفعون بذلك وإن كانوا لا يفقهون حقائقه ، ومن فهمها منهم ووافقه فقد تبين قوله .

(وأما) صاحبه الصدر الرومى فإنه كان متفلسفا ، فهو أبعد عن الشريعة والإسلام ، ولهذا كان الفاجر التلمسانى الملقب بالعفيف يقول : كان شيخى القديم متروحنا متفلسفا ، والآخر فيلسوفا متروحنا ـ يعنى الصدر الرومى ـ فإنه كان قد أخذ عنه ، ولم يدرك ابن عربى فى كتاب مفتاح غيب الجمع والوجود، وغيره يقول إن الله تعالى هو الوجود المطلق والمعين ، كما يفرق بين الحيوان المطلق والحيوان المعين ، والجسم المطلق والجسم المعين ؛ والمطلق لا يوجد إلا فى الخارج مطلقا ، لا يوجد المطلق إلا فى الأعيان الخارجة .

فحقيقة قوله : إنه ليس لله سبحانه وجود أصلا ، ولا حقيقة ولا ثبوت إلا نفس الوجود القائم بالمخلوقات ؛ ولهذا يقول هو وشيخه : إن الله تعالى لا يرى أصلا ، وأنه ليس له فى الحقيقة اسم ولا صفة ، ويصرحون بأن ذات الكلب والخنزير ، والبول والعذرة : عين وجوده — تعالى الله عما يقولون .

(وأما) الفاجر التلمسانى : فهو أخبث القوم وأعمقهم فى الكفر ؛ فإنه لا يفرق بين الوجود والثبوت كما يفرق ابن عربى ، ولا يفرق بين المطلق والمعين

كما يفرق الرومى ، ولكن عنده ماثم غير ولا سوى بوجه من الوجوه . وإن العبد إنما يشهد السوى ما دام محجوبا ، فإذا انكشف حجابه رأى أنه ما ثم غير يبين له الأمر .

ولهذا : كان يستحل جميع المحرمات ؛ حتى حكى عنه الثقات أنه كان يقول البنت والأم والأجنبية شىء واحد ، ليس فى ذلك حرام علينا ، وإنما هؤلاء المحجوبون قالوا حرام فقلنا حرام عليكم .

وكان يقول القرآن كله شرك ليس فيه توحيد وإنما التوحيد فى كلامنا .

وكان يقول : أنا ما أمسك شريعة واحدة ، وإذا أحسن القول يقول : القرآن يوصل إلى الجنة ، وكلامنا يوصل إلى الله تعالى ؛ وشرح الأسماء الحسنى على هذا الأصل الذى له .

وله ديوان شعر قد صنع فيه أشياء ، وشعره فى صناعة الشعر جيد ؛ ولكنه كما قيل : (لحم خنزير فى طبق صينى) وصنف للنصيرية عقيدة ؛ وحقيقة أمرهم أن الحق بمنزلة البحر وأجزاء الموجودات بمنزلة أمواجه :

(وأما) ابن سبعين : فإنه فى البدو والإحاطة يقول أيضا بوحدة الوجود ، وأنه ماثم غير ، وكذلك ابن الفارض فى آخر نظم السلوك ، لكن لم يصرح هل يقول بمثل قول التلمسانى ، أو قول الرومى ، أو قول ابن عربى ؟ وهو إلى كلام التلمسانى أقرب ، لكن ما رأيت فيهم من كفر هذا الكفر الذى

ما كفره أحد قط مثل التلمسانى ، وآخر يقال له البليانى من مشايخ شيراز .
ومن شعره :ـ

وفى كل شى له آية　　تدل عـــلى أنه عينه

وأيضا :

وما أنت غير الـكون بل أنت عينه　　ويفهم هذا السر من هو ذائقه

وأيضا :

وتلتذ إن مرت على جسدى يدى　　لأنى فى التحقيق لست سواكم

وأيضا :

ما بال عيسك لا يقر قرارهـــا　　وإلام ظـــلك لا ينى متنقـــلا
فلسوف تعلم أن سيرك لم يكن　　إلا إليك إذا بلغت المـــنزلا

وأيضا :

ما الأمر إلا نسق واحـــد　　ما فيه من حمـــد ولاذم
وإنمـا العـــادة قد خصصت　　والطبع والشـــارع فى الحـكم

وأيضا :

يا عاذلى أنت تنهـــانى وتأمرنى　　والوجد أصدق نهـــاء وأمار
فإن أطعك وأعص الوجد عدت عمى　　عن العيـــان إلى أوهام أخبار

فعين ما أنت تدعـــونى إليه إذا حققتـــه تره المنهى يا جارى

وأيضا :

وما البحر إلا الموج لا شيء غيره وإن فرقتـــه كثرة المتعدد

إلى أمثال هذه الأشعار ، وفى النثر ما لا يحصى ، ويوهمـون الجهال أنهم مشايخ الإسلام وأئمة الهدى الذين جعـل الله تعالى لهم لسان صدق فى الأمة ، مثـــل سعيد بن المسيب ، والحسن البصرى ، وعمر بن عبد العزيز ، ومالك بن أنس ، والأوزاعى، وإبراهيم بن أدهم ، وسفيان الثورى ، والفضيل بن عياض، ومعروف الـكرخى ، والشافعى ، وأبى سليمان ، وأحمد بن حنبل ، وبشر الحافى ، وعبد الله بن المبارك ، وشقيق البلخى ، ومن لا يحصى كثرة .

إلى مثل المتأخرين : مثل الجنيد بن محمد القواريرى ، وسهـل بن عبد الله التسترى ، وعمر بن عثمان المـكى ، ومن بعدهم — إلى أبى طالب المـكى إلى مثـل الشيخ عبـــد القادر الـكيلانى ، والشيخ عدى ، والشيخ أبى البيان ، والشيخ أبى مدين ، والشيخ عقيـل ، والشيخ أبى الوفاء ، والشيخ رسلان ، والشيخ عبد الرحيم ، والشيخ عبـد الله اليونينى ، والشيخ القرشى ، وأمثال هؤلاء المشايخ الذين كانوا بالحجاز والشام والعراق ،ومصر والمغرب وخراسان، من الأولين والآخرين .

كل هؤلاء متفقون على تـكفير هؤلاء ومن هو أرجـح منهم ، وإن الله

سبحانه ليس هو خلقه ولا جزءاً من خلقه ولا صفة لخلقه ، بل هو — سبحانه وتعالى — متميز بنفسه المقدسة ، بائن بذاته المعظمة عن مخلوقاته ، وبذلك جاءت الكتب الأربعة الإلهيه ؛ من التوراة ، والإنجيل ، والزبور ، والقرآن ، وعليه فطر الله تعالى عباده ، وعلى ذلك دلت العقول .

وكثيراً ما كنت أظن أن ظهور مثل هؤلاء أكبر أسباب ظهور التتار ، واندراس شريعة الإسلام ، وأن هؤلاء مقدمة الدجال الأعور الكذاب ، الذى يزعم أنه هو الله .

فإن هؤلاء عندهم كل شيء هو الله ، ولكن بعض الأشياء أكبر من بعض وأعظم .

وأما على رأى صاحب الفصوص فإن بعض المظاهر والمستجليات : يكون أعظم لعظم ذاته الثابتة فى العدم ؛ وأما على رأى الرومى فإن بعض المتعينات يكون أكبر ، فإن بعض جزئيات الكلى أكبر من بعض ؛ وأما على البقية فالكل أجزاء منه ، وبعض الجزء أكبر من بعض .

فالدجال عند هؤلاء : مثل فرعون من كبار العارفين ، وأكبر من الرسل بعد نبينا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى عليهم السلام ، فموسى قاتل فرعون الذى يدعى الربوبية ، ويسلط الله تعالى مسيح الهدى — الذى قيل فيه إنه الله تعالى وهو برىء من ذلك — على مسيح الضلالة الذى قال : إنه الله .

ولهذا كان بعض الناس يعجب من كون النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « إنه أعور » وكونه قال : « واعلموا أن أحداً منكم لن يرى ربه حتى يموت » وابن الخطيب أنكر أن يكون النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال هذا ؛ لأن ظهور دلائل الحدوث والنقص على الدجال ، أبين من أن يستدل عليه بأنه أعور .

فلما رأينا حقيقة قول هؤلاء الاتحادية ، وتدبرنا ما وقعت فيه النصارى والحلولية : ظهر سبب دلالة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لأمته بهذه العلامة ، فإنه بعث رحمة للعالمين ، فإذا كان كثير من الخلق يجوز ظهور الرب فى البشر ، أو يقول إنه هو البشر : كان الاستدلال على ذلك بالعور دليلا على انتفاء الإلهية عنه .

وقد خاطبنى قديما شخص من خيار أصحابنا — كان يميل إلى الاتحاد ثم تاب منه — وذكر هذا الحديث فبينت له وجهه .

وجاء إلينا شخص كان يقول . إنه خاتم الأولياء ، فزعم أن الحلاج لما قال : أنا الحق كان الله تعالى هو المتكلم على لسانه كما يتكلم الجنى على لسان المصروع ، وأن الصحابة لما سمعوا كلام الله تعالى من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان من هذا الباب ؛ فبينت له فساد هذا ، وإنه لو كان كذلك كان الصحابة بمنزلة موسى ابن عمران ، وكان من خاطبه هؤلاء أعظم من موسى ؛ لأن موسى سمع الكلام الإلهى من الشجرة وهؤلاء يسمعون من الجن الناطق .

وهذا يقوله قوم من الاتحادية ، لكن أكثرهم جهال لا يفرقون بين الاتحاد العام المطلق الذى يذهب إليه الفاجر التلمسانى وذووه ، وبين الاتحاد المعين الذى يذهب إليه النصارى والغالية .

وقد كان سلف الأمة ، وسادات الأئمة ؛ يرون كفر الجهمية أعظم من كفر اليهود ، كما قال عبد الله بن المبارك والبخارى وغيرهما ، وإنما كانوا يلوحون تلويحاً ، وقل أن كانوا يصرحون بأن ذاته فى مكان .

وأما هؤلاء الاتحادية فهم أخبث وأكفر من أولئك الجهمية ، ولكن السلف والأئمة أعلم بالإسلام وبحقائقه ، فإن كثيراً من الناس قد لا يفهم تغليظهم فى ذم المقالة ، حتى يتدبرها ويرزق نور الهدى ، فلما اطلع السلف على سر القول نفروا منه .

وهذا كما قال بعض الناس : متكلمة الجهمية لا يعبدون شيئاً ، ومتعبدة الجهمية يعبدون كل شىء . وذلك لأن متكلمهم ليس فى قلبه تأله ولا تعبد ، فهو يصف ربه بصفات العدم والموات .

وأما المتعبد فنى قلبه تأله وتعبد ، والقلب لا يقصد إلا موجوداً لا معدوما فيحتاج أن يعبد المخلوقات ؛ إما الوجود المطلق وإما بعض المظاهر : كالشمس والقمر ، والبشر والأوثان وغير ذلك ، فإن قول الاتحادية يجمع كل شرك فى العالم ، وهم لا يوحدون الله — سبحانه وتعالى — وإنما يوحدون القدر المشترك بينه وبين المخلوقات ، فهم بربهم يعدلون .

ولهذا حدثنى الثقة أن ابن سبعين كان يريد الذهاب إلى الهند ، وقال : إن أرض الإسلام لا تسعه ؛ لأن الهند مشركون يعبدون كل شيء حتى النبات والحيوان .

وهذا حقيقة قول الاتحادية ، وأعرف ناسا لهم اشتغال بالفلسفة والكلام وقد تألهوا على طريق هؤلاء الاتحادية ؛ فإذا أخذوا يصفون الرب سبحانه بالكلام قالوا ليس بكذا ليس بكذا ، ووصفوه بأنه ليس هو رب المخلوقات كما يقوله المسلمون ، لكن يجحدون صفات الخالق التى جاءت بها الرسل عليهم السلام .

وإذا صار لأحدهم ذوق ووجد : تأله وسلك طريق الاتحادية ، وقال : إنه هو الموجودات كلها ؛ فإذا قيل له أين ذلك النفى من هذا الإثبات ؟ قال : ذلك وجدى ، وهذا ذوقى . فيقال لهذا الضال : كل ذوق ووجد لا يطابق الاعتقاد فأحدهما أو كلاهما باطل ، وإنما الأذواق والمواجيد نتائج المعارف والاعتقادات فإن علم القلب وحاله متلازمان ، فعلى قدر العلم والمعرفة يكون الوجد والمحبة والحال .

ولو سلك هؤلاء طريق الأنبياء والمرسلين عليهم السلام — الذين أمروا بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، ووصفوه بما وصف به نفسه وبما وصفته به رسله — واتبعوا طريق السابقين الأولين : لسلكوا طريق الهدى ، ووجدوا برد اليقين وقرة العين ، فإن الأمر كما قال بعض الناس : إن الرسل

جاءوا بإثبات مفصل ونفي مجمل ، والصابئة المعطلة جاءوا بنفي مفصل وإثبات مجمل ، فالقرآن مملوء من قوله تعالى في الإثبات : (إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ) (وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا) وفي النفي (لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ) (وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ) (هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا) (سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ) .

وهذا الكتاب مع أني قد أطلت فيه الكلام على الشيخ — أيد الله تعالى به الإسلام ، ونفع المسلمين ببركة أنفاسه ، وحسن مقاصده ونور قلبه — فإن ما فيه نكت مختصرة ، فلا يمكن شرح هذه الأشياء في كتاب ، ولكن ذكرت للشيخ — أحسن الله تعالى إليه — ما اقتضى الحال أن أذكره — وحامل الكتاب مستوفز عجلان ، وأنا أسأل الله العظيم أن يصلح أمر المسلمين عامتهم وخاصتهم ، ويهديهم إلى ما يقربهم ، وأن يجعل الشيخ من دعاة الخير ، الذين قال الله سبحانه فيهم : (وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ) .

سئل شيخ الإسلام قدس الله روحه :-

ما تقول أئمة الإسلام فى الحلاج؟ وفيمن قال : أنا أعتقد ما يعتقده الحلاج ماذا يجب عليه؟ ويقول : إنه قتل ظلماً كما قتل بعض الأنبياء؟ ويقول: الحلاج من أولياء الله فماذا يجب عليه بهذا الكلام ، وهل قتل بسيف الشريعة؟.

فأجاب :

الحمد لله . من اعتقد ما يعتقده الحلاج من المقالات التى قتل الحلاج عليها فهو كافر مرتد باتفاق المسلمين ؛ فإن المسلمين إنما قتلوه على الحلول والاتحاد ، ونحو ذلك من مقالات أهل الزندقة والإلحاد ، كقوله : أنا الله . وقوله : إله فى السماء وإله فى الأرض .

وقد علم بالاضطرار من دين الإسلام أنه لا إله إلا الله ، وأن الله خالق كل شيء ، وكل ما سواه مخلوق و (إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا) وقال تعالى : (يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ) الآيات وقال تعالى : (لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ) الآيتين .

فالنصارى الذين كفرهم الله ورسوله ، واتفق المسلمون على كفرهم بالله

ورسوله : كان من أعظم دعواهم الحلول والاتحاد بالمسيح بن مريم ، فمن قال بالحلول والاتحاد فى غير المسيح — كما تقوله الغالية فى على ، وكما تقوله الحلاجية فى الحلاج ، والحاكمية فى الحاكم ، وأمثال هؤلاء — فقولهم شر من قول النصارى لأن المسيح بن مريم أفضل من هؤلاء كلهم .

وهولاء من جنس أتباع الدجال ، الذى يدعى الإلهية ليتبع ، مع أن الدجال يقول للسماء أمطرى فتمطر ، وللأرض أنبتى فتنبت ، وللخربة أخرجى كنوزك فتخرج معه كنوز الذهب والفضة ، ويقتل رجلا مؤمناً ثم يأمر به فيقوم ، ومع هذا فهو الأعور الكذاب الدجال ، فمن ادعى الإلهية بدون هذه الخوارق : كان دون هذا الدجال .

والحلاج : كانت له مخاريق وأنواع من السحر ، وله كتب منسوبة إليه فى السحر .

وبالجملة فلا خلاف بين الأمة أن من قال بحلول الله فى البشر ، واتحاده به ، وإن البشر يكون إلهاً ، وهذا من الآلهة : فهو كافر مباح الدم ، وعلى هذا قتل الحلاج .

ومن قال : إن الله نطق على لسان الحلاج ، وإن الكلام المسموع من الحلاج كان كلام الله ، وكان الله هو القائل على لسانه : أنا الله فهو كافر باتفاق المسلمين ؛ فإن الله لا يحل فى البشر ، ولا تكلم على لسان بشر ، ولكن يرسل الرسل بكلامه ، فيقولون عليه ما أمرهم ببلاغه ، فيقول على ألسنة الرسل ما أمرهم

بقوله ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم « أما إن الله قال على لسان نبيه سمع الله لمن حمده » .

فإن كل واحد من المرسل والرسول : قد يقال إنه يقول على لسان الآخر كما قال الإمام أحمد بن حنبل للمروذى : قل على لسانى ما شئت ، وكما يقال : هذا يقول على لسان السلطان كيت وكيت ، فمثل هذا معناه مفهوم .

وأما أن الله هو المتكلم على البشر كما يتكلم الجنى على لسان المصروع : فهذا كفر صريح ، وأما إذا ظهر مثل هذا القول عن غائب العقل قد رفع عنه القلم ، لكونه مصطلما فى حال من أحوال الفنا والسكر ، فهذا تكلم به فى حال رفع عنه فيهما القلم ، فالقول وإن كان باطلا لكن القائل غير مؤاخذ .

ومثل هذا يعرض لمن استولى [عليه] سلطان الحب مع ضعف العقل ، كما يقال : إن محبوباً ألقى نفسه فى اليم فألقى المحب نفسه خلفه ، فقال : أنا وقعت فلم وقعت خلفى ؟ قال : غبت بك عنى فظننت أنك أنى .

وقد ينتهى بعض الناس إلى مقام يغيب فيه بمعبوده عن عبادته ، وبمذكوره عن ذكره وبمعروفه عن معرفته .

فإذا ذهب تمييز هذا وصار غائب العقل — بحيث يرفع عنه القلم — لم يكن معاقباً على ما تكلم به فى هذه الحال ، مع العلم بأنه خطأ وضلال ، وأنه حال ناقص ، لا يكون لأولياء الله .

وما يحكى عن الحلاج من ظهور كرامات له عند قتله ، مثل كتابة دمه على الأرض : الله ، الله ، وإظهار الفرح بالقتل أو نحو ذلك : فكله كذب . فقد جمع المسلمون أخبار الحلاج فى مواضع كثيرة ، كما ذكر ثابت بن سنان فى أخبار الخلفاء — وقد شهد مقتله — وكما ذكر — إسماعيل بن على الحطمى فى تاريخ بغداد — وقد شهد قتله — وكما ذكر الحافظ أبو بكر الخطيب فى تاريخه وكما ذكر القاضى أبو يعلى فى المعتمد ، وكما ذكر القاضى أبو بكر بن الطيب ، وأبو محمد بن حزم وغيرهم ، وكما ذكر أبو يوسف القزوينى وأبو الفرج بن الجوزى ؛ فيما جمعا من أخباره .

وقد ذكر الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى فى طبقات الصوفية : أن أكثر المشايخ أخرجوه عن الطريق ، ولم يذكره أبو القاسم القشيرى فى رسالته من المشايخ ؛ الذين عدهم من مشايخ الطريق . وما نعلم أحداً من أئمة المسلمين ذكر الحلاج بخير ، لا من العلماء ولا من المشايخ ؛ ولكن بعض الناس يقف فيه ؛ لأنه لم يعرف أمره ، وأبلغ من يحسن به الظن يقول : إنه وجب قتله فى الظاهر فالقاتل مجاهد والمقتول شهيد ، وهذا أيضاً خطأ .

وقول القائل : إنه قتل ظلماً قول باطل ، فإن وجوب قتله على ما أظهره من الإلحاد أمر واجب باتفاق المسلمين ؛ لكن لما كان يظهر الإسلام ويبطن الإلحاد إلى أصحابه : صار زنديقاً ، فلما أخذ وحبس أظهر التوبة ، والفقهاء متنازعون فى قبول توبة الزنديق فأكثرهم لا يقبلها ، وهو مذهب مالك وأهل

المدينة ، ومذهب أحمد فى أشهر الروايتين عنه ، وهو أحد القولين فى مذهب أبى حنيفة ، ووجه فى مذهب الشافعى ؛ والقول الآخر تقبل توبته .

وقد اتفقوا على أنه إذا قتل مثل هذا لا يقال قتل ظلماً .

وأما قول القائل : إن الحلاج من أولياء الله . فالمتكلم بهذا جاهل قطعاً ، متكلم بما لا يعلم ، لو لم يظهر من الحلاج أقوال أهل الإلحاد ـ فإن ولى الله من مات على ولاية الله ، يحبه ويرضى عنه ، والشهادة بهذا لغير من شهد له النبى صلى الله عليه وسلم بالجنة : لا تجوز عند كثير من العلماء أو أكثرهم .

وذهبت طائفة من السلف ، كابن الحنفية ، وعلى بن المدينى : إلى أنه لا يشهد بذلك لغير النبى صلى الله عليه وسلم . وقال بعضهم : بل من استفاض فى المسلمين الثناء عليه شهد له بذلك ؛ لأن النبى صلى الله عليه وسلم مرَّ عليه بجنازة فأثنوا خيراً ، فقال : « وجبت وجبت » ومر عليه بجنازة فأثنوا عليها شراً فقال : « وجبت وجبت » قال : «هذه الجنازة أثنيتم عليها خيراً فقلت وجبت لها الجنة ، وهذه الجنازة أثنيتم عليها شراً فقلت وجبت لها النار ، أنتم شهداء الله فى الأرض » .

فإذا جوز أن يشهد لبعض الناس أنه ولى الله فى الباطن إما بنص وإما بشهادة الأمة ـــ فالحلاج : ليس من هؤلاء ؛ فجمهور الأمة يطعن عليه ويجعله من

أهل الإلحاد — إن قدر على أنه يطلع على بعض الناس أنه ولى الله ، ونحو ذلك مما يختص به بعض أهل الصلاح .

فهذا الذى أثنى على الحلاج ووافقه على اعتقاده ضال من وجوه :

أحدها : أنه لا يعرف فيمن قتل بسيف الشرع على الزندقة أنه قتل ظلماً وكان ولياً لله ، فقد قتل الجهم بن صفوان ، والجعد بن درهم ، وغيلان القدرى ، ومحمد بن سعيد المصلوب ، وبشار بن برد الأعمى ، والسهروردى ، وأمثال هؤلاء كثير ، ولم يقل أهل العلم والدين فى هؤلاء إنهم قتلوا ظلماً ، وإنهم كانوا من أولياء الله ، فما بال الحلاج تفرد عن هؤلاء .

وأما الأنبيـــاء فقتلهم الكفار ، وكذلك الصحابة الذين استشهدوا قتلهم الكفار ، وعثمان ، وعلى ، والحسين ونحوهم قتلهم الخوارج البغاة ، لم يقتلوا بحكم الشرع على مذاهب فقهاء أئمة الدين ، كمالك والشافعى وأبى حنيفة وأحمد وغيرهم . فإن الأئمة متفقون على تحريم دماء هؤلاء ، وهم متفقون على دم الحلاج وأمثاله .

الوجه الثانى : أن الاطلاع على أولياء الله لا يكون إلا ممن يعرف طريق الولاية ، وهو الإيمان والتقوى .

ومن أعظم الإيمان والتقوى أن يجتنب مقالة أهل الإلحاد ـ كأهل الحلول والاتحاد ـ فمن وافق الحلاج على مثل هذه المقالة ، لم يكن عارفاً بالإيمان

والتقوى ، فلا يكون عارفاً بطريق أولياء الله ؛ فلا يجوز أن يميز بين أولياء الله وغيرهم .

الثالث : أن هذا القائل قد أخبر أنه يوافقه على مقالته ، فيكون من جنسه ، فشهادته له بالولاية شهادة لنفسه ، كشهادة اليهود والنصارى والرافضة لأنفسهم على أنهم على الحق ، وشهادة المرء لنفسه فيما لا يعلم فيه كذبه ولا صدقه مردودة ، فكيف يكون لنفسه ولطائفته الذين ثبت بالكتاب والسنة والإجماع أنهم أهل ضلال؟ .

الرابع : أن يقال : أما كون الحلاج عند الموت تاب فيما بينه وبين الله أو لم يتب : فهذا غيب يعلمه الله منه ، وأما كونه إنما كان يتكلم بهذا عند الاصطلام فليس كذلك ؛ بل كان يصنف الكتب ويقوله وهو حاضر ويقظان

وقد تقدم أن غيبة العقل تكون عذراً فى رفع القلم ، وكذلك الشبهة التى ترفع معها قيام الحجة : قد تكون عذراً فى الظاهر .

فهذا لو فرض : لم يجز أن يقال قتل ظلماً ، ولا يقال إنه موافق له على اعتقاده ، ولا يشهد بما لا يعلم : فكيف إذا كان الأمر بخلاف ذلك وغاية المسلم المؤمن إذا عذر الحلاج أن يدعى فيه الاصطلام والشبهة . وأما أن يوافقه على ما قتل عليه فهذا حال أهل الزندقة والإلحاد ، وكذلك من لم يجوز قتل مثله فهو مارق من دين الإسلام .

ونحن إنمـا علينا أن نعرف التوحيد الذى أمرنا به ، ونعرف طريق الله الذى أمرنا به ، وقد علمنا بكليهما أن ما قاله الحلاج باطل ، وأنه يجب قتـل مثله ، وأما نفس الشخص المعين ؟ هل كان فى البـاطن له أمر يغفر الله له به من توبة أو غيرها ؟ فهذا أمر إلى الله ، ولا حاجة لأحد إلى العـلم بحقيقة ذلك والله أعلم .

سئل شيخ الإسلام وحجة الأنام

أبو العباس بن تيمية رضى الله عنه :

عمن يقول : إن ما ثم إلا الله . فقال شخص كل من قال هذا الكلام فقد كفر .

فأجاب رضي الله عنه :

الحمد لله . قول القائل ما ثم إلا الله : لفظ مجمل ، يحتمل معنى صحيحاً ومعنى باطلا . فإن أراد ما ثم خالق إلا الله ، ولا رب إلا الله ، ولا يجيب المضطرين ويرزق العباد إلا الله — فهو الذى يعطى ويمنع ، ويخفض ويرفع ، ويعز ويذل وهو الذى يستحق أن يستعان به ويتوكل عليه ، ويستعاذ به ويلتجىء العباد إليه ، فإنه لا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع ، ولا ينفع ذا الجد منه الجد ، كما قال تعالى فى فاتحة الكتاب : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) وقال تعالى : (فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ) وقال : (قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ) .

فهذه المعانى كلها صحيحة ، وهى من صريح التوحيد ، وبها جاء القرآن ،

فالعباد لا ينبغي لهم أن يخافوا إلا الله ، كما قال تعالى : (فَلَا تَخْشَوُا ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ) وقال تعالى : (ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ * فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ) إلى قوله : (إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ) .

وكذلك لا ينبغي أن يرجى إلا الله ، قال الله تعالى : (مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ) وقال تعالى : (قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ) .

ولا ينبغي لهم أن يتوكلوا إلا على الله ، كما قال تعالى : (وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ) .

ولا ينبغي لهم أن يعبدوا إلا الله ، كما قال تعالى : (وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ) .

ولا يدعوا إلا الله ، كما قال تعالى : (وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا) وقال تعالى : (فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ) سواء كان دعاء عبادة أو دعاء مسألة .

وأما إن أراد القائل: « ما ثم إلا الله » ما يقوله أهل الاتحاد، من أنه ما ثم موجود إلا الله، ويقولون: ليس إلا الله أي ليس موجود إلا الله، ويقولون: إن وجود المخلوقات هو وجود الخالق، والخالق هو المخلوق، والمخلوق هو الخالق، والعبد هو الرب، والرب هو العبد، ونحو ذلك من معاني الاتحادية، الذين لا يفرقون بين الخالق والمخلوق، ولا يثبتون المباينة بين الرب والعبد، ونحو ذلك من المعاني، التي توجد في كلام ابن عربي الطائي، وابن سبعين، وابن الفارض، والتلمساني، ونحوهم من الاتحادية.

وكذلك من يقول بالحلول كما يقوله الجهمية، الذين يقولون: إن الله بذاته في كل مكان، ويجعلونه مختلطاً بالمخلوقات، حتى إن هؤلاء يجعلونه في الكلاب والخنازير والنجاسات، أو يجعلون وجود ذلك وجوده، فمن أراد هذه المعاني فهو ملحد ضال، يجب أن يستتاب فإن تاب وإلا قتل، والله سبحانه وتعالى أعلم.

سئل شيخ الإسلام رحمه الله :ـ

عن قوله صلى الله عليه وسلم : « لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر » فهل هذا موافق لما يقوله الاتحادية : بينوا لنا ذلك ؟ .

فأجاب :ـ

الحمد لله . قوله لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر : مروى بألفاظ أخر ، كقوله : « يقول الله : يؤذيني ابن آدم . يسب الدهر وأنا الدهر بيدى الأمر ، أقلب الليل والنهار » وفى لفظ : « لا تسبوا الدهر ، فإن الله هو الدهر ، يقلب الليل والنهار » وفى لفظ : « يقول ابن آدم ياخيبة الدهر ، وأنا الدهر » .

فقوله فى الحديث « بيدى الأمر أقلب الليل والنهار » يبين أنه ليس المراد به أنه الزمان ، فإنه قد أخبر أنه يقلب الليل والنهار ، والزمان هو الليل والنهار ؛ فدل نفس الحديث على أنه هو يقلب الزمان ويصرفه ، كما دل عليه قوله تعالى : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ * يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ) .

وإزجاء السحاب سوقه . والودق المطر .

فقد بين سبحانه خلقه للمطر ، وإنزاله على الأرض ، فإنه سبب الحياة فى الأرض ، فإنه سبحانه جعل من الماء كل شىء حى ، ثم قال : (يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ) إذ تقليبه الليل والنهار : تحويل أحوال العالم بإنزال المطر ، الذى هو سبب خلق النبات والحيوان والمعدن ، وذلك سبب تحويل الناس من حال إلى حال ، المتضمن رفع قوم وخفض آخرين .

وقد أخبر سبحانه بخلقه الزمان فى غير موضع ، كقوله : (وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ) وقوله : (وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) وقوله : (وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا) وقوله : (إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ) . وغير ذلك من النصوص التى تبين أنه خالق الزمان .

ولا يتوهم عاقل أن الله هو الزمان، فإن الزمان مقدار الحركة . والحركة مقدارها من باب الأعراض والصفات القائمة بغيرها: كالحركة والسكون والسواد والبياض .

ولا يقول عاقل إن خالق العالم هو من باب الأعراض والصفات، المفتقرة إلى الجواهر والأعيان ، فإن الأعراض لا تقوم بنفسها ، بل هى مفتقرة إلى محل تقوم به ، والمفتقر إلى ما يغايره لا يوجد بنفسه ، بل بذلك الغير فهو محتاج إلى ما به فى نفسه من غيره ، فكيف يكون هو الخالق ؟ .

ثم أن يستغنى بنفسه ، وأن يحتاج إليه ما سواه ، وهذه صفة الخالق سبحانه ، فكيف يتوهم أنه من النوع الأول .

وأهل الإلحاد — القائلون بالوحدة أو الحلول أوالاتحاد — لا يقولون إنه هو الزمان ، ولا إنه من جنس الأعراض والصفات ؛ بل يقولون هو مجموع العالم ، أو حال فى مجموع العالم .

فليس فى الحديث شبهة لهم ، لو لم يكن قد بين فيه أنه — سبحانه — مقلب الليل والنهار ، فكيف وفى نفس الحديث أنه بيده الأمر يقلب الليل والنهار .

إذا تبين هذا : فللناس فى الحديث قولان معروفان لأصحاب أحمد وغيرهم .

أحدهما : وهو قول أبى عبيد وأكثر العلماء أن هذا الحديث خرج الكلام فيه لرد ما يقوله أهل الجاهلية ، ومن أشبههم ؛ فإنهم إذا أصابتهم مصيبة أو منعوا أغراضهم أخذوا يسبون الدهر والزمان ، يقول أحدهم قبح الله الدهر الذى شتت شملنا ، ولعن الله الزمان الذى جرى فيه كذا وكذا .

وكثيرا ما جرى من كلام الشعراء وأمثالهم نحو هذا ، كقولهم : يا دهر فعلت كذا . وهم يقصدون سب من فعل تلك الأمور ، ويضيفونها إلى الدهر ، فيقع السب على الله تعالى ؛ لأنه هو الذى فعل تلك الأمور وأحدثها ، والدهر مخلوق له ، هو الذى يقلبه ويصرفه .

والتقدير : أن ابن آدم يسب من فعل هذه الأمور وأنا فعلتها ؛ فإذا سب الدهر فمقصوده سب الفاعل ، وإن أضاف الفعل إلى الدهر ، فالدهر لا فعل له ؛ وإنما الفاعل هو الله وحده .

وهذا كرجل قضى عليه قاض بحق أو أفتاه مفت بحق ، فجعل يقول : لعن الله من قضى بهذا أو أفتى بهذا ، ويكون ذلك من قضاء النبي صلى الله عليه وسلم وفتياه فيقع السب عليه ، وإن كان الساب ـ لجهله ـ أضاف الأمر إلى المبلغ فى الحقيقة ، والمبلغ له فعل من التبليغ ، بخلاف الزمان فإن الله يقلبه ويصرفه .

والقول الثانى : قول نعيم بن حماد ، وطائفة معه من أهل الحديث والصوفية : إن الدهر من أسماء الله تعالى ، ومعناه القديم الأزلى .

ورووا فى بعض الأدعية : يا دهر ! يا ديهور ! يا ديهار ! وهذا المعنى صحيح ؛ لأن الله سبحانه هو الأول ليس قبله شيء ، وهو الآخر ليس بعده شيء ؛ فهذا المعنى صحيح إنما النزاع فى كونه يسمى دهراً بكل حال .

فقد أجمع المسلمون ـ وهو مما علم بالعقل الصريح ـ أن الله سبحانه وتعالى ليس هو الدهر الذى هو الزمان ، أو ما يجرى مجرى الزمان ؛ فإن الناس متفقون على أن الزمان الذى هو الليل والنهار .

وكذلك ما يجرى مجرى ذلك فى الجنة ، كما قال تعالى : (وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا) . قالوا على مقدار البكرة والعشى فى الدنيا ؛ و[فى] الآخرة يوم الجمعة يوم المزيد ، والجنة ليس فيها شمس ولا قمر ؛ ولكن تعرف الأوقات بأنوار أخر ، قد روى أنها تظهر من تحت العرش ، فالزمان هنالك مقدار الحركة التى بها تظهر تلك الأنوار .

وهل وراء ذلك جوهر قائم بنفسه سيال هو الدهر ؟ هذا مما تنازع فيه الناس، فأثبته طائفة من المتفلسفة من أصحاب أفلاطون ، كما أثبتوا الكليات المجردة فى الخارج ، التى تسمى المثل الأفلاطونية والمثل المطلقة ؛ وأثبتوا الهيولى التى هى مادة مجردة عن الصور ، وأثبتوا الخلاء جوهراً قائماً بنفسه .

وأما جماهير العقلاء من الفلاسفة وغيرهم : فيعلمون أن هذا كله لا حقيقة له فى الخارج ، وإنما هى أمور يقدرها الذهن ويفرضها ، فيظن الغالطون أن هـذا الثابت فى الأذهان هو بعينه ثابت فى الخارج عن الأذهان ، كما ظنوا مثل ذلك فى الوجود المطلق ، مع علمهم أن المطلق بشرط الإطلاق وجوده فى الذهن ؛ وليس فى الخارج إلا شيء معين وهى الأعيان ، وما يقوم بها من الصفات ، فلا مكان إلا الجسم أو ما يقوم به ، ولا زمان إلا مقدار الحركة ، ولا مادة مجردة عن الصور ؛ بل ولا مادة مقترنة بهـا غير الجسم الذى يقوم به الأعراض ، ولا صورة إلا ما هو عرض قائم بالجسم ، أو ما هو جسم يقوم به العرض وهـذا وأمثاله مبسوط فى غير هذا الموضع .

وإنما المقصود التنبيه على ما يتعلق بذلك على وجه الاختصار والله أعلم ؟ .

تم الموجود الآن من كتاب توحيد الربوبية ويليه كتاب مجمل اعتقاد السلف



فهرس المجلد الثاني

الصفحة | الموضوع

الصفحة	الموضوع
٨٦	رأى الفلاسفة المحضة فى ابن سينا ، وما يتفقون على الإقرار به
٨٦	رأى الفارابى فى النبوة وغيرها .
٨٦	من له مادة فلسفية من متكلمة المسلمين يبنى كلامه فى أصول الفقه على تلك الأصول الفلسفيه كابن الخطيب .
٨٧ ، ٩٣	منشأ الضلال القياسى و بيانه من وجوه ...
٩١	علم ما بعد الطبيعة أعلى فى ذهن الطالب لمعرفة الله بالقياس على خلقه
٩٢ ، ٩٣	مذهب الطوسى ، والقونوى والإسماعيلية فى واجب الوجود وغير ذلك ، وما بينهم وبين قدماء الفلاسفة من المشابهة .
٩٤ ــ ٩٨	وقال : « فصل » وقد تفرق النـاس فى هذا المقام الذى هو غاية مطالب العباد
٩٤	طائفة من المتفلسفة يظنون أن كمال النفس فى مجرد العـلم بما بعد الطبيعة ويجعلون العبادات رياضة ...
٩٤ ، ٩٥	ضلالهم وكفرهم من وجوه أحدها . .
٩٤ ، ٩٥	مذهب الجهمية فى الإيمان والإقرار بالله وبالرسل .
٩٥	الوجه الثانى ، الثالث ، الرابع
٩٦	الباطنية ومن وافقهم من ملاحدة الصوفية يرون سقوط الواجبات إذا حصل لهم ذلك العلم
٩٦	من هؤلاء من يكون طلبه للـكرامة أعظم من طلبه لمـا فرض الله عليه

الصفحة | الموضوع

الصفحه	الموضوع
١١٥—١٢٠	معنى قوله : « ياليت شعرى من المكلف ؟ » ، إنكاره خلق أفعال العباد ، قول أهل السنة فى أفعال العبد
١١٧	بطلان تأويل إخوانه للبيتين من وجوه : الأول ، والثانى .
١١٩	طائفة من أهل الكلام ظنوا أن الفعل هو المفعول والحق ما عليه أهل السنة .
١٢١—١٣٤	ما تقول السادة فى كتاب « فصوص الحكم » ، ومما قال فيه...
١٢٢	هذه الكلمات من الكفر المجمع عليه
١٢٢ ، ١٢٣	من عباراته فى كتاب الفصوص
١٢٣ ، ١٢٤	حقيقة مذهب ابن عربى والقونوى والتلمسانى وابن سبعين وابن الفارض وأتباعهم .
١٢٤ ، ١٢٥	عند هؤلاء أن عباد الأصنام ما عبدوا إلا الله ، وفرعون من كبار العارفين وقد مات مؤمناً .
١٢٥—١٣٤	نقض ما تقدم من مذهبهم وأقوالهم .
١٢٥	من يدخل فى لفظ « آل » .
١٢٦	السلف كفروا الجهمية فكيف بهؤلاء ؟
١٢٧ ، ١٢٨	قولهم آدم من الله بمنزلة إنسان العين من العين ونقضه .
١٢٨	قولهم : لو ترك المشركون عبادة الأصنام لجهلوا من الحق . . .
١٢٩ ، ١٣٠	كفر هؤلاء أعظم من كفر عباد الأصنام وتعليله .
١٣٠ ، ١٣١	قول العلماء المعاصرين لابن عربى فيه وفى مذهبه والتباس أمره .

الصفحة	الموضوع

الصفحة	الموضوع

الصفحة	الموضوع
٣٠٤	شروع فى بيان كلمات وأشعار أهل الوحدة والجواب عنها ، قول القائل إن الله لطف ذاته فسماها حقاً وكثفها فسماها خلقاً . قول الآخر ظهر فيها حقيقة واحتجب عنها مجازاً
٣٠٥	قوله فمن كان من أهل الحق شهدها مظاهر ، وقول الآخر : لقد حق لى عشق الوجود ...
٣٠٦	قول ابن عربى ظاهره خلقه وباطنه حقه ، قول ابن سبعين .
٣٠٧	قول ابن عربى : ياصورة أنس سِرُّها معنائى .
٣٠٨—٣١٠	الجواب عن قول الآخر : طف ببيت ما فارقه الله .
٣٠٩	قول الشيرازى وقد مر بكلب أجرب ...
٣١٠	الجواب عما ذكر عن «رابعة» أنها قالت فى الكعبة « إنها الصنم » .
٣١١	معنى بيتين للحلاج وبيت لابن عربى .
٣١٢	بيت آخر ، وقول الحلاج بينى وبينك إنى .
٣١٢، ٣١٣	أقسام الفناء .
٣١٥ ،٣١٦	قول ابن عربى وقول ابن الفارض .
٣١٦—٣١٨	أما المنقول عن عيسى فهو كذب عليه .
٣١٨	قول ابن الفارض : وشاهد إذا استجليت نفسك من ترى ...
٣٢٠	قول ابن إسرائيل : الأمر أمران أمر بواسطة ... الخ
٣٢١ ، ٣٢٣ ، ٣٢٨ . ٣٢٩	قول بعضهم إن قوله : (لا تقرب الشجرة) ظاهراً وكل باطناً ، وأن آدم شهد الأمر الكونى .

الصفحة | الموضوع

الصفحة	الموضوع
	وبين الذوق والوجد وبين ما أمر الله به وغيره .
٤٥٦	جاءت الشريعة فى العبادة باسم الله وفى السؤال باسم الرب .
٤٥٧ ، ٤٥٨	كثير من السالكين يفنى بالتوحيد الربانى عن التوحيد الإلهى ، من أخذ بالأول ومن أخذ بالثانى .
٤٥٨	قول الشيخ عبد القادر فى عدم الوقوف مع القدر .
٤٥٩ ، ٤٦٠	للعبد ثلاثة أحوال فى التوحيد (١) مقام الفرق والكثرة (٢) مقام الجمع والفناء (٣) شهود التفرقة فى الجمع والكثرة فى الوحدة .
٤٥٩ـ٤٦١	الدين الجامع العام الذى اشترك فيه جميع الأنبياء ، والشرعة الخاصة ، وما تشير إليه مشايخ الطريقة .
٤٦١	بعض ما يؤثر عن أبى يزيد البسطامى وغيره من الكلمات فى حال الفناء ، متى يكون الواحد من هؤلاء معذورا .
٤٦١	سبب غلط من غلط بدعوى الحلول والاتحاد العينى .
٤٦١ ، ٤٦٢	قد يشتبه على بعض الناس الاتحاد النوعى المذكور فى بعض الأحاديث بالاتحاد الذاتى .
٤٦٢ ، ٤٦٣	شرح حديث «عبدى مرضت» وحديث «من عادى لى وليا» .
٤٦٣ـ٤٦٥	قصد المؤلف من الرد على الاتحادية وحثه للشيخ نصر على الحذر منهم ؛ وبيان مذهبهم .
٤٦٤ ، ٤٦٥	سبب تعظيم المؤلف لابن عربى وإحسانه الظن به قديماً .

(١١٠٠٠/ي ٣ - ٣ - ج٢) (٦) (٠١)

ردمك : ٦-٠٢-٠٧٧-٩٩٦٠ (مجموعة)

٢-٢٢-٠٧٧-٩٩٦٠ (ج ٢)